

الْحَاكِمِينَ، وَأَرْحَمُ بِخَلْقِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بَوْلِدَهَا؟ فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْعَادِلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ يَتَّبِعِي فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَطَالِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُرِيقَ دَمَهُ»^(١). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي الْيَمَانِ بِإِسْنَادِهِ نَحْوَهُ بِزِيَادَةٍ^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّكُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصِيبَهُمْ أَوْ مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِيَةً^(٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْوََاءُ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ أَهْوَاءُ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَاصْبِرُوا خَيْرِينَ^(٥٣)

[الَّتِي عَنْ مَوَالَةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَأَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ] يَنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مَوَالَةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، الَّذِينَ هُمْ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِيهِ - فَاتْلَهُمُ اللَّهُ - ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ بَعْضَهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، ثُمَّ تَهَدَّدَ وَتَوَعَّدَ مَنْ يَتَعَاطَى ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّكُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْكُمْ...﴾^(٥٤) الْآيَةُ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: أَنَّ عُمَرَ أَمَرَ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ مَا أَخَذَ وَمَا أُعْطِيَ فِي أَوْدِيهِمْ وَاجِدٍ، وَكَانَ لَهُ كَاتِبٌ نَصْرَانِيٌّ، فَرَفَعَ إِلَيْهِ ذَلِكَ، فَعَجِبَ عُمَرُ وَقَالَ: إِنَّ هَذَا لَحَفِيفٌ، هَلْ أَنْتَ قَارِئٌ لَنَا كِتَابًا فِي الْمَسْجِدِ جَاءَ مِنَ الشَّامِ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ، فَقَالَ عُمَرُ: أَجُنُبَ هُوَ؟ قَالَ: لَا بَلْ نَصْرَانِيٌّ. قَالَ: فَانْتَهَرْنِي وَصَرَبَ فَخِذِي، ثُمَّ قَالَ: أَخْرِجُوهُ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ...﴾^(٥٥) الْآيَةَ^(٥٦). ثُمَّ رَوَى عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُثْبَةَ: لَيْسَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا وَهُوَ لَا يَشْعُرُ. قَالَ: فَظَنَنْتَاهُ يُرِيدُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ...﴾^(٥٧) الْآيَةَ^(٥٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أَيُّ شَكٍّ وَرَيْبٍ وَتَفَاقٍ، يُسَارِعُونَ فِيهِمْ، أَيُّ يَبَادُرُونَ إِلَى مَوَالَاتِهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أَيُّ يَتَأَوَّلُونَ فِي مَوَدَّتِهِمْ وَمَوَالَاتِهِمْ أَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ أَنْ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّكُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصِيبَهُمْ أَوْ مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِيَةً^(٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْوَاءُ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَاصْبِرُوا خَيْرِينَ^(٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ^(٥٤) إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَاكِرُونَ^(٥٥) وَمَنْ يَقُولُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنْ حَرَبَ اللَّهُ هُمْ الْقَالِبُونَ^(٥٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلِعِبَائِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ مُؤْمِنُونَ^(٥٧)

يَقَعَ أَمْرٌ مِنْ ظَهْرِ الْكَافِرِينَ بِالْمُسْلِمِينَ، فَتَكُونُ لَهُمْ أَيَادٍ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَيَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ، عِنْدَ ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي فَتْحَ مَكَّةَ^(٥٨). «أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ». قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي ضَرْبَ الْجَزْيَةِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى «فَيُصِيبُهُمْ» يَعْنِي الَّذِينَ وَالُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنَ الْمُنَافِقِينَ «عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ» مِنَ الْمَوَالَةِ «تَدْمِيَةً» أَيُّ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مِمَّا لَمْ يُجِدْ عَنْهُمْ شَيْئًا، وَلَا دَفَعَ عَنْهُمْ مَحْذُورًا، بَلْ كَانَ عَيْنَ الْمَفْسِدَةِ، فَإِنَّهُمْ فُضِّحُوا، وَأَظْهَرَ اللَّهُ أَمْرَهُمْ فِي الدُّنْيَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مَسْئُورِينَ - لَا يُدْرَى كَيْفَ حَالُهُمْ - فَلَمَّا انْعَقَدَتِ الْأَسْبَابُ الْفَاضِحَةُ لَهُمْ تَبَيَّنَ أَمْرُهُمْ لِعِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ. فَتَعَجَّبُوا مِنْهُمْ كَيْفَ كَانُوا يُظْهِرُونَ أَنَّهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَخْلِفُونَ عَلَى ذَلِكَ وَيَتَأَوَّلُونَ، فَبَانَ

(١) الطبراني: ٣٧٤/١٠ (٢) فتح الباري: ٢١٩/١٢ (٣) الدر المنثور: ١٠٠/٣ (٤) ابن أبي حاتم: ١١٥٦/٤ (٥) الطبري: ٤٠٥/١٠

ءَامِنُوا فَإِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿٥٦﴾

[مِنْ صِفَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَمَنْ يَتَوَلَّى عَنْهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ] يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّى عَنْ نُصْرَةِ دِينِهِ وَإِقَامَةِ شَرِيعَتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَسْتَدِلُّ بِهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ لَهَا مِنْهُ، وَأَشَدُّ مَعَنَةً، وَأَقْوَمُ سَبِيلًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا بَسْتَدِلُّ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا اللَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَسْأَلْ يَذْهَبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠]. أَيْ بِمُتَّبِعٍ وَلَا صَعْبٍ. وَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ أَيْ يَرْجِعْ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ. وَهَذَا خِطَابٌ عَامٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُنَافِقِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ هَذِهِ صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ الْكَامِلِ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ مَتَوَاضِعًا لِأَخِيهِ وَوَلِيِّهِ، مُتَعَزِّزًا عَلَى خَصْمِهِ وَعَدُوِّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وَفِي صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ الضُّحُوكُ الْقَتَالُ. فَهُوَ ضُحُوكٌ لِأَوْلِيَائِهِ، قَتَالٌ لِأَعْدَائِهِ.

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَجْهَدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أَيْ لَا يَرُدُّهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ، وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ، وَقِتَالِ أَغْدَائِهِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَا يَرُدُّهُمْ عَنْ ذَلِكَ رَادٌّ، وَلَا يَصُدُّهُمْ عَنْهُ صَادٌّ، وَلَا يَحِيكُ فِيهِمْ لَوْمٌ لَائِمٌ، وَلَا عَذْلٌ عَادِلٌ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: أَمَرَنِي خَلِيلِي ﷺ بِسَبْعٍ: أَمَرَنِي بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ وَالذُّنُوفِ مِنْهُمْ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي، وَلَا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي، وَأَمَرَنِي أَنْ أَصِلَ الرَّجِمَ وَإِنْ أَذْبَرْتُ، وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَسْأَلَ أَحَدًا شَيْئًا، وَأَمَرَنِي أَنْ أَقُولَ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا، وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكْثَرَ مِنْ قَوْلِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَإِنَّهُنَّ مِنْ كَثَرِ تَحْتَ الْعَرْشِ (٢).

وَبَتَّ فِي الصَّحِيحِ: «مَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَذِلَّ نَفْسَهُ»
قَالُوا: وَكَيْفَ يَذِلُّ نَفْسَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «يَتَحَمَّلُ مِنَ
الْبَلَاءِ مَا لَا يَطِيقُ»^(٣). ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أَيْ

كَذِبُهُمْ وَافْتِرَاؤُهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْيُنُهُمْ فَاصْبِرُوا خَيْرِينَ﴾.

[سَبَبُ النَّزُولِ]

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: فَكَانَتْ أَوَّلُ قَبِيلَةٍ مِنَ
الْيَهُودِ تَقَضَّتْ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَنُو قَيْنِقَاعَ،
فَحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ قَالَ: فَحَاصِرَهُمْ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ، فَقَامَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ
ابْنُ أَبِي إِبْنِ سُلُوفٍ حِينَ أَمَكَنَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ، فَقَالَ: يَا
مُحَمَّدُ، أَحْسِنُ فِي مَوَالِيٍّ وَكَانُوا حُلَفَاءَ الْخَزْرَجِ، قَالَ:
فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَحْسِنُ فِي
مَوَالِيٍّ، قَالَ: فَأَعْرَضَ عَنْهُ. قَالَ: فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِ
دِرْعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُرْسِلْنِي»
وَعَظِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى رَأَوْا لُجُجَهُ ظُلُمًا، ثُمَّ
قَالَ: «وَيْحَكَ أُرْسِلْنِي» قَالَ: لَا، وَاللَّهِ لَا أُرْسِلُكَ حَتَّى
تُحْسِنَ فِي مَوَالِيٍّ: أُرْعِمَائَةَ حَاسِرٍ، وَثَلَاثُمَائَةَ دَارِعٍ، قَدْ
مَنْعُونِي مِنَ الْأَخْمَرِ وَالْأَسْوَدِ، تَحْصِدُهُمْ فِي غَدَاةٍ
وَاحِدَةٍ؟! إِنِّي أَمُرُّ أَحْشَى الدَّوَابِّ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ: «هُمْ لَكَ».

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي أَبُو إِسْحَاقَ بْنُ يَسَارٍ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: لَمَّا حَارَبَتْ بَنُو قَيْنِقَاعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، تَشَبَّهَ بِأَمْرِهِمْ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ أَبِي، وَقَامَ دُونَهُمْ، وَمَشَى عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ أَحَدَ بَنِي عَوْفٍ بْنِ الْحَزْرَجِ، لَهُ مِنْ حِلْفِهِمْ مِثْلُ الَّذِي لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَبِي، [فَحَلَعَهُمْ] إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتَبَرَّأَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ حِلْفِهِمْ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَبَرَّأُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ مِنْ حِلْفِهِمْ، وَأَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَأَتَبَرَّأُ مِنْ حِلْفِ الْكُفَّارِ، وَوَلَايَتِهِمْ، فَفِيهِ وَفِي عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَبِي نَزَلَتِ الْآيَاتُ فِي الْمَائِدَةِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ إِلَى قَوْلِهِ ﴾ وَمَنْ تَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١١﴾.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوِيٍّ
يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلَكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ

(١) ابن هشام: ٥٢/٣ (٢) أحمد: ١٥٩/٥ (٣) أحمد: ١٣٣٢/٢
٤٠٥ وتحفة الأخوذى: ٥٣١/٦ وابن ماجه: ١٣٣٢/٢

وَأَنذَرْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ أَتَخَذُونَهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيمُونَ مِنَّا إِلَّا أَن آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَن أَكْثَرَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَعُصِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْأَثَرِ وَالْعُدُونِ وَأَكْثِلَهُمُ الشُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا نَيْبُهُمُ الرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْأَثَرُ أَكْثِلَهُمُ الشُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلِعِنُوا بِمَا قَالُوا لَئِنْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقْ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيزِيدَ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَعْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

يَقُولُونَ ﴿٥٨﴾

[الْأَنْهَى عَنْ مَوَالَاةِ الْكُفَّارِ]

هَذَا تَفْصِيلٌ مِنْ مَوَالَاةِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مِنَ الْكُتَّابِيِّينَ وَالْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ أَفْضَلَ مَا يَعْمَلُهُ الْعَامِلُونَ، وَهِيَ شَرَائِعُ الْإِسْلَامِ الْمُطَهَّرَةِ الْمُحْكَمَةِ، الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ دُنْيَوِيٍّ وَأُخْرَوِيٍّ، يَتَّخِذُونَهَا هُزُوًا يَسْتَهْزِئُونَ بِهَا، وَلَعِبًا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا نَوْعٌ مِنَ اللَّعِبِ فِي نَظَرِهِمُ الْفَاسِدِ، وَفِكْرِهِمُ الْبَارِدِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ الذِّبْتُ أُوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارُ﴾ مِنْ هَهُنَا لِيَبَانَ الْجَنَسُ كَقَوْلِهِ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (وَالْكَفَّارُ) بِالْخَفْضِ عَطْفًا، وَقَرَأَ آخَرُونَ بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهُ مَعْمُودٌ ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الذِّبْتُ أُوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ تَقْدِيرُهُ: «وَلَا الْكَفَّارُ أَوْلِيَاءُ» أَيُّ لَا تَتَّخِذُوا هَؤُلَاءِ وَلَا هَؤُلَاءِ أَوْلِيَاءَ. وَالْمُرَادُ بِالْكَفَّارِ هَهُنَا الْمُشْرِكُونَ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِيمَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ: (لَا تَتَّخِذُوا

مَنْ انْصَفَ بِهِذِهِ الصِّفَاتِ فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَتَوْفِيقِهِ لَهُ ﴿وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْكُمْ﴾ أَيُّ وَاسِعَ الْفَضْلُ، عَلَيْهِمْ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِمَّنْ يَحْرِمُهُ إِيَّاهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيُّ لَيْسَ الْيَهُودُ بِأَوْلِيَاءِكُمْ، بَلْ وَلَا يَتَّخِذُكُمْ رَاجِعَةً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ. وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أَيُّ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّصِفُونَ بِهِذِهِ الصِّفَاتِ مِنْ إِقَامِ الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ: عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِتْيَاءُ الزَّكَاةِ الَّتِي هِيَ حَقُّ الْمَخْلُوقِينَ وَمُسَاعَدَةُ لِلْمُحْتَاجِينَ وَالْمَسَاكِينِ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ فَقَدْ نَوَّهَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أَيُّ فِي حَالِ رُكُوعِهِمْ، وَلَوْ كَانَ هَذَا كَذَلِكَ، لَكَانَ دَفْعُ الزَّكَاةِ فِي حَالِ الرُّكُوعِ أَفْضَلَ مِنْ غَيْرِهِ، لِأَنَّهُ مَمْدُوحٌ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ عِنْدَ أَحَدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِمَّنْ نَعْلَمُهُ مِنْ أَئِمَّةِ الْفَتَاوَى، [فَالْمَعْنَى] ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ أَيُّ يَحْضُرُونَ فِي صَلَوَاتِهِمْ الْفَرِيضَةِ فِي مَسَاجِدِ اللَّهِ، لِإِدَاءِ صَلَوَاتِهِمْ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَيُتَّفِقُونَ صَدَقَاتِهِمْ فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ].

[سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ]

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ كُلَّهَا نَزَلَتْ فِي عِبَادَةِ بَنِي الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ تَبَرَّأَ مِنْ جُلْفِ الْيَهُودِ، وَرَضِيَ بِوَلَايَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنَا وَرُسُلِي﴾ لَيْسَ اللَّهُ قُوَى عَزِيزٌ ﴿١١﴾ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المجادلة: ٢١، ٢٢] فَكُلُّ مَنْ رَضِيَ بِوَلَايَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ مُفْلِحٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْصُورٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الذِّبْتُ أُوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا

الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَقْبُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ مُّؤْمِنُونَ﴾ أَيِ اتَّقُوا اللَّهَ أَنْ تَتَّخِذُوا هُزُؤًا لِأَعْدَاءِ لَكُمْ وَلِدِينِكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ يَشْرَعُ اللَّهُ الَّذِي اتَّخَذَهُ هُزُؤًا هُزُؤًا وَلَعِبًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ اللَّهِ فِي سَعَةٍ لَّآ أَن تَسْتَفْتُوا مِنْهُ نَعْنَهٗ وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ فَتَسْكُنُوا لِرَبِّ آلِ الْمُصِيبِ﴾ [آل عمران: ٢٨].

[اسْتَهْزَأَ الْكُفَّارُ بِالصَّلَاةِ وَالْأَذَانِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾ أَيِ وَكَذَلِكَ إِذَا أَذَنْتُمْ دَاعِينَ إِلَى الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ لِمَنْ يَعْقِلُ وَيَعْلَمُ مِنْ ذَوِي الْأَلْبَابِ ﴿اتَّخَذُوهَا﴾ أَيْضًا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ مَعَانِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَشَرَائِعِهِ، وَهَذِهِ صِفَاتُ أَتْبَاعِ الشَّيْطَانِ الَّذِي «إِذَا سَمِعَ الْأَذَانَ أَذْبَرَ وَلَهُ حُصَاصٌ - أَيِ ضُرَاطٌ - حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّأْذِينَ أَقْبَلَ، فَإِذَا ثُوبَ لِلصَّلَاةِ أَذْبَرَ، فَإِذَا قُضِيَ الثُّوبُ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ، فَيَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا - لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ - حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لَا يَذْكُرُ كَمْ صَلَّى، فَإِذَا وَجَدَ أَحَدَكُمْ ذَلِكَ، فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ قَبْلَ السَّلَامِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(٢). وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: قَدْ ذَكَرَ اللَّهُ التَّأْذِينَ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٣) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ هَلْ تَقْتُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنَّا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾^(٤) قُلْ هَلْ أَتَيْتُمْكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ ذَلِكَ مُتَوَّعًا عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَصِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ^(٥) وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ^(٦) وَرَبِّ كَيْدٍ مِنْهُمْ يُسِرُّونَ فِي الْإِنْتِهَاءِ وَالْعَدْوَانِ وَأَكْبَهُمُ الشُّحَّ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٧) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبِّيُّوتُ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِنْتِهَاءُ وَأَكْبَهُمُ الشُّحَّ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ^(٨)

[نَفَمُ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِأَجْلِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ، لَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ: ﴿هَلْ تَقْتُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنَّا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أَيِ هَلْ لَكُمْ عَلَيْنَا مَطْعَنٌ

أَوْ عَيْبٌ إِلَّا هَذَا؟ وَهَذَا لَيْسَ بِعَيْبٍ وَلَا مَذْمَةٍ. فَيَكُونُ الْإِسْتِثْنَاءُ مُنْطَظًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَن أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٧٤] وَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ «مَا يَنْفَمُ ابْنُ جَبَلٍ إِلَّا أَن كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللَّهُ»^(٩). وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿أَنَّ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أَيِ وَآمَنَّا بِأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ، أَيِ خَارِجُونَ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ.

[أَهْلُ الْكِتَابِ يَسْتَحِقُّونَ شَرَّ عَذَابٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]

ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ هَلْ أَتَيْتُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ ذَلِكَ مُتَوَّعًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَيِ هَلْ أَخْبَرْتُمْ بِشَيْءٍ جَزَاءً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِمَّا تَظُنُّونَهُ بِنَا؟ وَهُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ هُمْ مُتَّصِفُونَ بِهِذِهِ الصِّفَاتِ الْمَفْسُورَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿مَن لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أَيِ أَبْعَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ وَغَضِبَ عَلَيْهِ أَيِ غَضِبًا لَا يَرْضَى بَعْدَهُ أَبَدًا ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَكَمَا سَبَّأَنِي إِضَاحُهُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، وَقَدْ رَوَى سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْفِرَّةِ وَالْخَنَازِيرِ: أَهِيَ مِمَّا مَسَحَ اللَّهُ؟ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَهْلِكْ قَوْمًا - أَوْ لَمْ يَمْسَحْ قَوْمًا - فَيَجْعَلَ لَهُمْ نَسْلًا وَلَا عَقِبًا، وَإِنَّ الْفِرَّةَ وَالْخَنَازِيرَ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ»^(١٠). وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أَيِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ مَن خَدَمَ الطَّاغُوتَ، أَيِ خُدَامَهُ وَعَبِيدَهُ، وَالْمَعْنَى أَنَّكُمْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ الطَّاغُوتَ فِي دِينِنَا وَالَّذِي هُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ وَإِفْرَادُهُ بِالْعِبَادَاتِ دُونَ مَا سِوَاهُ، كَيْفَ يَصْدُرُ مِنْكُمْ هَذَا، وَأَنْتُمْ قَدْ وَجَدْتُمْ مِنْكُمْ جَمِيعُ مَا ذُكِرَ؟! وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أَيِ مِمَّا تَظُنُّونَ بِنَا ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ اسْتِعْمَالِ أَفْعَلَ التَّفْضِيلِ فِيمَا لَيْسَ فِي الطَّرَفِ الْآخِرِ مُشَارَكَةً، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

(١) الطبري: ٤٣٠/١٠ (٢) البخاري: ١٢٢٢، ٦٠٨، ١٢٣١
ومسلم: ٣٩٨، ٢٩١/١ (٣) ابن أبي حاتم: ١١٦٤/٤ (٤) فتح
الباري: ٣٨٨/٣ ومسلم: ٦٧٦/٢ (٥) مشكل الآثار: ٢٧٥/٤
(٦) مسلم: ٢٠٥١/٤

[مِنْ عَادَاتِ الْمُتَافِقِينَ إِظْهَارُ الْإِيمَانِ وَإِبْطَانُ الْكُفْرِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُتَافِقِينَ مِنْهُمْ: أَنَّهُمْ يُضَافُونَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الظَّاهِرِ وَقُلُوبُهُمْ مُنْطَوِيَةٌ عَلَى الْكُفْرِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا﴾ أَيْ عِنْدَكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿بِالْكَفْرِ﴾ أَيْ مُسْتَضْحِينَ الْكُفْرَ فِي قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ خَرَجُوا وَهُوَ كَأَمِنْ فِيهَا، لَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا قَدْ سَمِعُوا مِنْكَ مِنَ الْعِلْمِ، وَلَا نَجَعَتْ فِيهِمُ الْمَوَاعِظُ وَلَا الرُّوَاغِرُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ فَخَصَّهُمْ بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ أَيْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِسَرَائِرِهِمْ، وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ صُمَائِرُهُمْ، وَإِنْ أَظْهَرُوا لِخَلْقِهِ خِلَافَ ذَلِكَ، وَتَرْتَبُوا بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنْهُمْ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَنْتُمْ الْجَزَاءُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَأَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَسَرَّعُونَ فِي الْآثِمِ وَالْمُذْنِبِ وَأَكْلِهِمْ الشَّحَّتْ﴾ أَيْ يُبَادِرُونَ إِلَى ذَلِكَ مِنْ تَعَاطِي الْمَأْثِمِ وَالْمَحَارِمِ، وَالْإِغْتِدَاءِ عَلَى النَّاسِ، وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَهُمْ بِالْبَاطِلِ ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أَيْ لَيْسَ الْعَمَلُ كَانَ عَمَلُهُمْ، وَبَشَسَ الْإِغْتِدَاءِ إِغْتِدَاؤُهُمْ.

[التَّكْبِيرُ عَلَى الرَّبَّانِيِّينَ وَالْأَخْبَارِ عَلَى تَرْكِهِمُ النَّهْيِ عَنِ الْمَعَاصِي]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْآثِمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحَّتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ بِغَيْرِ هَذَا كَانَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ تَعَاطِي ذَلِكَ، وَالرَّبَّانِيُّونَ هُمُ الْعُلَمَاءُ الْعُمَّالُ أَرْبَابُ الْوَلَايَاتِ عَلَيْهِمْ، وَالْأَخْبَارُ: هُمُ الْعُلَمَاءُ فَقَطْ. ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(١): يَعْني الرَّبَّانِيِّينَ، أَنَّهُمْ يَنْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ، يَعْنِي فِي تَرْكِهِمْ ذَلِكَ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَشَدَّ تَوْبِيخًا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْآثِمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحَّتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢) قَالَ: كَذَا قَرَأَ.

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمُرٍ قَالَ: خَطَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِرُكُوبِهِمُ الْمَعَاصِي، وَلَمْ يَنْهَهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ، فَلَمَّا تَمَادَّوْا فِي الْمَعَاصِي أَخَذَتْهُمْ الْعُقُوبَاتُ. فَمَرُّوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِيَئَاتِهِمْ وَلَآدَخَلَتْهُمْ جَنَّاتُ الْعِيشَةِ ﴿١٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّيِّغُونَ وَالنَّصَارَى مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٢٠﴾

قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمْ مِثْلُ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ لَا يَقْطَعُ رِزْقًا وَلَا يُقَرِّبُ أَجَلًا^(٣). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَرِيرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يَكُونُ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ مَنْ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَعَزُّ مِنْهُ وَأَمْنَعُ، وَلَمْ يُعَيِّرُوا إِلَّا أَصَابَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعَذَابٍ»^(٤). تَقَرَّرَ بِهِ أَحْمَدُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ جَرِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِي قَوْمٍ يَعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، يَقْتَدِرُونَ أَنْ يُعَيِّرُوا عَلَيْهِ، فَلَا يُعَيِّرُوا إِلَّا أَصَابَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ قَبْلَ أَنْ يَمُوتُوا»^(٥) وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ^(٦).

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ

(١) الطبري: ٤٥٠/١٠ (٢) الطبري: ٤٤٩/١٠ (٣) كنز العمال: ٦٨٣/٣ (٤) أحمد: ٣٦٣/٤ (٥) أبو داود: ٤/٥١٠ (٦) ابن ماجه: ١٣٢٩/٢

إِلَّا عِنْدَهُ خَزَائِنُهُ، وَهُوَ الَّذِي مَا يَخْلُقُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي خَلَقَ لَنَا كُلَّ شَيْءٍ مِمَّا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فِي لَيْلِنَا وَنَهَارِنَا، وَحَضَرْنَا وَسَفَرْنَا، وَفِي جَمِيعِ أَحْوَالِنَا، كَمَا قَالَ: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ: حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: هَذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلَأَتْ، لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَتَفَقَ مِنْهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ مَا فِي يَمِينِهِ - قَالَ - وَعَرَّشَهُ عَلَى الْمَاءِ. وَفِي يَدِهِ الْأُخْرَى الْقَبْضُ يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ». وَقَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «أَنْفِقْ، أَنْفِقْ عَلَيْكَ»^(٤). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٥).

[مَا نَزَلَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ يَزِيدُ الْيَهُودَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أَيِ يَكُونُ مَا آتَاكَ اللَّهُ يَا مُحَمَّدُ مِنَ النِّعْمَةِ نِقْمَةً فِي حَقِّ أَعْدَائِكَ مِنَ الْيَهُودِ وَأَشْبَاهِهِمْ، فَكَمَا يَزْدَادُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ تَصَدِيقًا وَعَمَلًا صَالِحًا، وَعِلْمًا نَافِعًا، يَزْدَادُ بِهِ الْكَافِرُونَ الْحَاسِدُونَ لَكَ وَلَا مَتَكَ ﴿طُغْيَانًا﴾، وَهُوَ الْمُبَالَاةُ وَالْمَجَاوِزَةُ لِلْحَدِّ فِي الْأَشْيَاءِ، ﴿وَكُفْرًا﴾ أَيِ تَكْذِيبًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الاسراء: ٨٢] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ يَعْنِي أَنَّهُ لَا تَجَمُّعَ قُلُوبُهُمْ بَلِ الْعَدَاوَةُ وَاقِعَةٌ بَيْنَ فِرْقَتِهِمْ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ دَائِمًا، لِأَنَّهُمْ لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَى حَقٍّ، وَقَدْ خَالَفُواكَ وَكَذَّبُواكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَلِمًا أَوْفَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ طُغْيَانًا اللَّهُ﴾ أَيِ كَلِمًا عَقَدُوا أَسْبَابًا يَكِيدُونَكَ بِهَا، وَكَلِمًا أَبْرَمُوا أُمُورًا يُحَارِبُونَكَ بِهَا، أَبْطَلَهَا اللَّهُ وَرَدَّ كَيْدَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَحَاقَ مَكْرَهُمُ السَّيِّئُ بِهِمْ ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ

رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كَلِمًا أَوْفَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ طُغْيَانًا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَجَاتِهِمْ وَلَأَنقَضَنَّ عَنْهُمْ الْبَعِيثَ ﴿١١١﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾

[قَوْلُ الْيَهُودِ: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ - عَلَيْهِمُ لَعْنُ اللَّهِ الْمُتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - بِأَنَّهُمْ وَصَفُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَتَعَالَى عَنْ قَوْلِهِمْ غُلُوبًا كَبِيرًا: بِأَنَّهُ بَخِيلٌ، كَمَا وَصَفُوهُ بِأَنَّهُ فَقِيرٌ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ، وَعَبَّرُوا عَنِ الْبُخْلِ بِأَنَّهُ قَالُوا: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ قَالَ: لَا يَعْنُونَ بِذَلِكَ أَنَّ يَدَ اللَّهِ مُوثَقَةٌ، وَلَكِنْ يَقُولُونَ: بِخَيْلٍ يَعْنِي أَمْسَكَ مَا عِنْدَهُ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ غُلُوبًا كَبِيرًا^(١). وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَقَتَادَةَ وَالسُّدِّيِّ وَالضَّحَّاكِ^(٢). وَقَرَأَ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الاسراء: ٢٩] يَعْنِي أَنَّهُ يَنْهَى عَنِ الْبُخْلِ وَعَنِ التَّيْذِيرِ، وَهُوَ زِيَادَةُ الْإِنْفَاقِ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، وَعَبَّرَ عَنِ الْبُخْلِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الاسراء: ٢٩] وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَرَادَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ، عَلَيْهِمُ لَعْنُ اللَّهِ، وَقَدْ قَالَ عِكْرِمَةُ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي فِتْحِاصِ الْيَهُودِيِّ^(٣) عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ الَّذِي قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] وَرَدَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ مَا قَالُوهُ، وَقَابَلَهُمْ فِيمَا اخْتَلَفُوهُ وَافْتَرَوْهُ وَاتَّفَكُوهُ، فَقَالَ: ﴿عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعُنُوا بِمَا قَالُوا﴾ وَهَكَذَا وَقَعَ لَهُمْ، فَإِنَّ عِنْدَهُمْ مِنَ الْبُخْلِ، وَالْحَسَدِ، وَالْجُبْنِ، وَالذَّلَّةِ أَمْرٌ عَظِيمٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَمْ نَهَبِ مِنْ التَّائِبِينَ فَادًّا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾^(٤) أَمْ يَحْسَدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا... [النساء: ٥٣، ٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ﴾... [آل عمران: ١١٢] الْآيَةُ.

[يَدُ اللَّهِ مَبْسُوطَتَانِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُوقِفُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أَيِ بَلْ هُوَ الْوَاسِعُ الْفَضْلُ، الْجَزِيلُ الْعَطَاءُ، الَّذِي مَا مِنْ شَيْءٍ

(١) الطبري: ٤٥٢/١٠ (٢) الطبري: ٤٥٣/١٠ (٣) الطبري:

١٥٣/١٠ (٤) أحمد: ٣١٣/٢ (٥) فتح الباري: ٤١٥/١٣

ومسلم: ٦٩١/٢

الرَّسَالَةَ، وَأَمَرَا لَهُ بِإِبْلَاحِ جَمِيعِ مَا أَرْسَلَهُ اللَّهُ بِهِ، وَقَدْ امْتَثَلَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ذَلِكَ، وَقَامَ بِهِ أَتَمُّ الْقِيَامِ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا كَتَمَ شَيْئًا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَقَدْ كَذَبَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿يَتَأْتِيَكَ الرَّسُولُ بِبَلْغٍ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾... الْآيَةُ^(١). هَكَذَا رَوَاهُ هَاهُنَا مُخْتَصَرًا وَقَدْ أَخْرَجَهُ فِي مَوَاضِعَ مِنْ صَحِيحِهِ مُطَوَّلًا، وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ^(٢). وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي كِتَابَيْ التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِمَا^(٣). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهَا أَيْضًا أَنَّهَا قَالَتْ: لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ لَكَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]^(٤).

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ الزُّهْرِيُّ: مِنَ اللَّهِ الرَّسَالَةَ، وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ^(٥). وَقَدْ شَهِدَتْ لَهُ أُمَّتُهُ بِإِبْلَاحِ الرَّسَالَةِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَاسْتَطَقَّ هَذَا فِي أَكْثَرِ الْمَحَافِلِ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَقَدْ كَانَ هُنَاكَ مِنْ أَصْحَابِهِ نَحْوُ مِنْ أَرْبَعِينَ أَلْفًا^(٦). كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَئِذٍ: «أُتِيهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَأَدَيْتَ وَنَصَحْتَ، فَجَعَلَ يُرْفَعُ إصْبَعُهُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَقْلِبُهَا إِلَيْهِمْ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتَ؟ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتَ؟»^(٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ يَغْنِي وَإِنْ لَمْ تُؤَدِّ إِلَى النَّاسِ مَا أَرْسَلْتُكَ بِهِ، ﴿فَمَا بَلَغْتَ رَسُولَتُكَ﴾ أَيُّ وَقَدْ عَلِمَ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ لَوْ وَقَعَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رَسُولَتُكَ﴾ يَغْنِي إِنْ كَتَمْتَ آيَةً مِمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَمْ تُبْلَغْ رَسُولَتُهُ^(٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِيكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أَيُّ بَلَغَ أَنْتَ

الْمُفْسِدِينَ ﴿أَيُّ مِنْ سَجِيَّتِهِمْ أَنْتُمْ دَائِمًا يَسْعَوْنَ فِي الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ.

[لَوْ عَمِلَ أَهْلُ الْكِتَابِ بِكِتَابِهِمْ لَحَصَلَ لَهُمْ خَيْرًا دُنْيَا وَالْآخِرَةِ]

ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أَيُّ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَاتَّقَوْا مَا كَانُوا يَتَعَاطَوْنَهُ مِنَ الْمَالِ وَالْمَحَارِمِ ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَذَكَّاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أَيُّ لَأَزَلْنَا عَنْهُمْ الْمُحْذَرَّ وَأَنْلَأْنَاهُمْ الْمَقْصُودَ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: يَعْني الْقُرْآنَ^(١). ﴿لَأَكْلَوْا مِنْ قَوْفِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَيْدِيهِمْ﴾ أَيُّ لَوْ أَنَّهُمْ عَمِلُوا بِمَا فِي الْكِتَابِ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَبْدِيلٍ وَلَا تَغْيِيرٍ، لَقَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَى مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ، فَإِنْ كُتِبَهُمْ نَاطِقَةً بِصِدْقِهِ وَالْأَمْرَ بِاتِّبَاعِهِ حَتْمًا لَا مَحَالَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَأَكْلَوْا مِنْ قَوْفِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَيْدِيهِمْ﴾ يَعْني بِذَلِكَ كَثْرَةَ الرِّزْقِ النَّازِلِ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالنَّابِثِ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ... الْآيَةُ [الأعراف: ٩٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] وَكَقَوْلِهِ عَنْ أَتْبَاعِ عِيسَى ﴿فَتَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ... الْآيَةُ [الحديد: ٢٧]، فَجَعَلَ أَعْلَى مَقَامَاتِهِمُ الْإِقْبَادَ، وَهُوَ أَوْسَطُ مَقَامَاتِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ رُتْبَةُ السَّابِقِينَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ الَّذِي نَصَّحْنَا بِهِ عِبَادًا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾^(٢) جَنَّتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجَلِّونَ فِيهَا مِنْ أَشْوَارٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْثًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ [فاطر: ٣٢، ٣٣].

﴿يَتَأْتِيَكَ الرَّسُولُ بِبَلْغٍ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رَسُولَتُكَ وَاللَّهُ يَعْصِيكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الْكَافِرِينَ﴾^(٣)

[الْأَمْرُ بِالتَّبْلِيغِ وَالْوَعْدُ بِالْعِصْمَةِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِاسْمِ

(١) الطبري: ٤٦٣/١٠ (٢) فتح الباري: ١٢٤/٨ (٣) مسلم:

١٥٩/١ (٤) تحفة الأحوذى: ٤٤١/٨ والنسائي في الكبرى:

٣١٥/٦ (٥) فتح الباري: ٤١٥/١٣ ومسلم: ١٦٠/١ (٦) فتح

الباري: ٥١٢/١٣ (٧) هكذا والرواية في ذلك كما يقول القاضي

سليمان المنصورفوري في رحمة للعالمين ٢٦٦/١ وهو يذكر

خطبته ﷺ في حجة الوداع بعرفة: «وقد بلغ عدد العابدين لله في

هذه الأرض مائة وأربعًا وأربعين، أو أربعًا وعشرين ألفًا». (٨)

مسلم: ٨٨٦/٢ (٩) الطبري: ٤٦٨/١٠

وَحَسِبُوا أَن لَّاتَكُونَ فَتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَكْتَفَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٠﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧١﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ مِنَ الطَّعَامِ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٧٢﴾ قُلْ اتَّبِعُونِ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٣﴾

مُحَمَّدٌ ﷺ وَالْإِيمَانُ بِمَنْعِيهِ، وَالْإِقْدَاءُ بِشَرِيعَتِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ تَقْدِيمُ تَفْسِيرِهِ ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أَيْ فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، وَلَا يَهِيدَنَّكَ ذَلِكَ مِنْهُمْ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وَهُمْ حَمَلَةُ التَّوْرَةِ ﴿وَالصَّابِقُونَ﴾ لَمَّا طَالَ الْفَضْلُ حَسَنَ الْعَطْفِ بِالرَّفْعِ، وَالصَّابِقُونَ طَائِفَةٌ مِنَ النَّصَارَى وَ الْمَجُوسِ لَيْسَ لَهُمْ دِينٌ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَأَمَّا النَّصَارَى فَمَعْرُوفُونَ، وَهُمْ حَمَلَةُ الْإِنْجِيلِ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ كُلَّ فِرْقَةٍ آمَنَتْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَهُوَ الْمِعَادُ وَالْجَزَاءُ يَوْمَ الدِّينِ، وَعَمِلَتْ عَمَلًا صَالِحًا، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ

(١) أحمد: ١٤١/٦ (٢) فتح الباري: ٢٣٢/١٣ ومسلم: ٤/ ١٨٧٥ (٣) فتح الباري: ٩٥/٦ ومسلم: ١٨٧٥/٤ والصحيح أن دخوله ﷺ بعائشة كان في السنة الأولى من الهجرة. (٤) تحفة الأحوذى: ٤١٠/٨ (٥) الطبري: ٤٦٩/١٠ والحاكم: ٣١٣/٢

رِسَالَتِي وَأَنَا حَافِظُكَ وَنَاصِرُكَ، وَمُؤَيِّدُكَ عَلَى أَعْدَائِكَ وَمُظْفَرُكَ بِهِمْ، فَلَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ، فَلَن يَصِلَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَيْكَ بِشَيْءٍ يُؤْذِيكَ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْلَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ يُحْرَسُ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَتْ تَحُدُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَهَرَ دَاتَ لَيْلَةٍ، وَهِيَ إِلَى جَنْبِهِ قَالَتْ: قُلْتُ مَا شَأْنُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يُحْرَسُنِي اللَّيْلَةَ» قَالَتْ: فَبَيْنَا أَنَا عَلَى ذَلِكَ، إِذْ سَمِعْتُ صَوْتَ السَّلَاحِ، فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟» فَقَالَ: أَنَا سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ. فَقَالَ: «مَا جَاءَ بِكَ؟» قَالَ: جِئْتُ لِأُحْرَسَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَتْ: فَسَمِعْتُ غَطِيطَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي نَوْمِهِ^(١). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٢). وَفِي لَفْظٍ: سَهَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَاتَ لَيْلَةٍ مُقَدِّمَهُ الْمَدِينَةَ. يَعْنِي عَلَى إِثْرِ هِجْرَتِهِ بَعْدَ دُخُولِهِ بِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَكَانَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ ثِنْتَيْنِ مِنْهُ^(٣).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحْرَسُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَاللَّهُ يَعِصُوكَ مِنَ النَّاسِ﴾ قَالَتْ: فَأَخْرَجَ النَّبِيُّ ﷺ رَأْسَهُ مِنَ الْقُبَّةِ وَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، ثُمَّ قَالَ: وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ^(٤). وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرِكِهِ، وَقَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أَيْ بَلَّغْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وَقَالَ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابَ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالصَّادِقُونَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

[لَا نَجَاةَ إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ]

يَقُولُ تَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿يَتَاهِلَ الْكِتَابَ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أَيْ مِنَ الدِّينِ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، أَيْ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِجَمِيعِ مَا بَأْيَدِيكُمْ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَرَلَّةِ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَتَعَمَّلُوا بِمَا فِيهَا، وَمِمَّا فِيهَا: الْأَمْرُ بِاتِّبَاعِ

وَقَدْ تَقَدَّمَ إِلَيْهِمُ الْمَسِيحُ بِأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَانَ أَوَّلَ
كَلِمَةٍ نَطَقَ بِهَا وَهُوَ صَغِيرٌ فِي الْمَهْدِ أَنْ قَالَ: ﴿إِنِّي عَبْدُ
اللَّهِ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: أَنَا اللَّهُ، وَلَا ابْنُ اللَّهِ، بَلْ قَالَ: ﴿إِنِّي عَبْدُ
اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبِّي
وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٠-٣٦] وَكَذَلِكَ
قَالَ لَهُمْ فِي حَالِ كُھُولِيهِ وَنُبُوْتِهِ أَمْرًا لَهُمْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَبِّهِمْ،
وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي
إِسْرَءِيلَ أَقْبِلُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أَيُّ فَيَعْبُدُ
مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أَيُّ فَقَدْ
أَوْجَبَ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ
لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَدْعَى أَصْحَابَ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ
أَقْبِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَلَةِ أَوْ مِنَّا رَزَقْكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا
عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠] وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ
بَعَثَ مُنَادِيًا يَنَادِي فِي النَّاسِ: «إِنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ
مُسْلِمَةٌ» وَفِي لَفْظٍ: «مُؤْمِنَةٌ»^(١). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى إِنْخَارًا عَنِ
الْمَسِيحِ أَنَّهُ قَالَ لِنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ
اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أَيُّ
وَمَا لَهُ عِنْدَ اللَّهِ نَاصِرٌ وَلَا مُعِينٌ، وَلَا مُنْقِذٌ مِمَّا هُوَ فِيهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾
إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي النَّصَارَى خَاصَّةً، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ.
وَقَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: نَزَلَتْ فِي جَعْلِهِمُ الْمَسِيحَ وَأُمَّهُ

إِلَهَيْنِ مَعَ اللَّهِ، فَجَعَلُوا اللَّهَ ثَالِثَ ثَلَاثَةٍ^(٢) بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ.
قَالَ السُّدِّيُّ: وَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿وَإِذْ
قَالَ اللَّهُ يَبْنِيسُ ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي
إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ الْآيَةُ [المائدة: ١١٦]^(٣)،
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾
أَيُّ لَيْسَ مُتَعَدِّدًا بَلْ هُوَ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِلَهُ جَمِيعِ
الْكَائِنَاتِ وَسَائِرِ الْمَوْجُودَاتِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لَهُمْ
وَمُتَهَدِّدًا: ﴿وَإِنْ لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أَيُّ مِنْ هَذَا
الْإِفْتِرَاءِ وَالْكَذِبِ ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ﴾ أَيُّ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْأَغْلَالِ وَالنَّكَالِ، ثُمَّ قَالَ:
﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

بَعْدَ إِزْسَالِ صَاحِبِهَا الْمُبْعُوثِ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ، فَمَنْ
اتَّصَفَ بِذَلِكَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ، وَلَا عَلَى مَا
تَرَكُوا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ
عَلَى نَظِيرَتِهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا
قُلْنَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا
وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا
ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ
بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَخَذَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ عَلَى بَنِي
إِسْرَءِيلَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، فَتَقَضُّوا تِلْكَ
الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ وَاتَّبَعُوا أَرَءَاهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ، وَقَدَّمُوا
عَلَى الشَّرَائِعِ، فَمَا وَافَقَهُمْ مِنْهَا قَبِلُوهُ وَمَا خَالَفَهُمْ
رَدُّوهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا
تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا
تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا أَيُّ وَحَسِبُوا أَنْ لَا يَتَرْتَّبَ لَهُمْ
شَرٌّ عَلَى مَا صَنَعُوا، فَتَرْتَّبَ، وَهُوَ أَنَّهُمْ عَمُوا عَنِ الْحَقِّ
وَصَمُوا، فَلَا يَسْمَعُونَ حَقًّا وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ تَابَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ، أَيُّ مِمَّا كَانُوا فِيهِ، ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا﴾ أَيُّ بَعْدَ
ذَلِكَ ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أَيُّ مُطَّلِعٌ
عَلَيْهِمْ، وَعَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْعَوَايَةَ
مِنْهُمْ.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ
وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَقْبِلُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن
يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا
لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ
ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا
يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٢﴾ أَفَلَا
يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٣﴾
الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ
وَأَمَّا صِدْقُهُ كَأَنَّا بِأَكْثَانِ الظُّلُمَاتِ أَنْظَرَ كَيْفَ
تُبَيَّنَ لَهُمُ الْآيَاتُ ثُمَّ أَنْظَرَ أَنَّهُ يُؤْكَلُونَ ﴿٧٤﴾

[كُفِرَ النَّصَارَى وَدَعَوْهُ الْمَسِيحَ لِلتَّوْحِيدِ]

يَقُولُ تَعَالَى حَاكِمًا بِتَكْفِيرِ فِرْقِ النَّصَارَى مِنَ الْمَلَكِيَّةِ
وَالْيَعْقُوبِيَّةِ وَالنَّسْطُورِيَّةِ، مِمَّنْ قَالَ مِنْهُمْ: بِأَنَّ الْمَسِيحَ هُوَ
اللَّهُ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ وَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ عُلُوًّا كَبِيرًا، هَذَا

(١) فتح الباري: ٢٠٧/٦ (٢) الطبري: ٤٨٣/١٠ (٣)

الطبري: ٤٨٣/١٠

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

١٢١

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ لَا تَغْلُوا فِي دِيْنِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوْا اَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَاصْلَوْا كَثِيْرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاىِ السَّبِيْلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ بَنِيْ اِسْرٰءِيْلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوْا يَعْتَدُوْنَ ﴿٧٨﴾ كَانُوْا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوْهُ لَبِْسٌ مَا كَانُوْا يَفْعَلُوْنَ ﴿٧٩﴾ تَرٰى كَثِيْرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا لِبِْسٍ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ اَنْفُسُهُمْ اَنْ سَخِطَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خٰلِدُوْنَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوْا يُوْمِنُوْنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْاٰخِرِ وَمَا اَنْزَلْنَا اِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوْهُمْ اَوْلِيَآءَ وَلٰكِنْ كَثِيْرًا مِنْهُمْ فَسٰقُوْنَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ اَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِيْنَ ءَامَنُوْا الْيَهُودَ وَالَّذِيْنَ اَشْرَكُوْا وَلَتَجِدَنَّ اَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِيْنَ ءَامَنُوْا الَّذِيْنَ قَالُوْا اِنَّا نَصْرِيْكَ ذٰلِكَ بِاَنْ مِنْهُمْ قِسِيْسِيْنَ وَرَهْبٰنًا وَاَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُوْنَ ﴿٨٢﴾

دِينَكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ﴿٧٧﴾ أَي لَا تَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَلَا تُطَرِّقُوا مَنْ أَمَرْتُمْ بِتَعْظِيمِهِ، فَتَبَالِغُوا فِيهِ حَتَّى تُخْرِجُوهُ عَنْ حَيْزِ الثَّبُوتِ إِلَى مَقَامِ الْإِلَهِيَّةِ، كَمَا صَنَعْتُمْ فِي الْمَسِيحِ وَهُوَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَجَعَلْتُمُوهُ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِإِفْتِدَائِكُمْ بِشُيُوحِكُمْ، شُبُوحِ الضَّلَالِ الَّذِينَ هُمْ سَلَفُكُمْ مِمَّنْ ضَلَّ قَدِيمًا ﴿٧٨﴾ وَأَصْلَوْا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٩﴾ أَي وَخَرَجُوا عَنْ طَرِيقِ الْإِسْتِقَامَةِ وَالْإِعْتِدَالِ إِلَى طَرِيقِ الْغَوَايَةِ وَالضَّلَالِ.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِْسٌ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبِْسٍ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِيفُونَ ﴿٨١﴾﴾

وَهَٰذَا مِنْ كَرَمِهِ تَعَالَى وَجُودِهِ وَلَطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ، مَعَ هَٰذَا الذَّنْبِ الْعَظِيمِ وَهَٰذَا الْإِفْرَاءَ وَالْكَذِبِ وَالْإِفْكَ: يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، فَكُلُّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ.

[الْمَسِيحُ عَبْدٌ وَأُمُّهُ صَدِيقَةٌ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أَي لَهُ سَوِيَّةٌ أَمْثَالُهُ مِنْ سَائِرِ الْمُرْسَلِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَرَسُولٌ مِنْ رُسُلِهِ الْكَرَامِ، كَمَا قَالَ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأُمُّهُ صَدِيقَةٌ﴾ أَي مُؤْمِنَةٌ بِهِ مُصَدِّقَةٌ لَهُ، وَهَٰذَا أَعْلَى مَقَامَاتِهَا، فَذَلَّ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِنَبِيَّةٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ أَي يَخْتَاجَانِ إِلَى التَّغْذِيَةِ بِهِ، وَإِلَى خُرُوجِهِ مِنْهُمَا، فَهُمَا عَبْدَانِ كَسَائِرِ النَّاسِ، وَلَيْسَا بِالْهَيْئِ كَمَا زَعَمَتْ فِرْقُ النَّصَارَى الْجَهْلَةُ، عَلَيْهِمُ لَعْنُ اللَّهِ الْمُتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أَي نَوَّضَحُهَا وَنُظْهِرُهَا ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّ يُؤْفَكُونَ﴾ أَي ثُمَّ انْظُرْ بَعْدَ هَٰذَا الْبَيَانِ وَالْوُضُوحِ وَالْجَلَاءِ أَيْنَ يَذْهَبُونَ؟ وَبِأَيِّ قَوْلٍ يَتَمَسَّكُونَ؟ وَإِلَى أَيِّ مَذْهَبٍ مِنَ الضَّلَالِ يَذْهَبُونَ؟

﴿قُلْ أَعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِيْنِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا اَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَاصْلَوْا كَثِيْرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاىِ السَّبِيْلِ ﴿٧٧﴾

[النَّهْيُ عَنِ الشَّرِكِ وَالْعُلُوِّ فِي الدِّينِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى مَنْ عَبْدَ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْتَانِ، وَمُبَيِّنًا لَهُ أَنَّهَا لَا تَسْتَحِقُّ شَيْئًا مِنَ الْإِلَهِيَّةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ أَي يَا مُحَمَّدُ لَهُوْلَاءِ الْعَابِدِينَ غَيْرَ اللَّهِ مِنْ سَائِرِ فِرْقِ بَنِي آدَمَ، وَدَخَلَ فِي ذَٰلِكَ النَّصَارَى وَغَيْرُهُمْ ﴿أَعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أَي لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ ضَرِّ عَنْكُمْ وَلَا إِضْطَالِ نَفْعٍ إِلَيْكُمْ ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أَي السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ، الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَلِمَ عَدَلْتُمْ عَنْهُ إِلَى عِبَادَةِ جَمَادٍ لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يَعْلَمُ شَيْئًا، وَلَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا لغيرِهِ وَلَا لِنَفْسِهِ؟ ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي

[لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَعَنَ الْكَافِرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ دَهْرِ طَوِيلٍ فِيمَا أُنْزِلُهُ عَلَى دَاوُدَ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَلَى لِسَانِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، بِسَبِّ عِصْيَانِهِمْ لِلَّهِ، وَاعْتِدَائِهِمْ عَلَى خَلْقِهِ، قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لُعِنُوا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَفِي الزَّبُورِ وَفِي الْفُرْقَانِ. ثُمَّ بَيَّنَ حَالَهُمْ فِيمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ فِي زَمَانِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أَيُّ كَانُوا لَا يَنْهَوْنَ أَحَدًا مِنْهُمْ أَحَدًا عَنْ ارْتِكَابِ الْمَأْثِمِ وَالْمَحَارِمِ. ثُمَّ ذَمَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ لِيُحَذَّرَ أَنْ يُرَكَّبَ مِثْلُ الَّذِي ارْتَكَبُوهُ، فَقَالَ: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

[أَحَادِيثُ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ

عَنِ الْمُنْكَرِ]

وَالْأَحَادِيثُ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَلِنُدَكِّرَ مِنْهَا مَا يُنَاسِبُ هَذَا الْمَقَامَ، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يُسْتَجِيبُ لَكُمْ»^(١). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ^(٢).

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيَعِزِّهِ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِقْلِهِ، وَذَلِكَ أَوْضَعُ الْإِيمَانِ»^(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنِ الْعُرْسِ، يَعْنِي ابْنَ عَمِيرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الْأَرْضِ كَانَ مِنْ شَهَدَا فَكَّرِهَا - وَقَالَ مَرَّةً: فَأَنْكَرَهَا - كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا»^(٤). تَفَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ. وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعَذِّبُوا - أَوْ يُعَذِّبُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ»^(٥). وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ خَطِيبًا، فَكَانَ فِيمَا قَالَ: «أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ إِذَا عَلِمَهُ». قَالَ: فَبَكَى أَبُو سَعِيدٍ، وَقَالَ: قَدْ وَاللَّهِ رَأَيْنَا أَشْيَاءَ فَهَيْبَتَا^(٦).

وَفِي حَدِيثٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»^(٧). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حُدَيْفَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يَذِلَّ نَفْسَهُ» قِيلَ: وَكَيْفَ يَذِلُّ نَفْسَهُ؟! قَالَ: «يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ»^(٨). وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ^(٩).

[ذَمُّ الْمُنَافِقِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَقُولُونَ بِالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُنَافِقِينَ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ مَا فَعَلْتُمْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ مَوَالَاتِهِمْ لِلْكَافِرِينَ، وَتَرْكُهُمْ مَوَالَاةَ الْمُؤْمِنِينَ، الَّتِي أَعَقَبَتْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ، وَأَسْخَطَتْ اللَّهَ عَلَيْهِمْ سَخَطًا مُسْتَمِرًّا إِلَى يَوْمِ مَعَادِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وَفَسَّرَ بِذَلِكَ مَا ذَمَّهُمْ بِهِ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ «فِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ» يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِآتِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا آلِهَةً آخَرَ﴾ أَيُّ لَوْ آمَنُوا حَقَّ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ وَالْقُرْآنِ لَمَا ارْتَكَبُوا مَا ارْتَكَبُوهُ مِنْ مَوَالَاةِ الْكَافِرِينَ فِي الْبَاطِنِ، وَمُعَادَاةِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ «وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ» أَيُّ خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، مُخَالِفُونَ لِآيَاتِ وَحْيِهِ وَتَرْكِهُ.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُوكَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلْتُمُ النَّبِيَّ وَرَهْبَانًا وَأَنْتُمْ لَا تَسْتَكْبِرُونَ﴾^(١٠) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾^(١١) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾^(١٢) فَأَنْتَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتْ تَجَرَى مِنْ

(١) أحمد: ٣٨٨/٥ (٢) تحفة الأحوذى: ٣٩١/٦ (٣)

مسلم: ٦٩/١ (٤) أبو داود: ٤٣٤٥ (٥) أبو داود: ٤٣٤٧

(٦) ابن ماجه: ٤٠٠٧ (٧) أبو داود: ٥١٤/٤ وتحفة الأحوذى:

٣٩٥/٦ وابن ماجه: ١٣٢٩/٢ (٨) أحمد: ١٤٠٥/٥ (٩)

تحفة الأحوذى: ٥٣١/٦ وابن ماجه: ١٣٣٢/٢

الْبَاقِيَاتُ

١٢٢

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَأَنْتَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٥﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّ مَوَاطِنَ مَا أَحْلَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنْ أَلَّفَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٦﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٧﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ بِطَعَامٍ عَشْرَةَ مَسْكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٨﴾

فَتَبَيَّنَتْ وَرَهْبَانًا فَقَالَ: هُمُ الرُّهْبَانُ الَّذِينَ هُمُ فِي الصَّوَامِعِ وَالْخَرْبِ. فَدَعَوْهُمْ فِيهَا. قَالَ سَلْمَانُ: وَقَرَأْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ «ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ فَيْسِيَّت» فَأَقْرَأَنِي (ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ صِدِّيقَيْنِ وَرَهْبَانًا) (٣). فَقَوْلُهُ: «ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ فَيْسِيَّت وَرَهْبَانًا وَأَنْهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ» نَصَّمَنْ وَضَفُّهُمْ بِأَنَّ فِيهِمُ الْعِلْمَ وَالْعِبَادَةَ وَالتَّوَاضُّعَ، ثُمَّ وَضَعَهُمْ بِالْإِنْفِيَادِ لِلْحَقِّ وَاتَّبَاعِهِ وَالْإِنْصَافِ، فَقَالَ: «وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ» أَيِّ مِمَّا عِنْدَهُمْ مِنَ الْبَشَارَةِ بِبَعْثِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ «يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ» أَيِّ مَعَ مَنْ يَشْهَدُ بِصِحَّةِ هَذَا وَيُؤْمِنُ بِهِ.

وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ النَّصَارَى هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ

(١) الطبري: ٥٠٠، ٤٩٩/١٠ (٢) الطبري: ٥٠١/١٠ (٣) الطبراني: ٢٦٦/٦ إسناده ضعيف فيه يحيى بن عبد الحميد الحماني ونصير بن زياد الطائي كلاهما ضعيف [مجمع الزوائد ٧/ ١١٧]

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٣﴾ [بَيَانُ سَبَبِ التَّوَلُّو لِهَذِهِ الْآيَاتِ]

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمَا: نَزَلَتْ فِي وَفْدِ بَعْثِهِمُ النَّجَاشِيَّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيَسْمَعُوا كَلَامَهُ وَيَرَوْا صِفَاتِهِ، فَلَمَّا رَأَوْهُ وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ أَسْلَمُوا وَبَكَوْا وَخَشَعُوا، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فَأَخْبَرُوهُ (١). وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رِيَاحٍ: هُمْ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْحَبَشَةِ أَسْلَمُوا حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِمْ مَهَاجِرَةُ الْحَبَشَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: هُمْ قَوْمٌ كَانُوا عَلَى دِينِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَلَمَّا رَأَوْا الْمُسْلِمِينَ، وَسَمِعُوا الْقُرْآنَ أَسْلَمُوا وَلَمْ يَتَلَعَّمُوا (٢). وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي صِفَةِ أَقْوَامٍ بِهِدِهِ الْمُنَابَةِ، سَوَاءٌ كَانُوا مِنَ الْحَبَشَةِ أَوْ غَيْرِهَا.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا» مَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ كُفْرَ الْيَهُودِ كُفْرٌ عِنَادٍ وَجُحُودٍ وَمُبَاهَاةٌ لِلْحَقِّ وَغَمْطٌ لِلنَّاسِ وَتَنْقِصٌ بِحَمَلَةِ الْعِلْمِ، وَلِهَذَا قَتَلُوا كَثِيرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى هَمُّوا بِقَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَسَمَوْهُ وَسَجَرُوهُ، وَأَلْبَسُوا عَلَيْهِ أَشْبَاهَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ الْمُتَّبَاعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى» أَيُّ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ نَصَارَى مِنْ أَتْبَاعِ الْمَسِيحِ وَعَلَى مِنْهَاجِ إِنْجِيلِهِ، فِيهِمْ مَوَدَّةٌ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ فِي الْجُمْلَةِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ إِذْ كَانُوا عَلَى دِينِ الْمَسِيحِ مِنَ الرَّفَقَةِ وَالرَّأْفَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً» [الحديد: ٢٧] وَفِي كِتَابِهِمْ: مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ الْأَيْمَنِ فَأَذَرْ لَهُ خَدِّكَ الْأَيْسَرَ. وَلَيْسَ الْقِتَالُ مَشْرُوعًا فِي مِلَّتِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ فَيْسِيَّت وَرَهْبَانًا وَأَنْهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ» أَيُّ يُوجَدُ فِيهِمُ الْقَسِيْسُونَ وَهُمْ خُطَبَاؤُهُمْ وَعُلَمَاؤُهُمْ، وَاجِدُهُمْ قَسِيْسٌ وَقَسٌّ أَيْضًا، وَقَدْ يُجْمَعُ عَلَى قُسُوسٍ، وَالرُّهْبَانُ جَمْعُ رَاهِبٍ، وَهُوَ الْعَابِدُ، مُسْتَقٌّ مِنَ الرَّهْبَةِ، وَهِيَ الْخَوْفُ، كَرَاكِبٍ وَرُكْبَانٍ، وَقُرْسَانٍ. رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حَامِيَّةَ بِنِ رَثَابٍ قَالَ: سَمِعْتُ سَلْمَانَ وَسُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ: «ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ

تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ...﴾ [آل عمران: ١٩٩] وَهُمْ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَئِكَ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذُو الْقُرْآنِ وَهُوَ يَصِفُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩] وَلَئِنْ كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَا يَنْبَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٥] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هُنَا: ﴿فَأَنبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ أَيْ فَجَازَاهُمْ عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ وَاعْتِرَافِهِمْ بِالْحَقِّ ﴿جَنَّتْ بَحْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيْ مَا كَيْشَ فِيهَا أَبَدًا، لَا يَحُولُونَ وَلَا يَزُولُونَ ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أَيْ فِي اتِّبَاعِهِمُ الْحَقَّ وَاتِّبَاعِهِمْ لَهُ، حَيْثُ كَانَ وَأَيْنُ كَانَ وَمَعَ مَنْ كَانَ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ حَالِ الْأَشْيَاءِ فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أَيْ جَحَدُوا بِهَا وَخَالَفُوهَا ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أَيْ هُمْ أَهْلُهَا وَالِدَاخِلُونَ فِيهَا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿وَكُلُوا وَمِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْشَأَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [٨٧]

[لَا رَهْبَانِيَّةَ فِي الْإِسْلَام]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي رَهْطٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالُوا: نَقَطْعُ مَذَائِيرَنَا، وَنَتْرُكُ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا، وَنَسْبِخُ فِي الْأَرْضِ كَمَا يَفْعَلُ الرُّهْبَانُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ فَذَكَرَ لَهُمْ ذَلِكَ، فَقَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي، وَأَنَا مُنَافِقٌ، وَأَنْكِحُ النِّسَاءَ، فَمَنْ أَخَذَ بِسُنَّتِي فَهُوَ مِنِّي، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْ بِسُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(١). رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَرَوَى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ الْعَوْفِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ نَحْوَ ذَلِكَ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السَّرِّ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى الْفِرَاشِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُ أَحَدُهُمْ كَذَا وَكَذَا، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنَا مُنَافِقٌ، وَأَكُلُ اللَّحْمَ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرتُمْهُ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّرتُمْهُ أَيْمَانَكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٨٨]

[اللَّغْوُ فِي الْيَمِينِ]

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى اللَّغْوِ فِي الْيَمِينِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا، وَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَأَنَّهُ قَوْلُ الرَّجُلِ فِي الْكَلَامِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ: لَا وَاللَّهِ، وَبَلَى وَاللَّهِ.

[كَفَّارَةُ الْيَمِينِ]

﴿فَكَفَّرتُمْهُ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ يَعْنِي مَحَاوِيجَ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَمَنْ لَا يَجِدُ مَا يَكْفِيهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرِمَةُ: أَيْ مِنْ أَغْذَلِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ^(٣). وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: مِنْ أَمَثَلِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ^(٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ هِيَ أَنْ يَذْفَعَ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنَ الْكِسْوَةِ مَا يَصِحُّ أَنْ يُصَلِّيَ فِيهِ، إِنْ كَانَ رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً كُلٌّ بِحَسَبِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) الطبري: ٥١٨/١٠ (٢) فتح الباري: ٥/٩ ومسلم: ٢/

١٠٢٠ (٣) الطبري: ٥٤١/١٠ (٤) الطبري: ٥٣١/١٠

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

١٢٣

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَذْلَمُ رَجَسٌ
مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ
الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ
وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا
اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى
رَسُولِنَا الْبَلْعُ الْأَمِينُ ﴿١٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ
﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَكُمُ اللَّهُ إِشْيَاءَ مِنْ الصَّيْدِ تَنَالُهُ
أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ
ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ
وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ
يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ
مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا
سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْقِصَارٍ ﴿١٥﴾

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: عِبَاءَةٌ لِكُلِّ مَسْكِينٍ أَوْ
شَمْلَةٌ ^(١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَذْنَاهُ ثَوْبٌ وَأَعْلَاهُ مَا شِئْتَ ^(٢).
وَقَالَ الْحَسَنُ وَأَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ وَعَطَاءٌ وَطَاوُسٌ وَإِبْرَاهِيمُ
التَّحِيصِيُّ وَحَمَّادُ بْنُ أَبِي سُلَيْمَانَ وَأَبُو مَالِكٍ. ثَوْبٌ
ثَوْبٌ ^(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مُؤْمِنَةً كَمَا
تَبَيَّنَ مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ الَّذِي هُوَ فِي
مَوْطَأٍ مَالِكٍ وَمُسْنَدِ الشَّافِعِيِّ وَصَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ
عَلِيَّ بْنَ عَتِقٍ رَقَبَةً، وَجَاءَ مَعَهُ بِجَارِيَةٍ سُودَاءَ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ: «أَيْنَ اللَّهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «مَنْ
أَنَا؟» قَالَتْ: رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ: «أَعْتَقْتُهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» ^(٤)
الْحَدِيثَ بِطَوِيلِهِ.

فَهَذِهِ خِصَالُ ثَلَاثٍ فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ، أَيْهَا فَعَلَ الْحَانِثُ
أَجْزَأَ عَنْهُ بِالْإِجْمَاعِ، وَقَدْ بَدَأَ بِالْأَسْهَلِ، فَإِلْطَاعُ أَهْلِهِ
وَأَيْسَرُ مِنَ الْكِسْفَةِ، كَمَا أَنَّ الْكِسْفَةَ أَيْسَرُ مِنَ الْعَتَقِ، فَزُقِيَ
فِيهَا مِنَ الْأَذْنَى إِلَى الْأَعْلَى، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرِ الْمُكَلَّفُ عَلَى
وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ الثَّلَاثِ كَفَّرَ بِصِيَامٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ،
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾. وَقَدْ قَرَأَهَا
أَبِي بَنْ كَعْبٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَأَصْحَابُهُ: (فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ
مُتَتَابِعَاتٍ) ^(٥). وَهَذِهِ إِذَا لَمْ يَثْبُتْ كَوْنُهَا قُرْآنًا مُتَوَاتِرًا، فَلَا
أَقْلَّ أَنْ يَكُونَ خَبَرًا وَاحِدًا أَوْ تَفْسِيرًا مِنَ الصَّحَابَةِ، وَهُوَ
فِي حُكْمِ الْمَرْفُوعِ.

قَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ كَفَرَةٌ أَيْمَانُكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أَيْ هَذِهِ كَفَّارَةُ
الْيَمِينِ الشَّرْعِيَّةِ ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ:
مَعْنَاهُ: لَا تَتَرَكُوهَا بِغَيْرِ تَكْفِيرٍ ^(٦). ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ أَيْ يَوْضَحُهَا وَيُفَسِّرُهَا ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَذْلَمُ رَجَسٌ مِنْ
عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ
أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ
ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْعُ
الْأَمِينُ﴾ ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا
طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا
ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ﴾

[تَحْرِيمُ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ]

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ تَعَاطِي الْخَمْرِ

(١) الطبري: ٥٤٧/١٠ عطية العوفي تقدم حكمه (٢) الطبري: ٥٤٥/١٠
٥٤٥/١٠ (٣) الطبري: ٥٤٦، ٥٤٥/١٠ (٤) الموطأ: ٢/٧٧٦
والرسالة: ٧٥ ومسلم: ٣٨/١ (٥) الطبري: ٣١/٥ (٦)
الطبري: ٥٦٢، ٥٦٠/١٠ (٧) إسناده مرسل (٨) الطبري: ٤/٣٢٣، ٣٢٢
الطبري: ٣٢٥/٤ (٩) الطبري: ١٠٠/٤ (١٠) الطبري: ٣٢٤/٤
الضحاك لم يلق ابن عباس كما مر.

فُلَانٌ وَفُلَانٌ وَهِيَ فِي بُطُونِهِمْ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا﴾...

الآيَةِ^(١).

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا أُدِيرُ الْكُأْسَ عَلَى أَبِي طَلْحَةَ وَأَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ وَأَبِي دُجَانَةَ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَسُهَيْلِ بْنِ بَيْضَاءَ حَتَّى مَالَتُ رُؤُوسَهُمْ مِنْ خَلِيطِ بُسْرِ وَتَمَرٍ، فَسَمِعْتُ مُنَادِيًا يُنَادِي: أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ. قَالَ: فَمَا دَخَلَ عَلَيْنَا دَاخِلٌ وَلَا خَرَجَ مِنَّا خَارِجٌ حَتَّى أَهْرَقْنَا الشَّرَابَ، وَكَسَرْنَا الْقِلَاقَ، وَتَوَضَّأَ بَعْضُنَا، وَاعْتَسَلَ بَعْضُنَا، وَأَصْبَنَا مِنْ طِيبٍ أَمْ سَلِيمٍ، ثُمَّ خَرَجْنَا إِلَى الْمَسْجِدِ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا لَمْ تَنْفَرُوا وَالنَّبِيُّ وَالْأَصْحَابُ وَالَّذِينَ رَجَعُوا مِنَ الْغَنَةِ فَاجْتَنِبُوا﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا تَرَى فِيمَنْ مَاتَ وَهُوَ يَشْرِبُهَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا﴾... الْآيَةِ، فَقَالَ رَجُلٌ لِقَتَادَةَ: أَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَقَالَ رَجُلٌ لِأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَوْ حَدَّثَنِي مَنْ لَمْ يَكْذِبْ. مَا كُنَّا نَكْذِبُ، وَلَا نَدْرِي مَا الْكَذِبُ^(٢).

(حَدِيثٌ آخَرٌ) - رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لُعِنَتِ الْخَمْرُ عَلَى عَشْرَةِ أَوْجُهٍ: لُعِنَتِ الْخَمْرُ بَعِيْنُهَا، وَشَارِبُهَا، وَسَاقِيهَا، وَبَائِعُهَا، وَمُبْتَاعُهَا، وَعَاصِرُهَا، وَمُعْتَصِرُهَا، وَحَامِلُهَا، وَالْمَحْمُولَةُ إِلَيْهَا، وَآكِلُ ثَمَرِهَا»^(٣). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ^(٤).

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُرَيْدِ فَخَرَجْتُ مَعَهُ، فَكُنْتُ مَعَهُ، فَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ، وَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ فَتَأَخَّرْتُ عَنْهُ، فَكَانَ عَنْ يَمِينِهِ وَكُنْتُ عَنْ يَسَارِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ فَتَنَحَّيْتُ لَهُ فَكَانَ عَنْ يَسَارِهِ، فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُرَيْدَ فَإِذَا بِرِفَاقٍ عَلَى الْمُرَيْدِ فِيهَا خَمْرٌ - قَالَ ابْنُ عُمَرَ: - فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمُدِيَةِ - قَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَمَا عَرَفْتُ الْمُدِيَةَ إِلَّا يَوْمَئِذٍ - فَأَمَرَ بِالرِّفَاقِ فَشَقَّتْ، ثُمَّ قَالَ: «لُعِنَتِ الْخَمْرُ وَشَارِبُهَا، وَسَاقِيهَا، وَبَائِعُهَا، وَمُبْتَاعُهَا، وَحَامِلُهَا، وَالْمَحْمُولَةُ إِلَيْهَا، وَعَاصِرُهَا وَمُعْتَصِرُهَا، وَآكِلُ ثَمَرِهَا»^(٥).

(حَدِيثٌ آخَرٌ) رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ سَعْدٍ قَالَ: أُنْزِلَتْ فِي الْخَمْرِ أَرْبَعُ آيَاتٍ... فَذَكَرَ الْحَدِيثَ،

قَالَ: وَصَنَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ طَعَامًا فَدَعَانَا، فَشَرَبْنَا الْخَمْرَ قَبْلَ أَنْ نُحَرَّمَ حَتَّى انْتَشَيْنَا فَتَفَاحَرْنَا، فَقَالَتْ الْأَنْصَارُ: نَحْنُ أَفْضَلُ، وَقَالَتْ قُرَيْشٌ: نَحْنُ أَفْضَلُ، فَأَخَذَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ لَحْيَ جَزُورٍ، فَضَرَبَ بِهِ أَنْفَ سَعْدٍ فَفَزَرَهُ - وَكَانَ أَنْفُ سَعْدٍ مَقْرُورًا - فَتَرَلَّتْ: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالنَّبِيُّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ^(٦).

(حَدِيثٌ آخَرٌ) رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا لَمْ تَنْفَرُوا وَالنَّبِيُّ وَالْأَصْحَابُ وَالَّذِينَ رَجَعُوا مِنَ الْغَنَةِ فَاجْتَنِبُوا﴾ لَعَلَّكُمْ تَقْلَحُونَ قَالَ: هِيَ فِي التَّوْرَةِ: إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْحَقَّ لِيُذْهِبَ بِهِ الْبَاطِلَ، وَيَبْطِلَ بِهِ اللَّعِبُ وَالْمَزَامِيرُ، وَالزُّفْنُ، وَالْكِبَارَاتُ - يَعْنِي الْبُرَابِطُ - وَالزَّمَارَاتُ - يَعْنِي بِهِ الدَّفُّ - وَالطَّنَائِيرُ وَالشُّعْرُ وَالْخَمْرُ، مَرَّةً لِمَنْ طَعَمَهَا، أَقْسَمَ اللَّهُ بِبَيْمِينِهِ وَعِزَّتِهِ مَنْ شَرِبَهَا بَعْدَ مَا حَرَّمْتُهَا لَا أُعْطِسَنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ تَرَكَهَا بَعْدَ مَا حَرَّمْتُهَا لِأَسْقِينَهَا إِيَّاهَا فِي حَظِيرَةِ الْقُدْسِ^(٧). وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

(حَدِيثٌ آخَرٌ) - قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَبْنَانَا مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا، حُرِّمَتْ فِيهِ الْآخِرَةُ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ^(٨). وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَمَاتَ وَهُوَ يَذُمُّهَا وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا، لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الْآخِرَةِ»^(٩).

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ: سَمِعْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانٍ يَقُولُ: اجْتَنِبُوا الْخَمْرَ فَإِنَّهَا أُمُّ الْخَبَائِثِ، إِنَّهُ كَانَ رَجُلٌ فِيمَنْ خَلَا قَبْلَكُمْ يَتَعَبَّدُ وَيَعْتَزِلُ النَّاسَ فَعَلَقَتْهُ امْرَأَةٌ غَوِيَّةً فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ جَارِيَتَهَا فَقَالَتْ: إِنَّا نَدْعُوكَ لِشَهَادَةٍ، فَدَخَلَ مَعَهَا، فَطَفِقَتْ كُلَّمَا دَخَلَ بَابًا أَعْلَقَتْهُ دُونُهُ، حَتَّى أَقْضَى إِلَى امْرَأَةٍ وَضَبَّتْ عَنْدَهَا غَلَامٌ وَبَاطِيَةٌ خَمْرٍ فَقَالَتْ: إِنِّي وَاللَّهِ! مَا دَعَوْتُكَ لِشَهَادَةٍ، وَلَكِنْ

(١) فتح الباري: ١٣٣/٥، ومسلم: ١٥٧٠/٣ (٢) الطبري: ٥٧٨/١٠ فيه عباد بن راشد التميمي البصري البزاز ضعيف لكن رواه البخاري (٥٦٠٠) ومسلم (١٩٨٠/٧) من طريق قتادة به مختصراً (٣) أحمد: ٢٥/٢ (٤) أبو داود: ٣٦٧٤ وابن ماجه: ٣٣٨٠ (٥) أحمد: ٧١/٢ (٦) البيهقي: ٢٨٥/٨ ومسلم: ١٧٤٨ (٧) ابن أبي حاتم: ١١٩٦/٤ (٨) مسند الشافعي: ١٧٦٣ والبخاري: ٥٥٧٥ ومسلم: ٢٠٠٣ (٩) مسلم: ٢٠٠٣

أَخَذَهُ بِالْأَيْدِي وَالرِّمَاحِ سِرًّا وَجَهْرًا، لِيُظْهَرَ طَاعَةً مَنْ يُطِيعُ مِنْهُمْ فِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢] وَقَوْلُهُ هُنَا: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: يَعْنِي بَعْدَ هَذَا الْإِعْلَامِ وَالْإِنذَارِ وَالتَّقَدُّمِ، ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيْ لِمُخَالَفَتِهِ أَمْرَ اللَّهِ وَشَرْعَهُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ وَهَذَا تَحْرِيمٌ مِنْهُ تَعَالَى لِقَتْلِ الصَّيْدِ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ، وَنَهْيٌ عَنْ تَعَاطِيهِ فِيهِ، وَلَا يُسْتَنْتَى مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا بَيَّنَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «خَمْسٌ فَوَاسِقُ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْغُرَابُ، وَالْجِدَادَةُ، وَالْعُقُورُ، وَالْفَارَةُ، وَالْكَلْبُ الْعُقُورُ»^(٧). وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «خَمْسٌ مِنَ الدَّوَابِّ لَيْسَ عَلَى الْمُحْرِمِ فِي قَتْلِهِنَّ جُنَاحٌ: الْغُرَابُ، وَالْجِدَادَةُ، وَالْعُقُورُ، وَالْفَارَةُ، وَالْكَلْبُ الْعُقُورُ»^(٨). أَخْرَجَاهُ^(٩). وَرَوَاهُ أَيُّوبُ عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ مِثْلَهُ^(١٠). قَالَ أَيُّوبُ: فَقُلْتُ لِنَافِعٍ: فَالْحَيَّةُ؟ قَالَ: الْحَيَّةُ لَا شَكَّ فِيهَا، وَلَا يُخْتَلَفُ فِي قَتْلِهَا^(١١). وَالْحَقُّ بِالْكَلْبِ الْعُقُورِ الذُّبُّ وَالسَّبُعُ وَالنَّمْرُ وَالْفَهْدُ، لِأَنَّهَا أَشَدُّ ضَرَرًا مِنْهُ، أَوْ لِأَنَّ الْكَلْبَ يُطْلَقُ عَلَيْهَا. فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ عَمَّا يَقْتُلُ الْمُحْرِمُ؟ فَقَالَ: «الْحَيَّةُ، وَالْعُقُورُ، وَالْفَوْسِقَةُ، وَبِرِّي الْغُرَابُ وَلَا يَقْتُلُهُ، وَالْكَلْبُ الْعُقُورُ، وَالْجِدَادَةُ، وَالسَّبُعُ الْعَادِي» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ^(١٢).

[جَزَاءُ قَتْلِ الصَّيْدِ فِي الْحَرَمِ أَوْ الْإِحْرَامِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ وَقَالَ مُجَاهِدُ بْنُ جَبْرِ: الْمُرَادُ بِالْمُتَعَمِّدِ هُنَا الْقَاصِدُ إِلَى قَتْلِ الصَّيْدِ، النَّاسِي لِإِحْرَامِهِ^(١٣). فَأَمَّا

دَعْوَتُكَ لِيَتَّقَ عَلَيَّ أَوْ تَقْتُلْ هَذَا الْعِلَامَ، أَوْ تَشْرَبَ هَذَا الْخَمْرَ فَسَقَتُهُ كَأَسَا فَقَالَ: زَيْدُونِي فَلَمْ يَرُمْ حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهَا وَقَتَلَ النَّفْسَ. فَاجْتَنِبُوا الْخَمْرَ فَإِنَّهَا لَا تَجْتَمِعُ هِيَ وَالْإِيمَانُ أَبَدًا إِلَّا أَوْشَكَ أَحَدُهُمَا أَنْ يُخْرَجَ صَاحِبُهُ. رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ^(١). وَهَذَا إِسْتَاذٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِهِ «ذَمُّ الْمُسْكِرِ» مَرْفُوعًا. وَالْمَوْفُوفُ أَصَحُّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَرَوَى أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا حُرِّمَتْ الْخَمْرُ قَالَ نَاسٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَصْحَابُنَا الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يَشْرَبُونَهَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَلَمَّا حُولَتْ الْقِبْلَةُ قَالَ نَاسٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِخْوَانُنَا الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يَصُلُّونَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾^(٢). وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا﴾ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قِيلَ لِي: أَنْتَ مِنْهُمْ» وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طَرِيقِهِ^(٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَاءَلَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاكُم لِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ أَعْتَدَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤) يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذَا بِلَاغٍ لِكَلِمَةٍ أَوْ كَذَرَّةٌ طَعْلًا مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا يَذُوقُ وَكَانَ أَمْرُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقُصِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ^(٥)

[حُرْمَةُ الصَّيْدِ فِي الْحَرَمِ وَالْإِحْرَامِ]

قَالَ الْوَالِيبِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: ﴿لِيَبْلُوَكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَاءَلَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاكُم﴾ قَالَ: هُوَ الضَّعِيفُ مِنَ الصَّيْدِ وَصَغِيرُهُ، يَنْتَلِي اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ فِي إِحْرَامِهِمْ، حَتَّى لَوْ شَاءُوا لَتَنَاوَلُوهُ بِأَيْدِيهِمْ، فَتَهَاكُمُ اللَّهُ أَنْ يَقْرُبُوهُ^(٦). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿تَنَاءَلَهُ أَيْدِيكُمْ﴾ يَعْنِي صِعَارَ الصَّيْدِ وَفَرَاحَهُ، ﴿وَرِمَاكُم﴾ يَعْنِي كِبَارَهُ^(٧). وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَكَانَتْ الْوُحُشُ وَالطَّيْرُ وَالصَّيْدُ تَعْشَاهُمْ فِي رِحَالِهِمْ، لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ قَطُّ فِيمَا خَلَا، فَتَهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ قَتْلِهِ وَهُمْ مُحْرِمُونَ ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾^(٨) يَعْنِي أَنَّهُ تَعَالَى يَنْتَلِيهِمْ بِالصَّيْدِ، يَعْشَاهُمْ فِي رِحَالِهِمْ، يَتَمَكَّنُونَ مِنْ

(١) البيهقي: ٢٨٨، ٢٨٧/٨ (٢) أحمد: ٢٩٥/١ (٣) مسلم:

١٩١٠/٤ وتحفة الأحوذى: ٤١٩/٨ والنسائي في الكبرى: ٦/

٣٣٧ (٤) الطبري: ٥٨٤/١٠ (٥) الطبري: ٥٨٣/١٠ (٦)

الدر المنثور: ١٨٥/٣ (٧) البخاري: ٣٣١٤ ومسلم: ١١٩٨

(٨) الموطأ: ٣٥٦/١ (٩) فتح الباري: ٤٢/٤ ومسلم: ٢/

٨٥٨ (١٠) النسائي: ١٩٠/٥ (١١) فتح الباري: ٤٤/٦

(١٢) أبو داود: ٤٢٤/٢ وتحفة الأحوذى: ٥٧٦/٣ وابن ماجه:

١٠٣٢/٢ (١٣) الطبري: ٨/١١

قَتَلَ الْمُحْرَمَ شَيْئًا مِنَ الصَّيْدِ حُكِمَ عَلَيْهِ فِيهِ، فَإِنْ قَتَلَ طَبِئًا أَوْ نَحْوَهُ فَعَلَيْهِ شَاءُ تَذْبِخِ بِمَكَّةَ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فِطْعَامَ سِتَّةِ مَسَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَإِنْ قَتَلَ أَيْلًا أَوْ نَحْوَهُ، فَعَلَيْهِ بَقَرَةٌ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَطْعَمَ عَشْرِينَ مَسْكِينًا، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ صَامَ عَشْرِينَ يَوْمًا، وَإِنْ قَتَلَ نَعَامَةً أَوْ حِمَارًا وَحْشٍ أَوْ نَحْوَهُ، فَعَلَيْهِ بَدَنَةٌ مِنَ الْإِبِلِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَطْعَمَ ثَلَاثِينَ مَسْكِينًا، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ صَامَ ثَلَاثِينَ يَوْمًا. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ، وَزَادَ: الطَّعَامُ مِثْلُ مَدٍّ يُسَبِّعُهُمْ^(٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ أَيُّ أَوْجَبْنَا عَلَيْهِ الْكَفَّارَةَ لِيَذُوقَ عُقُوبَةَ فِعْلِهِ الَّذِي ارْتَكَبَ فِيهِ الْمُخَالَفَةَ ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفٌ﴾ أَيُّ فِي زَمَانِ الْجَاهِلِيَّةِ لِمَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ وَاتَّبَعَ شَرَعَ اللَّهِ، وَلَمْ يَرْتَكِبِ الْمَعْصِيَةَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ أَيُّ وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ تَحْرِيمِهِ فِي الْإِسْلَامِ وَبُلُوغِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ إِلَيْهِ ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قُلْتُ لِعَطَاءٍ: مَا ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفٌ﴾؟ قَالَ: عَمَّا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. قَالَ: قُلْتُ: وَمَا ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾؟ قَالَ: وَمَنْ عَادَ فِي الْإِسْلَامِ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ، وَعَلَيْهِ مَعَ ذَلِكَ الْكَفَّارَةُ. قَالَ: قُلْتُ: فَهَلْ فِي الْعُودِ مِنْ حَدِّ تَعْلُمُهُ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: قُلْتُ: فَتَرَى حَقًّا عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يُعَاقِبَهُ؟ قَالَ: لَا، هُوَ ذَنْبٌ أَذْنَبُهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَكِنْ يَنْتَقِي. ^(٥) رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ بِالْكَفَّارَةِ، قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَطَاءٌ^(٦). ثُمَّ الْجُمْهُورُ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ عَلَى أَنَّهُ مَتَى قَتَلَ الْمُحْرَمَ الصَّيْدَ وَجَبَ الْجَزَاءُ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ وَالثَّالِثَةِ، وَإِنْ تَكَرَّرَ مَا تَكَرَّرَ، سَوَاءٌ الْخَطَأُ فِي ذَلِكَ وَالْعَمْدُ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ يَقُولُ عَزَّ ذِكْرُهُ: وَاللَّهُ مَنِيعٌ فِي سُلْطَانِهِ، لَا يَفْهَرُهُ قَاهِرٌ وَلَا يَمْنَعُهُ مِنْ الْإِنْتِقَامِ مِمَّنْ انْتَقَمَ مِنْهُ - وَلَا مِنْ عُقُوبَةٍ مَنْ أَرَادَ عُقُوبَتَهُ - مَانِعٌ، لِأَنَّ الْخَلْقَ خَلَقَهُ، وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ، لَهُ الْعِزَّةُ وَالْمَنْعَةُ. وَقَوْلُهُ: ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ يَعْنِي أَنَّهُ ذُو مُعَاقِبَةٍ لِمَنْ عَصَاهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ إِنَاءً^(٧).

الْمُتَعَمِّدُ لِقَتْلِ الصَّيْدِ مَعَ ذِكْرِهِ لِإِحْرَامِهِ، فَذَلِكَ أَمْرُهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُكْفَرُ، وَقَدْ بَطَلَ إِحْرَامُهُ، وَهُوَ قَوْلٌ غَرِيبٌ، وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ أَنَّ الْعَامِدَ وَالتَّاسِي سَوَاءٌ فِي جُوبِ الْجَزَاءِ عَلَيْهِ. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: دَلَّ الْكِتَابُ عَلَى الْعَامِدِ، وَجَرَتْ الشُّنَّةُ عَلَى التَّاسِي^(١). وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الْقُرْآنَ دَلَّ عَلَى جُوبِ الْجَزَاءِ عَلَى الْمُتَعَمِّدِ وَعَلَى تَأْيِيهِ بِقَوْلِهِ: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴿وَجَاءَتِ الشُّنَّةُ مِنْ أَحْكَامِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَحْكَامِ أَصْحَابِهِ بِوُجُوبِ الْجَزَاءِ فِي الْخَطَأِ، كَمَا دَلَّ الْكِتَابُ عَلَيْهِ فِي الْعَمْدِ، وَأَيْضًا فَإِنْ قَتَلَ الصَّيْدَ إِنْثِلَافًا، وَإِنْثِلَافٌ مَضْمُونٌ فِي الْعَمْدِ وَفِي الشُّنَيْنِ، لَكِنْ الْمُتَعَمِّدُ مَا تُؤْتَمُّ، وَالْمُخْطِئُ غَيْرُ مَلُومٍ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ دَلِيلٌ لُجُوبِ الْجَزَاءِ مِنْ مِثْلِ مَا قَتَلَهُ الْمُحْرَمُ، إِذَا كَانَ لَهُ مِثْلٌ مِنَ الْحَيَوَانِ الْإِنْسَانِيِّ كَمَا حَكَمَ بِهِ الصَّحَابَةُ فِي الْمِثْلِ، فَإِنَّهُمْ حَكَمُوا فِي النَّعَامَةِ بِبَدَنَةٍ، وَفِي بَقَرَةِ الْوَحْشِ بِبَقَرَةٍ، وَفِي الْغَزَالِ بِعَنْزٍ، وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنِ الصَّيْدُ مِثْلِيًّا، فَقَدْ حَكَمَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِيهِ بِتَمَنِيهِ يُحْمَلُ إِلَى مَكَّةَ. رَوَاهُ النَّيْهَقِيُّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ يَعْنِي أَنَّهُ يَحْكُمُ بِالْجَزَاءِ فِي الْمِثْلِ - أَوْ بِالْقِيَمَةِ فِي غَيْرِ الْمِثْلِ - عَدْلَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي جَرِيرٍ الْبَجَلِيِّ، قَالَ: أَصَبْتُ طَبِئًا وَأَنَا مُحْرَمٌ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعُمَرَ، فَقَالَ: اثْبَتِ رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِكَ فَلْيَحْكُمَا عَلَيْكَ، فَأَثَبْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ وَسَعْدًا فَحَكَمَا عَلَيَّ بِتِسْعِ أَغْفَرٍ^(٢). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ طَارِقٍ، قَالَ: أَوْطَأَ أَرْبُدُ طَبِئًا فَقَتَلْتُهُ وَهُوَ مُحْرَمٌ، فَأَتَى عُمَرَ لِيَحْكُمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: احْكُمْ مَعِيَ، فَحَكَمَا فِيهِ جَدِيًّا قَدْ جَمَعَ الْمَاءَ وَالشَّجَرَ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَذَا بَلَغَ الْأَكْمَةِ﴾ أَيُّ وَاصِلًا إِلَى الْأَكْمَةِ، وَالْمُرَادُ وَصُولُهُ إِلَى الْحَرَمِ بِأَنْ يُذْبَحَ هُنَاكَ، وَيُفَرَّقَ لَحْمُهُ عَلَى مَسَاكِينِ الْحَرَمِ، وَهَذَا أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ كَفَّرْتُ طَعَامَ مَسْكِينٍ أَوْ عَدَلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ أَيُّ إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمُحْرَمُ مِثْلَ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ، أَوْ لَمْ يَكُنِ الصَّيْدُ الْمَقْتُولُ مِنْ ذَوَاتِ الْأَمْثَالِ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿هَذَا بَلَغَ الْأَكْمَةِ أَوْ كَفَّرْتُ طَعَامَ مَسْكِينٍ أَوْ عَدَلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾، فَإِذَا

(١) الطبري: ١١/١١ (٢) الطبري: ٢٧/١١ (٣) الطبري:

(٤) ٢٦/١١ (٥) الطبري: ٣١/١١ (٦) الطبري: ٤٨/١١ (٧)

الطبري: ٥٠/١١ (٧) الطبري: ٥٧/١١

الْحَرَامُ

١٢٤

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْغَنَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْآبِيَةَ الْحَرَامَ فِيمَا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدِ ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٧﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَاعَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْحَيْثُ وَالطَّيْبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأْتِيَ الْآلِبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُوا وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَعْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبُ وَآكَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْغَنَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْآبِيَةَ الْحَرَامَ فِيمَا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدِ ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٧﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَاعَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾

[إِحْلَالُ صَيْدِ الْبَحْرِ لِلْمُحْرِمِ]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُمْ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ يَعْنِي مَا يُضْطَادُّ مِنْهُ طَرِيًّا^(١). ﴿وَطَعَامُهُ﴾ مَا يَتَزَوَّدُ مِنْهُ مَلِيحًا يَابِسًا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الرَّوَايَةِ الْمَشْهُورَةِ عَنْهُ: صَيْدُهُ مَا أُخِذَ مِنْهُ حَيًّا ﴿وَطَعَامُهُ﴾ مَا لَفَظَهُ مَيِّتًا، وَهَكَذَا رَوَى عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ وَزَيْدِ بْنِ نَابِتٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو وَأَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَعِكْرَمَةُ وَأَبِي سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيُّ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ.

وَقَوْلُهُ ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْغَنَةِ﴾ أَيُّ مَنَفَعَةٍ وَقَوْلُهُ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ ﴿وَلِلْغَنَةِ﴾ وَهُمْ جَمْعُ سَيَّارٍ. قَالَ عِكْرَمَةُ: لِمَنْ كَانَ بِحَضْرَةِ الْبَحْرِ وَالسَّفَرِ^(٢). وَقَالَ غَيْرُهُ: الطَّرِيقُ مِنْهُ: لِمَنْ يَضْطَادُّهُ مِنْ حَاضِرَةِ الْبَحْرِ، وَطَعَامُهُ مَا مَاتَ فِيهِ أَوْ اضْطَيْدَ مِنْهُ وَمُلِحَ وَقُدِّدَ زَادًا لِلْمُسَافِرِينَ وَالثَّانِينَ عَنِ الْبَحْرِ. وَقَدْ رَوَى نَحْوَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالسُّدِّيِّ وَغَيْرِهِمْ^(٣). وَرَوَى الْإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْثًا قِبَلَ السَّاحِلِ، فَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أَبَا عُيَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ، وَهُمْ ثَلَاثُمِائَةٍ وَأَنَا فِيهِمْ، قَالَ: فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ فَبَيَّ الزَّادَ، فَأَمَرَ أَبُو عُيَيْدَةَ بِأَزْوَادِ ذَلِكَ الْجَيْشِ، فَجَمَعَ ذَلِكَ كُلَّهُ، فَكَانَ مِزْوَدِي تَمَرٍ، قَالَ: فَكَانَ يَمُوتُنَا كُلُّ يَوْمٍ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى فَنَيَّ، فَلَمْ يَكُنْ يُصَيِّتُنَا إِلَّا تَمْرَةً تَمْرَةً، فَقُلْتُ: وَمَا تُعْنِي التَّمْرَةُ؟ فَقَالَ: فَقَدْ وَجَدْنَا فَقْدَهَا حِينَ فَنَيْتَ، قَالَ: ثُمَّ انْتَهَيْنَا إِلَى الْبَحْرِ، فَإِذَا حَوْثٌ مِثْلُ الطَّرْبِ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ ذَلِكَ الْجَيْشُ ثَمَانِي عَشْرَةَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَمَرَ أَبُو عُيَيْدَةَ بِضَلْعَيْنِ مِنْ أَضْلَاعِهِ فَنَصَبَا، ثُمَّ أَمَرَ بِرَاحِلَةٍ فَرَحَلْتُ، وَمَرَّتْ تَحْتَهُمَا، فَلَمْ نَصِبْهُمَا^(٤). وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٥).

وَرَوَى مَالِكُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نُرْكَبُ الْبَحْرَ وَنَحْمِلُ

مَتَاعًا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا، أَفَتَوَضَّأُ بِمَاءِ الْبَحْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْجَلُّ مِثْنَتُهُ»^(٦). وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ الْإِمَامَانِ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَأَهْلُ السُّنَنِ الْأَرْبَعُ، وَصَحَّحَهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ وَغَيْرُهُمْ، وَقَدْ رَوَى عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِنَحْوِهِ^(٧).

[تَحْرِيمُ صَيْدِ الْبَرِّ لِلْمُحْرِمِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أَيُّ فِي حَالِ إِحْرَامِكُمْ يَحْرُمُ عَلَيْكُمْ الْأَضْيَادُ، فَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى تَحْرِيمِ ذَلِكَ، فَإِذَا اضْطَادَّ الْمُحْرِمُ الصَّيْدَ مُتَعَمِّدًا أَثِمَ وَغَرِمَ، أَوْ مُخْطِئًا غَرِمَ وَحُرِّمَ عَلَيْهِ أَكْلُهُ، لِأَنَّهُ فِي حَقِّهِ

(١) الطبري: ٥٩/١١ (٢) الطبري: ٧١/١١ (٣) الطبري: ٧٣، ٧٢/١١ (٤) الموطأ: ٩٣٠/٢ (٥) فتح الباري: ١٥٢/٥ (٦) مسند الشافعي: ١٥٣٥/٣ (٧) الموطأ: ٢٢/١ (٨) مسند الشافعي: ٢٥ وأحمد: ٢٣٧/٢ وأبو داود: ٨٣ والترمذي: ٦٩ والنسائي: ٥٠/١ وابن ماجه: ٣٨٦ وابن خزيمة: ١١١ وابن حبان: ١١٩

كَالْمَيْتَةِ، وَكَذَا فِي حَقِّ غَيْرِهِ مِنَ الْمُحْرَمِينَ وَالْمُجَلِّينَ.

وَأَمَّا إِذَا صَادَ حَلَالٌ صَيْدًا، فَأَهْدَاهُ إِلَى مُحْرَمٍ، فَإِنْ كَانَ الْحَلَالُ قَدْ قَصَدَ الْمُحْرَمَ بِذَلِكَ الصَّيْدِ، لَمْ يَجْزِ لِلْمُحْرَمِ أَكْلُهُ لِحَدِيثِ الصَّعْبِ بْنِ جَتَّامَةَ أَنَّهُ أَهْدَى لِلنَّبِيِّ ﷺ حِمَارًا وَحْشِيًّا وَهُوَ بِالْأُبُوءِ أَوْ بِوَدَانَ، فَرَدَّهُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى مَا فِي وَجْهِهِ قَالَ: «إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلَّا أَنَا حُرْمٌ». وَهَذَا الْحَدِيثُ مُحَرَّجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(١). وَلَهُ أَلْفَاظٌ كَثِيرَةٌ، قَالُوا: فَوَجْهُهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ظَنَّ أَنَّ هَذَا إِنَّمَا صَادَهُ مِنْ أَجْلِهِ، فَرَدَّهُ لَذَلِكَ، فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَقْصِدْهُ بِالْأَصْطِنَادِ فَإِنَّهُ يَجُوزُ لَهُ الْأَكْلُ مِنْهُ؛ لِحَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ حِينَ صَادَ حِمَارٌ وَحْشٍ، وَكَانَ حَلَالًا لَمْ يُحْرَمْ، وَكَانَ أَصْحَابُهُ مُحْرَمِينَ، فَتَوَقَّفُوا فِي أَكْلِهِ ثُمَّ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «هَلْ كَانَ مِنْكُمْ أَحَدٌ أَشَارَ إِلَيْهَا، أَوْ أَعَانَ فِي قَتْلِهَا؟» قَالُوا: لَا. قَالَ: «فَكُلُوا» وَأَكَلَ مِنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَهَذِهِ الْقِصَّةُ ثَابِتَةٌ أَيْضًا فِي الصَّحِيحَيْنِ بِالْأَلْفَاظِ كَثِيرَةٍ^(٢).

[١] «وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشُرُونَ» يَقُولُ تَعَالَى: وَاحْشَوْا اللَّهَ - أَيُّهَا النَّاسُ - وَاحْذَرُوهُ، بِطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ، وَفِيمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي أُنْزِلَتْهَا عَلَى نَبِيِّكُمْ ﷺ: مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَالْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ، وَعَنْ إِصَابَةِ صَيْدِ الْبَرِّ وَقَتْلِهِ فِي حَالِ إِحْرَامِكُمْ. فَإِنَّ اللَّهَ مَصِيرُكُمْ وَمَرْجِعُكُمْ، فَيُعَاقِبُكُمْ بِمَعْصِيَتِكُمْ إِيَّاهُ، وَيُجَازِيكُمْ فَيُنِيبُكُمْ عَلَى طَاعَتِكُمْ لَهُ. «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَبْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ» يَقُولُ تَعَالَى: صَيَّرَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَبْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ الَّذِينَ لَا قِيَامَ لَهُمْ: مِنْ رَئِيسٍ يَحْجُزُ قَوِيَهُمْ عَنْ ضَعِيفِهِمْ، وَمُسَيِّئِهِمْ عَنْ مُحْسِنِهِمْ، وَظَالِمِهِمْ عَنْ مَظْلُومِهِمْ «وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْأَهْدَى وَالْقَلْبَدِيَّ» يَقُولُ: وَجَعَلَ هَذِهِ أَيْضًا قِيَامًا لِلنَّاسِ، كَمَا جَعَلَ الْكَعْبَةَ قِيَامًا لَهُمْ، فَحَجَزَ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ ذَلِكَ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ قِيَامٌ غَيْرُهُ، وَجَعَلَهَا مَعَالِمَ لِدِينِهِمْ وَمَصَالِحَ أُمُورِهِمْ. وَجَعَلَ تَعَالَى الْكَعْبَةَ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْأَهْدَى وَالْقَلْبَدِيَّ قِيَامًا لِمَنْ كَانَ يُحْرَمُ ذَلِكَ مِنَ الْعَرَبِ وَيُعَظَّمُهُ، بِمَنْزِلَةِ الرَّئِيسِ الَّذِي يَقُومُ بِهِ أَمْرُ تَبَاعِهِ، وَأَمَّا الْكَعْبَةُ: فَالْحَرَمُ كُلُّهُ. وَسَمَّاها اللَّهُ «حَرَامًا» لِتَحْرِيمِهِ إِيَّاهَا أَنْ

يُصَادَ صَيْدُهَا أَوْ يُخْتَلَى خَلَاها أَوْ يُعْصَدَ شَجَرُهَا. وَكَذَلِكَ كَانَتْ الْكَعْبَةُ وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ وَالْأَهْدَى وَالْقَلْبَدِيَّ قِيَامًا لِأَمْرِ الْعَرَبِ، الَّذِي كَانَ بِهِ صَلَاحُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. وَهِيَ فِي الْإِسْلَامِ مَعَالِمٌ حَجَّهِمْ وَمَنَاسِكُهُمْ، وَمُتَوَجَّهُهُمْ لِصَلَاتِهِمْ «ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» يَقُولُ تَعَالَى: صَيَّرْتُ لَكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - ذَلِكَ قِيَامًا، كَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ مَنْ أَحَدَتْ لَكُمْ لِمَصَالِحِ دُنْيَاكُمْ مَا أَحَدَتْ - مِمَّا بِهِ قِيَامُكُمْ - عِلْمًا مِنْهُ بِمَنَافِعِكُمْ وَمَصَارِكُمْ: أَنَّهُ كَذَلِكَ يَعْلَمُ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمِمَّا فِيهِ صَلَاحٌ عَاجِلِكُمْ وَآجِلِكُمْ. وَلَتَعْلَمُوا أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ، وَهُوَ مُحْصِيهَا عَلَيْكُمْ، حَتَّى يُجَازِيَ الْمُحْسِنَ مِنْكُمْ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءَ مِنْكُمْ بِإِسَاءَتِهِ «اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» يَقُولُ تَعَالَى: اعْلَمُوا أَنَّ رَبَّكُمْ الَّذِي يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ سَرَائِرِ أَعْمَالِكُمْ وَعَلَانِيَتِهَا. شَدِيدُ عِقَابِهِ مَنْ عَصَاهُ وَتَمَرَّدَ عَلَيْهِ، وَهُوَ غَفُورٌ لِدُنُوبِ مَنْ أَطَاعَهُ وَأَنَابَ إِلَيْهِ، رَحِيمٌ بِهِ أَنْ يُعَاقِبَهُ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِهِ بَعْدَ إِتَابَتِهِ وَتَوْبَتِهِ مِنْهَا «مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ» وَهَذَا مِنَ اللَّهِ تَهْدِيدٌ لِعِبَادِهِ وَوَعِيدٌ. يَقُولُ: لَيْسَ عَلَى رَسُولِنَا الَّذِي أَرْسَلْنَاهُ إِلَيْكُمْ، إِلَّا أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْكُمْ رِسَالَتَنَا، ثُمَّ إِلَيْنَا التَّوَابُ عَلَى الطَّاعَةِ، وَعَلَيْنَا الْعِقَابُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، وَغَيْرُ خَفِيِّ عَلَيْنَا الْمُطِيعُ مِنْكُمْ الْقَابِلُ رِسَالَتَنَا، مِنَ الْعَاصِيِ الْآبِي

(١) البخاري: ١٨٢٥، ٢٥٧٣، ومسلم: ٨٥٠/٢ (٢) فتح الباري: ٥٢٨/٩، ٨٥٢/٢ (*) ذكر الحافظ ابن كثير هنا أربع آيات. هي: ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩ ثم فسر أكثر الآية الأولى منها فقط إلى هذا الموضع، ولم يذكر تفسير آخرها ولا الثلاثة بعدها. وهذا هو الثابت في كل الأصول المخطوطة والمطبوعة. والظاهر أنه منها عن ذلك، رحمه الله. فمن البعيد جدًا أن يكون ذلك سهواً من الناسخين يتفقون عليه في جميع النسخ على اختلاف مصادرها. فرأيت - تكميل هذا النقص، بإثبات تفسيرها من تفسير إمام المفسرين: ابن جرير الطبري - بشيء من الاختصار والتصرف، والافتقار على التفسير نفسه. مراعيًا الدقة في المحافظة على عبارته العالية ما استطعت، إن شاء الله، وبه الاستعانة. (تكميل بقلم الشيخ أحمد شاكر، هذا كتب هنا في الأصل: سقط من هذا الموضع تفسير الثلاث الآيات ٩٧، ٩٨، ٩٩ وترك لها بياض في النسخة المكية. وليس فيه هذا التكميل). الناشر.

سَأَلُوهُ حَتَّى أَحْفَوْهُ بِالْمَسْأَلَةِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ ذَاتَ يَوْمٍ فَصَعِدَ الْمِئْبَرُ، فَقَالَ: «لَا تَسْأَلُونِي الْيَوْمَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيِّنَتُهُ لَكُمْ» فَأَشْفَقَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ يَدَيِ أَمْرِ قَدْ حَضَرَ، فَجَعَلْتُ لَا أَلْتَقِثُ بَيِّنًا وَلَا شِمَالًا إِلَّا وَجَدْتُ كُلًّا لَا قَأَ رَأْسَهُ فِي ثَوْبِهِ يَبْكِي، فَأَنْشَأَ رَجُلٌ كَانَ يَلَاحِي فَيَدْعِي إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَنْ أَبِي؟ قَالَ: «أَبُوكَ حُدَافَةُ». قَالَ: ثُمَّ قَامَ عُمَرُ - أَوْ قَالَ: فَأَنْشَأَ عُمَرُ - فَقَالَ:

رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا عَائِدًا بِاللَّهِ - أَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ الْفِتَنِ - قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمْ أَرْ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ كَالْيَوْمِ قَطُّ، صُوِّرَتْ لِي الْجَنَّةُ وَالنَّارُ حَتَّى رَأَيْتُهُمَا ذَوْنِ الْحَائِطِ»^(٤). أَخْرَجَاهُ مِنْ طَرِيقِ سَعِيدٍ^(٥).

ثُمَّ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ قَوْمٌ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتِهْزَاءً، فَيَقُولُ الرَّجُلُ: مَنْ أَبِي؟ وَيَقُولُ الرَّجُلُ تَضِلُّ نَافَتُهُ: أَيْنَ نَافَتِي؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ: «يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سُؤُوكُمْ»... حَتَّى فَرَّغَ مِنَ الْآيَةِ كُلِّهَا^(٦). تَقَرَّدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» [آل عمران: ٩٧] قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفِي كُلِّ عَامٍ؟ فَسَكَتَ، فَقَالُوا: أَفِي كُلِّ عَامٍ؟ فَسَكَتَ، فَقَالَ: «لَا، وَلَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ لَمَّا اسْتَطَعْتُمْ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ: «يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سُؤُوكُمْ» الْآيَةَ، وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(٧). وَظَاهِرُ الْآيَةِ التَّهْيِ عَنْ السُّؤَالِ عَنِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي إِذَا عَلِمَ بِهَا الشَّخْصُ سَاءَتُهُ، فَلَا وَلَى: الْإِعْرَاضُ عَنْهَا وَتَرْكُهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ بُدِّ لَكُمْ» أَيِ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي نُهَيْتُمْ عَنِ السُّؤَالِ عَنْهَا، حِينَ يَنْزِلُ الْوَحْيُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَبَيَّنَ لَكُمْ «وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» [التغابن: ٧].

رِسَالَتَنَا. لِأَنَّا نَعْلَمُ مَا عَمِلَهُ الْعَامِلُ مِنْكُمْ فَأَظْهَرَهُ بِجَوَارِحِهِ وَنَطَقَ بِهِ بِلِسَانِهِ، وَمَا تُخْفُونَهُ فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ إِيْمَانٍ وَكُفْرٍ، أَوْ يَقِينٍ وَشَكٍّ وَنِفَاقٍ. فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ضَمَائِرِ الصُّدُورِ، وَظَوَاهِرِ أَعْمَالِ النُّفُوسِ، مِمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَبَيْدِهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، فَحَقِيقٌ أَنْ يَتَّقَى، وَأَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى].

«قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سُؤُوكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ بُدِّ لَكُمْ عَمَّا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: «قُلْ يَا مُحَمَّدُ، لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ» أَيِ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ «كَثْرَةُ الْخَبِيثِ» يَعْنِي أَنَّ الْقَلِيلَ الْحَلَالِ النَّافِعَ خَيْرٌ مِنَ الْكَثِيرِ الْحَرَامِ الضَّارِّ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «مَا قَلَّ وَكَفَى، خَيْرٌ مِّمَّا كَثُرَ وَاللَّهُ»^(١). «فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابَ» أَيِ يَا ذَوِي الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، وَتَحَبَّبُوا الْحَرَامَ وَدَعُوهُ وَافْتَنُوا بِالْحَلَالِ وَاتَّقُوا بِهِ «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» أَيِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

[دَمُ السُّؤَالِ يَدُونِ فَائِدَةٍ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سُؤُوكُمْ» هَذَا تَأْدِيبٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَنَهْيٌ لَهُمْ عَنْ أَنْ يَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ مِمَّا لَا فَائِدَةَ لَهُمْ فِي السُّؤَالِ وَالتَّنْقِيبِ عَنْهَا، لِأَنَّهَا إِنْ أَظْهَرَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْأُمُورَ رَبِّمَا سَاءَتْهُمْ وَشَقَّ عَلَيْهِمْ سَمَاعُهَا، وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ، وَقَالَ فِيهَا: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَصَحَحْتُكُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا». قَالَ: فَعَطَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجُوهَهُمْ لَهُمْ حِينٌ، فَقَالَ رَجُلٌ: مَنْ أَبِي؟ قَالَ: «فُلَانٌ» فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: «لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ»^(٢). وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَمُسْلِمٌ وَأَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ^(٣).

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: «يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سُؤُوكُمْ»... الْآيَةَ، قَالَ: فَحَدَّثَنَا: أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

(١) أحمد: ١٩٧/٥ (٢) فتح الباري: ١٣٠/٨ (٣) فتح الباري:

٣٢٦/١١ ومسلم: ١٨٣٢/٤ وأحمد: ١٨٠/٣ وتحفة الأحوذ:

٤٢١/٨ وتحفة الأشراف: ٤١٣/١ (٤) الطبري: ١٠٠/١١ (٥)

فتح الباري: ٤٧/١٣ ومسلم: ١٨٣٤/٤ (٦) فتح الباري: ١٣٠/٨

(٧) أحمد: ١١٣/١ والترمذي: ٣٠٥٥ وابن ماجه: ٢٨٨٤

وَأِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا
حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ
لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
فَإِن نَبِّئْتُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهِدُوا
بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا
عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ
فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ تُحْسِنُونَهَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ
فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ مَتْنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُدِلَ
أَنْتَهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ
اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقَّ
مِنْ شَهِدْتَهُمَا وَمَا اَعْتَدَيْنَا إِذَا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ
أَدْفَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا أَوْ يَحْفَافُوا أَنْ تَرُدَّ آمِنٌ بَعْدَ
أَيْمَنِهمُ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

يُحْمَلُ عَلَيْهِ شَيْءٌ. وَسَمَوُةُ الْحَامِي (٤). وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ
وَالنَّسَائِيُّ (٥).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ
النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِ وَعَبَدَ
الْأَصْنَامَ أَبُو خُرَاعَةَ عَمْرُو بْنُ عَامِرٍ، وَإِنِّي رَأَيْتُهُ يَجُرُّ
أَمْعَاءَهُ فِي النَّارِ» (٦). تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.
عَمْرُو هَذَا هُوَ ابْنُ لُحَيِّ بْنِ قَمْعَةَ، أَحَدُ رُؤَسَاءِ خُرَاعَةَ
الَّذِينَ وَلُوا الْبَيْتَ بَعْدَ جُرْهُمَ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ دِينَ
إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، فَادْخَلَ الْأَصْنَامَ إِلَى الْحِجَازِ، وَدَعَا
الرَّعَاعَ مِنَ النَّاسِ إِلَى عِبَادَتِهَا وَالتَّقَرُّبِ بِهَا، وَشَرَعَ لَهُمْ
هَذِهِ الشَّرَائِعَ الْجَاهِلِيَّةَ فِي الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا، كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ

ثُمَّ قَالَ: «عَمَّا اللَّهُ عَنَّا» أَيَّ عَمَّا كَانَ مِنْكُمْ قَبْلَ ذَلِكَ
«وَاللَّهُ عَمُّوُ حَلِيمٌ» وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: «وَلَنْ تَسْأَلُوا عَنَّا
حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ بُدْلَ لَكُمْ» أَيُّ: لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ
تَسْتَأْنِفُونَ السُّؤَالَ عَنْهَا، فَلَعَلَّهُ قَدْ يُنْزَلُ بِسَبَبِ سُؤَالِكُمْ
تَشْدِيدٌ أَوْ تَضْيِيقٌ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «أَعْظَمُ
الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يَحْرَمْ، فَحَرَّمَ مِنْ
أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ» (١). «عَمَّا اللَّهُ عَنَّا» أَيُّ مَا لَمْ يَذْكُرْهُ فِي كِتَابِهِ
فَهُوَ مِمَّا عَمَّا عَنْهُ، فَاسْكُتُوا أَنْتُمْ عَنْهَا. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ
مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ» (٢).
وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَيْضًا: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ
فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا
تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نَسْيَانٍ فَلَا
تَسْأَلُوا عَنْهَا» (٣).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا
كَافِرِينَ» أَيُّ قَدْ سَأَلَ هَذِهِ الْمَسَائِلَ الْمُنْهِيَّ عَنْهَا قَوْمٌ مِنْ
قَبْلِكُمْ فَاجْتَبِئُوا عَنْهَا، ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا، فَأَصْبَحُوا بِهَا
كَافِرِينَ، أَيُّ بِسَبَبِهَا، أَيُّ بَيِّنَتٍ لَهُمْ فَلَمْ يَنْتَهِكُوا بِهَا،
لِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْأَلُوا عَلَىٰ وَجْهِ الْإِسْتِزَادِ بَلْ عَلَىٰ وَجْهِ
الِاسْتِهْزَاءِ وَالْعِتَادِ.

«مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحْرٍ وَلَا سَابِغٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَذَّبَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا
وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا
يَهْتَدُونَ ﴿١١٠﴾»

[تَفْسِيرُ الْحَيَوَانَاتِ الْمَذْكُورَةِ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، قَالَ:
"الْبَحِيرَةُ": الَّتِي يَنْمَعُ دُرُّهَا لِلطَّوَاغِيتِ، فَلَا يَحْلُبُهَا أَحَدٌ
مِنَ النَّاسِ، وَ"السَّائِيَةُ": كَانُوا يُسَبِّغُونَهَا لِأَهْلِيهِمْ لَا يُحْمَلُ
عَلَيْهَا شَيْءٌ. قَالَ: وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
"رَأَيْتُ عَمْرُو بْنَ عَامِرٍ الْخُرَاعِيَّ يَجُرُّ قُضْبَةً فِي النَّارِ، وَكَانَ
أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِ" وَ"الْوَصِيلَةُ": النَّاقَةُ الْبُكْرُ تُبَكَّرُ -
فِي أَوَّلِ نِتَاجِ إِبِلٍ - ثُمَّ تُنْتَى بَعْدَ بَأْنَتِي، وَكَانُوا يُسَبِّغُونَهَا
لِطَّوَاغِيتِهِمْ إِنْ وَصَلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ،
وَ"الْحَامُ": فَحْلُ الْإِبِلِ يَضْرِبُ الضَّرْبَ الْمَعْدُودَ، فَإِذَا
قَضَى ضِرَابَهُ وَدَعَا لَطَّوَاغِيتَ، وَأَغْفَوَهُ عَنِ الْحَمْلِ، فَلَمْ

(١) البخاري: ٧٢٨٩ ومسلم: ٢٣٥٨ (٢) مسلم: ١٨٣١/٤

(٣) البيهقي: ١٢/١٠ (٤) فتح الباري: ١٣٣/٨ (٥) مسلم:

٢١٩٢/٤ والنسائي في الكبرى: ٣٣٨/٦ (٦) أحمد: ٤٤٦/١

إسناده ضعيف فيه إبراهيم بن مسلم الهجري قال ابن حجر: "لين

الحديث رفع موقوفات" [تقريب التهذيب]

لِلذُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ، وَإِنْ كَانَتْ مِثَّةً اشْتَرَكُوا فِيهَا. وَأَمَّا الْحَامِي: فَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا لَفَّحَ فَحَلَّهُ عَشْرًا قِيلَ: حَامٍ فَأَتْرَكُوهُ^(٦). وَكَذَا قَالَ أَبُو رُوَيْحٍ وَقَتَادَةُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَأَمَّا الْحَامُ فَالْفَحْلُ مِنَ الْإِبِلِ إِذَا وَلَدَ لَوَلَدِهِ قَالُوا: حَمَى هَذَا ظَهْرَهُ، فَلَا يَحْمِلُونَ عَلَيْهِ شَيْئًا وَلَا يَجْزُونَ لَهُ وَبَرًا، وَلَا يَمْنَعُونَهُ مِنْ حِمَى رَعِي، وَمِنْ حَوْضٍ يَشْرَبُ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ الْحَوْضُ لِعَبْرٍ صَاحِبِهِ^(٧). وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ: سَمِعْتُ مَالِكًا يَقُولُ: أَمَّا الْحَامُ فَمِنْ الْإِبِلِ، كَانَ يَضْرِبُ فِي الْإِبِلِ فَإِذَا انْقَضَى ضَرَابُهُ جَعَلُوا عَلَيْهِ رِيشَ الطَّوَاوِيسِ وَسَيَّوَهُ، وَقَدْ قِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ أَبِي إِسْحَاقَ السَّيِّعِيِّ، عَنْ أَبِي الْأَخْوَصِ الْجُشَمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ مَالِكِ بْنِ نَضْلَةَ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي خُلُقَانٍ مِنَ الثِّيَابِ، فَقَالَ لِي: «هَلْ لَكَ مِنْ مَالٍ؟» فَقُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟» قَالَ: قُلْتُ: مِنْ كُلِّ الْمَالِ: مِنَ الْإِبِلِ، وَالْغَنَمِ، وَالْخَيْلِ، وَالرَّقِيقِ، قَالَ: «فَإِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَاتَّخِذْ عَلَيْهِ»، ثُمَّ قَالَ: «تُنْتِجُ إِبِلَكَ وَافِيَةً أَذْنَاهَا؟» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، وَهَلْ تَنْتِجُ الْإِبِلَ إِلَّا كَذَلِكَ؟ قَالَ: «فَلَعَلَّكَ تَأْخُذُ الْمَوْسَى فَتَقْطَعُ آذَانَ طَائِفَةٍ مِنْهَا وَتَقُولُ: هَذِهِ [بُحْرًا] وَتَسْقُو آذَانَ طَائِفَةٍ مِنْهَا وَتَقُولُ: هَذِهِ حُرْمٌ» قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «فَلَا تَفْعَلْ، إِنَّ كُلَّ مَا آتَاكَ اللَّهُ لَكَ جَلٌّ»، ثُمَّ قَالَ: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ». أَمَّا الْبَحِيرَةُ، فَفِي الَّتِي يَجْدَعُونَ أَذْنَاهَا فَلَا تَنْتِجُ امْرَأَتَهُ وَلَا بَنَاتَهُ وَلَا أَحَدًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ بِصُوفِهَا، وَلَا أَوْبَارِهَا، وَلَا أَشْعَارِهَا، وَلَا أَلْبَانِهَا، فَإِذَا مَاتَتْ اشْتَرَكُوا فِيهَا^(٨).

وَأَمَّا السَّائِبَةُ، فَفِي الَّتِي يُسَيِّونَ لِأَهْلِيهِمْ وَيَذْهَبُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ فَيُسَيِّونَهَا، وَأَمَّا الْوَصِيلَةُ، فَالسَّاءُ تِلْدُ سِنَّةً أَبْطُنٍ، فَإِذَا وَلَدَتْ السَّابِعَ جُدَعَتْ وَقُطِعَ قُرْنُهَا، فَقَوْلُونَ: قَدْ وَصَلَتْ فَلَا يَذْبَحُونَهَا، وَلَا تُضْرَبُ وَلَا تُنَمَّعُ مِنْهَا وَرَدَتْ عَلَى حَوْضٍ. هَكَذَا يُذَكَّرُ تَفْسِيرُ ذَلِكَ مُدْرَجًا فِي الْحَدِيثِ،

تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ فِي ذَلِكَ [الأنعام: ١٣٦].

فَأَمَّا الْبَحِيرَةُ، فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هِيَ النَّاقَةُ إِذَا نُتِجَتْ خَمْسَةَ أَبْطُنٍ، نَظَرُوا إِلَى الْخَامِسِ، فَإِنْ كَانَ ذَكَرًا ذَبَحُوهُ، فَأَكَلَهُ الرِّجَالُ دُونَ النِّسَاءِ، وَإِنْ كَانَ أُنْثَى جَدَعُوا أَذْنَاهَا، فَقَالُوا: هَذِهِ بَحِيرَةٌ^(١). وَذَكَرَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ قَرِيبًا مِنْ هَذَا^(٢). وَأَمَّا السَّائِبَةُ فَقَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ مِنَ الْغَنَمِ. نَحْوُ مَا فَسَّرَ مِنَ الْبَحِيرَةِ إِلَّا أَنَّهَا: مَا وَلَدَتْ مِنْ وَلَدٍ كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ سِنَّةٌ أَوْلَادٍ، كَانَتْ عَلَى هَيْئَتِهَا، فَإِذَا وَلَدَتْ السَّابِعَ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى أَوْ ذَكَرَيْنِ ذَبَحُوهُ، فَأَكَلَهُ رِجَالُهُمْ دُونَ نِسَائِهِمْ^(٣). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ. السَّائِبَةُ هِيَ النَّاقَةُ إِذَا وَلَدَتْ عَشْرَ إِنَاثٍ مِنَ الْوَلَدِ لَيْسَ بَيْنَهُنَّ ذَكَرٌ، سَيِّتَ فَلَمْ تُرَكَّبْ وَلَمْ يَجَزَّ وَبَرَّهَا وَلَمْ يُحَلَبْ لَبْنُهَا إِلَّا لِضَيْفٍ. وَقَالَ أَبُو رُوَيْحٍ: السَّائِبَةُ: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا خَرَجَ فَقَضِيَتْ حَاجَتُهُ، سَيَّبَ مِنْ مَالِهِ نَاقَةً أَوْ غَيْرَهَا، فَجَعَلَهَا لِلطَّوَاغِيتِ، فَمَا وَلَدَتْ مِنْ شَيْءٍ كَانَ لَهَا. وَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِذَا قَضِيَتْ حَاجَتُهُ، أَوْ عَوْفِي مِنْ مَرَضٍ، أَوْ كَثُرَ مَالُهُ، سَيَّبَ شَيْئًا مِنْ مَالِهِ لِلْأَوْتَانِ، فَمَنْ عَرَضَ لَهُ مِنَ النَّاسِ عَوِجَبَ بِعُقُوبَةٍ فِي الدُّنْيَا.

وَأَمَّا الْوَصِيلَةُ، فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هِيَ السَّاءُ إِذَا نُتِجَتْ سَبْعَةُ أَبْطُنٍ، نَظَرُوا إِلَى السَّابِعِ، فَإِنْ كَانَ ذَكَرًا وَهُوَ مَيِّتٌ - اشْتَرَكَ فِيهِ الرِّجَالُ دُونَ النِّسَاءِ، وَإِنْ كَانَ أُنْثَى اسْتَحْيَوْهَا، وَإِنْ كَانَ ذَكَرًا وَأُنْثَى فِي بَطْنٍ وَاحِدٍ اسْتَحْيَوْهُمَا وَقَالُوا: وَصَلْتُهُ أُخْتَهُ فَحَرَمْتُهُ عَلَيْهِ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ^(٤). وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَتَبْنَا مَعْمَرًا عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾، قَالَ: فَالْوَصِيلَةُ مِنَ الْإِبِلِ كَانَتْ النَّاقَةُ تَنْتَكِرُ بِالْأُنْثَى، ثُمَّ تَنْتِ بِأُنْثَى فَسَمَّوْهَا الْوَصِيلَةَ، وَيَقُولُونَ: وَصَلْتُ أُنْثَيْنِ لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ، فَكَانُوا يَجْدَعُونَهَا لِطَوَاغِيتِهِمْ^(٥). وَكَذَا رُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ مَالِكٍ ابْنِ أَنَسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ:

الْوَصِيلَةُ مِنَ الْغَنَمِ إِذَا وَلَدَتْ عَشْرَ إِنَاثٍ فِي خَمْسَةِ أَبْطُنٍ، تَوَاطَعْنَ تَوَاطَعْنِي فِي كُلِّ بَطْنٍ، سُمِّيَتْ الْوَصِيلَةَ وَتُرِكَتْ، فَمَا وَلَدَتْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى جُعِلَتْ

(١) الطبري: ١٢٩/١١ (٢) الطبري: ١٣٠/١١ (٣) الطبري:

١٢٨/١١ (٤) ابن أبي حاتم: ١٢٢٢/٤ (٥) عبد الرزاق: ١/

١٩٦ (٦) الطبري: ١٢٩/١١ العوفي وعائلته كلهم ضعفاء (٧)

ابن أبي حاتم: ١٢٢٥/٤ (٨) ابن أبي حاتم: ١٢٢٠/٤

الْوَصِيَّةِ أَتَيْنَا دَوًّا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ عَاخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَتَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَشْيَاءِ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ آثَمًا اسْتَحَقَّا إِنَّمَا فَخَارَانِ يَقُومَانِ مقامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَٰئِينَ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَنَشْهَدَنَّهُمَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَتِيهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُونَ أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ وَأَنْقَرُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

[شَهَادَةُ عَدْلَيْنِ عَلَى الْوَصِيَّةِ]

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى حُكْمٍ عَزِيزٍ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا اللَّيْنُ ءَامِنُوا شَهْدَةً بَيْنَكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَتَيْنَا دَوًّا عَدْلٍ أَوْ عَاخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قَالَ: مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، يَعْنِي أَهْلَ الْكِتَابِ (٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أَي سَافَرْتُمْ ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ وَهَذَانِ شَرْطَانِ لِحُجُوزِ اسْتِشْهَادِ الدَّمِيِّينَ عِنْدَ فَقْدِ الْمُؤْمِنِينَ: أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي سَفَرٍ، وَأَنْ يَكُونَ فِي وَصِيَّةٍ، كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ شُرَيْحُ الْقَاضِي. رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ شُرَيْحٍ قَالَ: لَا تَجُوزُ شَهَادَةُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى إِلَّا فِي سَفَرٍ، وَلَا تَجُوزُ فِي سَفَرٍ إِلَّا فِي الْوَصِيَّةِ (٤). وقوله تعالى: ﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي صَلَاةَ الْعَصْرِ (٥). وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَإِبْرَاهِيمُ النَّحَعِيُّ وَفَتَاةُ وَعِكْرَمَةُ وَمُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ. وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: يَعْنِي صَلَاةَ الْمُسْلِمِينَ (٦). وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ يَقَامَ هَذَانِ الشَّاهِدَانِ بَعْدَ صَلَاةِ اجْتِمَاعِ النَّاسِ فِيهَا بِحَضْرَتِهِمْ ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ أَي فَيُخْلِفَانِ بِاللَّهِ ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ أَي إِنْ ظَهَرَتْ لَكُمُ مِنْهُمَا رِيبةٌ، أَنَّهُمَا خَانَا أَوْ غَلَا، فَيُخْلِفَانِ حَيْثُ دَلَّ بِاللَّهِ ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ﴾ أَي بِأَيْمَانِنَا.

وَقَدْ رَوَى وَجْهٌ آخَرُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي الْأَخْوَصِ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ، مِنْ قَوْلِهِ، وَهُوَ أَشْبَهُ. وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، عَنْ أَبِي الزُّعْرَاءِ عَمْرٍو بْنِ عَمْرٍو، عَنْ عَمِّهِ أَبِي الْأَخْوَصِ عَوْفِ بْنِ مَالِكِ بْنِ نُضْلَةَ، عَنْ أَبِيهِ، بِهِ. وَلَيْسَ فِيهِ تَفْسِيرُ هَذِهِ (١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَذِبُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، أَي مَا سَرَعَ اللَّهُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ وَلَا هِيَ عِنْدَهُ قُرْبَةٌ، وَلَكِنَّ الْمُشْرِكِينَ افْتَرَوْا ذَلِكَ، وَجَعَلُوهُ شَرْعًا لَهُمْ، وَقُرْبَةً يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَيْهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِحَاصِلِ لَهُمْ، بَلْ هُوَ وَبَالَ عَلَيْهِمْ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أَي إِذَا دُعُوا إِلَى دِينِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ وَمَا أَوْجَبَهُ، وَتَرَكُوا مَا حَرَّمَهُ، قَالُوا: يَكْفِينَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ الْأَبَاءَ وَالْأَجْدَادَ مِنَ الطَّرِيقِ وَالْمَسَالِكِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أَي لَا يَفْهَمُونَ حَقًّا وَلَا يَغْرِفُونَهُ وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ، فَكَيْفَ يَتَّبِعُونَهُمْ وَالْحَالَةَ هَذِهِ، لَا يَتَّبِعُهُمْ إِلَّا مَنْ هُوَ أَجْهَلُ مِنْهُمْ وَأَضَلُّ سَبِيلًا.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

[الْأَمْرُ بِإِصْلَاحِ النَّفْسِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُصْلِحُوا أَنْفُسَهُمْ، وَيَتَعَلَّمُوا الْخَيْرَ بِجُودِهِمْ وَطَاقَتِهِمْ، وَمُخْبِرًا لَهُمْ أَنَّهُ مَنْ أَصْلَحَ أَمْرُهُ لَا يَضُرُّهُ فُسَادُ مَنْ فَسَدَ مِنَ النَّاسِ، سِوَاءَ كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ أَوْ بَعِيدًا.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ قَيْسٍ قَالَ: قَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَتَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وَإِنَّكُمْ تَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُتَكَبِّرَ وَلَا يُغَيِّرُونَهُ، يُوشِكُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْصَهُمْ بِعِقَابِهِ». قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا كُنَّا وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ (٢).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةً بَيْنَكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ

(١) أحمد: ١٣٦/٤ (٢) أحمد: ٥/١ (٣) ابن أبي حاتم: ١٢٢٩/١٢ (٤) الطبري: ١٦٤، ١٦٣/١١ (٥) الطبري: ١١/١٧٢ (٦) الطبري: ١٧٤/١١

قَالَ مُتَابِلُ بْنُ حَيَّانَ. ﴿ثُمَّ﴾ أَيُّ لَا نَعْتَاضُ عَنْهُ بِعَوَضٍ قَلِيلٍ مِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الرَّائِلَةِ ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أَيُّ وَلَوْ كَانَ الْمَشْهُودُ عَلَيْهِ قَرِيبًا لَنَا لَا نُحَابِيهِ ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ أَضَافَهَا إِلَى اللَّهِ تَشْرِيفًا لَهَا وَتَعْظِيمًا لِأَمْرِهَا ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَيْمِينَ﴾ أَيُّ إِنْ فَعَلْنَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ مِنْ تَحْرِيفِ الشَّهَادَةِ أَوْ تَبْدِيلِهَا أَوْ تَغْيِيرِهَا أَوْ كَتْمِهَا بِالْكَلْبَةِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ عُرِيَ عَنْ أَهْمَا اسْتَحَقَّ إِنَّمَا﴾ أَيُّ فَإِنْ اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين: أَنَّهُمَا خَانَا أَوْ غَلَا شَيْئًا مِنَ الْمَالِ الْمَوْصَى بِهِ إِلَيْهِمَا، وَظَهَرَ عَلَيْهِمَا بِذَلِكَ ﴿فَفَارِغَانِ بِقَوْمَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ﴾ أَيُّ مَتَى تَحَقَّقَ ذَلِكَ بِالْخَبَرِ الصَّحِيحِ عَلَى خِيَانَتِهِمَا، فَلْيَقُمْ اثْنَانِ مِنَ الْوَرَثَةِ الْمُسْتَحَقِّينَ لِلتَّرِكَةِ، وَلْيَكُونَا مِنْ أَوْلِي مَنْ بَرِثَ ذَلِكَ الْمَالِ ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهَدَتِهِمَا﴾ أَيُّ لَقَوْلُنَا: إِنَّهُمَا خَانَا، أَحَقُّ وَأَصَحُّ وَأَثْبَتُ مِنْ شَهَادَتِهِمَا الْمُتَقَدِّمَةِ ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ أَيُّ فِيمَا قُلْنَا فِيهِمَا مِنَ الْخِيَانَةِ، ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أَيُّ إِنْ كُنَّا قَدْ كَذَبْنَا عَلَيْهِمَا. وَهَذَا التَّحْلِيلُ لِلْوَرَثَةِ وَالرَّجُوعُ إِلَى قَوْلِهِمَا وَالْحَالَةُ هَذِهِ: كَمَا يَحْلِفُ أَوْلِيَاءُ الْمَقْتُولِ إِذَا ظَهَرَ لَوْثٌ فِي جَانِبِ الْقَاتِلِ، فَيُقْسِمُ الْمُسْتَحَقُّونَ عَلَى الْقَاتِلِ، فَيُدْفَعُ بِرُمَّتِهِ إِلَيْهِمْ. كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي بَابِ الْقَسَامَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ أَذَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ أَيُّ شَرْعِيَّةٌ هَذَا الْحُكْمُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الْمُرْضِيِّ مِنْ تَحْلِيلِ الشَّاهِدَيْنِ الذَّمِّيَّينَ - [وَقَدْ] اسْتَرْبَ بِهَمَا - أَقْرَبُ إِلَى إِقَامَتِهِمَا الشَّهَادَةَ عَلَى الْوَجْهِ الْمُرْضِيِّ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمُنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ أَيُّ يَكُونُ الْحَامِلُ لَهُمْ عَلَى الْإِثْنَانِ بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا هُوَ تَعْظِيمُ الْحَلْفِ بِاللَّهِ، وَمُرَاعَاةُ جَانِبِهِ وَإِجْلَالُهُ، وَالْخَوْفُ مِنَ الْفُضِيحَةِ بَيْنَ النَّاسِ إِنْ رُدَّتِ الْيَمِينُ عَلَى الْوَرَثَةِ، فَيَحْلِفُونَ وَيَسْتَحَقُّونَ مَا يَدْعُونَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمُنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَيُّ فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ، ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ أَيُّ وَأَطِيعُوا، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أَيُّ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ وَمَتَابَعَةِ شَرْعِيَّتِهِ.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا

إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾

[يَسْأَلُ الْأَنْبِيَاءُ عَنْ أُمَمِهِمْ]

هَذَا إِخْبَارٌ عَمَّا يُخَاطَبُ اللَّهُ بِهِ الْمُرْسَلِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَإِلَّا نَجِيعٌ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّنَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئَن قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونُ عَلَيْهِمَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾

عَمَّا أُجِيبُوا بِهِ مِنْ أَمَمِهِمُ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٦﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] وَقَوْلُ الرُّسُلِ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَالسُّدِّيُّ: إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ^(١). قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ الثَّوْرِيِّ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ فَيَفْرَعُونَ فَيَقُولُونَ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾^(٢). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٣) وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ يَقُولُونَ لِلرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ: لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا عِلْمُ أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنَّا^(٤). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، ثُمَّ اخْتَارَهُ وَهُوَ مِنْ

(١) الطبري: ٢١٠/١١ (٢) عبد الرزاق: ٢٠١/١ (٣)

الطبري: ٢١٠/١١ (٤) الطبري: ٢١١/١١

يَاذِنُ اللَّهُ وَخَلَقِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَبَرَّئِ الْأَكْمَةَ وَالْأَرْصَ يَاذِي﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ أَخْرَجَ الْمُؤْتَى يَاذِي﴾ أَيْ تَدْعُوهُمْ فَيَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ يَاذِنُ اللَّهُ وَتُدْرِيهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أَيْ وَادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ فِي كَفِّي إِيَّاهُمْ عَنْكَ حِينَ جِئْتَهُمْ بِالْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ الْفَاطِعَةِ عَلَى بُيُوتِكَ وَرَسَائِلِكَ مِنَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، فَكَذَّبُوكَ وَاتَّهَمُوكَ بِأَنَّكَ سَاحِرٌ، وَسَعَوْا فِي قَتْلِكَ وَصَلَبِكَ فَتَجَبَّحْتَ مِنْهُمْ، وَرَفَعْتُكَ إِلَيَّ، وَطَهَرْتُكَ مِنْ دَنَسِهِمْ، وَكَفَيْتُكَ شَرَّهُمْ. وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْإِمْتِنَانَ يَكُونُ وَاقِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعُزِّيرَ عَنْهُ بِصِغَةِ الْمَاضِي دَلَالَةً عَلَى وَقُوعِهِ لَا مَحَالَةَ، وَهَذَا مِنْ أَسْرَارِ الْغُيُوبِ الَّتِي أَطْلَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِ وَرَسُولِي﴾ وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْإِمْتِنَانِ عَلَيْهِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِأَنْ جَعَلَ لَهُ أَصْحَابًا وَأَنْصَارًا. وَالْمُرَادُ بِهَذَا الْوَحْيِ وَحْيُ الْإِلَهَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِي﴾ الْآيَةُ [القصص: ١٧]، وَهُوَ وَحْيُ الْإِلَهَامِ بِلَا خِلَافٍ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّفْلِ أَنْ تَقْبِلَ مِنَ لِبَاسٍ يَبُوءُ مِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ثُمَّ كَلَّمَ مِنْ كُلِّ الشَّجَرِ فَاسْتَلَمَ سُبُلَ رَبِّكَ ذَلِكَ الْآيَةُ [النحل: ٦٨، ٦٩]، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَلْهِمَّهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَلِكَ. وَقَالَ السُّدِّي: قَدَفَ فِي قُلُوبِهِمْ ذَلِكَ، فَقَالُوا: «ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقُولُوا اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قَالُوا يُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَتَعْلَمَ أَنَّ قَدْ صَدَقْنَا وَتَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسَلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿

[بَيَانُ نَزُولِ الْمَائِدَةِ]

هَذِهِ قِصَّةُ الْمَائِدَةِ وَإِلَيْهَا تُنْسَبُ السُّورَةُ، فَيَقَالُ سُورَةُ الْمَائِدَةِ، وَهِيَ مِمَّا أَمَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ

بَابُ التَّادِبِ مَعَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، أَيْ لَا عِلْمَ لَنَا بِالنَّسَبَةِ إِلَى عِلْمِكَ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَتَحَنَّنْ وَإِنْ كُنَّا أَجْنَبًا وَعَرَفْنَا مَنْ أَجَابَنَا، وَلَكِنْ مِنْهُمْ مَنْ كُنَّا إِنَّمَا نَطْلُعُ عَلَى ظَاهِرِهِ لَا عِلْمَ لَنَا بِبَاطِنِهِ، وَأَنْتَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، الْمُطَّلِعُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَعَلِمْنَا بِالنَّسَبَةِ إِلَى عِلْمِكَ كَلَّا عِلْمٍ، فَإِنَّكَ أَنْتَ عِلْمُ الْغُيُوبِ.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالدِّينِ إِذْ أَيَّدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبَرَّئِ الْأَكْمَةَ وَالْأَرْصَ يَاذِي وَإِذْ أَخْرَجَ الْمُؤْتَى يَاذِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِ وَرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿

[تَذَكُّيرُ عِيسَى بِالنَّعَمِ]

يَذْكُرُ تَعَالَى مَا أَمَنَّ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِمَّا أَجْرَاهُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ، فَقَالَ: ﴿اَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ أَيْ فِي خَلْقِي إِيَّاكَ مِنْ أُمِّ بَلَا ذَكَرَ، وَجَعَلِي إِيَّاكَ آيَةً وَدَلَالَةً فَاطِعَةً عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِي عَلَى الْأَشْيَاءِ، ﴿وَعَلَىٰ وَالدِّينِ﴾ حَيْثُ جَعَلْتُكَ لَهَا بُرْهَانًا عَلَى بَرَاءَتِهَا مِمَّا نَسَبَهُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاهِلُونَ إِلَيْهَا مِنَ الْفَاحِشَةِ ﴿إِذْ أَيَّدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وَهُوَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَجَعَلْتُكَ نَبِيًّا دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ فِي صِغَرِكَ وَكِبَرِكَ، فَأَطَقْتُكَ فِي الْمَهْدِ صَغِيرًا، فَشَهِدْتَ بِبَرَاءَةِ أُمِّكَ مِنْ كُلِّ غَيْبٍ، وَاعْتَرَفْتَ لِي بِالْعِبُودِيَّةِ، وَأَخْبَرْتَ عَنْ رِسَالَتِي إِيَّاكَ. وَدَعَوْتَ إِلَى عِبَادَتِي. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أَيْ تَدْعُو إِلَى اللَّهِ النَّاسَ فِي صِغَرِكَ وَكِبَرِكَ وَضَمَّنَ ﴿تُكَلِّمُ﴾ تَدْعُو، لِأَنَّ كَلَامَهُ النَّاسَ فِي كَهُولِهِ لَيْسَ بِأَمْرٍ عَجِيبٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أَيْ الْخَطَّ وَالْفَهْمَ وَالتَّوْرَةَ وَهِيَ الْمُتَرْتِلَةُ عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ الْكَلِيمِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أَيْ تُصَوِّرُهُ وَتُشَكِّلُهُ عَلَى هَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي لَكَ فِي ذَلِكَ، فَيَكُونُ طَائِرًا بِإِذْنِي أَيْ فَتَنْفُخُ فِي تِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي شَكَلْتَهَا، بِإِذْنِي لَكَ فِي ذَلِكَ، فَتَكُونُ طَيْرًا ذَا رُوحٍ تَطِيرُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٢٧

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٦﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوا مِنِّي وَآخِيَ إِلَهُيْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٧﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَادُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٨﴾ إِنْ تَعْبُدُونِي فَعْبَادُكُمْ وَإِنْ تَعْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٩﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢٠﴾ لِلَّهِ الْمُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢١﴾

عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ الْمَائِدَةَ نَزَلَتْ عَلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، عَلَيْهَا سَبْعَةُ أَرْغِفَةٍ، وَسَبْعَةُ أَخْوَاتٍ، يَأْكُلُونَ مِنْهَا مَا شَاءُوا. قَالَ: فَسَرَقَ بَعْضُهُمْ مِنْهَا وَقَالَ: لَعَلَّهَا لَا تَنْزِلُ عَذَابًا. فَرُفِعَتْ^(٥).

وَهَذِهِ الْأَثَارُ وَغَيْرُهَا دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْمَائِدَةَ نَزَلَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَيَّامَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، إِجَابَةً مِنَ اللَّهِ لِدَعْوَتِهِ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ ظَاهِرُ هَذَا السِّيَاقِ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ الْآيَةُ.

[وَأَقِيعَةُ تَارِيخِيَّةٌ غَرِيبَةٌ]

وَقَدْ ذَكَرَ أَهْلُ التَّارِيخِ أَنَّ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ نَائِبَ بَنِي أُمَيَّةَ فِي قُتُوخِ بِلَادِ الْمَغْرِبِ، وَجَدَ الْمَائِدَةَ هُنَالِكَ مُرْصَعَةً بِاللَّائِلِيِّ وَأَنْوَاعِ الْجَوَاهِرِ، فَبَعَثَ بِهَا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بَانِي جَامِعِ دِمَشْقَ، فَمَاتَ وَهِيَ فِي

عِيسَى، لَمَّا أَجَابَ دُعَاءَهُ بِنُزُولِهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةً بَاهِرَةً وَحُجَّةً قَاطِعَةً، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ وَهُمْ أَتْبَاعُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ وَالْمَائِدَةُ هِيَ الْخُزَانُ عَلَيْهِ الطَّعَامُ، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ: أَنَّهُمْ إِنَّمَا سَأَلُوا ذَلِكَ لِحَاجَتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مَائِدَةٌ كُلَّ يَوْمٍ يَتَنَاثَرُونَ مِنْهَا وَيَتَقَوَّوْنَ بِهَا عَلَى الْعِبَادَةِ ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ فَاجَابَهُمُ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِلًا لَهُمْ: اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَسْأَلُوا هَذَا، فَعَسَاهُ أَنْ يَكُونَ فِتْنَةً لَكُمْ، وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، ﴿قَالُوا نُؤِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ أَيْ نَحْنُ مُخْتَابُونَ إِلَى الْأَكْلِ مِنْهَا، ﴿وَتَعْلَمِينَ قُلُوبُنَا﴾ إِذَا شَاهَدْنَا نُزُولَهَا رِزْقًا لَنَا مِنَ السَّمَاءِ، ﴿وَتَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْنَا﴾ أَيْ وَنَزَدَادُ إِيمَانًا بِكَ وَعِلْمًا بِرِسَالَتِكَ ﴿وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أَيْ وَنَشْهَدُ أَنَّهَا الْآيَةُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَدَلَالَةٌ وَحُجَّةٌ عَلَى نُبُوَّتِكَ وَصِدْقِ مَا جِئْتَ بِهِ. ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: أَيْ تَخْجُذُ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عِيدًا نَعْظُمُهُ نَحْنُ وَمَنْ بَعْدَنَا^(١). وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: يَعْني يَوْمًا نُصَلِّي فِيهِ^(٢). ﴿وَأَيُّهَا مِنْكَ﴾ أَيْ دَلِيلًا تَنْصِبُهُ عَلَى قُدْرَتِكَ عَلَى الْأَشْيَاءِ، وَعَلَى إِجَابَتِكَ لِدَعْوَتِي، فَيَصْدُقُونِي فِيمَا أُبَلِّغُهُ عَنْكَ، ﴿وَارْزُقْنَا﴾ أَيْ مِنْ عِنْدِكَ رِزْقًا هَيِّئًا بِلَا كُفْلَةٍ وَلَا تَعَبٍ ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ﴾ أَيْ فَمَنْ كَذَّبَ بِهَا مِنْ أُمَّتِكَ يَا عِيسَى وَعَائِدَتِهَا، ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْ مِنْ عَالَمِي زَمَانِكُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ أَذْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَجَةِ الْأَعْلَى مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]. وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: الْمُتَنَافِقُونَ، وَمَنْ كَفَرَ مِنْ أَصْحَابِ الْمَائِدَةِ، وَأَلْ فِرْعَوْنَ^(٣).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَالُوا لَهُ: اذْعُ اللَّهُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ، قَالَ: فَتَزَلَّتِ الْمَلَائِكَةُ بِالْمَائِدَةِ يَحْمِلُونَهَا، عَلَيْهَا سَبْعَةُ أَخْوَاتٍ، وَسَبْعَةُ أَرْغِفَةٍ، حَتَّى وَضَعَتْهَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، فَأَكَلَ مِنْهَا آخِرُ النَّاسِ كَمَا أَكَلَ مِنْهَا أَوَّلُهُمْ^(٤). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ

(١) الطبري: ٢٢٥/١١ (٢) الطبري: ٢٢٥/١١ (٣) الطبري: ٢٣٣/١١

(٤) الطبري: ١٣٢/٥ وابن أبي حاتم: ١٢٤٦/٤

(٥) الطبري: ١٣٤/٥

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أَيِ كُنْتُ أَشْهَدُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ حِينَ كُنْتُ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. رَوَى أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَامَ فِيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَوْعِظَةٍ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حُفَاةَ غُرَاةٍ غُرْلًا ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمَ، أَلَا وَلَئِنَّ بُجَاءَ بِرَجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشَّمَالِ، فَأَقُولُ: أَصْحَابِي، فَيَقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فَيَقَالُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مِنْذُ فَارَقْتَهُمْ^(١). وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هَذَا الْكَلَامُ يَتَضَمَّنُ رَدَّ الْمَشِيشَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّهُ الْفَعَالُ لِمَا يَشَاءُ، الَّذِي لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ، وَيَتَضَمَّنُ التَّبَرُّيَّ مِنَ النَّصَارَى الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ، وَجَعَلُوا لَهُ نِدَاءً وَصَاحِبَةً وَوَلَدًا، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ غُلُوبًا كَبِيرًا، وَهَذِهِ الْآيَةُ لَهَا شَأْنٌ عَظِيمٌ، وَبَنَاءٌ عَجِيبٌ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَامَ بِهَا لَيْلَةً حَتَّى الصَّبَاحَ يُرَدِّدُهَا.

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٦﴾

[لَا يَنْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا الصَّدْقُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُجِيبًا لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِيمَا أَنْهَاهُ إِلَيْهِ: مِنَ التَّبَرُّيِّ مِنَ النَّصَارَى الْمُلْحِدِينَ الْكَاذِبِينَ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ. وَمِنْ رَدِّ الْمَشِيشَةِ فِيهِمْ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾. قَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ: يَوْمَ يَنْفَعُ الْمُؤَحِّدِينَ تَوْحِيدُهُمْ، ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ

الطَّرِيقِ، فَحُمِلَتْ إِلَى أَخِيهِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ، فَرَأَاهَا النَّاسُ فَتَعَجَّبُوا مِنْهَا كَثِيرًا، لِمَا فِيهَا مِنَ الْيَوَاقِيتِ النَّفِيسَةِ وَالْجَوَاهِرِ الْيَتِيمَةِ. وَيَقَالُ: إِنَّ هَذِهِ الْمَائِدَةَ كَانَتْ لِسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ امْجُدُونِي وَأُنِىَ إِلَهُهُنَّ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

[الْمَسِيحُ يَتَبَرَّأُ مِنَ الشِّرْكِ وَيَقِرُّ بِالتَّوْحِيدِ]

هَذَا أَيْضًا مِمَّا يُخَاطَبُ اللَّهُ بِهِ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِلًا لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحُضْرَةِ مَنْ اتَّخَذَهُ وَأُمَةً إِلَهُنَّ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ امْجُدُونِي وَأُنِىَ إِلَهُهُنَّ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ لِلنَّصَارَى وَتَوْبِيخٌ وَتَقْرِيعٌ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ. هَكَذَا قَالَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ، وَاسْتَدَلَّ قَتَادَةُ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ هَذَا تَوْفِيقٌ لِلتَّأْدِيبِ فِي الْجَوَابِ الْكَامِلِ، كَمَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: يُلْقَى عِيسَى حُجَّتَهُ، وَلَقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ امْجُدُونِي وَأُنِىَ إِلَهُهُنَّ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: فَلَقَاهُ اللَّهُ ﴿سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ^(١). وَقَدْ رَوَاهُ الثَّوْرِيُّ عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ طَاوُسٍ بِنَحْوِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ أَيِ إِنْ كَانَ صَدَرَ مِنِّي هَذَا فَقَدْ عَلِمْتُمْ يَا رَبِّ، فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ، فَمَا قُلْتُهُ وَلَا أَرَدْتُهُ فِي نَفْسِي وَلَا أَضْمَرْتُهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴿بِإِبْلَاجِهِ﴾. إِنْ أَعْبَدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ أَيِ مَا دَعَوْتُهُمْ إِلَّا إِلَى الَّذِي أُرْسَلْتَنِي بِهِ وَأَمَرْتَنِي بِإِبْلَاجِهِ: ﴿إِنْ أَعْبَدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أَيِ هَذَا هُوَ الَّذِي قُلْتُ لَهُمْ.

(١) ابن أبي حاتم: ١٢٥٣/٤ (٢) مسند الطيالسي: ٣٤٣ (٣) فتح الباري: ١٣٥/٨

الْبَقَرَةُ

١٢٨

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ
وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ
تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ
وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ
آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ
لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ
يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ
نُمَكِّنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ
تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا
آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ
لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِسْحَارٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ
عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنْزَلْنَاهُ مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾

آخِرُ هَذِهِ السُّورَةِ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَأَنْبِئُوهُ وَلَا
تَتَّبِعُوا السَّيِّئِينَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ثُمَّ
قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أَيُّ وَمَعَ
هَذَا كُلِّهِ كَفَرُوا بِهِ بَعْضُ عِبَادِهِ، وَجَعَلُوا لَهُ شَرِيكًَا وَعَدَلًا،
وَاتَّخَذُوا لَهُ صَاحِبَةً وَوَلَدًا. تَعَالَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ ذَلِكَ
عُلُوًّا كَبِيرًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ يَعْنِي
أَبَاهُمْ آدَمَ، الَّذِي هُوَ أَصْلُهُمْ، وَمِنْهُ خَرَجُوا فَانْتَشَرُوا فِي
الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ. وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى
عِنْدَهُ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ثُمَّ قَضَىٰ
أَجَلًا﴾ يَعْنِي الْمَوْتَ ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يَعْنِي الْآخِرَةَ (٥).
وَهَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ،

تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلْقَيْنِ فِيهَا آدَمُ ۖ أَيُّ مَا كُنْتُمْ فِيهَا، لَا
يُحَوَّلُونَ وَلَا يُزُولُونَ، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَرِضُونُ مِنْ رَبِّكَ اللَّهُ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أَيُّ هَذَا الْفَوْزُ الْكَبِيرُ الَّذِي لَا
أَعْظَمَ مِنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِنُثِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾
[الصافات: ٦١] وَكَمَا قَالَ: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾
[المطففين: ٢٦] وَقَوْلُهُ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَيُّ هُوَ الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ، الْمَالِكُ لَهَا،
الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا، الْقَادِرُ عَلَيْهَا، فَالْجَمِيعُ مُلْكُهُ وَتَحْتَ قَهْرِهِ
وَقُدْرَتِهِ، وَفِي مَشِيئَتِهِ، فَلَا نَظِيرَ لَهُ، وَلَا وَزِيرَ، وَلَا عَدِيلَ،
وَلَا وَالِدَ، وَلَا وَلَدَ، وَلَا صَاحِبَةَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ
سِوَاهُ. قَالَ ابْنُ وَهْبٍ سَمِعْتُ حَبِيبَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يُحَدِّثُ عَنْ
أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبْلِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: آخِرُ
سُورَةِ أَنْزَلْتُ سُورَةَ الْمَائِدَةِ (١).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

[فَضَّلَ سُورَةَ الْأَنْعَامِ وَزَمَنَ نُزُولَهَا]

قَالَ الْعَوْفِيُّ وَعِكْرِمَةُ وَعَطَاءٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنْزَلَتْ
سُورَةُ الْأَنْعَامِ بِمَكَّةَ (٢). وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ،
قَالَ: نَزَلَتْ سُورَةُ الْأَنْعَامِ بِمَكَّةَ لَيْلًا جُمْلَةً وَاحِدَةً،
حَوْلَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجَازُونَ حَوْلَهَا بِالسَّبْحِ (٣).
وَقَالَ الشَّيْخُ عَنْ مُرَّةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: نَزَلَتْ سُورَةُ
الْأَنْعَامِ يُشَيِّعُهَا سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ (٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ
وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ
تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ
وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

[الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ جَلِيلِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مَا دَحَا نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ، وَحَامِدًا لَهَا
عَلَىٰ خَلْقِهِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَرَارًا لِعِبَادِهِ، وَجَعَلَ
الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ مَنَفَعَةً لِعِبَادِهِ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ. فَجَمَعَ
لَفْظَ الظُّلُمَاتِ، وَوَحَدَ لَفْظَ النُّورِ، لِيَكُونَهُ أَشْرَفُ، كَقَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: ٤٨] وَكَمَا قَالَ فِي

(١) الترمذي: ٣٠٦٣ (٢) الدر المنثور: ٢٤٣/٣ (٣)
الطبراني: ٢١٥/١٢ إسناده ضعيف فيه يوسف بن مهران البصري
قال ابن حجر: لم يرو عنه إلا ابن جُدعان لين الحديث [تقريب
٣٩٢] وعلي بن زيد بن جُدعان ضعيف (٤) الدر المنثور: ٣/٣
٢٤٣ (٥) الطبري: ٢٥٧/١١

الدُّنْيَوِيَّ مَا حَلَّ بِأَشْبَاهِهِمْ وَنُظَرَائِهِمْ، مِنَ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ الَّذِينَ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَاسْتِغْلَالًا لِلْأَرْضِ، وَعِمَارَةً لَهَا، فَقَالَ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ لَكُمْ﴾ أَيُّ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْأَعْمَارِ، وَالْجَاهِ الْعَرِيضِ وَالسَّعَةِ وَالْجُنُودِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ أَيُّ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ أَيُّ أَكْثَرْنَا عَلَيْهِمْ أَطْطَارَ السَّمَاءِ وَيَتَابِعُ الْأَرْضِ، أَيُّ اسْتِزْجَارًا وَإِمْلَاءً لَهُمْ ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أَيُّ بِخَطَايَاهُمْ، وَسَيِّئَاتِهِمْ الَّتِي اجْتَرَحُوهَا ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أَيُّ فَدَهَبَ الْأَوَّلُونَ كَأَمْسِ الذَّاهِبِ، وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ، ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أَيُّ جِيلًا آخَرَ لِنُخْتَرِمَهُمْ، فَعَمِلُوا مِثْلَ أَعْمَالِهِمْ، فَأَهْلَكُوا كَأَهْلَآكِهِمْ، فَاحْذَرُوا أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ، فَمَا أَنْتُمْ بِأَعَزَّ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ، وَالرَّسُولُ الَّذِي كَذَّبْتُمُوهُ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْ رَسُولِهِمْ، فَانْتُمْ أَوْلَى بِالْعَذَابِ وَمُعَاجِلَةِ الْعُقُوبَةِ، مِنْهُمْ، لَوْلَا لُطْفُهُ وَإِحْسَانُهُ.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَابٍ فَلَسَوْهُ بِآيَاتِهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧) وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُصِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَقَّ بِالَّذِينَ سَجَرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (١١)

[ذُمُّ الْمُعَانِدِينَ وَإِبَاؤُهُمْ عَنْ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ بَشَرًا] يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَعِنَادِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ لِلْحَقِّ، وَمُبَاهَتِهِمْ وَمُنَازَعَتِهِمْ فِيهِ، ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَابٍ فَلَسَوْهُ بِآيَاتِهِمْ﴾ أَيُّ عَابِيُوهُ وَرَأَوْا نُزُولَهُ، وَبَاشَرُوا ذَلِكَ، ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُكَابَرَتِهِمْ لِلْمُحْسُوسَاتِ ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (٧) لَقَالُوا إِنَّمَا سِحْرٌ أَبْصَرْنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾

وَالْحَسَنِ وَقَنَادَةَ وَالضَّحَّاكَ، وَزَيْدَ بْنِ أَسْلَمَ وَعَطِيَّةَ وَالسُّدِّيَّ، وَمُقَاتِلَ بْنَ حَيَّانَ وَغَيْرِهِمْ^(١). وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ يَعْنِي مُدَّةَ الدُّنْيَا^(٢). ﴿وَأَجَلَ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يَعْنِي عُمُرَ الْإِنْسَانِ إِلَى حِينِ مَوْتِهِ. وَكَأَنَّهُ مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿عِنْدَهُمْ﴾ أَيُّ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُخَبِّرُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وَكَقَوْلِهِ: ﴿تَشْكُونُكَ عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرُوسَهَا﴾ (١٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَا (١٣) إِلَى رَبِّكَ مِنْهَا (١٤) [النازعات: ٤٢-٤٤] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: يَعْنِي تَشْكُونَ فِي أَمْرِ السَّاعَةِ^(٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أَيُّ هُوَ الْمَدْعُو: اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ، أَيُّ يَعْبُدُهُ وَيُوحِّدُهُ وَيُقِرُّ لَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَيُسْمُونَهُ: اللَّهُ، وَيَدْعُونَهُ رَغْبًا وَرَهْبًا، إِلَّا مَنْ كَفَرَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ [الزخرف: ٨٤] أَيُّ هُوَ إِلَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، وَإِلَهُ مَنْ فِي الْأَرْضِ، وَهُوَ اللَّهُ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أَيُّ جَمِيعَ أَعْمَالِكُمْ خَيْرًا وَشَرًّا.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (١٥) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٦) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (١٧)

[عِنَادُ الْمُشْرِكِينَ وَتَوَعُّدُهُمْ عَلَيْهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ الْمُعَانِدِينَ: أَنَّهُمْ مَهْمَا أَتَتْهُمْ مِنْ آيَةٍ أَيْ دَلَالَةٍ وَمُعْجَزَةٍ وَحُجَّةٍ مِنَ الدَّلَالَاتِ، عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَصِدْقِ رُسُلِهِ الْكِرَامِ، فَإِنَّهُمْ يُعْرِضُونَ عَنْهَا، فَلَا يُنْظَرُونَ إِلَيْهَا وَلَا يُبَالُونَ بِهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ، وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ، بِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرٌ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ التَّكْذِيبِ، وَلَيُجِدْنَ غِيَةً وَلَيَدُوقَنَّ وَبَالَهُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى وَاعْظَا لَهُمْ وَمُحَذِّرًا لَهُمْ، أَنْ يُصِيبَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ

(١) الطبري: ٢٥٦/١١-٢٥٨ (٢) الطبري: ٢٥٦/١١ (٣) الطبري: ٢٦٠/١١

الْأَنْعَامُ

١٢٩

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ أَسْنَهَزْنا بَرُسُلَنا مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣﴾ قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أُخْذُوكَ يَا فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُمْ وَلَا يَطْعَمُهُمْ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٧﴾ مَن يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَ يَذْفَقْ رَحْمَةً، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْأَمِينُ ﴿٨﴾ وَإِن يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمَسَّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَهُوَ الْغَايُورُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٠﴾

خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢﴾ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أُخْذُوكَ يَا فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُمْ وَلَا يَطْعَمُهُمْ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ مَن يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَ يَذْفَقْ رَحْمَةً، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْأَمِينُ ﴿٥﴾

[اللَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُنْعِمُ فَيَحِبُّ الْإِنْفِادَ لَهُ] يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِمَا، وَأَنَّهُ قَدْ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ الرَّحْمَةَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ، كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي» (٢). وَقَوْلُهُ: «لِيَجْمعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ» هَذِهِ اللَّامُ هِيَ الْمُؤَثَّةُ لِلْقَسَمِ،

[الطور: ٤٤] ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أَيْ لِيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أُنْزِلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أَيْ لَوْ نَزَلَتْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، لَجَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْعَذَابُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨] وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ الْآيَةُ [الفرقان: ٢٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ أَيْ وَلَوْ أُنْزِلْنَا مَعَ الرُّسُولِ الْبَشَرِيِّ مَلَكًا، أَيْ لَوْ بَعَثْنَا إِلَى الْبَشَرِ رُسُلًا مَلَائِكَةً، لَكَانَ عَلَى هَيْئَةِ الرَّجُلِ لِيُمْكِنَ لَهُمْ مُخَاطَبَتُهُ وَالْإِنْفِاعُ بِالْأَخْذِ عَنْهُ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَأَلْتَمَسَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ، كَمَا هُمْ يَلْبَسُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي قُبُولِ رِسَالَةِ الْبَشَرِيِّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رُّسُلًا﴾ [الإسراء: ٩٥] فَمِنْ رَحْمَتِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ، أَنَّهُ يُرْسِلُ إِلَى كُلِّ صِنْفٍ مِنَ الْخَلَائِقِ رُسُلًا مِنْهُمْ، لِيَدْعُو بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَلِيُمْكِنَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَتَّبِعَ بَعْضُ، فِي الْمَخَاطَبَةِ وَالسُّؤَالِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَرُكُوعِهِمْ﴾ الْآيَةُ [آل عمران: ١٦٤]، قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَاهُمْ مَلَكٌ، مَا أَنَاهُمْ إِلَّا فِي صُورَةِ رَجُلٍ، لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ النَّظَرَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِنَ الثُّورِ. ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ أَيْ وَلَخَلَطْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَخْلُطُونَ (١). وَقَالَ الْوَالِئِيُّ عَنْهُ: وَلَسَبَّهْنَا عَلَيْهِمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ أَسْنَهَزْنا بَرُسُلَنا مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هَذِهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ، وَوَعْدٌ لَهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ بِالنُّصْرَةِ وَالْعَاقِبَةِ الْحَسَنَةِ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أَيْ فَكُفُّوا فِي أَنْفُسِكُمْ، وَانظُرُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ بِالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ، الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُ، وَعَانَدُوهُمْ، مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا آذَرَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي الْآخِرَةِ، وَكَيْفَ نَجَّى رُسُلَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ.

﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ

(١) الطبري: ٢٦٨/١١ الضحاك لم يلق ابن عباس (٢) فتح الباري: ٣٩٥/١٣ ومسلم: ٢١٠٧/٤

فَأَقْصَمَ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ، لِيَجْمَعَ عِبَادَهُ ﴿إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾
 [الواقعة: ٥٠] وَهُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ، أَمَّا الْجَا حِلْدُونَ الْمُكْذِبُونَ،
 فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾
 أَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيُّ لَا يُصَدِّقُونَ
 بِالْمَعَادِ، وَلَا يَخَافُونَ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:
 ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الْآلِ وَالنَّهَارِ﴾ أَيُّ كُلِّ ذَاتَةٍ فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ الْجَمِيعِ عِبَادَهُ وَخَلْقَهُ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَتَصَرُّفِهِ
 وَتَدْبِيرِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أَيُّ
 السَّمِيعِ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ، الْعَلِيمِ بِحَرَكَاتِهِمْ وَضَمَائِرِهِمْ
 وَسَرَائِرِهِمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ،
 الَّذِي بَعَثَهُ بِالتَّوْحِيدِ الْعَظِيمِ وَبِالشَّرْعِ الْقَوِيمِ، وَأَمَرَهُ أَنْ
 يَدْعُو النَّاسَ إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ مَا تُشْرِكُونَ﴾
 وَلِيَا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ مَا تُشْرِكُونَ﴾
 أَغْبَدُ أَيُّ الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤] وَالْمَعْنَى لَا أَتَّخِذُ وَلِيًّا إِلَّا
 اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّهُ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَيُّ
 خَالِقُهُمَا وَمُبْدِعُهُمَا، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ﴿هُوَ يُطْعِمُ وَلَا
 يُطْعَمُ﴾ أَيُّ وَهُوَ الرِّزَاقُ لِخَلْقِهِ مِنْ غَيْرِ احتِجَاجٍ إِلَيْهِمْ، كَمَا
 قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادَتِي﴾ الْآيَةُ
 [الذاريات: ٥٦]، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ هَهُنَا (وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا
 يُطْعَمُ) أَيُّ لَا يَأْكُلُ، وَفِي حَدِيثٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُ، قَالَ: دَعَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ - مِنْ أَهْلِ قُبَاءَ -
 النَّبِيَّ ﷺ عَلَى طَعَامٍ، فَأَنْطَلَقْنَا مَعَهُ، فَلَمَّا طَعِمَ النَّبِيُّ ﷺ
 وَغَسَلَ يَدَيْهِ، قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ،
 وَمَنْ عَلَيْنَا فَهَدَانَا وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَانَا
 مِنَ الْعُرْيِ، وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا، الْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرُ مُودِعٍ
 رَبِّي، وَلَا [مُكَافِيٍّ] وَلَا مَكْفُورٍ، وَلَا مُسْتَعْنَى عَنْهُ. الْحَمْدُ
 لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا مِنَ الطَّعَامِ، وَسَقَانَا مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَانَا
 مِنَ الْعُرْيِ، وَهَدَانَا مِنَ الضَّلَالِ، وَبَصَرَنَا مِنَ الْعَمَى،
 وَفَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ»^(١). ﴿قُلْ إِنِّي أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾
 أَيُّ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿وَلَا تَكُونَتْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿قُلْ إِنِّي
 أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 ﴿مَنْ يُصِرِّفْ عَنْهُ﴾ أَيُّ الْعَذَابِ ﴿يَوْمَئِذٍ فَتَذَرُجُهُ﴾ يَعْنِي
 رَجِمَهُ اللَّهُ ﴿وَذَلِكَ الْيَوْمُ الْأَلِيمُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ ذُحِّجَ عَنِ
 الْكَتَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]

وَالْفُورُ: حُصُولُ الرِّيحِ، وَنَفْيُ الْخَسَارَةِ.
 ﴿وَإِنْ يَسْسَسْكَ اللَّهُ يَضُرَّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ
 بَحِيرٌ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ. وَهُوَ
 الْحَكِيمُ الْحَقِيرُ ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
 وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذِهِ الْقُرْآنُ لِأُذَكِّرَكُمْ بِهِ. وَمَنْ بَلَغَ إِلَيْكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ
 اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا
 تُشْرِكُونَ﴾ الَّذِينَ مَا اتَّيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ
 الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى
 اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

[اللَّهُ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ الْقَاهِرُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا: أَنَّهُ مَالِكُ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ، وَأَنَّهُ
 الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ، لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا رَادَّ
 لِقَضَائِهِ، ﴿وَإِنْ يَسْسَسْكَ اللَّهُ يَضُرَّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ
 وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَحِيرٌ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّوْكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٢٢) ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَصَدَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَنْ مِّنْ يَّسْتَعِ إِلَىٰكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُذَّبًا يَوَدُّ أَنْ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوِي عَنْهُ وَإِنَّ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

[يَسْأَلُ الْمُشْرِكُونَ عَنْ شِرْكِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَسْأَلُهُمْ عَنِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِهِ، قَائِلًا لَهُمْ: ﴿إِنِّي سُرَّوْكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصاص: ٦٢] وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ أَيُّ حُجَّتِهِمْ وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ بَلِيَّتُهُمْ حِينَ ابْتُلُوا ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (٢٣). قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَصَدَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ مَا كُنتُمْ تَشْرِكُونَ﴾ (٢٤) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَوْ تَكُنْ لَدَعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَصِلُ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ [غافر: ٧٣، ٧٤].

[لَا يَسْتَفِيدُ الشَّقِيُّ مِنَ الْقُرْآنِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ مِّنْ يَّسْتَعِ إِلَىٰكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُذَّبًا يَوَدُّ أَنْ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أَيُّ يَجِثُونَ لِيَسْتَمِعُوا قِرَاءَتَكَ، وَلَا تَجْزِي عَنْهُمْ شَيْئًا، لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أَيُّ أُغْطِيَةً، لِئَلَّا يَفْقَهُوا الْقُرْآنَ ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أَيُّ صَمَمًا عَنِ السَّمْعِ النَّافِعِ لَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْقُوعُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾... الآية [البقرة: ١٧١]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُذَّبًا يَوَدُّ أَنْ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أَيُّ مَهْمَا رَأَوْا مِنْ الْآيَاتِ وَالذَّلَالَاتِ وَالْحُجَجِ الْبَيِّنَاتِ وَالْبَرَاهِينِ، لَا يُؤْمِنُوا بِهَا، فَلَا فَهْمَ عِنْدَهُمْ وَلَا إِنْصَافَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّاسْمَعَهُمْ﴾... الآية [الأنفال: ٢٣]. وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ أَيُّ

يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ الآية [فاطر: ٢٢]، وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» (١). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الْغَافِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أَيُّ هُوَ الَّذِي خَضَعَتْ لَهُ الرُّقَابُ، وَذَلِكَ لَهُ الْجَبَابِرَةُ، وَعَنْتَ لَهُ الرُّجُومُ، وَقَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ، وَذَانَتْ لَهُ الْخَلَائِقُ، وَتَوَاضَعَتْ لِعَظَمَةِ جَلَالِهِ وَكِبَرِيَّائِهِ، وَعَظَمَتِهِ وَعُلُوُّهُ، وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْأَشْيَاءِ، وَاسْتِكَانَتِ وَتَضَاعَلَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَحَتَّ قَهْرُهُ وَحُكْمُهُ، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أَيُّ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ ﴿الْقَاضِي﴾ بِمَوَاضِعِ الْأَشْيَاءِ وَمَحَالِّهَا، فَلَا يُعْطِي إِلَّا مَنْ يَسْتَحِقُّ، وَلَا يَمْنَحُ إِلَّا مَنْ يَسْتَحِقُّ، ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ أَتَىٰ شَيْءٌ أَكْثَرَ شَهَادَةً﴾ أَيُّ مِنْ أَكْظَمِ الْأَشْيَاءِ شَهَادَةً ﴿قُلْ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أَيُّ هُوَ الْعَالِمُ بِمَا جِئْتُمْ بِهِ، وَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ لِي ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أَيُّ هُوَ نَذِيرٌ لِّكُلِّ مَنْ بَلَغَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يَكْثُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧] وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: حَقٌّ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، أَنْ يَدْعُو كَالَّذِي دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَنْ يُنْذِرَ بِالَّذِي أَنْذَرَ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ ﴿أَنْتَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُ﴾ [الأنعام: ١٥٠] ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

[أَهْلُ الْكِتَابِ يَعْرِفُونَ النَّبِيَّ ﷺ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ هَذَا الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْأَنْبَاءِ، عَنِ الْمُرْسَلِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ الرُّسُلَ كُلَّهُمْ بَشَرُوا بِوُجُودِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَنَعْيِهِ وَصِفَتِهِ، وَبَلَدِهِ وَمَهَاجِرِهِ وَصِفَةِ أُمَّتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أَيُّ خَسِرُوا كُلَّ الْخَسَارَةِ ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بِهَذَا الْأَمْرِ الْحَقِّ الظَّاهِرِ الَّذِي بَشَّرَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَتَوَهَّتْ بِهِ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ تَقُولُ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أَيُّ لَا أَظْلَمُ مِمَّنْ يَقُولُ عَلَى اللَّهِ، فَادَّعَى أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ أَرْسَلَهُ، ثُمَّ لَا أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَحُجَجِهِ، وَبَرَاهِينِهِ، وَذَلَالَاتِهِ. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أَيُّ لَا يُفْلِحُ هَذَا وَلَا هَذَا، لَا الْمُفْتَرِي وَلَا الْمُكَذِّبُ.

الْبَاطِلُ

١٣١

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

يُحَاجُّونَكَ وَيُنَاطِرُونَكَ، فِي الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِطُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيُّ مَا هَذَا الَّذِي جِئْتُ بِهِ، إِلَّا مَا خُودًا مِنْ كُتُبِ الْأَوَّلِينَ، وَمَنْقُولٌ عَنْهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أَيُّ أَنَّهُمْ يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَتَصْدِيقِ الرَّسُولِ وَالْإِنْفِصَادِ لِلْقُرْآنِ، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أَيُّ وَيَنْهَوْنَ هُمْ عَنْهُ، فَيَجْمَعُونَ بَيْنَ الْفَاطِلِينَ الْقَائِمِينَ، لَا يَنْتَفِعُونَ وَلَا يَدْعُونَ أَحَدًا يَنْتَفِعُ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ يَرُدُّونَ النَّاسَ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ^(١). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ: كَانَ كُفَّارُ فُرَيْشٍ لَا يَأْتُونَ النَّبِيَّ ﷺ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ^(٢). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(٣). ﴿وَلَنْ يَهْلِكُوا إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَتَّبِعُونَ﴾ أَيُّ وَمَا يَهْلِكُونَ بِهَذَا الصَّنِيعِ، وَلَا يَبُودُ وَيَالَهُ إِلَّا عَلَيْهِمْ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْلَتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكَانُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿وَقَالُوا إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَعُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٧﴾

[لَا تُفِيدُ الْأَمَانِي عِنْدَ رُؤْيَا الْعَذَابِ]

يَذْكُرُ تَعَالَى حَالَ الْكُفَّارِ، إِذَا وَقَعُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى النَّارِ، وَشَاهَدُوا مَا فِيهَا مِنَ السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ، وَرَأَوْا بِأَعْيُنِهِمْ تِلْكَ الْأُمُورَ الْعِظَامَ وَالْأَهْوَالَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ، قَالُوا ﴿يَلَيْلَتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكَانُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَتَمَنَّوْنَ أَنْ يَرُدُّوا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا، لِيَعْمَلُوا عَمَلًا صَالِحًا، وَلَا يَكْذِبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ، وَيَكُونُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيُّ بَلْ ظَهَرَ لَهُمْ حِينَئِذٍ مَا كَانُوا يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ وَالْمُعَانَدَةِ، وَإِنْ أَنْكَرُوهَا فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ قَبْلَهُ بِسَبِيلٍ ﴿ثُمَّ لَوْ فَكَّرْ فَنَدَّتْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَدَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُمْ ظَهَرَ لَهُمْ مَا كَانُوا يَعْلَمُونَهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، مِنْ صِدْقٍ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرُّسُلُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانُوا يَظْهَرُونَ لِاتِّبَاعِهِمْ خِلَافَهُ، كَقَوْلِهِ مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى، أَنَّهُ قَالَ

لِفِرْعَوْنَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ﴾ الْآيَةُ [إِسْرَاءُ: ١٠٢]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴿وَجَعَلُوا بِهَا وَأَسْتَفْتَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وَأَمَّا مَعْنَى الْإِضْرَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾، فَإِنَّهُمْ مَا طَلَبُوا الْعَوْدَ إِلَى الدُّنْيَا رَغْبَةً وَمَحَبَّةً فِي الْإِيمَانِ، بَلْ خَوْفًا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي عَابَوْهُ، جَزَاءً عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، فَسَأَلُوا الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا، لِيَتَخَلَّصُوا مِمَّا شَاهَدُوا مِنَ النَّارِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أَيُّ فِي تَمَنِّيهِمُ الرَّجْعَةَ، رَغْبَةً وَمَحَبَّةً فِي الْإِيمَانِ، ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ أَنَّهُمْ ﴿لَوْ رَدُّوا﴾ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمُخَالَفَةِ - ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أَيُّ فِي

(١) الطبري: ٣١١/١١ (٢) الطبري: ٣١١/١١ فيه حجاج بن أُرطاة هو كثير الخطأ والتدليس ولم يصرح هنا بالسماع (٣) الطبري: ٣١٢/١١

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَ لَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٣١) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنزَلْنَاهُمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِيِّائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٢﴾ وَإِنْ كَانَ كِبَرٌ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْلُغَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٣) ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتِ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٣٤)

[تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ، فِي تَكْذِيبِ قَوْمِهِ لَهُ وَمُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أَيُّ قَدْ أَحْطْنَا عِلْمًا بِتَكْذِيبِهِمْ لَكَ، وَحُزْنِكَ وَتَأْسُفِكَ عَلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَا نَذْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَزَنًا﴾ [فاطر: ٨] كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿لَمَّا كَذَبَ بَعْضُ النَّاسِ كَقَوْلِهِمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] ﴿فَلَمَّا كَذَبَ بَعْضُ النَّاسِ عَلَىٰ آيَاتِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَ لَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أَيُّ لَا يَتَّهِمُونَكَ بِالْكَذِبِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أَيُّ وَلِكَيْتَهُمْ يُعَانِدُونَ الْحَقَّ، وَيَذْفَعُونَهُ بِضُدُورِهِمْ. وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ الزُّهْرِيِّ فِي قِصَّةِ أَبِي جَهْلٍ، حِينَ جَاءَ يَسْمَعُ قِرَاءَةَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ، هُوَ وَأَبُو سُفْيَانَ صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ، وَالْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيحٍ، وَلَا يَشْعُرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِالْآخِرِ، فَاسْتَمَعُوهَا إِلَى الصَّبَاحِ، فَلَمَّا هَجَمَ الصُّبْحُ تَفَرَّقُوا، فَجَمَعَهُمُ الطَّرِيقُ، فَقَالَ كُلُّ مِنْهُمْ لِلْآخِرِ: مَا جَاءَ بِكَ؟ فَذَكَرَ لَهُ مَا جَاءَ بِهِ، ثُمَّ تَعَاهَدُوا أَنْ لَا يَعُودُوا؛ لِمَا يَخَافُونَ مِنْ عِلْمِ شَبَابِ قُرَيْشٍ بِهِمْ، لِئَلَّا يَفْتَنُوا بِمَجِيئِهِمْ، فَلَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الثَّانِيَّةُ جَاءَ كُلُّ مِنْهُمْ، طَنًّا أَنْ صَاحِبِيهِ لَا يَجِيئَانِ، لِمَا سَبَقَ مِنَ الْعُهُودِ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا جَمَعَهُمُ الطَّرِيقُ، فَتَلَاوَمُوا ثُمَّ تَعَاهَدُوا أَنْ لَا يَعُودُوا؛ فَلَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الثَّالثَةُ جَاؤُوا أَيْضًا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا تَعَاهَدُوا أَنْ لَا يَعُودُوا لِمِثْلِهَا ثُمَّ تَفَرَّقُوا، فَلَمَّا أَصْبَحَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيحٍ أَحَدَ عَصَاهُ، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّىٰ أَتَىٰ أَبَا سُفْيَانَ ابْنَ حَرْبٍ فِي بَيْتِهِ، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي يَا أَبَا حَنْظَلَةَ عَنْ رَأْيِكَ فِيمَا سَمِعْتَ

قَوْلِهِمْ: ﴿يَلْتَمِزْنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ - وَقَالُوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أَيُّ لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ. وَلَقَالُوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أَيُّ مَا هِيَ إِلَّا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، ثُمَّ لَا مَعَادَ بَعْدَهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أَيُّ أَوْفَعُوا بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ: ﴿الَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟﴾ أَيُّ أَلَيْسَ هَذَا الْمَعَادُ بِحَقٍّ، وَلَيْسَ بِبَاطِلٍ كَمَا كُنْتُمْ تَطُنُّونَ؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أَيُّ بِمَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ بِهِ، فَذُوقُوا الْيَوْمَ مَسَّهُ ﴿أَفَيْسَرَ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تَبْصُرُونَ﴾ [الطور: ١٥].

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْصَرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوَارِهِمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَرِثُونَ﴾ (٣٥) ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ حِثٌّ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٣٦)

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ خَسَارَةِ مَنْ كَذَّبَ بِلِقَائِهِ، وَعَنْ خَيْبَتِهِ إِذَا جَاءَتْهُ السَّاعَةُ بَغْتَةً، وَعَنْ نَدَامَتِهِ عَلَىٰ مَا فَرَطَ مِنَ الْعَمَلِ، وَمَا أَسْلَفَ مِنْ قَبِيحِ الْفِعْلِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْصَرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ وَهَذَا الضَّمِيرُ يَحْتَمِلُ عَوْدَهُ عَلَىٰ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَعَلَىٰ الْأَعْمَالِ وَعَلَىٰ الدَّارِ الْآخِرَةِ، أَيُّ فِي أَمْرِهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوَارِهِمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَرِثُونَ﴾ أَيُّ يَحْمِلُونَ. وَقَالَ أَسْبَاطُ عَنِ الشَّدِيِّ أَنَّهُ قَالَ: لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ظَالِمٍ يَدْخُلُ قَبْرَهُ، إِلَّا جَاءَهُ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، أَسْوَدُ اللَّوْنِ، مُتْنِنُ الرِّيحِ، وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ دَنَسَةٌ، حَتَّىٰ يَدْخُلَ مَعَهُ قَبْرَهُ، فَإِذَا رَأَهُ قَالَ: مَا أَقْبَحَ وَجْهَكَ؟ قَالَ: كَذَلِكَ كَانَ عَمَلُكَ قَبِيحًا، قَالَ: مَا أَتَنَزَّ رِيحَكَ؟ قَالَ: كَذَلِكَ كَانَ عَمَلُكَ مُتْنِنًا، قَالَ: مَا أَذْنَسُ ثِيَابَكَ؟ قَالَ: يَقُولُ: إِنَّ عَمَلُكَ كَانَ دَنَسًا، قَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: عَمَلُكَ. قَالَ: فَيَكُونُ مَعَهُ فِي قَبْرِهِ، فَإِذَا بُعِثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ لَهُ: إِنِّي كُنْتُ أَحْمِلُكَ فِي الدُّنْيَا بِاللَّذَابِ وَالشَّهَوَاتِ، وَأَنْتَ الْيَوْمَ تَحْمِلُنِي، قَالَ: فَيَرْكَبُ عَلَىٰ ظَهْرِهِ، فَيَسُوقُهُ حَتَّىٰ يَدْخِلَهُ النَّارَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَرِثُونَ﴾ (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ حِثٌّ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

الْأَنْعَامُ

١٣٢

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ ٣٧ ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ٣٨ ﴿ وَمَا فَرَقْنَا فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ بِطَيْرٍ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أَمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ ٣٩ ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُدُّوا بِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يُضْلِلُهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ٤٠ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَاكُمْ السَّاعَةُ أَغِيرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ٤١ ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُنْفِرُونَ ﴾ ٤٢ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالنَّصَرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَنْصَرُونَ ﴾ ٤٣ ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ٤٤ ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ ٤٥

يُؤْمِنُونَ إِلَّا مَنْ قَدْ سَبَقَ لَهُ مِنَ اللَّهِ السَّعَادَةُ فِي الذِّكْرِ الْأَوَّلِ (٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ أَيُّ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ لِدَعَائِكَ يَا مُحَمَّدٌ مَنْ يَسْمَعُ الْكَلَامَ وَيَعْبُو وَيَهْمُهُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿ يُنذِرُ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحْيِي الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [يس: ٧٠]. وَقَوْلُهُ: ﴿ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ الْكُفَّارَ، لِأَنَّهُمْ مَوْتَى الْقُلُوبِ، فَسَبَّهَهُمُ اللَّهُ بِأَمْوَاتِ الْأَجْسَادِ، فَقَالَ: ﴿ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّهْكُمِ بِهِمْ وَالْإِذْرَاءِ عَلَيْهِمْ.

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٧) وَمَنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ بِطَيْرٍ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أَمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَارَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُدُّوا بِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يُضْلِلُهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ

مِنْ مُحَمَّدٍ، قَالَ: يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ، وَاللَّهُ لَقَدْ سَمِعْتُ أَشْيَاءَ أَغْرَفُهَا، وَأَغْرَفُ مَا يُرَادُ بِهَا، وَسَمِعْتُ أَشْيَاءَ مَا عَرَفْتُ مَعْنَاهَا وَلَا مَا يُرَادُ بِهَا. قَالَ الْأَخْنَسُ: وَأَنَا وَالَّذِي حَلَفْتُ بِهِ. ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى أَتَى أَبَا جَهْلٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ بَيْتَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَكَمِ، مَا رَأَيْكَ فِيمَا سَمِعْتَ مِنْ مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: مَاذَا سَمِعْتُ؟ قَالَ: تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الشَّرَفَ: أَطْعَمُوا فَأَطْعَمْنَا، وَحَمَلُوا فَحَمَلْنَا، وَأَعْطُوا فَأَعْطَيْنَا، حَتَّى إِذَا تَجَانَيْنَا عَلَى الرُّكْبِ، وَكُنَّا كَفَرَسِي رِهَانٍ، قَالُوا: مِثْلًا نَبِيٍّ، يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ، فَمَتَى نُنْذِرُكَ هَذِهِ؟ وَاللَّهُ لَا نُؤْمِنُ بِهِ أَبَدًا وَلَا نُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَقَامَ عَنْهُ الْأَخْنَسُ وَتَرَكَهُ (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُودُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرُوا ﴾ هَذِهِ تَسْلِيَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَتَعَزُّيَةٌ لَهُ، فِيمَنْ كَذَّبَهُ مِنْ قَوْمِهِ، وَأَمَرَ لَهُ بِالصَّبْرِ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ، وَوَعَدَ لَهُ بِالنَّصْرِ كَمَا نَصَرُوا، وَبِالظَّفَرِ حَتَّىٰ كَانَتْ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ، بَعْدَ مَا نَالَهُمْ مِنَ التَّكْذِيبِ مِنْ قَوْمِهِمْ وَالْأَذَى الْبَلِيعِ، ثُمَّ جَاءَهُمُ النَّصْرُ فِي الدُّنْيَا كَمَا لَهُمُ النَّصْرُ فِي الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ ﴿ وَلَا مَبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ الَّتِي كَتَبَهَا بِالنَّصْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبْرَاهِيمَ الْفَرَسِيِّ ﴾ (١٧١) ﴿ إِنَّهُمْ لَمُ الْمُصَوِّرُونَ ﴾ (١٧٢)

وَلَقَدْ حَسَدَنَا لَهُمُ الْفَالِقُونَ [الصافات: ١٧١-١٧٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَى أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١] وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّنَا الْفَرَسِيِّ ﴾ أَيُّ مِنْ خَبَرِهِمْ، كَيْفَ نَصَرُوا وَأَيَّدُوا عَلَى مَنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، فَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَسُوءَةٌ وَبِهِمْ فُذُوءَةٌ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ أَيُّ إِنْ كَانَ شَقَّ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ عَنْكَ ﴿ فَإِنْ اسْتَعْلَمْتَ أَنْ تَتَّبِعِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: التَّقَى: السَّرْبُ، فَتَذَهَّبَ فِيهِ ﴿ فَتَأْتِيَهُمْ يَابِئٌ ﴾ أَوْ تَجْعَلُ لَكَ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ، فَتَضَعُدُ فِيهِ فَتَأْتِيَهُمْ يَابِئٌ، أَفْضَلُ مِمَّا أَتَيْتَهُمْ بِهِ فَاغْفَلُ (٢). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمَا (٣). وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾ الْآيَةُ [يونس: ٩٩]، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ ﴾ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَحْرُصُ أَنْ يُؤْمِنَ جَمِيعُ النَّاسِ، وَيَتَابِعُوهُ عَلَى الْهَدْيِ، فَأَخْبَرَهُ اللَّهُ أَنَّهُ لَا

(١) ابن هشام: ٣٣٧/١ متقطع إسناده. (٢) الطبري: ١١/٣٣٨ (٣) الطبري: ١١/٣٣٨ (٤) الطبري: ١١/٣٤٠

مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٦﴾

[مُطَالَبَةُ الْمُشْرِكِينَ بِآيَةٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ، أَيْ خَارِقٌ عَلَى مُقْتَضَى مَا كَانُوا يُرِيدُونَ، وَمِمَّا يَتَعَتَّوْنَ كَقَوْلِهِمْ: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ بُيُوتَنَا﴾ [الأنعام: ٩٠-٩٣]: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ هُوَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ حِكْمَتُهُ تَعَالَى تَقْتَضِي تَأْخِيرَ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ لَوْ أُنْزِلَ وَفَقَ مَا طَلَبُوا ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا، لَعَاجَلَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ، كَمَا فَعَلَ بِالْأُمَمِ السَّالِفَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآيَاتُنَا مُؤَدَّةً آتَاةً مُبِصِرَةً فَبُذِلُوا بِهَا وَمَا يُرْسِلُ إِلَّا غَوِيًّا﴾ [الأنعام: ٥٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ لَشَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّ أَغْنَتْهُمْ مَا خُضِعُوا﴾ [الشعراء: ٤].

[مَا الْمُرَادُ بِالْأُمَمِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالُكُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيْ أَصْنَافٌ مُصَنَّفَةٌ تُعْرَفُ بِأَسْمَائِهَا^(١). وَقَالَ قَتَادَةُ: الطَّيْرُ أُمَّةٌ، وَالْإِنْسُ أُمَّةٌ، وَالْجِنُّ أُمَّةٌ^(٢). وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالُكُمْ﴾ أَيْ خَلْقٌ أَمْثَالُكُمْ^(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيْ الْجَمِيعِ عِلْمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا يَنْسَى وَاحِدًا مِنْ جَمِيعِهَا مِنْ رِزْقِهِ وَتَنْبِيهِهِ، سَوَاءً كَانَ بَرِّيًّا أَوْ بَحْرِيًّا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَوْعِمَهَا وَنُسُودَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أَيْ مُفْصِحٍ بِأَسْمَائِهَا وَأَعْدَادِهَا وَمَظَانِّهَا، وَخَاصِرٍ لِحَرَكَاتِهَا وَسَكَنَاتِهَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠]. وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ قَالَ: حَشَرُهَا الْمَوْتُ^(٤). وَقِيلَ: إِنَّ حَشَرَهَا هُوَ يَوْمٌ بَعَثَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا أَلْوَحُوشُ حَشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ قَالَ: يُحْشَرُ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْبَهَائِمُ وَالْدَّوَابُّ وَالطَّيْرُ وَكُلُّ شَيْءٍ، فَيُنْعَلُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ، أَنْ يَأْخُذَ لِلْجَمَاءِ مِنَ الْقُرْنَاءِ، ثُمَّ يَقُولُ: كُونِي تَرَابًا. فَلِذَلِكَ

يَقُولُ الْكَافِرُ: ﴿يَلْتَنِي كُتُّ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠]^(٥). وَقَدْ رُوِيَ هَذَا مَرْفُوعًا فِي حَدِيثِ الصُّورِ.

[الْكَفَّارُ صَمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أَيْ مَثَلُهُمْ فِي جَهْلِهِمْ، وَقِلَّةِ عِلْمِهِمْ، وَعَدَمِ فَهْمِهِمْ كَمَثَلِ: أَصَمٌّ وَهُوَ الَّذِي لَا يَسْمَعُ - أَبْكَمٌ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَتَكَلَّمُ، وَهُوَ مَعَ هَذَا فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُ، فَكَيْفَ يَهْتَدِي بِمِثْلِ هَذَا إِلَى الطَّرِيقِ، أَوْ يَخْرُجُ مِمَّا هُوَ فِيهِ؟ كَقَوْلِهِ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧، ١٨]. وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَطُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لَيْلٍ يَنْشَلُهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ بَدَلُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَنَ لَمْ يَجِدْ لِلَّهِ لَمْ يُرَ فَكَأَنَّهُمْ فِي ضَلَلٍ﴾ [النور: ٤٠]. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُصْهِرْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَيْ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٤٠] بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا كُنْتُمْ كَذِبُونَ [٤١] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْأَسَاءِ وَالْأَفْرَادِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ [٤٢] فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [٤٣] فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ [٤٤] فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٤٥]

[إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِدُعَائِهِمْ اللَّهَ وَحْدَهُ عِنْدَ الْعَذَابِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ، الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَأَنَّهُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى صَرْفِ حُكْمِهِ عَنْ خَلْقِهِ، بَلْ هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ يُجِيبُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ أَيْ أَتَاكُمْ هَذَا أَوْ هَذَا أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَيْ لَا تَدْعُونَ غَيْرَهُ

(١) الطبري: ٣٤٥/١١ (٢) الطبري: ٣٤٥/١١ (٣) الطبري:

(٤) ابن أبي حاتم: ١٢٨٦/٤ (٥) الطبري: ١١/٣٤٧

لَعَلَّكُمْ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى رَفْعِ ذَلِكَ سِوَاهُ، وَلِهَذَا قَالَ:
هَلْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُتَعَذِّبِينَ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

١٣٣

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

نُفُوسًا مِّنْ دُونِهَا أَلَمْ يَكُنْ لَّخَلْقِهَا قَدِيرًا ۖ وَتَبَا لِمُؤَلِّمِي الْبُحْرَانِ ۚ

أَنِّي مَلَكٌ، إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّنَ الْبَشَرِ، يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، شَرَفَنِي بِذَلِكَ وَأَنْعَمَ عَلَيَّ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أَيُّ لَسْتُ أَخْرُجُ عَنْهُ قِيدَ شِبْرٍ وَلَا أَذْنَىٰ مِنْهُ، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ أَيُّ هَلْ يَسْتَوِي مَنْ اتَّبَعَ الْحَقَّ وَهُدِيَ إِلَيْهِ، وَمَنْ ضَلَّ عَنْهُ فَلَمْ يَنْقُذْ لَهُ، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أَوَّلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَيَّ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أَيُّ وَأَنْذِرْ بِهِذَا الْقُرْآنَ يَا مُحَمَّدُ ﴿الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] ﴿وَالَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١]: ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا﴾ أَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ أَيُّ يَوْمَئِذٍ ﴿مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أَيُّ لَا قَرِيبَ لَهُمْ وَلَا شَفِيعَ فِيهِمْ، مِنْ عَذَابِهِ إِنْ أَرَادَهُ بِهِمْ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: أَيُّ أُنْذِرْ هَذَا الْيَوْمَ، الَّذِي لَا حَاجِمَ فِيهِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فَيَعْمَلُونَ فِي هَذِهِ الدَّارِ، عَمَلًا يُنْجِيهِمُ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَذَابِهِ، وَيُضَاعَفُ لَهُمْ فِي الْجَزِيلِ مِنْ ثَوَابِهِ.

[نَهَى الرَّسُولَ عَنْ طَرْدِ أَصْحَابِهِ الضُّعَفَاءِ وَالْأَمْرُ

بِتَكْرِيمِهِمْ إِذَا جَاءُوا]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أَيُّ لَا تُعِدُّ هَؤُلَاءِ الْمُتَضَمِّنِينَ بِهِذِهِ الصِّفَاتِ عَنْكَ، بَلْ اجْعَلْهُمْ جُلَسَاءَكَ وَأَخِصَاءَكَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْعَمَ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أَيُّ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ وَيَسْأَلُونَهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَبِّبِ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَادَةُ: الْمُرَادُ بِهِ الصَّلَاةُ الْمَكْتُوبَةُ. وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ رَبِّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [عافر: ٦٠] أَيُّ أَتَقَبَّلْ مِنْكُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أَيُّ يُرِيدُونَ بِذَلِكَ الْعَمَلِ وَجْهَ اللَّهِ الْكَرِيمِ، وَهُمْ مُخْلِصُونَ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ

أَرَبَيْتُكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ بَعْتَهُ﴾ أَيُّ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ بِهِ، حَتَّى بَعْتَكُمْ وَفَجَأَكُمْ، ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ أَيُّ ظَاهِرًا عَيْنًا، ﴿هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ أَيُّ إِنَّمَا كَانَ يُحِيطُ بِالظَّالِمِينَ أَنْفُسُهُمْ بِالشَّرِّ بِاللَّهُ. وَيَنْجُوا الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، كَقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أَيُّ مُبَشِّرِينَ عِبَادَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ، بِالْخَيْرَاتِ، وَمُنذِرِينَ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ: النِّقَمَاتِ وَالْعُقُوبَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أَيُّ فَمَنْ آمَنَ قَلْبُهُ بِمَا جَاءُوا بِهِ، وَأَصْلَحَ عَمَلُهُ بِاتِّبَاعِهِ إِيَّاهُمْ، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ بِالنِّسْبَةِ لِمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أَيُّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا فَاتَهُمْ وَتَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَصَنِيعِهَا، اللَّهُ وَلِيُّهُمْ فِيمَا خَلَفُوهُ، وَحَافِظُهُمْ فِيمَا تَرَكُوهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَسْمِئُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أَيُّ يَنَالُهُمُ الْعَذَابُ، بِمَا كَفَرُوا بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَخَرَجُوا عَنْ أَوَامِرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، وَارْتَكَبُوا مِنْ مَنَاهِيهِ وَمَحَارِمِهِ وَأَنْتَهَاكِ حُرْمَاتِهِ.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَيَّ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَفَطَّرَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِثْلُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾

[الرَّسُولُ لَا يَمْلِكُ خَزَائِنَ اللَّهِ وَلَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أَيُّ لَسْتُ أَمْلِكُهَا وَلَا أَتَصَرَّفُ فِيهَا ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أَيُّ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ، إِنَّمَا ذَاكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا أَطْلُعُ مِنْهُ إِلَّا عَلَى مَا أَطْلَعَنِي عَلَيْهِ، ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أَيُّ وَلَا أَدْعِي

الْبَاقِي

١٣٤

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلِتَسَيِّرَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَنْتُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ يَقُضُّ وَالْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلَيْنِ ﴿٥٨﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾

الله الواسعة الشاملة لهم، ولهذا قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي أوجهاها على نفسه الكريمة، تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً، ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ﴾ كل من عصى الله فهو جاهل، ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ أي رجع عما كان عليه من المعاصي، وأقنع وعزم على أن لا يعود، وأصلح العمل في المستقبل، ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي» (٢) أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ (٣).

﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلِتَسَيِّرَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٥٥) قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَنْتُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ

عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴿٥٧﴾ كَقَوْلِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فِي جَوَابِ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ (٥٨) قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٥٩) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ [الشعراء: ١١١-١١٣] أَيْ إِنَّمَا حِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَيْسَ عَلَيَّ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِمْ مِنْ حِسَابِي مِنْ شَيْءٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَنَقُطْرُهُمْ فَكَوْنُوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أَيْ إِنْ فَعَلْتَ هَذَا وَالْحَالَةَ هَذِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أَيْ ابْتَلَيْنَا وَاخْتَبَرْنَا وَامْتَحَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ، ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، كَانَ غَالِبٌ مِنَ اتَّبَعَهُ فِي أَوَّلِ بَعِثَتِهِ، ضَعَفَاءُ النَّاسِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ، وَلَمْ يَتَّبِعْهُ مِنَ الْأَشْرَافِ إِلَّا قَلِيلٌ، كَمَا قَالَ قَوْمُ نُوحٍ لِنُوحٍ: ﴿وَمَا زِلْنَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بِأَدَى الرَّأْيِ﴾ [الآية: هود: ٢٧]، وَكَمَا سَأَلَ هِرْقُلُ مَلِكَ الرُّومِ أَبَا سُفْيَانَ جِئْنَا سَأَلَهُ عَنْ تِلْكَ الْمَسَائِلِ، فَقَالَ لَهُ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضَعَفَاؤُهُمْ؟ فَقَالَ: بَلْ ضَعَفَاؤُهُمْ، فَقَالَ: هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ.

وَالْعَرَضُ: أَنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ كَانُوا يَسْخَرُونَ بِمَنْ آمَنَ مِنْ ضَعْفَائِهِمْ، وَيَعْدُبُونَ مَنْ يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣]؟ أَيْ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَهْدِيَ هَؤُلَاءِ إِلَى الْخَيْرِ لَوْ كَانَ مَا صَارُوا إِلَيْهِ خَيْرًا، وَيَدْعُنَا! كَقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ هَؤُلَاءِ بَيْنَتِي قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي جَوَابِ ذَلِكَ: ﴿وَكَرِهَ أَهْلُكُمَا قَوْلَهُمْ مِنْ قَرِينٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا﴾ [مريم: ٧٤] وَقَالَ فِي جَوَابِهِمْ جِئْنَا قَالُوا: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أَيْ أَلَيْسَ هُوَ أَعْلَمُ بِالشَّاكِرِينَ لَهُ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَضَمَائِرِهِمْ، فَيُوقِفُهُمْ وَيَهْدِيهِمْ سُبُلَ السَّلَامِ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَلْوَانِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ فَأَكْرِمُهُمْ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيْهِمْ، وَبَشِّرُهُمْ بِرَحْمَةِ

(١) مسلم: ١٩٨٧/٤ (٢) أحمد: ٣١٣/٢ (٣) فتح الباري:

٣٩٥/١٣ ومسلم: ٢١٠٧/٤

يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلَيْنِ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَرَاهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ [الرَّسُولُ عَلَى نَبِيٍّ مِمَّا يَدْعُو إِلَيْهِ، وَالْجَزَاءُ بِيَدِ اللَّهِ وَلَيْسَ بِيَدِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا بَيَّنَّا مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ مِنَ الْحُجَجِ وَالذَّلَائِلِ، عَلَى طَرِيقِ الْهَدَايَةِ وَالرَّشَادِ وَدَمَّ الْمُجَادَلَةِ وَالْعِنَادِ، ﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ أَيِ الَّتِي يَحْتَاجُ الْمُخَاطَبُونَ إِلَى بَيَانِهَا، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أَيِ وَلِتُظْهَرَ طَرِيقُ الْمُجْرِمِينَ الْمُخَالَفِينَ لِلرُّسُلِ، وَقُرِئَ: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أَيِ وَلِتَسْتَبِينَ يَا مُحَمَّدُ - أَوْ يَا مُخَاطَبُ - سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى نَبِيٍّ مِنْ رَبِّي﴾ أَيِ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ الَّتِي أَوْحَاهَا اللَّهُ إِلَيَّ ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ أَيِ بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَنِي مِنَ اللَّهِ ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ﴾ أَيِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أَيِ إِنَّمَا يَرْجِعُ أَمْرُ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَجَّلَ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمُوهُ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ شَاءَ أَتَخَّرَكُمْ وَأَجَلَكُمْ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْعَظِيمَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلَيْنِ﴾ أَيِ وَهُوَ خَيْرٌ مِنْ فَصْلِ الْقَضَايَا، وَخَيْرُ الْفَاتِحِينَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ عِبَادِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أَيِ لَوْ كَانَ مَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَيَّ، لَأَوْفَعْتُ لَكُمْ مَا تَسْتَحِفُّونَهُ مِنْ ذَلِكَ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمٍ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِيَالِيلَ بْنِ عَبْدِكُلَالٍ، فَلَمْ يُجِئْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَأَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَشْتَقِ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّلَالِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ ظَلَمَتْنِي، فَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَتَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ، لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، قَالَ: فَتَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ

قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَقَدْ بَعَثَنِي رُكَّكَ إِلَيْكَ، لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَطِيعْتُ عَنْهُمْ الْأَخْشَبِينَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَضْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»^(١). وَهَذَا لَفْظٌ مُسْلِمٌ، فَقَدْ عَرَضَ عَلَيْهِ عَذَابُهُمْ وَاسْتِئْصَالُهُمْ، فَاسْتَأْنَى بِهِمْ، وَسَأَلَ لَهُمُ التَّأْخِيرَ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَضْلَابِهِمْ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا... فَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ فَالْجَوَابُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ دَلَّتْ، عَلَى أَنَّهُ لَوْ كَانَ إِلَيْهِ وَقُوعُ الْعَذَابِ الَّذِي يَطْلُبُونَهُ حَالِ طَلِبِهِمْ لَهُ، لَا وَقَعَهُ بِهِمْ، وَأَمَّا الْحَدِيثُ فَلَيْسَ فِيهِ أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ وَقُوعَ الْعَذَابِ بِهِمْ، بَلْ عَرَضَ عَلَيْهِ مَلَكُ الْجِبَالِ أَنَّهُ إِنْ شَاءَ أَطِيعُوا عَنْهُمْ الْأَخْشَبِينَ، وَهُمَا جَبَلَا مَكَّةَ اللَّذَانِ يَكْتَنِفَانِهَا جَنُوبًا وَشِمَالًا. فَلِهَذَا اسْتَأْنَى بِهِمْ وَسَأَلَ الرَّفْقَ لَهُمْ.

[لَا يَعْلَمُ الْغَيْبُ إِلَّا اللَّهُ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ»^(٢) إِنْ اللَّهُ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُزِيلُ الْغَيْبَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْآرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَادَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» [لقمان: ٣٤]^(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أَيِ مُحِيطٌ عِلْمُهُ الْكَرِيمُ بِجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ، بَرِّيَّهَا وَبَحْرِيَّهَا، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، وَلَا يُثْقَلُ دَرَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أَيِ وَيَعْلَمُ الْحَرَكَاتِ حَتَّى مِنَ الْجِمَادَاتِ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْحَيَوَانَاتِ، وَلَا سَيِّمَا الْمُكَلَّفُونَ مِنْهُمْ مِنْ جَنِّهِمْ وَإِنْسِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي يُوَفِّيكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ

(١) فتح الباري: ٦/ ٣٦٠، ومسلم: ١٤٢٠/ ٣ (٢) فتح الباري: ١٤١/ ٨

الْحَمْدُ لِلَّهِ

١٣٥

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣٥﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُم الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿١٣٦﴾ ثُمَّ رُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَهُوَ أَعْلَمُ الْغُيُوبِ ﴿١٣٧﴾

[الْعِبَادُ بِنِدَاءِ اللَّهِ قَبْلَ الْمَوْتِ وَبَعْدَهُ]

يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّهُ يَتَوَفَّى عِبَادَهُ فِي مَنَامِهِمْ بِاللَّيْلِ، وَهَذَا هُوَ التَّوَفَّى الْأَصْغَرُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمَا ضَرَفَ إِلَيْهِ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢] فَذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْوَفَاتَيْنِ الْكُبْرَى وَالصَّغْرَى، وَهَكَذَا ذَكَرَ فِي هَذَا الْمَقَامِ، حُكْمَ الْوَفَاتَيْنِ الصَّغْرَى ثُمَّ الْكُبْرَى، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أَيَّ وَيَعْلَمُ مَا كَسَبْتُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ بِالنَّهَارِ ^(١).

وَهَذِهِ جُمْلَةٌ مُّعْتَرِضَةٌ ذَلَّتْ عَلَىٰ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ، فِي حَالِ سُكُونِهِمْ وَحَالِ حَرَكَتِهِمْ، كَمَا قَالَ: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أَيَّ فِي اللَّيْلِ ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣] أَيَّ فِي النَّهَارِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١٠، ١١] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أَيَّ مَا كَسَبْتُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ فِيهِ ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أَيَّ فِي النَّهَارِ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَفَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ يَعْنِي بِهِ أَجَلَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ﴾ أَيَّ فَيُخَبِّرُكُمْ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيَّ وَيَجْزِيكُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أَيَّ وَهُوَ الَّذِي فَهَرَّ كُلَّ شَيْءٍ وَخَضَعَ لِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ كُلَّ شَيْءٍ، ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً﴾ أَيَّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَ بَدَنَ الْإِنْسَانِ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَهُمْ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُمْ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] وَحَفَظَةٌ يَحْفَظُونَ عَمَلَهُ وَيَحْصُونَهُ عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا عَلَىٰ كُفَّظِينَ﴾ الْآيَةُ [الانفطار: ١٠]

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ يَتْلَىٰ الْمُتَفَانِ عَنِ الْبَعِثِ وَعَنِ الْبَالِ قَعِيدٌ﴾ مَّا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿ق: ١٧، ١٨﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أَيَّ اجْتَضَرَ وَحَانَ أَجَلُهُ ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أَيَّ مَلَائِكَةُ مُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: لِمَلَائِكَةِ الْمَوْتِ أَغْوَانٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ^(٢). يُخْرِجُونَ الرُّوحَ مِنَ الْجَسَدِ فَيُقْبِضُهَا مَلَكُ الْمَوْتِ إِذَا انْتَهَتْ إِلَى الْحُلُقُومِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾ أَيَّ فِي حِفْظِ رُوحِ الْمُتَوَفَّى، بَلْ يَحْفَظُونَهَا وَيُزِيلُونَهَا حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، إِنْ كَانَ مِنَ الْأَبْرَارِ فَفِي عِلِّيِّينَ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْفَجَّارِ فَفِي سَجِّيْنِ، عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ رُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، قَالُوا: اخْرِجِي أَيْتَهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ،

كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، أَخْرَجِي حَمِيدَةً، وَأُبَشِّرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانٍ، فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا، فَيَقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقَالُ: فَلَانٌ، فَيَقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأُبَشِّرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانٍ، فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السَّوْءُ، قَالُوا: أَخْرَجِي أَتَيْهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، أَخْرَجِي ذَمِيمَةً وَأُبَشِّرِي بِحَمِيمٍ وَعَسَاقٍ، وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجَ، فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا فَيَقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقَالُ: فَلَانٌ، فَيَقَالُ: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً، فَإِنَّهُ لَا يَفْتَحُ لَكَ أَبْوَابَ السَّمَاءِ، فَتُرْسَلُ مِنَ السَّمَاءِ ثُمَّ تُصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ، فَيُجْلِسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ... فَيَقَالُ لَهُ مِثْلُ مَا قِيلَ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ - وَجُلِسَ الرَّجُلُ السَّوْءُ...^(١) فَيَقَالُ لَهُ مِثْلُ مَا قِيلَ فِي الْحَدِيثِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: «ثُمَّ رُدُّوْا» يَعْنِي الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ «إِلَى اللَّهِ» يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَحْكُمُ فِيهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ: «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ^(٢) لَمَجْبُوعُونَ إِلَى يَمِينَتِ يَوْمِ مَعْلُومٍ» [الواقعة: ٤٩، ٥٠] وَقَالَ: «وَحَضَرْتَهُمْ فَلَمْ تَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا» إِلَى قَوْلِهِ: «وَلَا يَطْلُبُ رِثْلَكَ أَحَدًا» [الكهف: ٤٩] وَلِهَذَا قَالَ: «مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَمَرُ الْحَكِيمِينَ».

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَجَنَّا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ^(٣)﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكُرُونَ^(٤) أَقْبَلْنَا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: «قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً» أَيُّ جَهْرًا وَسِرًّا «لَّيْنٍ أَجَنَّا» أَيُّ مِنْ هَذِهِ الصَّائِقَةِ «لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ» أَيُّ بَعْدَهَا. قَالَ اللَّهُ: «قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكُرُونَ» أَيُّ تَدْعُونَ مَعَهُ فِي حَالِ الرَّفَاهَةِ إِلَهَةً أُخْرَى. وَقَوْلُهُ: «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ»: لَمَّا قَالَ «ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكُرُونَ» عَقِبَهُ بِقَوْلِهِ: «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا» أَيُّ بَعْدَ إِنْجَائِهِ إِيَّاكُمْ، كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ سُبْحَانَ: «رَبُّكُمْ الَّذِي يُزَيِّجُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَنَعَّوْا مِنْ فَضْلِهِ» إِثْمَ كَانَتْ بِكُمْ رَحِيمًا^(٥) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا فَنَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا^(٦) أَفَأَمْسَرْتُمْ أَنْ يُخَيِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكَيلًا^(٧) أَمْ أَمْسَرْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغَرِّقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا^(٨) [الإسراء: ٦٦-٦٩].

رَوَى الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ يَفْقَهُونَ» يَلْبِسُكُمْ: يَخْلِطُكُمْ مِنَ الْإِلْتِبَاسِ، يَلْبِسُوا: يَخْلِطُوا، شِيْعًا: فِرْقًا.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ» قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» أَوْ يَلْبِسُكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذِهِ أَهْوُونُ أَوْ أَيْسَرُ^(٩) وَهَكَذَا رَوَاهُ أَيْضًا فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ^(١٠). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ أَيْضًا فِي التَّفْسِيرِ^(١١).

(حَدِيثٌ آخَرٌ) - رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، قَالَ: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى مَرَرْنَا

[بَيَانُ فَضْلِ اللَّهِ وَكَرَمِهِ وَبَطْشِهِ وَقَهْرِهِ]
يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًا عَلَى عِبَادِهِ، فِي إِنْجَائِهِ الْمُضْطَرِّينَ مِنْهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، أَيِ الْحَاثِرِينَ الْوَاقِعِينَ فِي الْمَهَامَةِ الْبَرِّيَّةِ، وَفِي اللَّجَجِ الْبَحْرِيَّةِ، إِذَا هَاجَتِ الرِّيَّاحُ الْعَاصِفَةُ، فَحَيِّثُذِ يُرْدُّونَ الدُّعَاءَ لَهُ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَقَوْلِهِ: «وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ» الْآيَةَ [الإسراء: ٦٧]، وَقَوْلُهُ: «هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكَ وَجَّهَنَّ يَوْمَ يَرْجِعُ طَائِفٌ مِنْهَا جَاءَتْهَا

(١) أحمد: ٣٦٤/٢ (٢) فتح الباري: ١٤١/٨ (٣) فتح

الباري: ٤٠٠/١٣ (٤) النسائي في الكبرى: ٣٤٠/٦

[الدَّعْوَةُ إِشَادٌ بِغَيْرِ إِكْرَاهٍ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾ أي بِالْقُرْآنِ الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ، وَالْهَدَى وَالْبَيَانَ، ﴿تَوْمَكُمْ﴾ يَعْنِي قُرَيْشًا ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أَيِ الَّذِي لَيْسَ وَرَاءَهُ حَقٌّ ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِكَلِيلٍ﴾ أَيِ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ، وَلَسْتُ بِمُكَلِّ بِكُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ [الكهف: ٢٩] أَيِ إِنَّمَا عَلَيَّ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، فَمَن اتَّبَعَنِي سَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَن خَالَفَنِي فَقَدْ شَقِيَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِكُلِّ نَبَرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَيِ لِكُلِّ نَبَرٍ حَقِيقَةٌ، أَيِ لِكُلِّ خَبَرٍ وَفُوعٌ، وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨] وَقَالَ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨] وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

[النَّهْيُ عَنِ الْجُلُوسِ مَعَ مَنْ يَخُوضُ فِي

آيَاتِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أَيِ بِالْكَذِبِ وَالِاسْتِهْزَاءِ. ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أَيِ حَتَّى يَأْخُذُوا فِي كَلَامٍ آخَرَ غَيْرَ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ التَّكْذِيبِ، ﴿وَلَمَّا يُسَبِّحُكَ الشَّيْطَانُ﴾ وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ كُلُّ فِرْدٍ مِنْ آحَادِ الْأُمَّةِ، أَنْ لَا يَجْلِسَ مَعَ الْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ آيَاتِ اللَّهِ وَيَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا، فَإِنْ جَلَسَ أَحَدٌ مَعَهُمْ نَاسِيًا ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى﴾: بَعْدَ التَّذَكُّرِ ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وَلِهَذَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنَّسْيَانُ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»^(١).

وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الْمُسَارُّ إِلَيْهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ إِنَّكُمْ إِذَا جَلَسْتُمْ مَعَهُمْ، وَأَقْرَبْتُمُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ سَاوَيْتُمُوهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيِ

عَلَى مَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ، فَدَخَلَ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، فَصَلَّيْنَا مَعَهُ، فَتَأَجَّي رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ: «سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا: سَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَهْلِكَ أُمَّتِي بِالْعُرْقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّيَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ فَمَنْعَتِيهَا». انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ، فَرَوَاهُ فِي كِتَابِ الْفِتَنِ^(١).

(حَدِيثُ آخَرَ) - رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِ مَوْلَى بَنِي زُهْرَةَ، وَكَانَ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: وَافَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ صَلَّاهَا كُلَّهَا، حَتَّى كَانَ مَعَ الْفَجْرِ، فَسَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ صَلَاتِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَقَدْ صَلَّيْتُ اللَّيْلَةَ صَلَاةً مَا رَأَيْتُكَ صَلَّيْتُ مِثْلَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَجَلٌ إِنَّهَا صَلَاةٌ رَغَبَ وَرَهَبٍ، سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا ثَلَاثَ خِصَالٍ، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً: سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يَهْلِكَ بِنَا أَهْلُكَ بِهِ الْأَمَمَ قَبْلَنَا فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُظْهَرَ عَلَيْنَا عَدُوٌّ مِنْ غَيْرِنَا فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُلْبِسَنَا شَيْعًا فَمَنْعَتِيهَا»^(٢). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الْفِتَنِ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شَيْعًا﴾ يَعْنِي يَجْعَلُكُمْ مُتَّبِيسِينَ شَيْعًا: فِرْقًا مُتَخَالِفِينَ. وَقَالَ الْوَالِيبِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْأَهْوَاءَ^(٤). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(٥). وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيُّ مِنْ طَرِيقٍ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَسَتَقْفِرُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً»^(٦) وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَذِيقُ بَعْضُكُم بِأَسْ بَعْضٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: يَعْنِي يُسَلِّطُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْعَذَابِ وَالْقَتْلِ^(٧). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَلْبَتِ﴾ أَيِ نُبَيِّنُهَا وَنُوضِّحُهَا مَرَّةً وَنُفَسِّرُهَا، ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أَيِ يَفْهَمُونَ وَيَتَذَبَّرُونَ عَنِ اللَّهِ آيَاتِهِ وَحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ تَوْمَكُمْ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِكَلِيلٍ﴾ لِكُلِّ نَبَرٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ وَلَمَّا يُسَبِّحُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنَّ ذِكْرًا لِّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

(١) أحمد: ١/١٧٥ ومسلم: ٢٨٩٠ (٢) أحمد: ١٠٨/٥ (٣) النسائي: ٣/٢١٧ وابن حبان: ١٧٩/٩ وتحفة الأحوذى: ٦/٣٩٧ وأحمد: ١٠٨/٥ (٤) الطبري: ١١/٤٢٠ (٥) الطبري: ١١/٤١٩ (٦) أبو داود: ٥/٥ وتحفة الأحوذى: ٧/٣٩٩ وابن ماجه: ٢/١٣٢٢ (٧) الطبري: ١١/٤٢١ (٨) ابن ماجه: ١/٦٥٩

الْمُتَّاعِينَ

١٣٦

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ أَعَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدْلًا لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧﴾ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اسْتِنَّا قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

[مَثَلٌ مَنْ يَرْجِعُ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ

الصَّالِحِ]

قَالَ السُّدِّيُّ: قَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ: إِنِّبِعُوا سَبِيلَنَا وَاتْرَكُوا دِينَ مُحَمَّدٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ أَيْ فِي الْكُفْرِ ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ فَيَكُونُ مَثَلُنَا مَثَلُ الَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ، يَقُولُ: مَثَلُكُمْ إِنْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ، كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ مَعَ قَوْمٍ عَلَى الطَّرِيقِ، فَصَلَّى الطَّرِيقَ، فَحَيَّرَتْهُ الشَّيَاطِينُ، وَاسْتَهْوَتْهُ فِي الْأَرْضِ، وَأَصْحَابُهُ عَلَى الطَّرِيقِ، فَجَعَلُوا يَدْعُونَهُ إِلَيْهِمْ يَقُولُونَ: إِنِّبِنَا فَإِنَّا عَلَى الطَّرِيقِ، فَأَبَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ، فَلَدَيْكَ مَثَلٌ مَنْ يَتَّبِعُهُمْ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَمُحَمَّدٌ هُوَ الَّذِي يَدْعُو

إِذَا تَجَبَّوهُمْ، فَلَمْ يَجْلِسُوا مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَقَدْ بَرَّوْا مِنْ عَهْدَتِهِمْ وَتَخَلَّصُوا مِنْ إِيْمَانِهِمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أَيْ وَلَكِنْ أَمَرْنَاكُمْ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ، حِينَئِذٍ تَذَكَّرُوا لَهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ذَلِكَ وَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ أَعَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدْلًا لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧١)

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ أَعَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ أَيْ دَعَهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَأَمْنَهُمْ قَلِيلًا فَإِنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَذَكَرَ بِهِمْ﴾ أَيْ ذَكَرَ النَّاسَ بِهَذَا الْقُرْآنِ، وَحَذَّرَهُمْ نِقْمَةَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ الْأَلِيمِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أَيْ لِئَلَّا تَبْسَلَ. قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ، وَالْحَسَنِ وَالسُّدِّيِّ: تَبْسَلَ: تُسَلِّمُ^(١). وَقَالَ الْوَالِيبِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَفْتَضَحُ^(٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: تُحَسِّنُ^(٣). وَقَالَ مَرَّةً وَابْنُ زَيْدٍ: تُوَاجِدُ^(٤). وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: تُجْزَى^(٥). وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَالْعِبَارَاتِ مُتَقَارِبَةٌ فِي الْمَعْنَى، وَخَاصِلُهَا الْإِسْلَامُ لِلْهَلَكَةِ، وَالْحَسَنُ عَنِ الْخَبِيرِ وَالْإِزْهَانُ عَنْ ذَرِكِ الْمَطْلُوبِ، كَقَوْلِهِ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (٧٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْإِيمَانِ [المدثر: ٣٨، ٣٩] وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدْلًا لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ أَيْ وَلَوْ بَدَلَتْ كُلُّ مَبْدُولٍ مَا قُبِلَ مِنْهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ مِنْ أَحَدِهِمْ نَفْسًا إِلَّا أَرْضٌ ذَهَبًا﴾ (آل عمران: ٩١)، وَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اسْتِنَّا قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ

(١) الطبري: ٤٤٣/١١ (٢) الطبري: ٤٤٤/١١ (٣) الطبري:

٤٤٣/١١ (٤) الطبري: ٤٤٣/١١ (٥) الطبري: ٤٤٤/١١

عَمِرُوا قَالَ: قَالَ أَغْرَابِي: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الصُّورُ؟ قَالَ: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ»^(٤).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَارِذَ أَنْتَخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٧٤) وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَزَّ عَلَيْهِ الْيَلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى النَّهْسَ بَارِزًا قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُغَوِّرُ إِلَهِي بَرِيءٌ وَمِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلدِّينِ فَطَرِ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَعَظُّهُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَعَظَ أَبَاهُ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَزَجَرَهُ عَنْهَا وَنَهَاةً، كَمَا قَالَ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَارِذَ أَنْتَخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً؟ أَيْ أَتَتَأَلَّهُ لِيَصْنَعَ تَعْبُدَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟﴾ [إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ] أَيْ السَّالِكِينَ مَسْلَكَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، أَيْ تَائِهِينَ لَا يَهْتَدُونَ أَيْنَ يَسْلُكُونَ، بَلْ فِي حَيْرَةٍ وَجَهْلٍ، وَأَمْرُكُمْ فِي الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالِ بَيْنَ وَاصِحٍ لِكُلِّ ذِي عَقْلٍ سَلِيمٍ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٨١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَأْتٍ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٨٢) يَتَأْتٍ إِلَيَّ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبَعْنِي أَهْلَكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٨٣) يَتَأْتٍ إِلَيَّ أَخَافُ أَنْ يَسْكَ عَذَابُ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٨٤) قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَأْتِيهِمْ لَيْنَ لَمْ تَنْتَهُ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٨٥) قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٨٦) وَأَعَزَّلْنَاهُ مَا نَدْعُوتُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَادْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا [مريم: ٤١-٤٨] فَكَانَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَسْتَغْفِرُ لِأَبِيهِ مُدَّةَ حَيَاتِهِ، فَلَمَّا مَاتَ عَلَى الشُّرْكِ وَتَبَيَّنَ إِبْرَاهِيمَ ذَلِكَ، رَجَعَ عَنِ الْإِسْتِغْفَارِ لَهُ وَتَبَرَّأَ مِنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ وَتَبَيَّنَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ، يَلْقَى أَبَاهُ أَرَزَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ لَهُ أَرَزَ: يَا بَنِي الْيَوْمِ لَا أَغْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: أَيْ رَبِّ أَلَمْ تَعِدْنِي أَنَّكَ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ

إِلَى الطَّرِيقِ، وَالطَّرِيقُ هُوَ الْإِسْلَامُ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(١) وَقَوْلُهُ: ﴿كَأَلَيْكَ اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ هُمُ الْغِيْلَانُ يَدْعُوْنَهُ بِاسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَجَدِّهِ، فَيَتَّبِعُهَا وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ فِي شَيْءٍ، فَيُصْبِحُ وَقَدْ رَمَتْهُ فِي هَلَكَةٍ، وَرَبَّمَا أَكَلَتْهُ، أَوْ تَلْقِيَهُ فِي مَضَلَّةٍ مِنَ الْأَرْضِ يَهْلِكُ فِيهَا عَظْمًا، فَهَذَا مِثْلُ مَنْ أَجَابَ الْآلِهَةَ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٢). وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ إِنَّكَ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْغَايُ﴾ [البقرة: ١٢٠] كَمَا قَالَ: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَمْ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧] وَقَالَ: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ﴾ [النحل: ٣٧] وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَمْرًا لِلنَّبِيِّ لِرَبِّ الْمَلَكُوتِ﴾ أَيْ نُحْلِصَ لَهُ الْعِبَادَةَ، وَخَذَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿وَأَنْ أَمِيقُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا﴾ أَيْ وَأَمِرْنَا بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَبِتَقْوَاهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أَيْ بِالْعَدْلِ فَهُوَ خَالِقُهُمَا وَمَالِكُهُمَا، وَالْمَدَبِّرُ لَهُمَا وَلَمَنْ فِيهِمَا، وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُلُّ نَفْسٍ لَكُمْ أَنِّي كُنْتُ بِكُمْ غَافِرًا﴾ أَيْ كُنْتُ بِكُمْ غَافِلًا، وَتَقْدِيرُهُ: وَأَنْقَا يَوْمَ يَقُولُ: كُنْ، فَيَكُونُ عَنْ أَمْرِهِ كُلُّ نَفْسٍ الْبَصِيرُ، أَوْ هُوَ أَقْرَبُ، وَ﴿يَوْمَ﴾ مَنْصُوبٌ إِمَّا عَلَى الْعَطْفِ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَاتَّقُوا﴾، وَتَقْدِيرُهُ: وَأَنْقَا يَوْمَ يَقُولُ: كُنْ، فَيَكُونُ. وَإِمَّا عَلَى قَوْلِهِ: ﴿خَلَقَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضَ﴾ أَيْ وَخَلَقَ يَوْمَ يَقُولُ: كُنْ فَيَكُونُ. فَذَكَرَ بَدْءَ الْخَلْقِ وَإِعَادَتَهُ، وَهَذَا مُنَاسِبٌ. وَإِمَّا عَلَى إِضْمَارِ فِعْلِ تَقْدِيرُهُ: وَ(أَذْكُرُ) يَوْمَ يَقُولُ: كُنْ، فَيَكُونُ. وَقَوْلُهُ: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ جُمْلَتَانِ مَحَلُّهُمَا الْجُرُّ عَلَى أَنَّهُمَا صِفَتَانِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

[بَيَانُ نَفْخِ الصُّورِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُلُّ نَفْسٍ لَكُمْ أَنِّي كُنْتُ بِكُمْ غَافِرًا﴾، يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ظَرْفًا لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] كَقَوْلِهِ: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا﴾ [الفرقان: ٢٦] وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَالْمُرَادُ بِالصُّورِ الْقَرْنُ الَّذِي يُنْفَخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ إِسْرَافِيلَ قَدْ أَلْتَمَمَ الصُّورَ، وَحَتَّى جَبْهَتُهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفَخُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ^(٣). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

(١) الطبري: ٤٥٢/١١ (٢) الطبري: ٤٥٢/١١ (٣) الطبري:

٢٣٨/٥ (٤) تحفة الأوحدي: ١١٧/٧ وأحمد: ١٦٢/٢

يَبْعَثُونَ، وَأَيُّ حِزْبٍ أُخْزِيَ مِنْ أَبِي الْأَبْعَدُ؟ فَيَقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْظُرْ مَا وَرَاءَكَ، فَإِذَا هُوَ بِذِيحٍ مُتَلَطِّحٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ^(١).

[إِنْكِشَافٌ دَلَالِ التَّوْحِيدِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ]

قَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ تَبَيَّنَ لَهُ وَجْهَ الدَّلَالَةِ فِي نَظَرِهِ إِلَى خَلْقِهِمَا، عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فِي مَلِكِهِ وَخَلْقِهِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] وَقَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ شَاءَ نَحْنُ نَحْصِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمُ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُثِيبٍ﴾ [سبا: ٩] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أَيُّ تَعَشَّاهُ وَسَتَرَهُ ﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾ أَيُّ نَجْمًا ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أَيُّ غَابَ، قَالَ: ﴿لَا أُحِبُّ الْأَفْلَيتَ﴾ قَالَ فَتَادَهُ: عَلِمَ أَنَّ رَبَّهُ دَائِمٌ لَا يَزُولُ^(٢). ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَارِزًا﴾ أَيُّ طَالِعًا ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَارِزَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أَيُّ هَذَا الْمُنِيرُ الطَّالِعُ رَبِّي ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ أَيُّ جُزْمًا مِنَ النَّجْمِ وَمِنْ الْقَمَرِ، وَأَكْثَرُ إِضَاءَةً ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أَيُّ غَابَتْ ﴿قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [٧٨] إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ إِلَى الْأَرْضِ، وَأَفْرَدْتُ عِبَادَتِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أَيُّ خَلَقَهُمَا وَابْتَدَعَهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ﴿حَنِيفًا﴾ أَيُّ فِي حَالٍ كُزْنِي حَنِيفًا، أَيُّ مَا بِلَا عَنِ الشَّرِكِ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

[هَذَا مَقَامُ الْمُنَاطَرَةِ لَا طَلَبُ التَّحْقِيقِ]

قد اختلف المفسرون في هذا المقام: هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر واختاره ابن جرير مستدلًا بقوله "لئن لم يهْدِنِي رَبِّي".

وَالْحَقُّ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كَانَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مُنَاطِرًا لِقَوْمِهِ، مُبَيِّنًا لَهُمْ بُطْلَانَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْهَيْكَلِ وَالْأَصْنَامِ، فَبَيَّنَ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ مَعَ أَبِيهِ خَطَأَهُمْ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الْأَرْضِيَّةِ، الَّتِي هِيَ عَلَى صُورِ الْمَلَائِكَةِ السَّمَاوِيَّةِ، لِيَشْفَعُوا لَهُمْ إِلَى الْخَالِقِ الْعَظِيمِ، [الَّذِي] هُمْ - عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ - أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَإِنَّمَا يَتَوَسَّلُونَ إِلَيْهِ بِعِبَادَةِ مَلَائِكَتِهِ، لِيَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَهُ فِي الرِّزْقِ

سورة الأنعام

١٣٨

سورة الأنعام

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْأَمَنُ
وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى
قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ شَاءَ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾
وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا
هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن دُرِّيَّةٍ لِّدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ
يُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾
وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِلْيَاسَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى
الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ
وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي
بِهِ مَن يَشَاءُ مَن عَبَادَهُ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ
فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ
﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْ لَهُمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافَتُهُ ﴿٩٠﴾ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٩١﴾
فِيمَا يَنْتَبِهَتْ لَكُمْ؟ أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ أَنَّ هَذِهِ الْأَلِهَةَ بَاطِلَةٌ فَتَنْزَجِرُوا
عَنْ عِبَادَتِهَا؟ وَهَذِهِ الْحُجَّةُ نَظِيرُ مَا اِخْتَجَّ بِهَا نَبِيُّ اللَّهِ هُوْدُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى قَوْمِهِ عَادٍ، فِيمَا قَصَّ عَنْهُمْ فِي كِتَابِهِ،
حَيْثُ يَقُولُ: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِينَ
الْأَلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٢﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا
أَعْرَبَكَ بَعْضُ الْهَيْتَا يَسُوءُ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ
مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٣﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٤﴾ إِنِّي
تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ
رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ [هود: ٥٣-٥٦] وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَيْفَ
أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ أَيُّ كَيْفٍ أَخَافُ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي
تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ
يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ
السَّلَفِ: أَيُّ حُجَّةٍ ^(١). وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ

الْأَبْصَارُ، وَتَحَقَّقَ ذَٰلِكَ بِالذَّلِيلِ الْقَاطِعِ، ﴿قَالَ يَنْقُورُ إِنِّي
بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أَيُّ أَنَا بَرِيءٌ مِنْ عِبَادَتِهِنَّ وَمُؤَالَاتِهِنَّ،
فَإِنْ كَانَتْ إِلَهَةٌ فَيَكِيدُونِي بِهَا جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿إِنِّي
وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَافِيًا وَمَا أَنَا
مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أَيُّ إِنَّمَا أَعْبُدُ خَالِقَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ
وَمُخْتَرِعَهَا وَمُسَخَّرَهَا وَمُقَدَّرَهَا وَمُدَبَّرَهَا، الَّذِي بِيَدِهِ
مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَخَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَرَبُّهُ وَمَلِكُهُ وَإِلَهُهُ،
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ
يُظِلُّهُ حَبِيبًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ
الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] قَالَ اللَّهُ
فِي حَقِّهِ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ
عَالِمِينَ﴾ ﴿٩١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبْنَيْهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا
عَبَكُونَ ﴿٩٢﴾ الْآيَاتِ [الأنبياء: ٥١، ٥٢]، وَمِمَّا يُؤَيِّدُ أَنَّهُ كَانَ
فِي هَذَا الْمَقَامِ مُنَاطِرًا لِقَوْمِهِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الشَّرِكِ لَا
نَاطِرًا، قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَحَاجَّتْهُ قَوْمُهُ قَالُوا ائْتِنَا بِآيَاتٍ﴾ وَفَدَّ هَدَيْنِ وَلَا أَخَافُ مَا
تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ
عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٩٣﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا
تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ
سُلْطَانًا فَإِنَّ الْقَرِيبَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٤﴾ الَّذِينَ
آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ
مُهْتَدُونَ ﴿٩٥﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ
دَرَجَاتٍ مِّنْ شَاءَ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٩٦﴾
يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ، حِينَ جَادَلَهُ قَوْمُهُ
فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَنَاطَرُوهُ بِشُبُهٍ مِنَ الْقَوْلِ، أَنَّهُ
قَالَ: ﴿أَتُحْجَجُونَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنِ﴾ أَيُّ تَجَادُلُونِي فِي أَمْرِ
اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَقَدْ بَصَّرَنِي وَهَدَانِي إِلَى الْحَقِّ،
وَأَنَا عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ، فَكَيْفَ أَتَنَفَّسُ إِلَى أَقْوَالِكُمُ الْفَاسِدَةِ،
وَشُبُهِكُمُ الْبَاطِلَةِ؟ وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا
أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أَيُّ وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِكُمْ فِيمَا
ذَهَبْتُمْ إِلَيْهِ: أَنَّ هَذِهِ الْأَلِهَةَ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا لَا تُؤْتِرُ شَيْئًا،
وَأَنَا لَا أَخَافُهَا وَلَا أَبَالِيهَا، فَإِنْ كَانَ لَهَا كَيْدٌ فَيَكِيدُونِي بِهَا،
وَلَا تُنْظِرُونِ بَلَّ عَاجِلُونِي بِذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ إِسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، أَيُّ لَا يَصْرُ وَلَا يَنْفَعُ إِلَّا
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أَيُّ أَحَاطَ عِلْمُهُ

هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ دُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ
وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾
وَذَكَرْنَا وَيْحَ يَعْقِبَ وَإِسْحَاقَ وَنُوحًا وَنُوحًا وَنُوحًا وَنُوحًا
وَالْعِيسَى وَالْإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكَثِيرًا فَضَلْنَا عَلَى
الْعَالَمِينَ ﴿٨٥﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ
وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٦﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي
بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبَطَ عَنْهُمْ مَا
كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿٨٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ
وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْنَ بِهَا
بِكُفْرِهِمْ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَفْئِدَهُ
قَدْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِمْ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ

لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

[هبة إسحق ويعقوب لإبراهيم في شيوخه]
يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ وَهَبَ لِإِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ بَعْدَ أَنْ طَعَنَ فِي
السَّنِّ، وَأَيُّسَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ سَارَةُ مِنَ الْوَلَدِ، فَجَاءَتْهُ الْمَلَائِكَةُ
وَهُمْ ذَاهِبُونَ إِلَى قَوْمِ لُوطٍ، فَبَشَّرُوهُمَا بِإِسْحَاقَ، فَتَعَجَّبَتِ
الْمَرْأَةُ مِنْ ذَلِكَ، وَ«قَالَتْ يَوْتِلَقَى إِلَهُدَّ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي
شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا أَنْعَجِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ
رَحِمْتُ اللَّهُ وَرَكْنُهُ عَلَيْكَ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ [هود: ٧٢، ٧٣]
فَبَشَّرُوهُمَا - مَعَ وُجُودِهِ - بِنُوحٍ، وَبِأَنَّ لَهُ نَسْلًا
وَعَقِيبًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ»
[الصافات: ١١٢] وَهَذَا أَكْمَلُ فِي الْبَشَارَةِ وَأَعْظَمُ فِي
النِّعْمَةِ، وَقَالَ: «فَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ»
[هود: ٧١] أَيْ وَيُولَدُ لِهَذَا الْمَوْلُودِ وَلَدٌ فِي حَيَاتِكُمَا، فَتَقَرُّ
أَعْيُنُكُمَا بِهِ، كَمَا قَرَّتْ بِوَالِدِهِ، فَإِنَّ الْفَرَحَ بِوَلَدِ الْوَلَدِ شَدِيدٌ
لِقَاءِ النَّسْلِ وَالْعَقَبِ، وَلَكِنْ كَانَ وَلَدُ الشَّيْخِ وَالشَّيْخَةِ قَدْ
يَتَوَهَّمُ: أَنَّهُ لَا يُقْبَلُ لِضَعْفِهِ، وَقَعَتِ الْبَشَارَةُ بِهِ وَبَوَلَدِهِ
بِاسْمِ يَعْقُوبَ الَّذِي فِيهِ اشْتِقَاقُ الْعَقَبِ وَالذَّرِّيَّةِ، وَكَانَ هَذَا
مُجَازَاةً لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ اعْتَزَلَ قَوْمَهُ وَتَرَكَهُمْ
وَنَزَحَ عَنْهُمْ، وَهَاجَرَ مِنْ بِلَادِهِمْ ذَاهِبًا إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ فِي
الْأَرْضِ، فَعَوَّضَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ، بِأَوْلَادٍ
صَالِحِينَ مِنْ صُلْبِهِ عَلَى ذِيْنِهِ، لِتَقَرُّ بِهِمْ عَيْنُهُ، كَمَا قَالَ
تَعَالَى: «فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ

شُرَكَاءُ سَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ اللَّهُ» [الشورى: ٢١] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أُتُمٌ
وَأَبَاؤُهُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» [يوسف: ٤٠] وَقَوْلُهُ:
«فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» أَيْ فَأَيُّ
طَائِفَتَيْنِ أَصُوبٌ: الَّذِي عَبْدَ مَنْ بِيَدِهِ الضَّرُّ وَالنِّفْعُ، أَوْ
الَّذِي عَبْدَ مَنْ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، بِلَا دَلِيلٍ، أَتِيَهُمَا أَحَقُّ
بِالْأَمْنِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «الَّذِينَ
آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ»
أَيْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَحْلَصُوا الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،
وَلَمْ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، هُمُ الْأَمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمُهْتَدُونَ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

[الشُرْكُ هُوَ الظُّلْمُ الْعَظِيمُ]

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ «وَلَمْ يَلْبِسُوا
إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ» قَالَ أَصْحَابُهُ وَأَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَتَزَلَّتْ
«إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» [لقمان: ١٣] وَرَوَى الْإِمَامُ
أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ «الَّذِينَ آمَنُوا
وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ» شَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالُوا:
يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِي
تَعْنُونَ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: «يَبْنَئُ لَا شِرْكَ
بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» [لقمان: ١٣]؟ إِنَّمَا هُوَ
الشِّرْكُ» (٢).

وَقَوْلُهُ: «وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ» أَيْ
وَجَهَنَّا حُجَّتَهُ عَلَيْهِمْ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: يَعْنِي بِذَلِكَ
قَوْلُهُ: «وَكَيْفَ آخِافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ
أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ
أَحَقُّ بِالْأَمْنِ» (٣) ... الْآيَةُ. وَقَدْ صَدَّقَهُ اللَّهُ وَحَكَمَ لَهُ
بِالْأَمْنِ وَالْهِدَايَةِ فَقَالَ: «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ
بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ» ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ كَلِمَةً:
«وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ تَرَفُّعَ دَرَجَتِهِ مِنْ
شَأْنِهِ»: «إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» أَيْ حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ
وَأَفْعَالِهِ، عَلِيمٌ أَيْ بِمَنْ يَهْدِيهِ وَمَنْ يُضِلُّهُ، وَإِنْ قَامَتْ عَلَيْهِ
الْحُجَجُ وَالْإِبْرَاهِيمُ، كَمَا قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩١﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» [يونس: ٩٦، ٩٧] وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: «إِنَّ
رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ».

«وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا

(١) فتح الباري: ١٤٤/٨ (٢) أحمد: ٤٤٤/١ (٣) الطبري:

إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِأَمْرِهِ عَلَيْهَا السَّلَامُ، فَإِنَّهُ لَا أَبَ لَهُ: رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي حَرْبٍ بْنِ أَبِي الْأَسْوَدِ، قَالَ: أَرْسَلَ الْحَجَّاجُ إِلَى يَحْيَى بْنِ يَعْمُرٍ، فَقَالَ: بَلَّغْنِي أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ مِنْ ذُرِّيَةِ النَّبِيِّ ﷺ، تَجِدُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ - وَقَدْ قَرَأْتُهُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَلَمْ أَجِدْهُ؟ قَالَ: أَلَيْسَ تَقْرَأُ سُورَةَ الْأَنْعَامِ ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿وَيَحْيَى وَيَعْقُوبَ وَإِسْحَاقَ﴾ قَالَ: بَلَى. قَالَ: أَلَيْسَ عِيسَى مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَلَيْسَ لَهُ أَبٌ؟ قَالَ صَدَقْتَ^(١). فَلِهَذَا إِذَا أَوْصَى الرَّجُلُ لِذُرِّيَّتِهِ، أَوْ وَقَفَ عَلَى ذُرِّيَّتِهِ، أَوْ وَهَبَهُمْ، دَخَلَ أَوْلَادُ الْبَنَاتِ فِيهِمْ، فَأَمَّا إِذَا أُعْطِيَ الرَّجُلُ بَنِيهِ، أَوْ وَقَفَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُ يَخْتَصُّ بِذَلِكَ بَنُوهُ لِضَلْبِهِ وَبَنُو بَنِيهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ ذَكَرَ أَصُولَهُمْ وَفُرُوعَهُمْ، وَدَوْرِي طَبَقَتِهِمْ وَأَنَّ الْهَدَايَةَ وَالْإِجْتِيَاءَ شَمَلَهُمْ كُلَّهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاجْنِبْتُمْ وَهْدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

[الشَّرْكُ يَحِيطُ أَعْمَالُ الْمُخْلُوقِينَ حَتَّى الرُّسُلِ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أَيُّ إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَهِدَايَتِهِ إِيَّاهُمْ، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تَشْدِيدٌ لِأَمْرِ الشَّرْكِ، وَتَغْلِيظٌ لِشَأْنِهِ، وَتَعْظِيمٌ لِمَلَابَسَتِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحِطَنَّ عَلَيْكَ﴾ الْآيَةُ [الزمر: ٦٥]، وَهَذَا شَرْطٌ، وَالشَّرْطُ لَا يَقْتَضِي جَوَازَ الْوُقُوعِ، كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] وَكَقَوْلِهِ: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَنْجِدَ هَؤُلَاءِ لَأَخَذْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] وَكَقَوْلِهِ: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْزُكْرَ وَالنَّبُوَّةَ﴾ أَيُّ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، رَحْمَةً لِلْعِبَادِ بِهِمْ، وَلُطْفًا مِنَّا بِالْخَلِيقَةِ، ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ أَيُّ بِالنَّبُوَّةِ، وَبِحُتْمَلِ أَنْ يَكُونَ الصُّمُورُ عَائِدًا عَلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الثَّلَاثَةِ، الْكِتَابِ وَالْحُكْمِ وَالنَّبُوَّةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ يَعْنِي أَهْلَ مَكَّةَ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ

وَيَعْقُوبُ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿[مریم: ٤٩] وَقَالَ هُنَا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أَيُّ مِنْ قَبْلِهِ هَدَيْنَاهُ كَمَا هَدَيْنَاهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ ذُرِّيَّةً صَالِحَةً.

[خُصُوصِيَّةُ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ]

وَكُلٌّ مِنْهُمَا لَهُ خُصُوصِيَّةٌ عَظِيمَةٌ، أَمَّا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَغْرَقَ أَهْلَ الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ، وَهُمْ الَّذِينَ صَجَّوهُ فِي السَّفِينَةِ، جَعَلَ اللَّهُ ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ، فَالْأَنْسَ كُلُّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَأَمَّا الْخَلِيلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمْ يَعْثَبِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَهُ نَبِيًّا، إِلَّا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ الْآيَةُ [العنكبوت: ٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مریم: ٥٨] وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ أَيُّ وَهَدَيْنَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ الْآيَةُ، وَعَوْدُ الصُّمِيرِ إِلَى نُوحٍ - لِأَنَّهُ أَقْرَبُ الْمَذْكُورِينَ - ظَاهِرٌ لَا إِشْكَالَ فِيهِ^(١). وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ. وَعَوْدُهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ - لِأَنَّهُ الَّذِي سَبَقَ الْكَلَامَ مِنْ أَجْلِهِ - حَسَنٌ، لَكِنْ يُشْكَلُ عَلَيْهِ لَوْطٌ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ، بَلْ هُوَ ابْنُ أَخِيهِ مَارَانَ بْنِ آزَرَ، أَللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَقَالَ: إِنَّهُ دَخَلَ فِي الذَّرِّيَّةِ تَغْلِييًّا، وَكَمَا قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣] فَإِسْمَاعِيلُ عَمُّهُ دَخَلَ فِي آبَائِهِ تَغْلِييًّا، وَكَمَا قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَمِعَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَلَّا أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ [الحجر: ٣٠، ٣١] فَدَخَلَ إِبْلِيسُ فِي أَمْرِ الْمَلَائِكَةِ بِالسُّجُودِ، وَذَمٌّ عَلَى الْمُخَالَفَةِ لِأَنَّهُ كَانَ فِي تَشْبِهِ بِهِمْ، فَعُومِلَ مَعَامَلَتَهُمْ، وَدَخَلَ مَعَهُمْ تَغْلِييًّا، وَإِلَّا فَهُوَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ وَطَبِيعَتُهُ مِنَ النَّارِ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنَ النَّورِ.

وَفِي ذِكْرِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ - أَوْ نُوحٍ، عَلَى الْقَوْلِ الْآخِرِ - دَلَالَةٌ عَلَى دُخُولِ وَلَدِ الْبَنَاتِ فِي ذُرِّيَةِ الرَّجُلِ، لِأَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا يُنْسَبُ إِلَى

(١) الطبري: ٥٠٧/١١ (٢) الدر المنثور: ٣١١/٣ ابن أبي حاتم ٧٥٥٤/٤ فيه علي بن عباس وهو ضعيف كما في التقريب.

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

١٣٩

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۚ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمَا مَا تَعْلَمُونَ ۚ أَنْتُمْ وَلَآءَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٣٩﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٤٠﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٤١﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفْعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۖ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٤٢﴾

وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَالصَّحَّاحُ وَقَتَادَةُ وَالشَّدِيدُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ ^(١). «فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ» أَيِ إِذْ يَكْفُرُ بِهَذِهِ النِّعَمِ، مَن كَفَرَ بِهَا مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ، مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ، وَمِلِّيِّينَ وَكِتَابِيِّينَ، فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا آخَرِينَ، أَيِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَتْبَاعَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، «لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ» أَيِ لَا يَجْحَدُونَ مِنْهَا شَيْئًا، وَلَا يَرُدُّونَ مِنْهَا حَرْفًا وَاحِدًا، بَلْ يُؤْمِنُونَ بِجَمِيعِهَا، مُحْكِمِهَا وَمُتَشَابِهِهَا، جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهُمْ يَمِينَهُ وَكَرِيمَهُ وَإِحْسَانِيَهُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ «أُولَئِكَ» يَعْنِي الْأَنْبِيَاءَ الْمَذْكُورِينَ، مَعَ مَنْ أَضِيفَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَبَاءِ وَالذَّرِّيَّةِ وَالْإِخْوَانِ، وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ، «الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ» أَيِ هُمْ أَهْلُ الْهُدَى لَا غَيْرُهُمْ «فِيهِدْتُهُمْ أَفْتَدِيَهُ»، أَيِ افْتَدِ وَاتَّبِعْ، وَإِذَا كَانَ هَذَا أَمْرًا لِلرَّسُولِ ﷺ، فَأَمَّتُهُ تَبِعْ لَهُ، فِيمَا يَشْرَعُهُ وَيَأْمُرُهُمْ بِهِ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مُجَاهِدًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ أَفِي (ص) سَجْدَةٍ؟ فَقَالَ نَعَمْ، ثُمَّ تَلَا «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ» إِلَى قَوْلِهِ «فِيهِدْتُهُمْ أَفْتَدِيَهُ» ثُمَّ قَالَ: هُوَ مِنْهُمْ. زَادَ فِي رَوَايَةٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ... فَقَالَ: نَبِيَّكُمْ ﷺ مِمَّنْ أَمَرَ أَنْ يَفْتَدِيَ بِهِمْ ^(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «قَدْ لَّا آتَيْنَاكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا» أَيِ لَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ عَلَى إِبْلَاجِي إِيَّاكُمْ هَذَا الْقُرْآنَ أَجْرًا أَيِ أَجْرَةً، وَلَا أُرِيدُ مِنْكُمْ شَيْئًا، «إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ» أَيِ يَتَذَكَّرُونَ بِهِ، فَيَرْتَدُّوا مِنَ الْعَمَى إِلَى الْهُدَى، وَمِنَ الْعَمَى إِلَى الرَّشَادِ، وَمِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ.

«وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمَا مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَآءَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٣٩﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٤٠﴾»

[بَشَرِيَّةُ الرَّسُولِ وَإِنزَالُ الْكِتَابِ عَلَيْهِ]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: وَمَا عَظَّمُوا اللَّهَ حَقَّ تَعْظِيمِهِ، إِذْ كَذَّبُوا رُسُلَهُ إِلَيْهِمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ: نَزَلَتْ فِي قُرَيْشٍ ^(٣). وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي طَائِفَةٍ مِنَ الْيَهُودِ، «قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ» كَمَا قَالَ: «أَكَاكَ لِلنَّاسِ

عَجَبًا أَنْ أُوحِيَآ إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ» [يونس: ٢] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٦﴾ قُلْ لَوْ كُنْتَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا [الْإِسْرَاء: ٩٤، ٩٥] وَقَالَ هَهُنَا: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ» قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ» أَيِ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْهَوَآءِ الْمُتَكَبِّرِينَ لِإِنزَالِ شَيْءٍ مِنَ الْكِتَابِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فِي جَوَابِ سَلْبِهِمُ الْعَامَّ، بِإِثْبَاتِ قَضِيَّةِ جُزْئِيَّةٍ مُّوجِبَةٍ: «مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى» وَهُوَ التَّوْرَةُ الَّتِي قَدْ عَلِمْتُمْ وَكُلُّ أَحَدٍ: أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَنزَلَهَا عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ، نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ، أَيِ: لِيُسْتَضَاءَ بِهَا فِي كَشْفِ الْمُسْكَرَاتِ، وَيُهْتَدَى بِهَا مِنْ ظُلُمِ الشُّبُهَاتِ.

(١) الطبري: ٥١٦، ٥١٥/١١ (٢) فتح الباري: ١٤٤/٨ (٣)

الطبري: ٥٢٤/١١

وَقَوْلُهُ: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأِطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ أَيُّ تَجْعَلُونَ جُمْلَتَهَا قَرَأِطِيسَ، أَيُّ قِطْعًا تَكْتُبُونَهَا مِنَ الْكِتَابِ الْأَصْلِيِّ، الَّذِي بِأَيْدِيكُمْ، وَتُخْفُونَ مِنْهَا مَا تُخْفُونَ، وَتُبْدِلُونَ وَتَتَأَوَّلُونَ، وَتَقُولُونَ: هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، أَيُّ فِي كِتَابِهِ الْمُنَزَّلِ، وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأِطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مَا لَمْ تَقْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ أَيُّ وَمَنْ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ الَّذِي عَلَّمَكُمْ اللَّهُ، فِيهِ مِنْ خَبَرٍ مَا سَبَقَ، وَنَبَأٌ مَا يَأْتِي مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ذَلِكَ، لَا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ اللَّهُ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَيُّ: قُلِ اللَّهُ أَنْزَلَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أَيُّ ثُمَّ دَعَاهُمْ فِي جَهْلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ يَلْعَبُونَ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْيَقِينُ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ أَلَّهُمُ الْعَاقِبَةُ أَمْ لِعِبَادِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ؟ وَقَوْلُهُ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ﴿أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا مُصَدِّقًا لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ يَعْنِي مَكَّةَ ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ مِنْ أَهْلِ الْعَرَبِ، وَمِنْ سَائِرِ طَوَائِفِ بَنِي آدَمَ، وَمِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ إِلَيَّ رَسُولٌ اللَّهُ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وَقَالَ: ﴿لَا يُدْرِكُهُ وَمَنْ يَلْمُ﴾ وَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالْنَارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧] وَقَالَ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْقُرْآنَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وَقَالَ: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَآلِهِمْ مَا فِي الْأَنْبِيَاءِ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي﴾ وَذَكَرَ مِنْهُمْ: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً»^(١) وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أَيُّ كُلِّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، يُؤْمِنُ بِهَذَا الْكِتَابِ الْمُبَارَكِ، الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أَيُّ يُقِيمُونَ بِمَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَدَاءِ الصَّلَوَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أَيُّ لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ، مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ، فَجَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ أَوْ وَلَدًا، أَوْ ادَّعَى أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ إِلَى النَّاسِ وَلَمْ يُرْسَلْهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ وَتَفَادَةُ: نَزَلَتْ فِي مُسْئِلَةِ الْكَذَابِ^(٢). «وَمَنْ قَالَ سَأَزِلُّ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ»: أَيُّ وَمَنْ ادَّعَى أَنَّهُ يُعَارِضُ مَا جَاءَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ مِنَ الْوَحْيِ، مِمَّا يَفْتَرِيهِ مِنَ الْقَوْلِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ثَلَاثَةٌ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ الْآيَةُ [الأنفال: ٣١].

[حَالٌ هَؤُلَاءِ الظَّالِمَةِ عِنْدَ الْمَوْتِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أَيُّ فِي سَكَرَاتِهِ، وَغَمَرَاتِهِ، وَكُرْبَاتِهِ، «وَالْمَلَكُ يُسْطَوُا بِأَيْدِيهِمْ» أَيُّ بِالضَّرْبِ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَيْنٌ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْبَلَنِي﴾ الْآيَةُ [المائدة: ٢٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَيُسْطَوُا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ﴾ الْآيَةُ [الممتحنة: ٢]، وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَأَبُو صَالِحٍ بِأَسْطَوُا أَيْدِيَهُمْ أَيُّ بِالْعَذَابِ^(٣). كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَكُ يَكْفُرُ بَوْرُوتَ وَجُوهَهُمْ وَأَذَنَهُمْ﴾ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالْمَلَكُ يُسْطَوُا بِأَيْدِيهِمْ﴾ أَيُّ بِالضَّرْبِ لَهُمْ، حَتَّى تَخْرُجَ أَنْفُسُهُمْ مِنْ أَجْسَادِهِمْ، وَلِهَذَا يَقُولُونَ لَهُمْ: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْكَافِرَ إِذَا اخْتَضَرَ، بَشَّرَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِالْعَذَابِ، وَالنَّكَالِ، وَالْأَغْلَالِ، وَالسَّلَاسِلِ، وَالْجَحِيمِ، وَالْحَمِيمِ، وَغَضَبِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَتَنْفَرِقُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَتَعْصِي وَتَأْتِي الْخُرُوجَ، فَتَضْرِبُهُمُ الْمَلَائِكَةُ، حَتَّى تَخْرُجَ أَرْوَاحُهُمْ مِنْ أَجْسَادِهِمْ، قَائِلِينَ لَهُمْ: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ الْآيَةُ، أَيُّ

وَبَيَّنَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي» وَذَكَرَ مِنْهُنَّ: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً»^(١) وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أَيُّ كُلِّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، يُؤْمِنُ بِهَذَا الْكِتَابِ الْمُبَارَكِ، الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أَيُّ يُقِيمُونَ بِمَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَدَاءِ الصَّلَوَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا.

«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأَزِلُّ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَكُ يُسْطَوُا بِأَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا

(١) فتح الباري: ٥١٩ ومسلم: ٣٧٠/١ (٢) الطبري: ١١/٥٣٥-٥٣٩ (٣) الطبري: ١١/٥٣٩

الْيَوْمَ تُهَانُونَ غَايَةَ الْإِهَانَةِ، كَمَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ، وَتَسْتَكْبِرُونَ عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِهِ وَالْإِقْبَادِ لِرُسُلِهِ.

وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ الْمُتَوَاتِرَةُ فِي كَيْفِيَةِ اخْتِصَارِ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ عِنْدَ الْمَوْتِ وَهِيَ مُقَرَّرَةٌ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أَيُّ يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ هَذَا، كَمَا قَالَ: «وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ» أَيُّ كَمَا بَدَأْنَاكُمْ أَعْدَانًاكُمْ، وَقَدْ كُنْتُمْ تُنْكِرُونَ ذَلِكَ وَتَسْتَعِدُّونَهُ، فَهَذَا يَوْمُ الْبُعْثِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَكَّبْنَا مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أَيُّ مِنْ النِّعَمِ وَالْأَمْوَالِ الَّتِي أَفْتَنَيْتُمُوهَا، فِي الدَّارِ الدُّنْيَا وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَا لِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتُ فَأَتَيْتُ، أَوْ لَبِسْتُ فَأَلْبَيْتُ، أَوْ تَصَدَّقْتُ فَأَمَضَيْتُ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَذَا هِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ»^(١). وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: يُؤْتَى بِابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ بَذَجٌ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَيْنَ مَا جَمَعْتَ؟ فَيَقُولُ يَارَبِّ، جَمَعْتُهُ وَتَرَكْتُهُ أَوْفَرَ مَا كَانَ، فَيَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَيْنَ مَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ؟ فَلَا يَرَاهُ قَدَّمَ شَيْئًا، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكَّبْنَا مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ الْآيَةَ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُعْلَةً كُفْرٍ الَّذِينَ رَعَوْهُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ تَقْرِيعٌ لَهُمْ وَتَوْبِيخٌ عَلَى مَا كَانُوا اتَّخَذُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ، ظَانِينَ أَنَّهَا تَنْفَعُهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ، إِنْ كَانَ تَمَّ مَعَادُ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ، وَانْزَاحَ الضَّلَالُ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ، وَيُنَادِيهِمُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ: ﴿أَتَنْتَبِهُونَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿إِنَّ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْبُصُونَكُمْ [الشعراء: ٩٢، ٩٣] وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُعْلَةً كُفْرٍ الَّذِينَ رَعَوْهُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أَيُّ فِي الْعِبَادَةِ لَهُمْ، فِيكُمْ قِسْطٌ فِي اسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ لَهُمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قُرْءٌ بِالرَّفْعِ؛ أَيُّ شَمْلُكُمْ، وَبِالنَّصْبِ؛ أَيُّ لَقَدْ تَقَطَّعَ مَا بَيْنَكُمْ مِنَ الْأَسْبَابِ وَالْوَصَلَاتِ وَالْوَسَائِلِ، ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ﴾ أَيُّ ذَهَبَ عَنْكُمْ

﴿مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ مِنْ رَجَاءِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَأَوَّلَا الْعَدَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَكَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا شِئْخٌ فِي الصُّورِ فَلَا أَشَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وَقَالَ: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ الْآيَةَ [القصص: ٦٤]، وَقَالَ: ﴿وَيَوْمَ نَضْرِبُهمُ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جَدًّا.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَ اللَّهُ فَالِقُ تَوْفِكُونَ ﴿٥٥﴾ فَالِقُ الْأَسْبَاجِ وَجَعَلَ أَيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

[التَّعْرِيفُ بِاللَّهِ بِبَعْضِ آيَاتِهِ]

يُخْرِجُ تَعَالَى أَنَّهُ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى، أَيُّ يَشْقُهُ فِي النَّوَى، فَتَبَيَّنَ مِنْهُ الزَّرُّوعُ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا، مِنْ الْحُبُوبِ وَالشَّمَارِ، عَلَى اخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا وَطُغُومِهَا مِنَ النَّوَى، وَلِهَذَا فَسَّرَ قَوْلُهُ: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ بِقَوْلِهِ: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أَيُّ يُخْرِجُ النَّبَاتَ الْحَيَّ مِنَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، الَّذِي هُوَ كَالْجَمَادِ الْمَيِّتِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَيُّهُمُ الْآلِئَةُ الَّتِي تَحْيِيهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣-٣٦]

وَقَوْلُهُ: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ وَقَدْ عَبَّرُوا عَنْ هَذَا وَهَذَا بِعِبَارَاتٍ كُلُّهَا مُتَقَارِبَةٌ مُؤَدِّيَةٌ لِلْمَعْنَى، فَمِنْ قَائِلٍ: يُخْرِجُ الدَّجَاجَةَ مِنَ الْبَيْضَةِ وَعَكْسَهُ، وَمِنْ قَائِلٍ: يُخْرِجُ الْوَلَدَ الصَّالِحَ مِنَ الْفَاجِرِ

الْمُتَعَذِّلِينَ

١٤٠

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَى﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿١٤٠﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٤١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٢﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿١٤٣﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُنْتَشِبٍ أَنْظَرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٤٤﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ آجِنَ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٤٥﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ فَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٤٦﴾

[فصلت: ١٢] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَنْ اعْتَقَدَ فِي هَذِهِ النُّجُومِ غَيْرَ ثَلَاثٍ فَقَدْ أَخْطَأَ وَكَذَّبَ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ: أَنَّ اللَّهَ جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَيُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ. وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أَيْ قَدْ بَيَّنَّاها وَوَضَحْنَاهَا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ يَعْلَمُونَ وَيَعْرِفُونَ الْحَقَّ، وَيَتَجَبَّوْنَ الْبَاطِلَ.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ ﴿١٤٣﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُنْتَشِبٍ أَنْظَرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٤٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يَعْنِي آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا

وَعَكْسَهُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَارَاتِ الَّتِي تَنْتَظِمُهَا الْآيَةُ وَتَشْمُلُهَا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾ أَيْ فَاعِلُ هَذَا، هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أَيْ كَيْفَ تَضَرِّفُونَ عَنْ الْحَقِّ وَتَعْدِلُونَ عَنْهُ إِلَى الْبَاطِلِ، فَتَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ؟ وَقَوْلُهُ: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ أَيْ خَالِقُ الضِّيَاءِ وَالظَّلَامِ، كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أَيْ فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَفْلِقُ ظُلَامَ اللَّيْلِ عَنْ غُرَّةِ الصَّبَاحِ، فَيُضِيءُ الْوُجُودَ، وَيَسْتَبِيرُ الْأَفْقَ، وَيَضْمَحِلُّ الظَّلَامَ، وَيَذْهَبُ اللَّيْلُ بِسَوَادِهِ وَظُلَامِ رَوَاقِهِ، وَيَجِيءُ النَّهَارُ بِضِيَائِهِ وَإِشْرَاقِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَعْنِي أَيْلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَبِثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] فَيَبِينُ تَعَالَى قُدْرَتَهُ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَضَادَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ، الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ عَظَمَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، فَذَكَرَ أَنَّهُ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ، وَقَابِلُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلَ أَيْلَ سَكَنًا﴾ أَيْ سَاجِدًا مُظْلِمًا، لِيَتَسَكَّنَ فِيهِ الْأَشْيَاءُ، كَمَا قَالَ: ﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ٢، ١] وَقَالَ: ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا بَنَنَ﴾ ﴿وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: ٢، ١] وَقَالَ: ﴿وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّهَا﴾ ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أَيْ يَجْرِيَانِ بِحِسَابٍ مُقَدَّرٍ، لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَضْطَرِبُ، بَلْ لِكُلِّ مِنْهُمَا مَنَازِلٌ يَسْلُكُهَا فِي الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ، فَيَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ طَوْلًا وَقَصْرًا، كَمَا قَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ [الآية: يونس: ٥]، وَكَمَا قَالَ: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] وَقَالَ: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أَيْ الْجَمِيعُ جَارٍ بِتَقْدِيرِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يُمَانَعُ وَلَا يُخَالَفُ، الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَلَا يَغْرُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَكَثِيرًا مَا إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى خَلْقَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرَ، يَخْتِمُ الْكَلَامَ بِالْعَزَّةِ وَالْعِلْمِ، كَمَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَايَةُ لَهُمْ أَيْلٌ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ ﴿١٤٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨، ٣٧] وَلَمَّا ذَكَرَ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ، فِي أَوَّلِ سُورَةِ حَمِّ السَّجْدَةِ، قَالَ: ﴿وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

وَتَعَالَى، مِنَ الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْشَى زُرْعٍ وَنَحِيلَ صِنَوَانٍ وَعَبَّرَ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَحِدٍ وَنُقْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ [الآية: الرعد: ٤]، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿لَايَتٌ﴾ أَيُّ دَلَالَاتٍ، عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ خَالِقِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أَيُّ يَصُدَّقُونَ بِهِ وَيَتَّبِعُونَ رُسُلَهُ.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَفُوا لَهُ يَمِينًا وَبَنَيْنَا عَلَيْهِمْ

سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

[ذَمُّ الْمُشْرِكِينَ]

هَذَا رَدٌّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ عَبْدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ، وَأَشْرَكُوا فِي عِبَادَتِهِ أَنْ عَبْدُوا الْجِنِّ، فَجَعَلَهُمْ شُرَكَاءَ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ شِرْكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ. فَإِنْ قِيلَ: فَكَيْفَ عُبِدَتِ الْجِنُّ، مَعَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ؟ فَالْجَوَابُ: إِنَّهُمْ مَا عَبْدُوهَا، إِلَّا عَنْ طَاعَةِ الْجِنِّ وَأَمْرِهِمْ إِيَّاهُمْ بِذَلِكَ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا نَنْتَهِزُ عَنْهُمْ وَهُمْ يُدْعُونَ﴾ [سورة النحل: ١٧]، لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تَتَّخِذْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١٧٨﴾ وَلَا تُلْزِمْنَهُمْ وَلَا تُمْسِكْنَهُمْ فَلْيُبَيِّنْ لَهُمْ لَكُمْ أَلَمْ تُخَلِّقُوا خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١٧٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوبًا [النساء: ١١٧-١٢٠] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَنَسْخِذُهُمْ وَذُرِّيَّتَهُ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ [الآية: الكهف: ٥٠].

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَيُّهِ: ﴿يَا أَيُّهَا لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مریم: ٤٤] وَكَقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَیْ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [سورة البقرة: ١٦٠] وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ [یس: ٦٠] وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ﴾ أَيُّ وَخَلَقَهُمْ، فَهُوَ الْخَالِقُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَكَيْفَ يُعْبَدُ مَعَهُ غَيْرُهُ؟ كَقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿قَالَ أَعْبُدُونَ مَا تَنْجُونَ ﴿١٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦] وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ

وَلَسَاءَ [النساء: ١] وَقَوْلُهُ: ﴿مُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلْمِيُّ، وَقَيْسُ ابْنُ أَبِي حَازِمٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَعَطَاءٌ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ، وَغَيْرُهُمْ: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ أَيُّ فِي الْأَرْحَامِ، قَالُوا - أَوْ أَكْثَرُهُمْ -: ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أَيُّ فِي الْأَصْلَابِ ^(١). وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَطَائِفَةٍ عَكَسَهُ. وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَيْضًا وَطَائِفَةٍ: فَسُتَقَرُّ فِي الدُّنْيَا، وَمُسْتَوْدَعٌ حَيْثُ يَمُوتُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفْهَمُونَ﴾ أَيُّ يُفْهَمُونَ وَيَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ وَمَعْنَاهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أَيُّ بِقَدَرٍ، مُبَارَكًا وَرِزْقًا لِلْعِبَادِ وَإِحْيَاءً وَغِيَاثًا لِلْخَلَائِقِ، رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ بِخَلْقِهِ ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ٣٠] ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ حَضْرًا﴾ أَيُّ زَرْعًا وَشَجَرًا أَخْضَرَ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَخْلُقُ فِيهِ الْحَبَّ وَالنَّمْرَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ أَيُّ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا كَالسَّنَابِلِ وَنَحْوِهَا، ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ أَيُّ جَمْعُ قِنْوٍ، وَهِيَ عُذُوقُ الرُّطَبِ ﴿دَانِيَةٌ﴾ أَيُّ قَرِيبَةٌ مِنَ الْمُتَنَاوِلِ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالْحَةَ الْوَالِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ يَعْنِي بِالْقِنْوَانِ الدَّانِيَةِ: قِصَارَ النَّخْلِ اللَّاصِقَةِ عُذُوقِهَا بِالْأَرْضِ ^(٢). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْشَى زُرْعٍ وَنَحِيلَ صِنَوَانٍ وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْشَى زُرْعٍ وَنَحِيلَ صِنَوَانٍ هُمَا أَشْرَفُ الثَّمَارِ عِنْدَ أَهْلِ الْحِجَازِ، وَرَبَّمَا كَانَا خِيَارَ الثَّمَارِ فِي الدُّنْيَا، كَمَا امْتَنَّ اللَّهُ بِهِمَا عَلَى عِبَادِهِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧] وَكَانَ ذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ، وَقَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [يس: ٣٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالزَّيْتُونَ وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾ قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: مُتَشَابِهٌ فِي الْوَرَقِ وَالشَّكْلِ، قَرِيبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ، وَمُتَخَالِفٌ فِي الثَّمَارِ شَكْلًا وَطَعْمًا وَطَبْعًا ^(٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَبَرِّهِ﴾ أَيُّ نَضِجِهِ. قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ، وَالسُّدِّيُّ، وَقَتَادَةُ، وَغَيْرُهُمْ ^(٤). أَيُّ فَكَّرُوا فِي قُدْرَةِ خَالِقِهِ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ حَطْبًا، صَارَ عِنَبًا وَرُطْبًا، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا خَلَقَ سُبْحَانَهُ

(١) الطبري: ٥٧٠-٥٦٥/١١ (٢) الطبري: ٥٧٦/١١ (٣)

الطبري: ٥٧٨/١١ (٤) الطبري: ٥٨٢/١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤١

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠١﴾ لَا تَدْرِكُهُ
الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٢﴾
قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ
فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نَصُفُّ
الْآيَاتِ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٤﴾
اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٦﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيْنًا
لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٠٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ
لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا
جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٨﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْسَدَهُمْ وَابْصُرَهُمْ كَمَا لَمْ
يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَدْرَهُمْ فِي طُعَيْنِهِمْ يَعْصِمُونَ ﴿١٠٩﴾

أَيُّ حَفِظٌ وَرَقِيبٌ، يُدَبِّرُ كُلَّ مَا سِوَاهُ، وَيَرْزُقُهُمْ وَيَكْلُفُهُمْ
بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

[رُؤْيَا اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أَيُّ لَا تَدْرِكُهُ فِي الدُّنْيَا،
وَأِنْ كَانَتْ تَرَاهُ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا تَوَاتَرَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ، عَنْ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مِنْ غَيْرِ مَا طَرِيقِ ثَابِتٍ، فِي الصَّحَاحِ
وَالْمَسَانِيدِ وَالسَّنَنِ. كَمَا قَالَ مَسْرُوقٌ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ:
مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا أَبْصَرَ رَبَّهُ فَقَدْ كَذَّبَ، وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَى
اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ
الْأَبْصَرَ﴾^(١). وَتَبَتَ فِي الصَّحِيحِ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى
الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنَبِّغِي
لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ
قَبْلَ اللَّيْلِ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، حِجَابُهُ الثُّورُ - أَوْ النَّارُ

وَتَعَالَى هُوَ الْمُسْتَقِيلُ بِالْخَلْقِ وَحْدَهُ، فَلِهَذَا يَجِبُ أَنْ يُفْرَدَ
بِالْعِبَادَةِ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَحَرِّفُوا لَهُ
بَيْنَ وَبَيْنَ يَغْيِرْ عَلَيْهِ﴾ يُبَيِّنُهُ بِهِ تَعَالَى عَنْ ضَلَالٍ مَنْ ضَلَّ فِي
وَصْفِهِ تَعَالَى بِأَنَّ لَهُ وَلَدًا، كَمَا يُزْعَمُ مَنْ قَالَهُ مِنَ الْيَهُودِ فِي
غَزِيرٍ، وَمَنْ قَالَ مِنَ النَّصَارَى فِي عِيسَى، وَمَنْ قَالَ مِنَ
مُشْرِكِي الْعَرَبِ فِي الْمَلَائِكَةِ: إِنَّهَا بَنَاتُ اللَّهِ. تَعَالَى اللَّهُ
عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ غُلُوبًا كَبِيرًا. وَمَعْنَى ﴿وَحَرِّفُوا﴾ أَيُّ
اخْتَلَفُوا وَاتَّفَقُوا وَتَخَرَّصُوا وَكَذَّبُوا. كَمَا قَالَهُ عُلَمَاءُ
السَّلَفِ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سُبْحَنَكُمْ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾
أَيُّ تَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَاطَمَ، عَمَّا يَصِفُهُ هَؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ
الضَّالُّونَ، مِنَ الْأَوْلَادِ وَالْأَنْدَادِ وَالنَّظَرَاءِ وَالشُّرَكَاءِ.
﴿يَدْعِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ
وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

[مَعْنَى الْبَدِيعِ]

﴿يَدْعِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ مُبْدِعُهُمَا، وَخَالِقُهُمَا،
وَمُنْشِئُهُمَا، وَمُحْدِثُهُمَا، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ^(١). كَمَا قَالَ
مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ. وَمِنْهُ سُمِّيَتْ الْبَدْعَةُ بِدْعَةٍ، لِأَنَّهُ لَا نَظِيرَ
لَهَا فِيَمَا سَلَفَ ﴿أَنَّ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ أَيُّ كَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ؟
﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾، أَيُّ وَالْوَلَدُ إِنَّمَا يَكُونُ مَثُولًا بَيْنَ
شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُنَاسِبُهُ وَلَا يُشَابِهُهُ شَيْءٌ مِنْ
خَلْقِهِ، لِأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، فَلَا صَاحِبَةَ لَهُ وَلَا وَلَدَ، كَمَا
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا
إِذَا^(٢) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكُلُّهُمْ عَائِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ قَرَدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٥]
﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فَبَيَّنَ تَعَالَى
أَنَّهُ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، فَكَيْفَ
يَكُونُ لَهُ صَاحِبَةٌ مِنْ خَلْقِهِ تَنَاسِبُهُ؟ وَهُوَ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ،
فَأَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ؟ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ غُلُوبًا كَبِيرًا.

ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠١﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ
وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٢﴾

[اللَّهُ هُوَ رَبُّكُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أَيُّ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ
شَيْءٍ، وَلَا وَلَدَ لَهُ وَلَا صَاحِبَةَ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ
شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ أَيُّ فَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَقْرَبُوا لَهُ
بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ لَا وَلَدَ لَهُ، وَلَا وَلِدَ وَلَا
صَاحِبَةَ لَهُ، وَلَا نَظِيرَ وَلَا عَدِيلَ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾

(١) الطبري: ٥٤٠/٢ (٢) فتح الباري: ٤٧٢/٨ ومسلم: ١/

١٥٩ وتحفة الأحوذى: ٤٤١/٨ والنسائي في الكبرى: ٣٣٥/٦

ومسلم: ٤٩/٦

بِحَافِظٍ وَلَا رَقِيبٍ، بَلْ أَنَا مُبَلِّغٌ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْصِرُ الْآيَاتِ﴾ أَيْ وَكَمَا فَضَّلْنَا الْآيَاتِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، مِنْ بَيَانِ التَّوْحِيدِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، هَكَذَا نُوَضِّحُ الْآيَاتِ وَنُفَسِّرُهَا وَنُيَسِّجُهَا فِي كُلِّ مَوْطِنٍ، لِجَهَالَةِ الْجَاهِلِينَ وَلِيَقُولَ الْمُشْرِكُونَ وَالْكَافِرُونَ الْمُكْذِبُونَ: دَارَسْتَ يَا مُحَمَّدُ مَنْ قَبْلَكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَارَأْتَهُمْ، وَتَعَلَّمْتَ مِنْهُمْ. هَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُهُمْ^(١).

وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ كَيْسَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: (دَارَسْتَ): تَلَوْتَ، خَاصَمْتَ، جَادَلْتَ^(٢).

وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ كَذِبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا فِكْ أَفْرَنِهِ وَأَنَّهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾^(٣) وَقَالُوا اسْتَطِيرَ الْأَوَّلِينَ أَكْتَنَبَهَا فَهِيَ ثَمَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا^(٤) [الفرقان: ٤، ٥] وَقَالَ تَعَالَى

إِخْبَارًا عَنْ زَعِيمِهِمْ وَكَاذِبِهِمْ ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَفَدَّرَ﴾^(٥) فَقِيلَ كَيْفَ فَدَّرَ^(٦) ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ فَدَّرَ^(٧) ثُمَّ نَظَرَ^(٨) ثُمَّ عَسَّ وَبَسَرَ^(٩) ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ^(١٠) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا بَعْضُ يُؤْتَرٍ^(١١) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ^(١٢)

[المدثر: ١٨-٢٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِيُنْذِرَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ وَلِنُؤْصِحَهُمْ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَيَتَّبِعُونَهُ، وَالْبَاطِلَ فَيَجْتَنِبُونَهُ، فَلِلَّهِ تَعَالَى الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي إِضْلَالِ أَوَّلِيكَ وَبَيَانِ الْحَقِّ لَهُؤُلَاءِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُضِلُّ بِهٖ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهٖ

كَثِيرًا﴾^(١٣) الْآيَةُ [البقرة: ٢٦]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾...

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٣]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَرِزَادَ

الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيْمَانًا وَلَا يَزَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ

اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] وَقَالَ: ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ

لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يُزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُمْ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ

(١) مسلم: ١٦٢/١ (٢) الطبري: ٢٧/١٢ (٣) الطبراني: ١٣٧/١١

لَوْ كَسَفَهُ لَأُخْرِفَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْفِهِ^(١). وَفِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِمُوسَى لَمَّا سَأَلَ الرُّؤْيَى: يَا مُوسَى، إِنَّهُ لَا يَرَانِي حَيًّا إِلَّا مَاتَ، وَلَا يَأْسُ إِلَّا تَذَهَّدَهُ، أَيْ تَذَعَّرَ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَخَلَّى رُئُوبُهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَاحِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وَنَفَى هَذَا الْأَثَرُ الْإِذْرَاقَ الْخَاصَّ لَا يَنْفِي الرُّؤْيَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا يَشَاءُ، فَأَمَّا جَلَالُهُ وَعَظَمَتُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ، فَلَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ.

وَلِهَذَا كَانَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تُثَبِّتُ الرُّؤْيَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَتُنْفِيهَا فِي الدُّنْيَا، وَتَحْتَاجُ بِهَذِهِ الْآيَةِ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ فَالَّذِي نَفَيْتُهُ: الْإِذْرَاقَ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى رُؤْيَى الْعَظَمَةِ وَالْجَلَالِ، عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُمَكِّنٍ لِلْبَشَرِ، وَلَا لِلْمَلَائِكَةِ، وَلَا لِشَيْءٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أَيْ يُحِيطُ بِهَا وَيَعْلَمُهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ خَلَقَهَا، كَمَا قَالَ

تَعَالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]

وَقَدْ يَكُونُ غَيْرَ بِالْأَبْصَارِ عَنِ الْمُبْصِرِينَ، كَمَا قَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ لَا

يَرَاهُ شَيْءٌ، وَهُوَ يَرَى الْخَلَائِقَ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ قَالَ: ﴿اللَّطِيفُ

لَا سَبِيحَ رَاجِحَا، ﴿الْخَبِيرُ﴾ بِمَكَانِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ لُقْمَانَ، فِيمَا وَعَظَ بِهِ ابْنَهُ ﴿يَتْلُ مَا أُتِيَ

إِنَّكَ تَكُنْ مِنْ خَدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَكِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾^(٢) وَكَذَلِكَ نُنْصِرُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِيُنْذِرَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ^(٣)

[تفسير البصائر]

الْبَصَائِرُ هِيَ الْبَيِّنَاتُ وَالْحُجُجُ الَّتِي اسْتَمَلَ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ، وَمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ أَهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾

[يونس: ١٠٨] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ لَمَّا ذَكَرَ الْبَصَائِرَ، قَالَ: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ أَيْ إِنَّمَا يَعُودُ وَبَالُهُ عَلَيْهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّمَا لَا نَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ نَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي

فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾ أَيْ

جَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ وَالِدَيْهِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَسُبُّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ»^(٣). أَوْ كَمَا قَالَ ﷺ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ وَكَمَا زَيْنًا لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمُ حُبَّ أَصْنَانِهِمْ، وَالْمَحَامَاةَ لَهَا وَالْإِنْصَارَ، كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ الْحَالِيَةِ عَلَى الضَّلَالِ عَمَلُهُمُ الَّذِي كَانُوا فِيهِ، وَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، وَالْحِكْمَةُ التَّامَّةُ، فِيمَا يَسْأَوُهُ وَيَخْتَارُهُ ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾ أَيُّ مَعَادُهُمْ وَمَصِيرُهُمْ ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أَيُّ يُجَارِبُهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ جَاءَهُمْ بِآيَةٍ لَيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلُوبُ إِنَّمَا الْآيَةُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١٩) وَنَقَلَبَ أَفْعِدْتُهُمْ وَابْصَرْتُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرْتُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ^(٢٠).

[طَلَبُ الْمُعْجَزَاتِ وَالْإِقْسَامُ عَلَى الْإِيمَانِ عِنْدَ مَحِيَّتِهَا] يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ، أَنَّهُمْ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ، أَيُّ حَلَفُوا أَيْمَانًا مُؤَكَّدَةً ﴿لَنْ جَاءَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أَيُّ مُعْجَزَةٍ وَخَارِقَةٍ ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهَا﴾ أَيُّ لَيُصَدِّقَنَّهَا ﴿قُلُوبُ إِنَّمَا الْآيَةُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَيُّ قُلُوبُ: يَا مُحَمَّدُ، لَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسْأَلُونَكَ الْآيَاتِ تَعْتَنَّا وَكُفِّرُوا وَعِنَادًا، لَا عَلَى سَبِيلِ الْهُدَى وَالْإِسْتِرْشَادِ: إِنَّمَا مَرْجِعُ هَذِهِ الْآيَاتِ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ جَاءَكُمْ بِهَا، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَكُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قِيلَ: الْمُخَاطَبُ بِمَا يُشْعِرُكُمْ الْمُشْرِكُونَ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ مُجَاهِدٌ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ: وَمَا يُذَرِّبُكُمْ بِصِدْقِكُمْ، فِي هَذِهِ الْأَيْمَانِ الَّتِي تُقْسِمُونَ بِهَا، وَعَلَى هَذَا فَالْقِرَاءَةُ: إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ بِكُفْرٍ (إِنَّمَا) عَلَى اسْتِثْنَاءِ الْخَبَرِ عَنْهُمْ، يَنْتَقِي الْإِيمَانِ عِنْدَ مَجِيئِ الْآيَاتِ الَّتِي طَلَبُوهَا... وَقِيلَ: الْمُخَاطَبُ بِقَوْلِهِ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ الْمُؤْمِنُونَ، أَيُّ وَمَا يُذَرِّبُكُمْ أَهْلِهَا الْمُؤْمِنُونَ. وَعَلَى هَذَا فَيَجُوزُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنَّهَا﴾ الْكُسْرُ كَالْأَوَّلِ وَالْفَتْحُ عَلَى أَنَّهُ مَعْمُولٌ ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ وَعَلَى هَذَا فَتَكُونُ لَا فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ صِلَةً

الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ الْقُرْآنَ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ، وَأَنَّهُ يُضِلُّ بِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ.

﴿أَتَبَعَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ^(٢١).

[الْأَمْرُ بِاتِّبَاعِ الْوَحْيِ]

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا لِرَسُولِهِ ﷺ وَلِمَنْ أَتَبَعَ طَرِيقَتَهُ: ﴿أَتَبَعَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أَيُّ أَتَدَبَّعَ بِهِ وَافْتَتَبَ أَثَرَهُ، وَاعْمَلْ بِهِ، فَإِنَّ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ، الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ، لِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أَيُّ اغْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ وَاحْتَمِلْ أَذَاهُمْ، حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ لَكَ، وَيَنْصُرَكَ وَيُطْفِرَكَ عَلَيْهِمْ، وَاعْلَمْ أَنَّ لِلَّهِ حِكْمَةً فِي إِضْلَالِهِمْ، فَإِنَّهُ لَوْ شَاءَ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا، وَلَوْ شَاءَ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ أَيُّ بَلْ لَهُ الْمَشِيتَةُ وَالْحِكْمَةُ، فِيمَا يَسْأَوُهُ وَيَخْتَارُهُ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَهُمْ يَسْأَلُونَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ أَيُّ حَافِظًا، تَحْفَظُ أَقْوَالَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أَيُّ مُوَكَّلٌ عَلَى أَرْزَاقِهِمْ وَأُمُورِهِمْ، إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾^(٢٢) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ [الغاشية: ٢١، ٢٢] وَقَالَ: ﴿فَلَنَمَّا عَلَيْكَ الْبَلْعُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿وَلَا تَسْأَلُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْأَلُوا اللَّهَ عَدُوًّا بَعْثٍ عَلَيْهِمْ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(٢٣).

[النَّهْيُ عَنْ سَبِّ إِلَهَةِ الْمُشْرِكِينَ لِئَلَّا يَسُبُّوا اللَّهَ]

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى نَاهِيًا لِرَسُولِهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ عَنْ سَبِّ إِلَهَةِ الْمُشْرِكِينَ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَضْلَحَةٌ، إِلَّا أَنَّهُ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مَفْسَدَةٌ أَكْبَرُ مِنْهَا، وَهِيَ مُقَابَلَةُ الْمُشْرِكِينَ بِسَبِّ إِلَهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، لَنَنْتَهِيَنَّ عَنْ سَبِّكَ إِلَهَتَنَا، أَوْ لَنَهْجُونَ رَبَّكَ، فَهَنَاهُمْ اللَّهُ أَنْ يَسُبُّوا أَوْثَانَهُمْ ﴿فَيَسْأَلُوا اللَّهَ عَدُوًّا بَعْثٍ عَلَيْهِمْ﴾^(٢٤). وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ: كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَسُبُّونَ أَصْنَامَ الْكُفَّارِ، فَيَسُبُّ الْكُفَّارُ اللَّهَ عَدُوًّا بَعْثٍ عَلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلَا تَسْأَلُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٢٥) وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ - وَهُوَ تَرْكُ الْمَضْلَحَةِ لِمَفْسَدَةٍ أَرْجَحَ مِنْهَا - مَا

(١) (الطبري: ٣٤/١٢ (٢) عبد الرزاق: ٢/٢١٥ (٣) فتح الباري: ١٠/٤١٧

سورة الأنعام

١٤٢

سورة الأنعام

﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا يُلِيمُونَ﴾ [١٤٢] ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [١٤٣] ﴿وَلْيَصْغَيْحَ إِلَيْهِ أَقْعَدُهُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ [١٤٤] ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتِغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [١٤٥] ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [١٤٦] ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [١٤٧] ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [١٤٨] ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [١٤٩]

قَوْلُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ٢٢] وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَرَّمْ عَلَىٰ قَرِينَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥] أَيُّ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ، وَحَرَامٌ أَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ، وَتَقْدِيرُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: وَمَا يُدْرِيكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ تَوَدُّونَ لَهُمْ ذَلِكَ، حِرْصًا عَلَىٰ إِيْمَانِهِمْ: أَنَّهُمَا إِذَا جَاءَهُمُ الْآيَاتُ يُؤْمِنُونَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: لَمَّا جَحَدَ الْمُشْرِكُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، لَمْ تَثْبُتْ قُلُوبُهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ، وَرَدَّتْ عَنْ كُلِّ أَمْرٍ^(١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ﴾ وَنَحْوُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِيْمَانِ، وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ فَلَا يُؤْمِنُونَ، كَمَا حُلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِيْمَانِ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ ابْنُ أَسْلَمَ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ قَالَ: أَخْبَرَ اللَّهُ مَا الْعِبَادُ قَائِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَقُولُوهُ، وَعَمَلُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْمَلُوهُ. وَقَالَ - (وَلَا يَتَّبِعُكَ مِثْلُ خَيْرٍ)

[فاطر: ١٤] جَلَّ وَعَلَا - (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَوْ أَنَّكَ لِي كَرِهَةٌ فَأُكَوتَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٨] فَأَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، أَنَّهُمْ لَوْ رَدُّوا لَمْ يَكُونُوا عَلَىٰ الْهُدَى، وَقَالَ: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [قال:] وَلَوْ رَدُّوا إِلَى الدُّنْيَا، لِجَلِيلِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْهُدَى، كَمَا حُلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُمْ فِي الدُّنْيَا^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ أَيُّ تَنَزُّهُهُمْ ﴿فِي طَلْعِنَاهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالسُّدِّيُّ: فِي كُفْرِهِمْ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَقَتَادَةُ: فِي ضَلَالِهِمْ ﴿يَعْمَهُونَ﴾ قَالَ الْأَعْمَشُ: يَلْعَبُونَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعُ، وَأَبُو مَالِكٍ، وَغَيْرُهُمْ: فِي كُفْرِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ.

﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا يُلِيمُونَ﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١٤٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَوْ أَنَّا أَجَبْنَا سُؤَالَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْْمَانِهِمْ، لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا، فَزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ تُخَبِّرُهُمْ بِالرَّسَالَةِ مِنَ اللَّهِ بِتَصْدِيقِ الرُّسُلِ، كَمَا سَأَلُوا فَقَالُوا: ﴿أَوْ تَأْتِي بَالَهُ وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا﴾

[الإسراء: ٩٢] وَ ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ تُؤْتِيَ مِنَّا أُوقِيًّا رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا تَوَلَّاءَ أَنْزِلْ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرِ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١] ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ﴾ أَيُّ فَأَخْبَرُوهُمْ بِصِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرُّسُلُ ﴿وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ: (قَبْلًا) بِكَسْرِ الْقَافِ وَفَتْحِ الْبَاءِ، مِنَ الْمُقَابَلَةِ وَالْمُعَايَنَةِ، وَقَرَأَ آخَرُونَ بِضَمِّهِمَا، قِيلَ: مَعْنَاهُ مِنَ الْمُقَابَلَةِ وَالْمُعَايَنَةِ أَيْضًا، كَمَا رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، وَالْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٣). وَبِهِ قَالَ قَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ ابْنُ أَسْلَمَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿قَبْلًا﴾ أَيُّ أَفْوَاجًا، قَبْلًا قَبِيلًا^(٤). أَيُّ تُعْرَضُ عَلَيْهِمْ كُلُّ أَمَةٍ بَعْدَ أَمَةٍ، فَيُخَبَّرُونَ بِصِدْقِ الرُّسُلِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ ﴿مَا كَانُوا يُلِيمُونَ﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿أَيُّ أَنْ الْهُدَايَةَ إِلَيْهِ لَا إِلَيْهِمْ، بَلْ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ

(١) الطبري: ٤٤/١٢ العوفي وعائلته كلهم ضعفاء (٢) الطبري:

٤٥/١٢ (٣) الطبري: ٤٩/١٢ (٤) الطبري: ٤٩/١٢، ٥٠/١٢

السُّدِّيُّ: قُلُوبُ الْكَافِرِينَ ﴿وَلِيَرَوْهُ﴾ أَيُّ يُحِبُّوهُ
وَيُرِيدُوهُ^(١). وَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ذَلِكَ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ،
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ وَمَا تُبَدِّلُ﴾ ﴿١١١﴾ مَا أَنتَ عَلَيْهِ بِقَاتِلٍ ﴿١١٢﴾ إِلَّا
مَنْ هُوَ صَالٍ الْحَيِّمِ﴾ [الصافات: ١٦١-١٦٣] وَقَالَ تَعَالَى:
﴿إِنَّكَ لَبِى قَوْلٍ تَخْلِفُ﴾ ﴿٨﴾ يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩]
وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِيَقْرَئُوا مَا هُمْ مَقْرُؤُونَ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَلِيَكْتَسِبُوا مَا هُمْ مُكْتَسِبُونَ^(٢). وَقَالَ السُّدِّيُّ
وَأَيْضًا زَيْدٌ: وَلِيَعْمَلُوا مَا هُمْ عَامِلُونَ^(٣).

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتِغَىٰ حِكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ
مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا
مُبَدِّلَ لِكَلِمَتَيْهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: قُلْ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ،
الَّذِينَ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتِغَىٰ حِكْمًا﴾ أَيُّ بِنْيَى
وَبَيْنَكُمْ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أَيُّ
مُبَيَّنًا ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أَيُّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى
﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾، أَيُّ بِمَا عِنْدَهُمْ مِّنَ
الْبَشَارَاتِ بِكَ، مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُمْتَرِينَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَتَنِلْ
الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤] وَهَذَا شَرْطٌ،
وَالشَّرْطُ لَا يَقْتَضِي وُقُوعَهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ
رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: صِدْقًا فِيمَا قَالَ، وَعَدْلًا فِيمَا
حَكَمَ^(٤). يَقُولُ: صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ، وَعَدْلًا فِي الطَّلَبِ،
فَكُلُّ مَا أَخْبَرَ بِهِ فَحَقٌّ لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ، وَكُلُّ مَا أَمَرَ بِهِ
فَهُوَ الْعَدْلُ الَّذِي لَا عَدْلَ سِوَاهُ، وَكُلُّ مَا نَهَى عَنْهُ فَبَاطِلٌ،
فَإِنَّهُ لَا يَنْهَى إِلَّا عَنِ مَفْسَدَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْمُرُهُم
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ﴿لَا مُبَدِّلَ
لِكَلِمَتَيْهِ﴾ أَيُّ لَيْسَ أَحَدٌ يُعَقِّبُ حُكْمَهُ تَعَالَى، لَا فِي الدُّنْيَا
وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ﴿الْعَلِيمُ﴾
بِحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ، الَّذِي يُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ.

﴿وَإِنْ طَلَعَ أَحَدٌ مِّنَ الْأَرْضِ يَصُولُكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ
يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ

مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ الْفَعَالُ لِمَا يُرِيدُ، ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ
يَسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَقَهْرِهِ
وَعَلْبَتِهِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَدْبَاقَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي
بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ
فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْقَرُونَ﴾ ﴿١١٧﴾ وَلِيَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفِئْدَةُ الَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَوْهُ وَيَقْرَأُوا مَا هُمْ مَقْرُؤُونَ﴾ ﴿١١٨﴾
[لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا جَعَلْنَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ أَعْدَاءَ
يُخَالِفُونَكَ وَيُعَادُونَكَ وَيُعَادُونَكَ، جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ مِنْ
قَبْلِكَ أَيْضًا أَعْدَاءَ فَلَا يَحْزُنُكَ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِّن قَبْلِكَ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُذَوُّوا﴾
الْآيَةُ [الأنعام: ٣٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ
فِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَّغْفِرٌ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٌ﴾
[فصلت: ٤٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ
الْمُجْرِمِينَ﴾ الْآيَةُ، وَقَالَ وَرَقَةُ بْنُ نُفَيْلٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّهُ
لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي. وَقَوْلُهُ:
﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ﴾ بَدَلٌ مِّنَ ﴿عَدُوًّا﴾ أَيُّ لَهُمْ أَعْدَاءٌ مِّنَ
شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَالشَّيْطَانُ كُلُّ مَنْ خَرَجَ عَنْ نَظِيرِهِ
بِالشَّرِّ، وَلَا يُعَادِي الرُّسُلَ إِلَّا الشَّيَاطِينُ مِنْ هَؤُلَاءِ
وَهَؤُلَاءِ، فَبَحَّهْمُ اللَّهُ وَلَعَنَهُمْ، قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: حَدَّثَنَا
مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ، فِي قَوْلِهِ: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ قَالَ:
مِنَ الْجِنِّ شَيْطَانٌ، وَمِنَ الْإِنْسِ شَيْطَانٌ، يُوحِي بَعْضُهُمْ
إِلَى بَعْضٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ
غُرُورًا﴾ أَيُّ يُلْقِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ الْمُرَيَّنَ
الْمُزَخْرَفَ، وَهُوَ الْمُرَوِّقُ الَّذِي يَغْتَرُّ سَامِعُهُ مِنَ الْجَهْلَةِ
بِأَمْرِهِ، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أَيُّ وَذَلِكَ كُلُّهُ بِقَدْرِ اللَّهِ
وَقَضَائِهِ، وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيتَتِهِ، أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوٌّ مِنْ
هَؤُلَاءِ ﴿فَذَرَهُمْ﴾ أَيُّ فَذَرَهُمْ ﴿وَمَا يَفْقَرُونَ﴾ أَيُّ يَكْذِبُونَ.
أَيُّ دَعَا أَذَاهُمْ، وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فِي عِدَائِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ
كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيَصْغَىٰ إِلَيْهِ﴾
أَيُّ وَلِيَتَمِيلَ إِلَيْهِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ^(١). ﴿أَفِئْدَةُ الَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أَيُّ قُلُوبُهُمْ وَعُقُولُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ، وَقَالَ

(١) الطبري: ٥٨/١٢ الطبري: ٥٩/١٢ (٣) الطبري:

٥٩/١٢ (٤) الطبري: ٦٠/١٢ (٥) الطبري: ٦٣/١٢

يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

[أَكْثَرُ النَّاسِ فِي ضَلَالٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ أَكْثَرِ أَهْلِ الْأَرْضِ، مِنْ بَنِي آدَمَ أَنَّهُ الضَّلَالُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصفات: ٧١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] وَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ لَيْسُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَإِنَّمَا هُمْ فِي ظُنُونٍ كَاذِبَةٍ وَحُسْبَانٍ بَاطِلٍ، «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ» فَإِنَّ الْخَرْصَ هُوَ الْحَزْرُ، وَمِنْهُ خَرْصُ النَّخْلِ، وَهُوَ حَزْرٌ مَا عَلَيْهَا مِنَ الثَّمَرِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ عَنْ قَدْرِ اللَّهِ وَمُسَبِّتِهِ «هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ» فَيَسِّرُهُ لِدَلِّكَ «وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» فَيَسِّرُهُمْ لِدَلِّكَ، وَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثُرَ لَيُّلُونَ بِأَهْوَابِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٨﴾

[إِخْلَالُ مَا ذُبِحَ بِاسْمِ اللَّهِ]

هَذَا إِبَاحَةٌ مِنَ اللَّهِ، لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْ يَأْكُلُوا مِنَ الدَّبَائِحِ مَا ذُكِرَ عَلَيْهِ اسْمُهُ، وَمَقْهُومُهُ: أَنَّهُ لَا يُبَاحُ مَا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، كَمَا كَانَ يَسْتَبِيحُهُ كُفَّارٌ قُرَيْشِيٍّ مِنْ أَكْلِ الْمَيْتَاتِ، وَأَكْلٍ مَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ وَغَيْرِهَا، ثُمَّ نَدَبَ إِلَى الْأَكْلِ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ قَدْ بَيَّنَّ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ وَوَضَّحَهُ، قَرَأَ بَعْضُهُمْ: ﴿فَصَلِّ﴾ بِالنَّشِيدِ، وَقَرَأَ آخَرُونَ بِالتَّخْفِيفِ، وَالْكُلُّ بِمَعْنَى الْبَيَانِ وَالْوُضُوحِ «إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ» أَيْ إِلَّا فِي حَالِ الْاضْطِرَارِ، فَإِنَّهُ يُبَاحُ لَكُمْ مَا وَجَدْتُمْ، ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى جِهَالَ الْمُشْرِكِينَ، فِي آرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ، مِنْ اسْتِحْلَالِهِمُ الْمَيْتَاتِ، وَمَا ذُكِرَ عَلَيْهِ غَيْرُ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ: «وَإِنْ كَثُرَ لَيُّلُونَ بِأَهْوَابِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ» أَيْ هُوَ أَعْلَمُ بِاعْتِدَائِهِمْ وَكَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ.

﴿وَذَرُوا ظِلَهِمُ الْإِثْمَ وَبَاطِنَهُ إِنْ أَلَّيْتُمْ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ

سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْرُقُونَ﴾ ﴿١١٩﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ «وَذَرُوا ظِلَهِمُ الْإِثْمَ وَبَاطِنَهُ» الْمَعْصِيَةُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ^(١). وَقَالَ قَتَادَةُ: «وَذَرُوا ظِلَهِمُ الْإِثْمَ وَبَاطِنَهُ»

١٤٣

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثُرَ لَيُّلُونَ بِأَهْوَابِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٨﴾ وَذَرُوا ظِلَهِمُ الْإِثْمَ وَبَاطِنَهُ إِنْ أَلَّيْتُمْ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْرُقُونَ ﴿١١٩﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكُمْ لِيجْعِلُوا لَكُمْ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢٠﴾ أَوْ مَنْ كَانَ مِيسِقًا فَمِيسِقُهُ وَجَعَلْنَاهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ إِنَّهُمْ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿أَيُّ سِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ، قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ ^(٢). كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الاعراف: ٣٣]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْرُقُونَ﴾ أَيْ سَوَاءٌ كَانَ ظَاهِرًا أَوْ خَفِيًّا، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهِ، رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْإِثْمِ، فَقَالَ: «الْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ النَّاسُ عَلَيْهِ» ^(٣).

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكُمْ لِيجْعِلُوا لَكُمْ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٢٠﴾

[تَحْرِيمُ مَا ذُبِحَ بِغَيْرِ اسْمِ اللَّهِ]

أُسْتَدِلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى أَنَّ الدَّبِيحَةَ لَا تَحِلُّ إِذَا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهَا، وَإِنْ كَانَ الدَّبَائِحُ مُسْلِمًا، وَقَوْلُهُ

(١) الطبري: ٧٣/١٢ (٢) الطبري: ٧٢/١٢ (٣) مسلم: ٤/

فَقَالَ اللَّهُ فَلَا تَأْكُلُونَهُ، وَمَا دَبَحْتُمْ أَنْتُمْ تَأْكُلُونَهُ؟ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا أَطَعْتُوهُمْ﴾ فَأَكَلْتُمْ الْمَيْتَةَ ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾^(٨). وَهَكَذَا قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ^(٩).

[تَقْدِيمُ قَوْلِ أَحَدٍ عَلَى مَا شَرَعَهُ اللَّهُ شَرْكَ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا أَطَعْتُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أَيُّ حَيْثُ عَدَلْتُمْ، عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لَكُمْ وَشَرَعِهِ إِلَى قَوْلِ غَيْرِهِ، فَقَدْ مَتَّمْتُمْ عَلَيْهِ غَيْرَهُ، فَهَذَا هُوَ الشَّرْكُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ رُءُوسَهُمْ أَرْكَبُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الآية: التوبة: ٣١]، وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ: فِي تَفْسِيرِهَا عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَبْدُوهُمْ، فَقَالَ: «بَلَى إِنَّهُمْ أَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ، فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ»^(١٠).

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَاحْتَبَتْهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١١)

[مَثَلُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ]

هَذَا مَثَلُ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ الَّذِي كَانَ مِثْلًا، أَيْ فِي الضَّلَالَةِ هَالِكًا حَائِرًا، فَأَحْيَاهُ اللَّهُ أَيْ أَحْيَا قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ، وَهَدَاهُ لَهُ وَوَفَّقَهُ لِاتِّبَاعِ رُسُلِهِ ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أَيْ يَهْدِي كَيْفَ يَسْلُكُ وَكَيْفَ يَتَصَرَّفُ بِهِ، وَالنُّورُ هُوَ الْقُرْآنُ كَمَا رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ، وَابْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(١٢). وَقَالَ السُّدِّيُّ: الْإِسْلَامُ^(١٣). وَالْكُلُّ صَحِيحٌ ﴿كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أَيِ الْجَهَالَاتِ، وَالْأَهْوَاءِ وَالضَّلَالَاتِ الْمُتَفَرِّقَةِ ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ أَيْ لَا يَهْدِي إِلَى مَنَافَةٍ وَلَا مَخْلَصٍ مِمَّا هُوَ فِيهِ، وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ

فِي آيَةِ الصِّيدِ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ثُمَّ قَدْ أُكِّدَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ ﴿وَلَا تَلْفُسُوا﴾ وَالصَّوْمِيرُ، قِيلَ: عَائِدٌ عَلَى الْأَكْلِ، وَقِيلَ: عَائِدٌ عَلَى الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَبِالْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي الْأَمْرِ بِالتَّسْمِيَةِ عِنْدَ الذَّبْحِ وَالصِّيدِ، كَحَدِيثِي عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ وَأَبِي ثَعْلَبَةَ: «إِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ الْمُعْلَمُ، وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ»^(١٤). وَهُمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ. وَحَدِيثُ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ: «مَا أَنَهَرَ الدَّمَ، وَذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ»^(١٥). وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا. وَحَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِلْجَنِّ: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ»^(١٦). رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَحَدِيثُ جُنْدُبِ بْنِ سُفْيَانَ الْجَلِيلِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ فَلْيَذْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَى، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ ذَبَحَ حَتَّى صَلَّيْنَا، فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللَّهِ»^(١٧). أَخْرَجَاهُ.

[وَحْيِ الشَّيْطَانِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَى أُولِيَائِهِمْ لِيُجْدِلُوهُمْ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عُمَرَ: إِنَّ الْمُخْتَارَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، قَالَ: صَدَقَ، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَى أُولِيَائِهِمْ﴾^(١٨). وَعَنْ أَبِي زَيْمِلٍ، قَالَ: كُنْتُ قَاعِدًا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَحَجَّ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، زَعَمَ أَبُو إِسْحَاقَ أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْهِ اللَّيْلَةَ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: صَدَقَ، فَتَفَرَّتْ، وَقُلْتُ: يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ: صَدَقَ؟! فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمَا وَحْيَانِ: وَحْيِ اللَّهِ وَوَحْيِ الشَّيْطَانِ، فَوَحِيَ اللَّهُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَوَحِيَ الشَّيْطَانُ إِلَى أُولِيَائِهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَى أُولِيَائِهِمْ﴾^(١٩). وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ عِكْرَمَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ خُفْرَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ نَحْوُ هَذَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِيُجْدِلُوهُمْ﴾ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿لِيُجْدِلُوهُمْ﴾ قَالَ: يُوحِي الشَّيَاطِينُ إِلَى أُولِيَائِهِمْ: تَأْكُلُونَ مِمَّا قَتَلْتُمْ، وَلَا تَأْكُلُونَ مِمَّا قَتَلَ اللَّهُ؟ وَفِي بَعْضِ أَلْفَاظِهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ الَّذِي قَتَلْتُمْ ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَنَّ الَّذِي قَدْ مَاتَ، لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ^(٢٠).

وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِلْمُسْلِمِينَ: كَيْفَ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ تَتَّبِعُونَ مَرْصَاةَ اللَّهِ، فَمَا

(١) فتح الباري: ٥٢٤/٩ ومسلم: ١٥٢٩/٣ وفتح الباري: ٩/

١٣٧ و مسلم: ١٥٣٢/٣ (٢) فتح الباري: ٥٤٦/٩ و مسلم:

١٥٥٨/٣ (٣) مسلم: ٣٣٢/١ (٤) فتح الباري: ٥٤٦/٩

و مسلم: ١٥٥١/٣ (٥) ابن أبي حاتم: ١٣٧٩/٤ فيه أبو بكر بن

عياش قد اختلط (٦) الطبري: ٨٦/١٢ (٧) الطبري: ٨١/١٢

(٨) الطبري: ٨١/١٢ (٩) الطبري: ٨٠/١٢ (١٠) تحفة

الأحوذى: ٤٩٢/٨ لم أجده بهذا اللفظ عند الترمذي بل عنده

"أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً

استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه [ترمذي: ٣٩٥] فيه غطيف

ابن أعين ليس بمعروف في الحديث. يحتمل أن ابن كثير رواه

بالمعنى (١١) الطبري: ٩١/١٢ (١٢) الطبري: ٩١/١٢

ابن عباس: ﴿أَكْبَرُ مُجْرِمِهَا لِمَكْرُورِ فِيهَا﴾ قَالَ: سَلَطْنَا شِرَارَهُمْ فَعَصَوْا فِيهَا، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: ﴿أَكْبَرُ مُجْرِمِهَا عَظَمَائُهَا﴾^(١). قُلْتُ: وَهَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾^(٢) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي هُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الرَّحْف: ٢٣] وَالْمُرَادُ بِالْمَكْرِ هَهُنَا دَعَاؤُهُمْ إِلَى الضَّلَالَةِ بِزُخْرُفٍ مِنَ الْمَقَالِ وَالْفَعَالِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ قَوْمِ نُوحٍ: ﴿وَمَكْرُوهًا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ [نوح: ٢٢] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ يَقُولُ أَلَيْسَ أَسْتَضْعِفُوهَا لِلَّذِينَ أَسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾^(٣) قَالَ الَّذِينَ أَسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ أَسْتَضْعِفُوا نَحْنُ صَدَدْنَكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ شُرَكَائِهِمْ^(٤) وَقَالَ الَّذِينَ أَسْتَضْعِفُوا لِلَّذِينَ أَسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْيَلِّ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾^(٥) الْآيَةُ [سبأ: ٣١-٣٣]، وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: كُلُّ مَكْرٍ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ عَمَلٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^(٦) أَيْ وَمَا يَعُودُ وَبَالَ مَكْرِهِمْ ذَلِكَ وَإِضْلَالِهِمْ مِنْ أَضْلُوهُ إِلَّا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] وَقَالَ: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ عَايَةُ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا﴾^(٧) قَالُوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾^(٨) أَيْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الْمَلَائِكَةُ مِنَ اللَّهِ بِالرَّسَالَةِ، كَمَا تَأْتِي إِلَى الرُّسُلِ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْآيَةُ مِنْ رَبِّنَا﴾^(٩) ... الْآيَةُ [الفرقان: ٢١].

وَقَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(١٠) أَيْ هُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَضَعُ رِسَالَتَهُ وَمَنْ يَضِلُّ لَهَا مِنْ خَلْقِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ

أَحْمَدُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ رَسَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ ذَلِكَ النُّورُ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ»^(١١). كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّاحِبُونَ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يَتَّبِعِ مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَتَّبِعِ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مِثْلَ الْفَرِيقَيْنِ كَاللَّذَيْنِ الْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾^(١٢) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ^(١٣) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ^(١٤) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ^(١٥) إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٩-٣٣]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وَوَجْهَ الْمُنَاسَبَةِ فِي ضَرْبِ الْمَثَلَيْنِ هَهُنَا بِالنُّورِ وَالظُّلُمَاتِ مَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنَ لِّلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١٦) أَيْ حَسَنًا لَهُمْ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالَةِ، قَدَّرَا مِنَ اللَّهِ وَحِكْمَةً بِالْعَقَّةِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرُ مُجْرِمِهَا لِمَكْرُورِ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^(١٧) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ عَايَةُ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَوْا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾^(١٨)

[أَكْبَرُ الْمُجْرِمِينَ وَجِيلُهُمْ وَمَصِيرُهُمْ] يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا جَعَلْنَا فِي قَرْيَتِكَ يَا مُحَمَّدُ أَكْبَارَ مِنَ الْمُجْرِمِينَ، وَرُؤَسَاءَ وَدُعَاةَ إِلَى الْكُفْرِ، وَالصَّدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِلَى مُحَاذَاتِكَ وَعَدَاوَتِكَ، كَذَلِكَ كَانَتْ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِكَ يُبْتَلَوْنَ بِذَلِكَ، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾^(١٩) الْآيَةُ [الفرقان: ٣١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾^(٢٠) الْآيَةُ [إسراء: ١٦]، قِيلَ: مَعْنَاهُ: أَمَرْنَاهُمْ بِالطَّاعَةِ فَخَالَفُوا، فَدَمَرْنَاهُمْ، قِيلَ: أَمَرْنَاهُمْ أَمْرًا قَدَرِيًّا، كَمَا قَالَ هَهُنَا: ﴿لِمَكْرُورِ فِيهَا﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَكْبَرُ مُجْرِمِهَا لِمَكْرُورِ فِيهَا﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ

عَظِيمٌ ﴿٣١﴾ أَهْرَ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ... آيَةٌ [الزخرف: ٣١، ٣٢]، يَعْثُونَ لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ عَظِيمٍ كَبِيرٍ جَلِيلٍ مُبْجَلٍ فِي أَغْيَبِهِمْ ﴿٣٢﴾ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَيُّ مِنْ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ - قَسَمَهُمُ اللَّهُ - كَانُوا يَزِدُّونَ بِالرُّسُولِ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ بَغْيًا وَحَسَدًا، وَعِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِهِ ضَعِيفُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنبياء: ٤١].

[اعتراف الكفار بعلو نسب النبي ﷺ]

هَذَا وَهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِفَضْلِهِ وَشَرَفِهِ وَنَسَبِهِ، وَطَهَارَةِ بَيْتِهِ وَمَرْبَاهُ، وَمَنْشَأِهِ صَلَّى اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ عَلَيْهِ، حَتَّى إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَهُ بَيْنَهُمْ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ: «الْأَمِين» وَقَدْ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ رَئِيسُ الْكُفَّارِ أَبُو سُفْيَانَ حِينَ سَأَلَهُ هِرَقْلُ مَلِكِ الرُّومِ: وَكَيْفَ نَسَبُهُ فِيمَكُمْ؟ قَالَ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ، قَالَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قَالَ: لَا. الْحَدِيثُ بِطَوِيلِهِ، الَّذِي اسْتَدَلَّ مَلِكُ الرُّومِ بِطَهَارَةِ صِفَاتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى صِدْقِ نُبُوتِهِ وَصِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ وَائِلَةَ بِنِ الْأَسْقَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ اضْطَلَقَنِي مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاضْطَلَقَنِي مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاضْطَلَقَنِي مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاضْطَلَقَنِي مِنْ قُرَيْشِ بَنِي هَاشِمٍ، وَاضْطَلَقَنِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ» ^(١) إِنْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ ^(٢). وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قُرْنَا فَقَرْنَا، حَتَّى بُعِثْتُ مِنَ الْقُرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ» ^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَمِيعُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾... آيَةٌ، هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ مِنَ اللَّهِ، وَتَهْدِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ تَكَبَّرَ عَنْ اتِّبَاعِ رُسُلِهِ وَالْإِقْبَادِ لَهُمْ فِيمَا جَاؤُوا بِهِ، فَإِنَّهُ سَمِيعُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيِّنُ يَدَيِ اللَّهِ صَغَارٌ وَهُوَ الدَّلَّةُ الدَّائِمَةُ، لِمَا أَنَّهُمْ اسْتَكْبَرُوا فَأَغْبَاهُمْ ذَلِكَ ذُلًّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَا اسْتَكْبَرُوا فِي الدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ

عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أَيُّ صَاغِرِينَ دَلِيلِينَ حَقِيرِينَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ لَمَّا كَانَ الْمَكْرُ غَالِبًا إِنَّمَا يَكُونُ خَفِيفًا، وَهُوَ التَّلَطُّفُ فِي التَّحِيلِ وَالْخَدِيعَةِ، فَوَلَبُوا بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ مِنَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، جَزَاءً وَفَاقًا ﴿وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ ثُلِي السَّعِيرُ﴾ [الطارق: ٩] أَيُّ تَظْهَرُ الْمُسْتَسْتَرَاتُ وَالْمَكْنُونَاتُ وَالضَّمَائِرُ، وَجَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ عِنْدَ اسْتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فَلَانِ بْنِ فَلَانٍ» ^(٤). وَالْحِكْمَةُ فِي هَذَا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْعَدْرُ خَفِيفًا لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ النَّاسُ، فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَصِيرُ عَلَمًا مَنْشُورًا عَلَى صَاحِبِهِ يَمَا فَعَلَ.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ

(١) أحمد: ١٠٧/٤ (٢) مسلم: ١٦٨٢/٤ (٣) فتح الباري: ٦٥٣/٦ (٤) فتح الباري: ٣٢٧/٦ ومسلم: ١٣٦١/٣

عَنْهُ، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي وُسْعِهِ وَطَاقَتِهِ^(٥). وَقَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يَقُولُ: كَمَا يَجْعَلُ اللَّهُ صَدْرَ مَنْ أَرَادَ إِضْلَالَ ضَيْقًا حَرْجًا، كَذَلِكَ يُسَلِّطُ اللَّهُ الشَّيْطَانَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَمْثَالِهِ، يَمْنُنُ أَبِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَيُعْزِيهِ وَيَصُدُّهُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ^(٦). وَقَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الرَّجْسُ الشَّيْطَانُ^(٧). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الرَّجْسُ: كُلُّ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ^(٨). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ: الرَّجْسُ الْعَذَابُ.

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾^(٩)
 ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١٠)

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى طَرِيقَ الضَّالِّينَ عَنْ سَبِيلِهِ الصَّادِينَ عَنْهَا، نَبَّهَ عَلَى شَرَفِ مَا أُرْسِلَ بِهِ رَسُولُهُ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ مُنْصَوِّبٌ عَلَى الْحَالِ، أَيْ هَذَا الدِّينُ الَّذِي شَرَعَنَاهُ لَكَ يَا مُحَمَّدُ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ، هُوَ صِرَاطُ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمُ ﴿قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتِكَ﴾ أَيْ وَضَحْنَاهَا وَبَيَّنَّاهَا وَفَسَّرْنَاهَا ﴿لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ أَيْ لِمَنْ لَهُ فَهْمٌ وَوَعْيٌ يَعْقِلُ عَنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ وَهِيَ الْجَنَّةُ﴾ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴿أَيَّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّمَا وَصَفَ اللَّهُ الْجَنَّةَ هَهُنَا بِدَارِ السَّلَامِ، لِسَلَامَتِهِمْ فِيهَا سَلَكُوهُ مِنَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الْمُفْتَنِيِّ أَثَرِ الْأَنْبِيَاءِ وَطَرِيقَتِهِمْ، فَكَمَا سَلِمُوا مِنْ آفَاتِ الْإِغْوِجَاجِ أَفْضَلُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ ﴿أَيَّ حَافِظُهُمْ وَنَاصِرُهُمْ وَمُؤَيِّدُهُمْ﴾ وَبِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿أَيَّ جَزَاءٍ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ، تَوَلَّاهُمْ وَأَتَاهُمُ الْجَنَّةَ بِمَنْهَ وَكَرَمِهِ.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا لِمَنْعَشَرَ الْيَوْمِ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَانُكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾^(١١)

يَقُولُ تَعَالَى: وَادْكُرْ يَا مُحَمَّدُ فِيمَا تَقْضُهُ عَلَيْهِمْ وَتَنْذِرُهُمْ بِهِ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يَعْنِي الْجِنَّ

يُضِلُّهُ يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرْجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١٢)
 يَقُولُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أَيْ يُسِّرْهُ لَهُ وَيُسْطِطْهُ وَيُسَهِّلْهُ لِذَلِكَ، فَهَذِهِ عَلَامَاتٌ عَلَى الْخَيْرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧] وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾: يَقُولُ تَعَالَى: يُوسِّعُ قَلْبَهُ لِلتَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِهِ^(١٣). وَكَذَا قَالَ أَبُو مَالِكٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ وَهُوَ ظَاهِرٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرْجًا﴾ فُرِيَ بِفَتْحِ الضَّادِ وَتَشْكِينِ الْيَاءِ، وَالْأَكْثَرُونَ ﴿ضَيْقًا﴾ بِشَدِيدِ الْيَاءِ وَكَشْرَهَا، وَهُمَا لُغَتَانِ كَهَيْنَ وَهَيْنَ. وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (حَرْجًا) بِفَتْحِ الْحَاءِ وَكَسْرِ الرَّاءِ قِيلَ: بِمَعْنَى آثِمٍ. قَالَهُ السُّدِّيُّ. وَقِيلَ: بِمَعْنَى الْفِرَاقَةِ الْأُخْرَى: ﴿حَرْجًا﴾ بِفَتْحِ الْحَاءِ وَالرَّاءِ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَتَسَّعُ لِشَيْءٍ مِنَ الْهُدَى، وَلَا يَخْلُصُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مَا يَنْفَعُهُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَلَا يَنْفَعُهُ فِيهِ.

وَقَدْ سَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ مِنْ مُذَلِّجٍ عَنِ "الْحَرْجَةِ"، فَقَالَ: هِيَ الشَّجَرَةُ تَكُونُ بَيْنَ الْأَشْجَارِ، لَا تَصِلُ إِلَيْهَا رَاعِيَةٌ وَلَا وَحْشِيَّةٌ وَلَا شَيْءٌ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَذَلِكَ قَلْبُ الْمُنَافِقِ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْخَيْرِ^(١٤). ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ عَلَيْهِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرْجًا﴾، قَالَ: لَا يَجِدُ فِيهِ مَسْلَكًا إِلَّا صُعْدًا^(١٥).

وَقَالَ الْحَكَمُ بْنُ أَبَانَ عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ يَقُولُ: فَكَمَا لَا يَسْتَطِيعُ ابْنُ آدَمَ أَنْ يَبْلُغَ السَّمَاءَ، فَكَذَلِكَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْخُلَ التَّوْحِيدُ وَالْإِيمَانُ قَلْبَهُ، حَتَّى يَدْخُلَهُ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ^(١٦).

وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا مَثَلُ صَرَبَةِ اللَّهِ لِقَلْبِ هَذَا الْكَافِرِ فِي شِدَّةِ ضَيْقِهِ عَنْ وُضُوءِ الْإِيمَانِ إِلَيْهِ، يَقُولُ: فَكَيْفَ فِي امْتِنَاعِهِ مِنْ قَبُولِ الْإِيمَانِ وَضَيْقِهِ عَنْ وُضُوءِهِ إِلَيْهِ، مَثَلُ امْتِنَاعِهِ عَنِ الصُّعُودِ إِلَى السَّمَاءِ وَعَجْزِهِ

(١) الدر المنثور: ٣٥٦/٣ (٢) الطبري: ١٠٤/١٢ إسناده ضعيف فيه مجاهيل (٣) الطبري: ١٠٥/١٢ (٤) الدر المنثور: ٣٥٦/٣ (٥) الطبري: ١٠٩/١٢ (٦) الطبري: ١١٠/١٢ (٧) الطبري: ١١١/١٢ (٨) الطبري: ١١١/١٢

بِالظَّالِمِينَ نُسَلِّطُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَنُهْلِكَ بَعْضَهُمْ
بِبَعْضٍ وَنَسْتَقِيمُ مِنْ بَعْضِهِمْ بَعْضٌ، جَزَاءً عَلَى ظُلْمِهِمْ
وَبِعِيهِمْ.

﴿يَمْعَشَرُ الْجَنُّ وَالْإِنْسُ إِلَهُ يَأْتِيكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَصْطُونَ عَلَيْكُمْ
ءَايَاتِي وَيُذَرُّوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ
لِخَبْرَةِ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾
[تَفْرِيعُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ بِالسُّؤَالِ عَنْ إِزْسَالِ الرُّسُلِ
وَاعْتِرَافِهِمْ بِذَلِكَ]

وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا يُفْرَعُ اللَّهُ بِهِ كَافِرِي الْجَنِّ وَالْإِنْسِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ، حَيْثُ يَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ هَلْ بَلَّغْتَهُمُ الرُّسُلَ
رِسَالَاتِهِ؟ وَهَذَا اسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ: ﴿يَمْعَشَرُ الْجَنُّ وَالْإِنْسُ إِلَهُ
يَأْتِيكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ﴾ أَيُّ مِنْ جُمْلَتِكُمْ، وَالرُّسُلُ مِنَ الْإِنْسِ
فَقَطُّ وَلَيْسَ مِنَ الْجَنِّ رُسُلٌ، كَمَا قَدْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ مُجَاهِدٌ
وَابْنُ جُرَيْجٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَيْمَةِ مِنَ السَّلَفِ
وَالْخَلَفِ^(١). وَالذَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الرُّسُلَ إِنَّمَا هُمْ مِنَ الْإِنْسِ،
قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللَّيْنِ مِنْ
بَعْدِهِ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥]. وَقَوْلُهُ
تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾
[العنكبوت: ٢٧] فَحَصَرَ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ فِي
ذُرِّيَّتِهِ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ: إِنَّ النُّبُوَّةَ كَانَتْ فِي الْجَنِّ
قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ الْحَلِيلِ، ثُمَّ انْقَطَعَتْ عَنْهُمْ بَيْعَتُهُ، وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ الرُّسُلِ إِلَّا إِنْهُمْ لِيَآكُفُّوا
الظُّلْمَ وَيَمْسُحُوا فِي الْأَسْوَابِ﴾ [الفرقان: ٢٠] وَقَالَ: ﴿وَمَا
أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾
[يوسف: ١٠٩] وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْجَنِّ تَبِعَ لِلْإِنْسِ فِي هَذَا
الْبَابِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُمْ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ
نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَصْنَا فَمَا
فُعِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ قَالُوا يَقُومُونَ إِنَّا سَمِعْنَا
كَتَبًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مِثْلٍ مِثْلًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ
وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣١﴾ يَقُومُونَ آجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغُفِّرُ
لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَجْزِيَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْبَرِّ ﴿١٣٢﴾ وَمَنْ لَا يُجِبُ دَاعِيَ
اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي

وَأَوْلِيَاءَهُمْ مِنَ الْإِنْسِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا،
وَيَعْبُدُونَ بِهِمْ وَيُطِيعُونَهُمْ، وَيُوجِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ
زُخْرَفُ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴿يَمْعَشَرُ الْجَنُّ قَدْ اسْتَكْرَثُوا مِنَ
الْإِنْسِ﴾ أَيُّ ثُمَّ يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ الْجَنِّ، وَسَيَاقُ الْكَلَامِ يَدُلُّ
عَلَى الْمَحْذُوفِ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ ﴿قَدْ اسْتَكْرَثُوا مِنَ الْإِنْسِ﴾
أَيُّ مِنْ إِعْوَانِهِمْ، وَإِضْلَالِهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ
إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ
مُتِينٌ ﴿١١﴾﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ
مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَقَلَّمْ تَكُونُوا تَعْلُونَ﴾ [يس: ٦٠-٦٢] وَقَالَ
أَوَّلِيَاءُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ يَعْنِي أَنَّ
أَوَّلِيَاءَ الْجَنِّ مِنَ الْإِنْسِ قَالُوا: مُجِيبِينَ لَكَ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ
بِهَذَا.

قَالَ الْحَسَنُ: وَمَا كَانَ اسْتِمْتَاعُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، إِلَّا أَنَّ
الْجَنِّ أَمَرَتْ وَعَمِلَتْ الْإِنْسُ^(٢).
وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَنْزِلُ
الْأَرْضَ فَيَقُولُ: أَعُوذُ بِكَبِيرِ هَذَا الْوَادِي. فَذَلِكَ
اسْتِمْتَاعُهُمْ، فَاعْتَدُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(٣). وَأَمَّا اسْتِمْتَاعُ
الْجَنِّ بِالْإِنْسِ فَإِنَّهُ كَانَ - فِيمَا ذَكَرَ - مَا يَتَّالِ الْجَنُّ مِنَ
الْإِنْسِ مِنْ تَعْظِيمِهِمْ إِيَّاهُمْ فِي اسْتِعَانَتِهِمْ بِهِمْ، فَيَقُولُونَ:
قَدْ شَدَّنَا الْإِنْسُ وَالْجَنُّ. ﴿وَبَلَّغْنَا أَجْلَنَا الَّذِي أَجَلْتُمْ لَنَا﴾ قَالَ
السُّدِّيُّ: يَعْنِي الْمَوْتَ ﴿قَالَ النَّارُ مَتُونَكُمْ﴾ أَيُّ مَا وَكَّمْ
وَمَنْزِلَكُمْ أَنْتُمْ وَإِيَّاهُمْ وَأَوْلِيَاءُكُمْ ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ أَيُّ مَا كُنِينَ
فِيهَا مَكْنًا مُحَلَّدًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ.

﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

[تَوَلِّيَهُ بَعْضُ الظَّالِمِينَ عَلَى بَعْضٍ]

وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ: يُوَلِّي اللَّهُ بَعْضَ
الظَّالِمِينَ بَعْضًا فِي النَّارِ، يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا^(٤). وَقَالَ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ
الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ قَالَ: ظَالِمِي الْجَنِّ وَظَالِمِي الْإِنْسِ. وَقَرَأَ:
﴿وَمَنْ يَعْشَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُمْ شَظِيلًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٤﴾﴾
[الزخرف: ٣٦] قَالَ: وَنُسَلِّطُ ظَلَمَةَ الْجَنِّ عَلَى ظَلَمَةِ
الْإِنْسِ، وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

وَمَا مِنْ يَدٍ إِلَّا يَدُ اللَّهِ فَوْقَهَا

وَلَا ظَالِمٍ إِلَّا سَيِّئِلَى بَطَالِمٍ
وَمَعْنَى آيَةِ الْكَرِيمَةِ، كَمَا وَلَّيْنَا هَؤُلَاءِ الْخَاسِرِينَ مِنَ
الْإِنْسِ تِلْكَ الطَّائِفَةَ الَّتِي أَغْوَيْنَاهُمْ مِنَ الْجَنِّ، كَذَلِكَ نَفْعَلُ

(١) الدر المنثور: ٣٥٧/٣ (٢) الطبري: ١١٦/١٢ (٣) عبد

الرزاق: ٢١٨/٢ (٤) الطبري: ١١٩/١٢ (٥) الطبري: ١١٢/

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤٥

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مَعْمَلُوا وَمَا رُبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا
يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا
أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنْ مَا
تُوعَدُونَ لَأْتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَقَوْمُ
اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ
﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ
نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا
فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ
وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ
لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ
شُرَكَاءُؤُهُمْ لِيُرْذُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿[النحل: ٨٨]﴾ وَمَا
رُبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَيْ وَكُلُّ ذَلِكَ
مِنْ عَمَلِهِمْ يَا مُحَمَّدٌ يَعْلَمُ مِنْ رَبِّكَ، يُحْصِيهَا وَيُثَبِّتُهَا لَهُمْ
عِنْدَهُ، لِيُجَازِيَهُمْ عَلَيْهَا عِنْدَ لِقَائِهِمْ يَأْتِهِمْ وَمَعَادِهِمْ إِلَيْهِ﴾^(١)
﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ
بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ ﴿١٣٣﴾
إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَأْتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَقَوْمُ
اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ
لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

[الْوَعْدُ بِإِذْهَابِهِمْ إِذَا عَصَوْا]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿الْغَنِيُّ﴾ أَيْ عَنْ
جَمِيعِ خَلْقِهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَهُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ
أَحْوَالِهِمْ ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أَيْ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ رَحِيمٌ بِهِمْ، كَمَا
قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]

ضَلَّلِي مُبِينٍ ﴿[الأحقاف: ٢٩-٣٢] وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ
الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَلَا عَلَيْهِمْ
سُورَةَ الرَّحْمَنِ، وَفِيهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَفَرُغْ لَكُمْ أَنَّهُ
الْفَقْلَانِ﴾ ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣١، ٣٢].^(١)

وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿يَمْعَشَرُ الْيَمِينُ
وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُزِدُونَكُمْ
لِقَاءَهُ يَوْمَكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ [الأنعام: ١٢٠] أَيْ
أَفْرَزْنَا أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُونَا رِسَالَاتِكَ وَأَنْذَرُونَا لِقَاءَكَ، وَأَنَّ
هَذَا الْيَوْمَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَرَّضْنَاهُمْ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا﴾ أَيْ وَقَدْ فَرَطُوا فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا، وَهَلَكُوا
بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَمُخَالَفَتِهِمُ لِلْمُعْجَزَاتِ، لَمَّا اغْتَرَوْا بِهِ مِنْ
زُخْرُفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَشَهَوَاتِهَا، ﴿وَشَهِدُوا عَلَى
أَنْفُسِهِمْ﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿أَنْتُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ أَيْ فِي
الدُّنْيَا، بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ.
﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفِلُونَ﴾

وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مَعْمَلُوا وَمَا رُبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا

يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَى بِظُلْمٍ
وَأَهْلُهَا غَفِلُونَ﴾ أَيْ إِنَّمَا أَعْذَرْنَا إِلَى الثَّقَلَيْنِ بِإِرسَالِ الرُّسُلِ
وَأَنْزَالِ الْكُتُبِ، لِئَلَّا يُوَآخِذَ أَحَدٌ بِظُلْمِهِ وَهُوَ لَمْ تَبْلُغْهُ
دَعْوَةٌ، وَلَكِنْ أَعْذَرْنَا إِلَى الْأُمَمِ، وَمَا عَذَبْنَا أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ
إِرسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا
فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ
أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]
كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعْذِرِينَ حَتَّى بَعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا أَلْفَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ
نَذِيرٌ﴾ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا ﴿[الملك: ٨، ٩] وَالْآيَاتُ
فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

قَالَ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مَعْمَلُوا﴾ أَيْ
وَلِكُلِّ عَامِلٍ فِي طَاعَةِ اللَّهِ أَوْ مَعْصِيَتِهِ مَرَاتِبٌ وَمَنَازِلُ مِنْ
عَمَلِهِ، يُبْلَغُهُ اللَّهُ إِلَيْهَا وَيُنِيبُهُ بِهَا، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ
شَرًّا فَشَرٌّ.

﴿قُلْتُ﴾ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُعَوَّدَ قَوْلُهُ: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مَعْمَلُوا
عَمَلُوا﴾ أَيْ مِنْ كَافِرِي الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، أَيْ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ
فِي النَّارِ بِحَسَبِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾ [الأعراف: ٣٨]
وَقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا

(١) تحفة الأحوذى: ١٧٧/٩ (٢) الطبري: ١٢٥/١٢

[المجادلة: ٢١] وَقَالَ: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ۝﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ [غافر: ٥١، ٥٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾
فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِيعِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ
إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

[بَيَانُ بَعْضِ أَعْمَالِ الشِّرْكِ]

هَذَا ذِمٌّ وَتَوْبِيخٌ مِنَ اللَّهِ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ ابْتَدَعُوا بِدْعًا وَكُفْرًا وَشِرْكًَا، وَجَعَلُوا لِلَّهِ جُزْءًا مِنْ خَلْقِهِ، وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أَيِّ مِمَّا خَلَقَ وَبَرَأ ﴿مِنْ الْحَرْثِ﴾ أَيِّ مِنَ الزَّرْعِ وَالثَّمَارِ ﴿وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ أَيُّ جُزْءًا وَقَسَمًا ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِيعِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ وَالْعَوْفِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ أَغْدَاءَ اللَّهِ كَانُوا إِذَا حَرَّثُوا حَرْثًا أَوْ كَانَتْ لَهُمْ ثَمَرَةٌ، جَعَلُوا لِلَّهِ مِنْهُ جُزْءًا وَلِلْوَثَنِ جُزْءًا، فَمَا كَانَ مِنْ حَرْثٍ أَوْ ثَمَرَةٍ أَوْ شَيْءٍ مِنْ نَصِيبِ الْأَوْتَانِ، حَفَظُوهُ وَأَخْصَوْهُ وَإِنْ سَقَطَ مِنْهُ شَيْءٌ فِيمَا سَمِيَ لِلصَّمَدِ، رَدُّوهُ إِلَى مَا جَعَلُوهُ لِلْوَثَنِ، وَإِنْ سَبَقَهُمُ الْمَاءُ الَّذِي جَعَلُوهُ لِلْوَثَنِ فَسَقَى شَيْئًا جَعَلُوهُ لِلَّهِ جَعَلُوا ذَلِكَ لِلْوَثَنِ، وَإِنْ سَقَطَ شَيْءٌ مِنَ الْحَرْثِ وَالثَّمَرِ الَّذِي جَعَلُوهُ لِلَّهِ فَاخْتَلَطَ بِالَّذِي جَعَلُوهُ لِلْوَثَنِ قَالُوا: هَذَا فَقِيرٌ، وَلَمْ يَرُدُّهُ إِلَى مَا جَعَلُوهُ لِلَّهِ، وَإِنْ سَبَقَهُمُ الْمَاءُ الَّذِي جَعَلُوهُ لِلَّهِ فَسَقَى مَا سَمِيَ لِلْوَثَنِ تَرَكُوهُ لِلْوَثَنِ، وَكَانُوا يُحَرِّمُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْبَحِيرَةَ وَالسَّائِيَةَ وَالْوَصِيلَةَ وَالْحَامَ فَيَجْعَلُونَهُ لِلْأَوْتَانِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُحَرِّمُونَهُ قُرْبَةً لِلَّهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ آيَةٌ^(٣). وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أَيُّ إِذَا خَالَفْتُمْ أَمْرَهُ ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ أَيُّ قَوْمًا آخَرِينَ، أَيُّ يَعْمَلُونَ بِطَاعَتِهِ ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أَيُّ هُوَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ، سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ، كَمَا أَذْهَبَ الْقُرُونُ الْأُولَى وَأَتَى بِالَّذِي بَعْدَهَا، كَذَلِكَ هُوَ قَادِرٌ عَلَى إِذْهَابِ هَؤُلَاءِ وَالْإِثْنَانِ بِآخَرِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا [النساء: ١٣٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ أُنْتُمْ أَفْقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٣٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ [فاطر: ١٥-١٧].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٢٨] وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ عُثْبَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَانَ بْنَ عُثْمَانَ يَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾: الذَّرِيَّةُ: الْأَصْلُ. وَالذَّرِيَّةُ: النَّسْلُ^(١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ مَا نُوَعِدُونَ لَأَتِي وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أَيُّ أَخْبِرْهُمْ يَا مُحَمَّدُ، أَنَّ الَّذِي يُوعِدُونَ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ كَائِنْ لَا مَحَالَةَ ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أَيُّ وَلَا تُعْجِزُونَ اللَّهَ، بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِكُمْ وَإِنْ صِرْتُمْ تَرَابًا رُفَاتًا وَعِظَامًا، هُوَ قَادِرٌ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعْدٌ أَكِيدٌ، أَيُّ اسْتَمِرُّوا عَلَى طَرِيقَتِكُمْ وَنَاحِيَّتِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَظُنُّونَ أَنَّكُمْ عَلَى هُدًى، فَإِنَّا مُسْتَمِرٌّ عَلَى طَرِيقَتِي وَمَنْهَجِي كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ [هود: ١٢١، ١٢٢] قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿عَلَى مَكَاتِكُمْ﴾ نَاحِيَّتِكُمْ^(٢). فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ ﴿أَيُّ أَتَكُونُ لِي أَوْ لَكُمْ؟ وَقَدْ أَنْجَزَ اللَّهُ مَوْعِدَهُ لِرُسُلِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَيُّ: فَإِنَّهُ تَعَالَى مَكْنَهُ فِي الْبِلَادِ وَحَكْمَهُ فِي نَوَاصِي مُخَالِفِيهِ مِنَ الْعِبَادِ، وَفَتَحَ لَهُ مَكَّةَ وَأَظْهَرَهُ عَلَى مَنْ كَذَبَهُ مِنْ قَوِيهِ وَعَادَاهُ وَنَاوَاهُ، وَاسْتَقَرَّ أَمْرُهُ عَلَى سَائِرِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَكَذَلِكَ الْيَمَنُ وَالْبَحْرَيْنِ، وَكُلُّ ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ، ثُمَّ فُتِحَتِ الْأَمْصَارُ وَالْأَقَالِيمُ وَالرَّسَائِقُ بَعْدَ وَفَاتِهِ فِي أَيَّامِ خُلَفَائِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِلْأَعْلِينَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

(١) الدر المنثور: ٣/٣٦١ (٢) الطبري: ١٢/١٢٩ (٣)

الطبري: ١٢/١٣١، ١٣٢

[بَعْضُ تَحْرِيمَاتِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْأَنْعَامِ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: (الْحَجَرُ): الْحَرَامُ، مِمَّا حَرَّمُوا مِنَ الْوَصِيلَةِ وَتَحْرِيمِ مَا حَرَّمُوا^(٦). وَكَذَلِكَ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَغَيْرُهُمْ^(٧). وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أُنْعَمُ وَحَرَّتْ حَجَرٌ﴾ تَحْرِيمٌ كَانَ عَلَيْهِمْ مِنَ الشَّيَاطِينِ فِي أَمْوَالِهِمْ وَتَغْلِيظٌ وَتَشْدِيدٌ وَلَمْ يَكُنْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَالَ ابْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ﴿حَجَرٌ﴾ إِنَّمَا اخْتَجَرُواهَا لِإِلَهَتِهِمْ^(٨). وَقَالَ السُّدِّيُّ ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِرِغْمِهِمْ﴾ يَقُولُونَ: حَرَامٌ أَنْ يَطْعَمَ إِلَّا مَنْ شِئْنَا^(٩). وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْنَاهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ وَاللَّهِ أَزُوتُ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفَرُّوتُ﴾ [الأنعام: ٥٩] وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَهِيمَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَلِمٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَآكَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وَقَالَ السُّدِّيُّ: أَمَّا الْأَنْعَامُ الَّتِي حُرِّمَتْ طُهُورُهَا فَهِيَ الْبَهِيمَةُ وَالسَّائِبَةُ وَالْوَصِيلَةُ وَالْحَلِمُ. وَأَمَّا الْأَنْعَامُ الَّتِي لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا: لَا إِذَا وَلَدُوهَا وَلَا إِذَا نَحَرُوهَا.

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عَيَّاشٍ عَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ: قَالَ لِي أَبُو وائِلٍ: أَتَذَرِي مَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ طُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ قُلْتُ: لَا، قَالَ: هِيَ الْبَهِيمَةُ كَانُوا لَا يَحْجُونَ عَلَيْهَا^(١٠). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ مِنْ إِبِلِهِمْ طَائِفَةٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا، وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهَا: لَا إِنْ رَكَبُوا وَلَا إِنْ حَلَبُوا، وَلَا إِنْ حَمَلُوا، وَلَا إِنْ نَحَجُوا وَلَا إِنْ عَمِلُوا شَيْئًا^(١١). ﴿أَفَرَأَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أَيُّ عَلَى اللَّهِ وَكَذِبًا مِنْهُمْ فِي إِسْنَادِهِمْ ذَلِكَ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ وَلَا رِضِيَهُ مِنْهُمْ ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أَيُّ عَلَيْهِ، وَيُسْنِدُونَ إِلَيْهِ.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمُحَرَّمٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنْ كَانَ مِنْ مَيْتَةٍ فَهُوَ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(١٢). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي الْآيَةِ: كُلُّ شَيْءٍ يَجْعَلُونَهُ اللَّهُ مِنْ ذَبْحٍ يَذْبَحُونَهُ لَا يَأْكُلُونَهُ أَبَدًا حَتَّى يَذْكُرُوا مَعَهُ أََسْمَاءَ الْأَلْهَةِ، وَمَا كَانَ لِلْأَلْهَةِ لَمْ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ مَعَهُ، وَقَرَأَ الْآيَةَ حَتَّى بَلَغَ ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(١٣). أَيُّ سَاءَ مَا يَقْسِمُونَ. فَإِنَّهُمْ أَخْطَأُوا أَوَّلًا فِي الْقِسْمِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ، وَلَهُ الْمُلْكُ وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ وَفِي تَصْرِفِهِ وَتَحْتِ قُدْرَتِهِ وَمَشِيتَتِهِ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، ثُمَّ لَمَّا قَسَمُوا فِيمَا زَعَمُوا الْقِسْمَةَ الْفَاسِدَةَ لَمْ يَحْفَظُوا بَلَّ جَارُوا فِيهَا، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الْكُفْرُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾ تِلْكَ إِذَا قَسَمْتَ ضَرْبًا [النجم: ٢١، ٢٢].

﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُّهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ﴾

[زَيَّنَ الشَّيْطَانُ لِلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا زَيَّنَ الشَّيْطَانُ لَهُوْلَاءِ أَنْ يَجْعَلُوا اللَّهُ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا، كَذَلِكَ زَيَّنُوا لَهُمْ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ - خَشْيَةُ الْإِمْلَاقِ - وَوَأَدَ الْبَنَاتِ خَشْيَةُ الْعَارِ، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ﴾: زَيَّنُوا لَهُمْ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ^(١٤). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿شُرَكَائِهِمْ﴾ شَيَاطِينُهُمْ يَأْمُرُونَهُمْ أَنْ يَبْدُوا أَوْلَادَهُمْ خَشْيَةَ الْعَبْلَةِ^(١٥). وَقَالَ السُّدِّيُّ: أَمَرْتُهُمُ الشَّيَاطِينُ أَنْ يَقْتُلُوا الْبَنَاتِ، إِمَّا ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ فَيَهْلِكُوهُمْ، ﴿و﴾ إِمَّا ﴿لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أَيُّ فَيَخْلِطُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ^(١٦) وَنَحْوُ ذَلِكَ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أَيُّ كُلُّ هَذَا وَاقِعٌ بِمَشِيتَتِهِ تَعَالَى وَإِرَادَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ لِذَلِكَ كَوْنًا، وَلَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ فِي ذَلِكَ، فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿فَذَرُّهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ﴾ أَيُّ فَدَعَهُمْ وَاجْتَنَبَهُمْ وَمَا هُمْ فِيهِ فَسَيَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ.

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أُنْعَمُ وَحَرَّتْ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِرِغْمِهِمْ وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ طُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَفَرَأَيْتُمْ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

(١) الطبري: ١٣٣/١٢ (٢) الطبري: ١٣٤/١٢ (٣) الطبري:

١٣٦/١٢ (٤) الطبري: ١٣٦/١٢ (٥) الطبري: ١٣٧/١٢

(٦) الطبري: ١٤٣/١٢ (٧) الطبري: ١٤٣/١٢ (٨) الطبري:

١٤٣/١٢ (٩) الطبري: ١٤٣/١٢ (١٠) الطبري: ١٤٤/١٢

(١١) الطبري: ١٤٥/١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤٦

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَقَالُوا هَذِهِ أَعْنَمُ وَحَرَّتْ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا أَمَنُ
نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمُ حَرَمَتْ طُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ
أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ
خَالِصَةٌ لَّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ
مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ
سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ
قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ * وَهُوَ الَّذِي
أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ
مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتِ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ
مُتَشَابِهٍ كُلًّا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاثُورًا حَقَّهُ، يَوْمَ
حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾
وَمَنْ الْأَنْعَمِ حَمُولَةٌ وَفَرَسًا كُلًّا مِمَّا رَزَقَكُمْ
اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾

قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً
عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿[الأنعام: ١٤٠]﴾
وهكذا رواه البخاريُّ مُتَّفَقًا فِي كِتَابِ «مَنَاقِبِ قُرَيْشٍ» مِنْ
صَحِيحِهِ (٦).

«وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ
وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتِ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ
كُلًّا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاثُورًا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا
تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمَنْ الْأَنْعَمِ حَمُولَةٌ
وَفَرَسًا كُلًّا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ
لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾»

[اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ الثَّمَرَ وَالْحَبَّ وَالْأَنْعَامَ]

يَقُولُ تَعَالَى مُبِينًا أَنَّهُ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الزُّرُوعِ

(١) الطبري: ١٤٦/١٢ أبو إسحاق السبيعي مدلس قد عنعن ولم
يصرح بالسماع (٢) الطبري: ١٤٧/١٢ العوفي وعائلته قد تقدم
حكمهم (٣) الطبري: ١٢ / ١٤٨ (٤) الطبري: ١٢ / ١٤٨ (٥)
الطبري: ١٥٢/١٢ (٦) فتح الباري: ٦/٦٣٦

قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ السَّبْعِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْهَدَيْلِ عَنْ
ابْنِ عَبَّاسٍ «وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ
لِلذُّكُورِ» الْآيَةُ قَالَ: اللَّبَنُ^(١). وَقَالَ الْعُوفِيُّ عَنْ ابْنِ
عَبَّاسٍ «وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ
لِلذُّكُورِ»: فَهُوَ اللَّبَنُ كَانُوا يُحَرِّمُونَهُ عَلَى إِنَائِهِمْ وَيُسْرِبُهُ
ذُكْرَانُهُمْ. وَكَانَتْ الشَّاةُ إِذَا وَلَدَتْ ذَكَرًا ذَبَحُوهُ، وَكَانَ
لِلرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ، وَإِنْ كَانَتْ أُنْثَى تُرِكَتْ فَلَمْ تُذْبَحْ،
وَإِنْ كَانَتْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ، فَهِيَ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ^(٢).
وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ^(٣).

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: الْبَحِيرَةُ لَا يَأْكُلُ مِنْ لَبَنِهَا إِلَّا الرِّجَالُ،
وَإِنْ مَاتَ مِنْهَا شَيْءٌ أَكَلَهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ. وَكَذَا قَالَ
عِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: «وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ
الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ لِلذُّكُورِ وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا» قَالَ: هِيَ
السَّائِبَةُ وَالْبَحِيرَةُ^(٤). وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ فِي
قَوْلِ اللَّهِ: «سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ» أَيُّ قَوْلِهِمُ الْكَذِبُ فِي
ذَلِكَ^(٥). يَعْني كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ
الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْسِكُمْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ إِنَّ الَّذِينَ
يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُلْحِقُونَ ﴿١٣٩﴾ مَتَّعَ... الْآيَةُ
[النحل: ١١٦، ١١٧] «إِنَّهُ حَكِيمٌ» أَيُّ فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ
وَسُرْعِهِ وَقَدْرِهِ «عَلِيمٌ» بِأَعْمَالِ عِبَادِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ
وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهَا أَثَمَ الْجَزَاءِ.

«قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا
رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا

مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾»

يَقُولُ تَعَالَى: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ فَعَلُوا هَذِهِ الْأَفْعَالِ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَخَسِرُوا أَوْلَادَهُمْ بِقَتْلِهِمْ،
وَضَيَّقُوا عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ فَحَرَّمُوا أَشْيَاءَ ابْتَدَعُوهَا مِنْ
تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ. وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَيَصِيرُونَ إِلَى شَرِّ الْمَنَازِلِ
بِكُذِبِهِمْ عَلَى اللَّهِ وَافْتِرَائِهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّ الَّذِينَ
يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُلْحِقُونَ ﴿١٣٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ
إِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُؤَيِّقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا
يَكْفُرُونَ» [يونس: ٧٠، ٦٩] وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ
مَرْدُودِيهِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا، قَالَ: إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ، فَافْرَأْ مَا
فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَالْمِائَةِ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ

الْمَعْرُوف. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: نَزَلَتْ فِي ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ ابْنِ شِمَاسٍ، جَدُّ نَحْلًا لَهُ فَقَالَ: لَا يَأْتِينِي الْيَوْمَ أَحَدٌ إِلَّا أَطْعَمْتُهُ فَأَطْعَمَ حَتَّى أَمْسَى، وَلَيْسَتْ لَهُ ثَمَرَةٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُشْرِفُوا إِنَّا لَا نُحِبُّ الْمُتَشَرِّفِينَ﴾ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْهُ. لَكِنَّ الظَّاهِرَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ سِيَاقِ الْآيَةِ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَعَآثُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُشْرِفُوا﴾ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا عَلَى الْأَكْلِ، أَيْ لَا تُشْرِفُوا فِي الْأَكْلِ لِمَا فِيهِ مِنْ مَصْرَةِ الْعَقْلِ وَالْبَدَنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ الْآيَةُ [الأعراف: ٣١].

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ تَعْلِيلًا: «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبُسُوا مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ»^(٧). وَهَذَا مِنْ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[فَوَائِدُ الْأَنْعَامِ]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسًا﴾ أَيْ وَأَنْشَأَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ مَا هُوَ حَمُولَةٌ وَمَا هُوَ فَرَسٌ، قِيلَ: الْمُرَادُ بِالْحَمُولَةِ مَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِبِلِ، وَالْفَرَسُ الصَّغَارُ مِنْهَا، كَمَا قَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي الْأَخْوَصِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ: حَمُولَةٌ: مَا حُمِلَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِبِلِ وَفَرَسًا الصَّغَارُ مِنَ الْإِبِلِ. رَوَاهُ الْحَاجِمُ وَقَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(٨). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: الْحَمُولَةُ: مَا تَرْكَبُونَ. وَالْفَرَسُ: مَا تَأْكُلُونَ وَتَحْلِبُونَ، شَاءَ لَا تَحْمَلُ تَأْكُلُونَ لَحْمَهَا وَتَتَّخِذُونَ مِنْ صُوفِهَا لِحَافًا وَفَرَسًا^(٩). وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ حَسَنٌ، يَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيَنَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾^(١٠) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ [يس: ٧١، ٧٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِيُفَكِّرَ بِنَا فِي بَطُولِهِ مِنْ بَيْنِ قَوْمٍ وَدَرِ بَنَاءٍ خَالِصًا سَابِقًا لِلشَّرِّينَ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَاتًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٦٦-٨٠].

وَالثَّمَارِ وَالْأَنْعَامِ الَّتِي تَصَرَّفَ فِيهَا هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ بِأَرَانِهِمُ الْفَاسِدَةِ، وَقَسَمُوهَا وَجَزَّوْهَا فَجَعَلُوا مِنْهَا حَرَامًا وَحَلَالًا، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ مَسْمُوكَاتٍ. وَفِي رَوَايَةٍ: فَالْمَعْرُوشَاتُ مَا عَرَّشَ النَّاسُ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ مَا خَرَجَ فِي الْبَرِّ وَالْجِبَالِ مِنَ الثَّمَرَاتِ^(١١). وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ مَا عَرَّشَ مِنَ الْكَرَمِ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ مَا لَمْ يُعَرَّشَ مِنَ الْكَرَمِ. وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿مُنْشِكِيهَا وَغَيْرَ مُنْشِكِيهَا﴾ قَالَ: ﴿مُنْشِكِيهَا﴾ فِي الْمَنْظَرِ وَغَيْرَ مُنْشِكِيهَا فِي الْمَطْعَمِ^(١٢). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ قَالَ: مِنْ رُطْبِهِ وَعَنِهِ^(١٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَآثُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا خَضَرَكَ الْمَسَاكِينُ طَرَحْتَ لَهُمْ مِنْهُ^(١٤). وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿وَعَآثُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قَالَ: عِنْدَ الزَّرْعِ يُعْطِي الْقَبْضَةَ، وَعِنْدَ الصَّرَامِ يُعْطِي الْقَبْضَةَ وَيَتَرَكُهُمْ فَيَنْتَبِعُونَ أَثَارَ الصَّرَامِ^(١٥). وَرَوَى الثَّوْرِيُّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّحِييِّ، قَالَ: يُعْطِي مِثْلَ الضَّغْثِ^(١٦). وَرَوَى ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: ﴿وَعَآثُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ قَالَ: كَانَ هَذَا قَبْلَ الزَّكَاةِ، لِلْمَسَاكِينِ الْقَبْضَةُ وَالضَّغْثُ لِعَلْفِ دَابَّتِهِ.

وَقَدْ دَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الَّذِينَ يَصْرِفُونَ وَلَا يَتَصَدَّقُونَ، كَمَا ذَكَرَ عَنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ فِي سُورَةِ «ن» ﴿إِذْ أَقْبَتُوا لَبِصْرُهَا مُصْبِحِينَ﴾^(١٧) وَلَا يَسْتَنْوُونَ^(١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ^(١٩) فَاصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ [القلم: ١٧-٢٠] أَيْ كَاللَّيْلِ الْمُدْلِيهِمْ سُودَاءَ مُحْتَرِقَةٍ ﴿فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾^(٢٠) أَنْ أَغْدُوا عَلَى حَرْبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(٢١) فَاطْلُقُوا وَهُمْ يَخْتَفُونَ^(٢٢) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِنًا^(٢٣) وَغَدُوا عَلَى حَرٍِّ قَدِيرٍ^(٢٤) أَيْ قُوَّةَ وَجَلْدٍ وَهَمَةٍ وَقَلَمًا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَائُونَ^(٢٥) بَلْ عَنْ غُرُومٍ^(٢٦) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْزَقْلَ لَكُمْ لَوْلَا سَيْحُونَ^(٢٧) قَالُوا سُبْحَنَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ^(٢٨) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ^(٢٩) قَالُوا يَرَتَّلَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ^(٣٠) عَنِ رَبِّنَا أَنْ يَبْدِلَنَا حِمْلًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ^(٣١) كَذَلِكَ الْقَتَالَةُ وَلَعَنَتِ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ [القلم: ١٧-٣٣].

[بَيَانُ الْإِسْرَافِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُشْرِفُوا إِنَّا لَا نُحِبُّ الْمُتَشَرِّفِينَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ لَا تُشْرِفُوا فِي الْإِعْطَاءِ فَتَعْطُوا فَوْقَ

(١) الطبري: ١٥٦/١٢ (٢) الطبري: ١٥٧/١٢ (٣) الطبري: ١٥٧/١٢ (٤) الطبري: ١٦٣/١٢ (٥) عبد الرزاق: ٢١٩/٢ (٦) الطبري: ١٦٥/١٢ (٧) كتاب اللباس تحت الباب الأول، وفيه: «وتصدقوا» بعد «البسوا» (٨) الحاكم: ٣١٧/٢ (٩) الطبري: ١٨١/١٢

[كُلُوا مِنْ هَذِهِ الْأَنْعَامِ وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهَا خُطُوتَ

الشَّيْطَانِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُوا مِنْهَا رَزَقَكُمْ اللَّهُ﴾ أَيِّ مِنَ الثَّمَارِ وَالزَّرُوعِ وَالْأَنْعَامِ فَكُلْهَا خَلَقَهَا اللَّهُ وَجَعَلَهَا رِزْقًا لَكُمْ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ﴾ أَيِّ طَرِيقِهِ وَأَوَامِرِهِ كَمَا اتَّبَعَهَا الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ حَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ، أَيُّ مِنَ الثَّمَارِ وَالزَّرُوعِ إِفْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، ﴿إِنَّهُ لَكُمْ﴾ أَيُّ إِنَّ الشَّيْطَانَ أَيُّهَا النَّاسُ لَكُمْ ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أَيُّ بَيِّنٌ ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَّبِعُ آدَمَ لَا يَفْقَهُكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ [الأنعام: ٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ تَحْذَرُوا وَذَرَيْتُمْ أَوَّلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ يَتَّبِعُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ.

﴿ثُمَّ نَبِّئِ الْأَزْوَاجَ مِنَ الْبَقَرِ الْأُنثَى وَمِنَ الْمَعْزِ الْأُنثَى قُلْ أَلَمْ أَكْرِهَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَى أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَى نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ الْأُنثَى وَمِنَ الْبَقَرِ الْأُنثَى قُلْ أَلَمْ أَكْرِهَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَى أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَى أَم كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهِدًا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

هَذَا بَيَانٌ لِيَجْهَلَ الْعَرَبُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، فِيمَا كَانُوا حَرِّمُوا مِنَ الْأَنْعَامِ وَجَعَلُوهَا أَجْزَاءً وَأَنْوَاعًا بِحَيْرَةٍ وَسَايَةِ وَوَصِيلَةٍ وَحَامًا، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَنْوَاعِ الَّتِي ابْتَدَعُوهَا فِي الْأَنْعَامِ وَالزَّرُوعِ وَالثَّمَارِ، فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْشَأَ جَنَابَ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ، وَأَنَّهُ أَنْشَأَ مِنَ الْأَنْعَامِ حُمُولَةً وَقَرُشًا، ثُمَّ بَيَّنَّ أَصْنَافَ الْأَنْعَامِ إِلَى غَنَمٍ وَهُوَ بَيَاضٌ وَهُوَ الضَّأْنُ، وَسَوَادٌ وَهُوَ الْمَعْزُ ذَكَرُهُ وَأُنْثَاهُ، وَإِلَى إِبِلٍ ذَكَرُوهَا وَإِنَاثُهَا وَبَقَرٍ كَذَلِكَ، وَأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يُحَرِّمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَلَا شَيْئًا مِنْ أَوْلَادِهَا، بَلْ كُلُّهَا مَخْلُوقَةٌ لِبَنِي آدَمَ أَكَلًا وَرُكُوبًا وَحُمُولَةً وَحَلَبًا وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ وَجْهِ الْمَنَافِعِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةً أَرْوَاجَ﴾ [الزمر: ٦] الْآيَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَى﴾ رَدُّ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لَكُمْ دُونًا وَمَحْرَمٌ عَلَى أَرْوَاجِهَا﴾ الْآيَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

ثُمَّ نَبِّئِ الْأَزْوَاجَ مِنَ الْبَقَرِ الْأُنثَى وَمِنَ الْمَعْزِ الْأُنثَى قُلْ أَلَمْ أَكْرِهَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَى أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَى نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ الْأُنثَى وَمِنَ الْبَقَرِ الْأُنثَى قُلْ أَلَمْ أَكْرِهَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَى أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَى أَم كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهِدًا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُلْ لَا أَحَدٌ فِي مَا أَوْحَى إِلَيَّ مُخَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيسَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خنزير فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾

﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَيُّ أَخْبِرُونِي عَنْ يَقِينٍ، كَيْفَ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مَا رَعَيْتُمْ تَحْرِيمَهُ مِنَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِيَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ ﴿ثُمَّ نَبِّئِ الْأَزْوَاجَ مِنَ الْبَقَرِ الْأُنثَى وَمِنَ الْمَعْزِ الْأُنثَى﴾ فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أَرْوَاجٍ ﴿قُلْ أَلَمْ أَكْرِهَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَى﴾ يَقُولُ: لَمْ أَحَرِّمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ﴿أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَى﴾ يَعْنِي هَلْ يَشْتَمِلُ الرَّحْمُ إِلَّا عَلَى ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، فَلِمَ تَحْرِمُونَ بَعْضًا وَتُحِلُّونَ بَعْضًا؟ ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: كُلُّهُ حَلَالٌ^(١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَم كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهِدًا﴾ تَهَكُّمٌ بِهِمْ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ وَافْتَرَوْهُ عَلَى اللَّهِ مِنْ تَحْرِيمٍ مَا حَرَّمَهُ مِنْ ذَلِكَ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أَيُّ لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِنْهُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وَأَوَّلُ مَنْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ

(١) الطبري: ١٨٧/١٢ مَرَّ حَكَمُ الْعَوْفِيِّ وَعَاتِلْتُهُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ

عَمُرُو بَنِي لَحْيٍ بَنِي قَمْعَةَ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَوَّلُ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِ، وَوَصَلَ الْوَصِيلَةَ، وَحَمَى الْحَامِي. كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ^(١).
﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاجٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢)

[بَيَانُ الْأَشْيَاءِ الْمُحَرَّمَاتِ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِنْدَهُ وَرَسُولُهُ مُحَمَّدًا ﷺ ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ حَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ أَيُّ أَكَلٍ يَأْكُلُهُ. مَعْنَاهُ: لَا أَجِدُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ شَيْئًا حَرَامًا سِوَى هَذِهِ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ مَا وَرَدَ مِنَ التَّحْرِيمَاتِ بَعْدَ هَذَا فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ وَفِي الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ رَافِعًا لِمَقْهُومِ هَذِهِ الْآيَةِ، ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ وَقَالَ فَتَاةٌ: حَرَّمَ مِنَ الدَّمَاءِ مَا كَانَ مَسْفُوحًا، فَأَمَّا [لَحْمٌ] خَالَطَهُ الدَّمُ فَلَا بَأْسَ بِهِ^(٣).

وَقَالَ الْحَمِيدِيُّ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، قَالَ: قُلْتُ لِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: إِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ لُحُومِ الْحُمْرِ الْأَهْلِيَّةِ زَمَنَ خَيْبَرَ، فَقَالَ: قَدْ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ الْحَكَمُ بْنُ عَمْرٍو عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَكِنْ أَبِي ذَلِكَ الْحَبْرُ، يَعْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ وَقَرَأَ: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ الْآيَةَ^(٤). وَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ^(٥).

وَرَوَى أَبُو بَكْرِ بْنُ مَرْذُوبٍ وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَأْكُلُونَ أَشْيَاءَ وَيَتْرَكُونَ أَشْيَاءَ تَقْدَرُ، فَبَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهٗ وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ وَأَحْلَلَ حَلَالَهُ وَحَرَّمَ حَرَامَهُ، فَمَا أَحْلَلَ فَهُوَ حَلَالٌ وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ غَفُورٌ، وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾... الْآيَةَ، وَهَذَا لَفْظُ ابْنِ مَرْذُوبٍ، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَقَالَ الْحَاكِمُ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(٦). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَاتَتْ شَاةٌ لِسُودَةٍ بِنْتُ زَمْعَةَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَاتَتْ فَلَانَةٌ تَعْنِي الشَّاةَ، قَالَ: «فَلَوْ لَا أَخَذْتُمْ مَسْكَهَا؟» قَالَتْ: نَأْخُذُ مِنْكَ شَاةً قَدْ مَاتَتْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا

يَقُولُ تَعَالَى: وَحَرَّمْنَا عَلَى الْيَهُودِ كُلَّ ذِي ظُفْرٍ مِنَ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ^(٨) كَالْإِبِلِ وَالنَّعَامِ وَالْإِوَرِّ وَالْبُطِّ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَنِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي الثَّرْبَ وَشَحْمَ الْكُلَيْتَيْنِ، وَكَانَتِ الْيَهُودُ تَقُولُ: إِنَّهُ حَرَمَهُ إِسْرَائِيلُ فَتَحْنُ نَحْرَهُ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ طُهُورُهُمَا﴾ يَعْنِي مَا عَلِقَ بِالظَّهْرِ مِنَ الشُّحُومِ^(٩). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ الْخَوَاسِ﴾ قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ:

(١) فتح الباري: ١٣٢/٨ (٢) الطبري: ١٩٣/١٢ (٣) الحميدي: ٣٧٩/٢ (٤) فتح الباري: ٥٧٠/٩ وأبو داود: ٤/١٦٢ (٥) أبو داود: ٣٨٠٠ والحاكم: ١١٥/٤ (٦) أحمد: ٣٢٧/١ (٧) فتح الباري: ٥٧٧/١١ والنسائي: ١٧٣/٧ (٨) راجع تفسير سورة آل عمران الآية ٩٣ (٩) الطبري: ٢٠٢/١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤٨

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلَمْ شَهِدَ أَمْ أَنْتُمْ شَهِدَاءُ كُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُوا مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْكُمْ مَنْ مَلَاقِي نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَلَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

وَسِعَتْ وَهَذَا تَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي ابْتِغَاءِ رَحْمَةِ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ وَاتِّبَاعِ رَسُولِهِ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ تَرْهَبُ لَهُمْ مِنْ مُخَالَفَتِهِمُ الرُّسُولَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَكَثِيرًا مَا يَقْرَأُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ فِي الْقُرْآنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وَقَالَ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [الحجر: ٤٩، ٥٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾

- (١) الطبري: ٢٠٣/١٢ (٢) الطبري: ٢٠٤/١٢ (٣) الطبري: ٢٠٤/١٢ (٤) الطبري: ٢٠٥/١٢ (٥) الطبري: ٢٠٥/١٢ (٦) الطبري: ٢٠٦/١٢ (٧) فتح الباري: ٤٨٣/٤ و مسلم: ٣/١٢٠٧ (٨) فتح الباري: ٤٩٥/٤ (٩) فتح الباري: ٤٩٥/٤ و مسلم: ١٢٠٧/٣ وأبو داود: ٣٥٦/٣ وتحفة الأحوذى: ٥٢١/٤ والنسائي: ٣٠٩/٧ وابن ماجه: ٧٣٢/٢

الْحَوَايَا جَمْعٌ وَاحِدُهَا حَاوِيَاءٌ وَحَاوِيَةٌ وَحَوِيَّةٌ وَهُوَ مَا تَحْوِي مِنَ الْبَطْنِ فَاجْتَمَعَ وَاسْتَدَارَ، وَهِيَ بَنَاتُ اللَّبَنِ، وَهِيَ: الْمَبَاعِرُ وَتُسَمَّى الْمَرَابِضُ، وَفِيهَا الْأَمْعَاءُ. قَالَ: وَمَعْنَى الْكَلَامِ: وَمِنْ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ مَا حَمَلَتِ الْحَوَايَا. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَوِ الْحَوَايَا وَهِيَ الْمَبْعَرُ^(١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْحَوَايَا الْمَبْعَرُ وَالْمَرِيضُ^(٢). وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ^(٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ يَعْنِي إِلَّا مَا اخْتَلَطَ مِنَ الشُّحُومِ بِعَظْمٍ فَقَدْ أَخْلَلْنَاهُ لَهُمْ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: شَحْمُ الْأَلْيَةِ مَا اخْتَلَطَ بِالْعُضْعُصِ فَهُوَ حَلَالٌ وَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْقَوَائِمِ وَالْجَنْبِ وَالرَّأْسِ وَالْعَيْنِ وَمَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ فَهُوَ حَلَالٌ^(٤). وَنَحْوُهُ قَالَهُ السُّدِّيُّ^(٥). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِغَيْبٍ﴾ أَيْ هَذَا التَّضْيِيقُ إِنَّمَا فَعَلْنَاهُ بِهِمْ وَالزَّمْنَاهُمْ بِهِ مَجَازَةً عَلَى بَغْيِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَوْامِرَنَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَيُظْلَمُونَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِيعَتِ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠] وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أَيْ وَإِنَّا لَعَادِلُونَ فِيمَا جَازَيْنَاهُمْ بِهِ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ: وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فِيمَا أَخْبَرْنَاكَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ، مِنْ تَحْرِيمِنَا ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، لَا كَمَا زَعَمُوا مِنْ أَنَّ إِسْرَائِيلَ هُوَ الَّذِي حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ^(٦).

[حِيلَةُ الْيَهُودِ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ]

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: بَلَغَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ سَمُرَةَ بَاعَ خَمْرًا فَقَالَ: قَاتَلَ اللَّهُ سَمُرَةَ أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا فَبَاعُوهَا». أَخْرَجَاهُ^(٧). وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَامَ الْفَتْحِ: «إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِزِيرِ وَالْأَصْنَامِ» فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ، فَإِنَّهَا يَدْمَنُ بِهَا الْجُلُودُ، وَتُطْلَى بِهَا السُّفُنُ، وَيَسْتَصْبَحُ بِهَا النَّاسُ؟ فَقَالَ: «لَا، هُوَ حَرَامٌ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا جَمَلُوهَا ثُمَّ بَاعُوهَا وَآكَلُوهَا لَعْنَهُ»^(٨). وَرَوَاهُ الْجَمَاعَةُ^(٩).

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: فَإِنْ كَذَّبَكَ يَا مُحَمَّدُ مُخَالَفُوكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَمَنْ شَابَهُهُمْ، ﴿فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ

شَاءَ اللَّهُ لَجَمْعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ ﴿١٤٨﴾ [الأنعام: ٣٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٩٩] وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ خَلْقِي﴾ ﴿١٤٩﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿[هود: ١١٨، ١١٩] قَالَ الضَّحَّاكُ: لَا حُجَّةَ لِأَحَدٍ عَصَى اللَّهَ وَلَكِنَّ اللَّهَ الْحُجَّةَ الْبَالِغَةَ عَلَى عِبَادِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُكُمْ﴾ أَيُّ أَحْضَرُوا شُهَدَاءَكُمْ ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ أَيُّ هَذَا الَّذِي حَرَّمْتُمُوهُ وَكَذَّبْتُمْ وَافْتَرَيْتُمْ عَلَى اللَّهِ فِيهِ ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أَيُّ لَا تَنْتَبِهُوا إِنَّمَا يَشْهَدُونَ وَالْحَالَةُ هَذِهِ كَذِبًا وَزُورًا ﴿وَلَا تَنْتَبِهُ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أَيُّ يُشْرِكُونَ بِهِ وَيَجْعَلُونَ لَهُ عَدِيلًا.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ تَحْنُ زُرْفُكُمْ وَإِنَاجَهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَصَّيْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿[الْوَصَايَا الْعَشْرَةَ]

قَالَ دَاوُدُ الْأَوْدِيُّ عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ فَلْيَقْرَأْ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١). وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: فِي الْأَنْعَامِ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾... الْآيَاتِ، ثُمَّ قَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(٢).

وَرَوَى الْحَاكِمُ أَيْضًا فِي [مُسْتَدْرَكِهِ]، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيْكُمْ يَبَايِعُنِي عَلَى ثَلَاثٍ» ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حَتَّى فَرَعَ مِنَ الْآيَاتِ: «فَمَنْ وَفَى فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئًا فَأَذْرَكُهُ اللَّهُ بِهِ فِي الدُّنْيَا كَانَتْ عَقُوبَتُهُ، وَمَنْ أَخَّرَ إِلَى الْآخِرَةِ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ،

وَقَالَ: ﴿إِنْ بَطَلَ رَيْكَ لَسَدِيدٌ﴾ ﴿١٤٩﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَبَعْدُ ﴿١٥٠﴾ وَهُوَ الْقَوْرُ الْأَوْدِيُّ ﴿[البروج: ١٢-١٤] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَفْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْرَكْنَا وَلَا عَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَافُوا بِأَسْنَانِهِمْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ ﴿١٥١﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٥٢﴾ قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَنْتَبِهُ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١٥٣﴾

[ذِكْرُ مُغَالِطَةِ الرَّدِّ عَلَيْهَا]

هَذِهِ مُنَاطَرَةٌ ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَشُبْهَةٌ تَشَبَّهَتْ بِهَا الْمُشْرِكُونَ فِي شِرْكِهِمْ وَتَحْرِيمِ مَا حَرَّمُوا، فَإِنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّرْكِ وَالتَّحْرِيمِ لِمَا حَرَّمُوهُ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى تَغْيِيرِهِ بِأَنْ يُلْهِمَنَا الْإِيمَانَ، وَيَحُولَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْكُفْرِ، فَلَمْ يَغْيِرْهُ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ بِمَشِيتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَرِضَاهُ مِنَّا بِذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْرَكْنَا وَلَا عَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ﴾ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ الْآيَةُ [الزخرف: ٢٠]، وَكَذَلِكَ الْآيَةُ الَّتِي فِي النَّحْلِ مِثْلُ هَذِهِ سَوَاءً.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَيُّ بِهَذِهِ الشُّبْهَةِ ضَلَّ مَنْ ضَلَّ قَبْلَ هَؤُلَاءِ وَهِيَ حُجَّةٌ دَاجِضَةٌ بَاطِلَةٌ، لِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً لَمَا أَذَاقَهُمُ اللَّهُ بِأَسَنِهِ وَذَمَّرَ عَلَيْهِمْ وَأَذَالَ عَلَيْهِمْ رَسُولَهُ الْكَرَامَ، وَأَذَاقَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَلِيمِ الْإِنْتِقَامِ، ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ أَنِّي فَأُظْهِرُوهُ لَنَا وَتُبْهُنَّ أَفْرَكُهُمْ﴾ ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أَيُّ الْوَهْمِ وَالْخَيَالِ، وَالْمُرَادُ بِالظَّنِّ هَاهُنَا الْإِعْتِقَادُ الْفَاسِدُ ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تَخْرُصُونَ عَلَى اللَّهِ فِيمَا ادَّعَيْتُمُوهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ!﴾ ﴿فَلِلَّهِ﴾ أَيُّ لَهُ الْحُكْمَةُ النَّاتِمَةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فِي هِدَايَةِ مَنْ هَدَى وَإِضْلَالِ مَنْ ضَلَّ، ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فَكُلُّ ذَلِكَ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيتَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَرْضَى عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَيَبْغِضُ الْكَافِرِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ

(١) تحفة الأحوذى: ٤٤٦/٨ إسناده ضعيف فيه داود بن يزيد بن عبد الرحمن الأودي ضعفه أحمد وابن معين وأبو داود والدارقطني وغيرهم (٢) الحاكم: ٣١٧/٢

الْمَصِيرُ ﴿١٥١﴾ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبَعَ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثُمَّ إِنَّنِي إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [لقمان: ١٥، ١٤] فَأَمَرَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا - وَإِنْ كَانَ مُشْرِكِينَ - بِحَسْبِهِمَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَفَّيْهَا» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: حَدَّثَنِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَوْ اسْتَرْذَنَّهُ لَرَادَنِي^(٥).

[النهي عن قتل الأولاد]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ﴾ لَمَّا أَوْصَى تَعَالَى بِالْوَالِدَيْنِ وَالْأَجْدَادِ عَطَفَ عَلَى ذَلِكَ الْإِحْسَانِ إِلَى الْإِنْتَاءِ وَالْأَخْفَادِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتُلُونَ أَوْلَادَهُمْ كَمَا سَوَّلَتْ لَهُمُ الشَّيَاطِينُ ذَلِكَ، فَكَانُوا يَتَدَوَّنُ النَّبَاتُ خَشْيَةَ الْعَارِ، وَرُبَّمَا قَتَلُوا بَعْضَ الذُّكُورِ خَشْيَةَ الْإِفْتِقَارِ. وَلِهَذَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ» ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الآية [الفرقان: ٦٨]]^(٦). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: هُوَ الْفَقْرُ^(٧). أَيُّ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ مِنْ فَقْرِكُمْ الْحَاصِلِ. وَقَالَ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] أَيُّ لَا تَقْتُلُوهُمْ خَوْفًا مِنَ الْفَقْرِ فِي الْآجِلِ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَاكَ:

إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ ثُمَّ قَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(١).

وَأَمَّا تَفْسِيرُهَا فَيَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبْدُوا غَيْرَ اللَّهِ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَقَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ، وَكُلُّ ذَلِكَ فَعَلُوهُ بِأَرَائِهِمْ وَتَسْوِيلِ الشَّيَاطِينِ لَهُمْ، ﴿قُلْ لَهُمْ﴾ [تَعَالَوْا] أَيُّ هَلُمُّوا وَأَقْبَلُوا ﴿أَتَلَّ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أَيُّ أَفْضُ عَلَيْكُمْ وَأُخْبِرَكُمْ بِمَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا لَا تَخْرُصًا وَلَا ظَنًّا بَلْ وَحْيًا مِنْهُ وَأَمْرًا مِنْ عِنْدِهِ.

[النهي عن الشرك]

﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وَكَأَنَّ فِي الْكَلَامِ مَحْذُوفًا دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ، وَتَقْدِيرُهُ: وَأَوْصَاكُمْ ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وَلِهَذَا قَالَ فِي آخِرِ الْآيَةِ ﴿ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَانِي جَبْرِيلُ فَبَشَّرَنِي أَنَّهُ مِنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مِنْ أَمَلِكُ دَخَلَ الْجَنَّةَ». قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، وَإِنْ شَرِبَ الْخَمْرَ^(٢) وَفِي بَعْضِ الْمَسَانِيدِ وَالسُّنَنِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي فَأَنِي أَغْفِرُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أَبَالِي، وَلَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً أَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً مَا لَمْ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا، وَإِنْ أَخْطَأْتُ حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ»^(٣). وَلِهَذَا شَاهِدٌ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦] وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٤). وَالْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا.

[الأمْرُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أَيُّ وَأَوْصَاكُمْ وَأَمَرَكُمْ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا أَيُّ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وَفَرَأَ بَعْضُهُمْ: (وَوَصَّى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) أَيُّ أَحْسِنُوا إِلَيْهِمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يَقْرُنُ بَيْنَ طَاعَتِهِ وَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ كَمَا قَالَ: ﴿إِنْ أَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ

(١) الحاكم: ٣١٨/٢ (٢) البخاري: ١٢٣٧ ومسلم: ٩٤ (٣) أحمد: ١٧٢/٥ وتحفة الأحوذى: ٥٢٤/٩ عن أنس (٤) مسلم: ٩٤/١ (٥) فتح الباري: ١٢/٢ ومسلم: ٨٩/١ (٦) فتح الباري: ٣٥٠/٨ ومسلم: ٩١/١ (٧) الطبري: ٢١٧/١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤٩

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿تَحَنَّنْ رِزْقَهُمْ وَإِنَّكَ﴾ فَبَدَأَ بِرِزْقِهِمْ لِإِهْتِمَامِهِ بِهِمْ، أَيْ لَا تَخَافُوا مِنْ فَقْرِكُمْ بِسَبَبِ رِزْقِهِمْ فَهُوَ عَلَى اللَّهِ، وَأَمَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَلَمَّا كَانَ الْفَقْرُ حَاصِلًا قَالَ: ﴿تَحَنَّنْ رِزْقُكُمْ وَإِسَاءَهُمْ﴾ لِأَنَّهُ الْأَهَمُّ هَهُنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَرُوا ظِلَهِ الْأَيْتِمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»^(١). وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عَمِيرٍ عَنْ وَرَادٍ عَنْ مَوْلَاهُ الْمُعْبِرَةِ قَالَ: قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: لَوْ رَأَيْتُ مَعَ امْرَأَتِي رَجُلًا لَصَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُضَفِّحٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ فَوَاللَّهِ! لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْ سَعْدٍ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»^(٢). أَخْرَجَاهُ.

[النَّهْيُ عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ الْمُحَرَّمَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وَهَذَا مِمَّا نَصَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى النَّهْيِ عَنْهُ تَأَكِيدًا، وَإِلَّا فَهُوَ دَاخِلٌ فِي النَّهْيِ عَنِ الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، فَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَجِلُّ دَمُ امْرَأَةٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا بِأَخْذِي ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»^(٣).

وَقَدْ جَاءَ النَّهْيُ وَالرَّجْرُ وَالْوَعِيدُ فِي قَتْلِ الْمُعَاهِدِ وَهُوَ الْمُسْتَأْمَنُ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ، فَروى البخاري عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مَرْفُوعًا «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةُ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»^(٤). وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَهُ دِمَّةُ اللَّهِ وَدِمَّةُ رَسُولِهِ، فَقَدْ أَحْفَرَ بِدِمَّةِ اللَّهِ، فَلَا يَرَحْ رَائِحَةُ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ خَرِيفًا» رواه ابن ماجه وَالتِّرْمِذِيُّ،

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ. وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْيَتِيمَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٦﴾ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٧﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمٍ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ زَوْنُونَ ﴿١٥٨﴾ وَهَذَا الْكِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مِيسَرًا فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٩﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِينَ ﴿١٦٠﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٦١﴾

وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٥). وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ﴾ أَيْ هَذَا مِمَّا وَصَّاهُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ عَنِ اللَّهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْيَتِيمَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٥٦﴾

[تَحْرِيمُ أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ]

قَالَ عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وَ«إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا» الْآيَةَ [النساء: ١٠]، فَاذْهَبُوا مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلْ طَعَامَهُ

(١) فتح الباري: ١٤٦/٨ و مسلم: ٢١١٤/٤ قد تقدم هذا الحديث (٢) فتح الباري: ٤١١/١٣ و مسلم: ١١٣٦/٢ (٣) فتح الباري: ٢٠٩/١٢ و مسلم: ١٣٠٢/٣ (٤) فتح الباري: ٣٧٠/١٢ تحفة الأحوذى: ٦٥٨/٤ وابن ماجه: ٨٩٦/٢

[الْأَمْرُ بِاتِّبَاعِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَالنَّهْيِ عَنِ اتِّبَاعِ السَّبِيلِ الْأُخْرَى]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وفي قَوْلِهِ: ﴿أَنْ أَفْبَهُوا الَّذِينَ وَلَا تَنْفَرُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] وَنَحْوُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ، قَالَ: أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَمَاعَةِ وَنَهَاَهُمْ عَنِ الْإِخْتِلَافِ وَالتَّفَرُّقِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ بِالْمِرَاءِ وَالْخُصُومَاتِ فِي دِينِ اللَّهِ^(٤). وَنَحْوُ هَذَا. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(٥).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَبِيلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ: خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا» وَخَطَّ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ السَّبِيلُ لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(٦). وَكَذَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَقَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(٧).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَاللَّفْظُ لِأَحْمَدَ عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَخَطَّ خَطًّا هَكَذَا أَمَامَهُ فَقَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ» وَخَطَّ عَنْ يَمِينِهِ وَخَطَّ عَنْ شِمَالِهِ وَقَالَ: «هَذِهِ سَبِيلُ الشَّيْطَانِ» ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الْأَوْسَطِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٨) وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَةَ فِي كِتَابِ السُّنَنِ مِنْ سُنَنِهِ، وَالْبَرَاءُ^(٩). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِابْنِ مَسْعُودٍ مَا الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ؟ قَالَ: تَرَكْنَا مُحَمَّدًا ﷺ فِي أَذْنَاهُ وَطَرَفُهُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَنْ يَمِينِهِ جَوَادٌ وَعَنْ يَسَارِهِ جَوَادٌ، ثُمَّ رَجُلٌ يَدْعُونَ مَنْ مَرَّ بِهِمْ، فَمَنْ أَخَذَ فِي تِلْكَ الْجَوَادِ انْتَهَتْ بِهِ إِلَى النَّارِ، وَمَنْ أَخَذَ عَلَى الصِّرَاطِ انْتَهَتْ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ، ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾... الْآيَةَ^(١٠).

(١) أبو داود: ٢٩١/٣ (٢) الطبري: ٢٢٣/١٢ (٣) الطبري: ٢٢٥/١٢ (٤) الطبري: ٢٢٩/١٢ (٥) الطبري: ٢٢٩/١٢ (٦) أحمد: ٤٦٥/١ (٧) الحاكم: ٣١٨/٢ (٨) أحمد: ٣٩٧/٣ (٩) عبد بن حميد: ٣٤٥ (١٠) ابن ماجه: ١١ (١٠) الطبري: ١٢/٢٣٠ إسناده وإياه أبو عبد الله بن أبي عياش متروك.

مِنْ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ مِنْ شَرَابِهِ، فَجَعَلَ يُفْضِلُ الشَّيْءَ فَيَحْسَبُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ - وَيُقَسِّدُ - . فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ حَرٌُّ وَإِنْ تُخَاطَبُواهُمْ فَأَخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] قَالَ: فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِمْ وَشَرَابَهُمْ. بِشَرَابِهِمْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ^(١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُمْ﴾ قَالَ الشَّعْبِيُّ وَمَالِكٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: يَعْني حَتَّى يَحْتَلِمَ^(٢).

[الْأَمْرُ بِإِيفَاءِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى بِإِقَامَةِ الْعَدْلِ فِي الْأَخْذِ وَالْإِعْطَاءِ، كَمَا تَوَعَّدَ عَلَى تَرْكِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطْفِفِينَ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ^(١) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ^(٢) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ^(٣) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ^(٤) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْآلَمِينَ^(٥) [المطففين: ١-٦] وَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ كَانُوا يَنْحَسِبُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَكِلْ فَنَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أَيِ مَنْ اجْتَهَدَ فِي آدَاءِ الْحَقِّ وَأَخْذِهِ، فَإِنْ أَخْطَأَ بَعْدَ اسْتِفْرَاجِ وُسْعِهِ وَبَذَلَ جُهِدَهُ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ.

[الْأَمْرُ بِالشَّهَادَةِ الْعَادِلَةِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾... الْآيَةَ [المائدة: ٨]، وَكَذَا الَّتِي نَشَبَهَا فِي سُورَةِ النَّسَاءِ، يَأْمُرُ تَعَالَى بِالْعَدْلِ فِي الْفَعَالِ وَالْمَقَالِ عَلَى الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ لِكُلِّ أَحَدٍ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَفِي كُلِّ حَالٍ.

[الْأَمْرُ بِإِيفَاءِ عَهْدِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: يَقُولُ: وَبِوَصِيَّةِ اللَّهِ الَّتِي أَوْصَاكُمْ بِهَا فَأَوْفُوا، وَإِيفَاءُ ذَلِكَ أَنْ تُطِيعُوهُ فِيمَا أَمَرَكُمْ وَنَهَاَكُمْ وَتَعْمَلُوا بِكِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْوَفَاءُ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴿ذَلِكَكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: هَذَا أَوْصَاكُمْ بِهِ وَأَمَرَكُمْ بِهِ وَأَكَّدَ عَلَيْكُمْ فِيهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أَيِ تَتَعَطَّوْنَ وَتَنْتَهَوْنَ عَمَّا كُنْتُمْ فِيهِ قَبْلَ هَذَا^(٣).

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٤)

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَنْ جَنْبِي الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَدْعُو: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا ادْخُلُوا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيَحْكُ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهُ تَلَجَّهُ، فَالْصِّرَاطُ: الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفْتَحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»^(١). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ^(٢). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ» إِنَّمَا وَحَدَّ سَبِيلَهُ لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ، وَلِهَذَا جَمَعَ السَّبِيلَ لِتَفَرُّقِهَا وَتَشَعُّبِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [البقرة: ٢٥٧].

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ^(١٥٤) وَهَذَا كِتَابُهُ أَزَلَنَّهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ^(١٥٥)

[مَدْحُ التَّوْرَةِ وَالْقُرْآنِ]

لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ، سُبْحَانَهُ عَنِ الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ» عَظَفَ بِمَدْحِ التَّوْرَةِ وَرَسُولِهَا، فَقَالَ: «ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ» وَكَثِيرًا مَا يَبْرُنُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ ذِكْرِ الْقُرْآنِ وَالتَّوْرَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا نَاسَا عَرَبِيًّا» [الأحزاب: ١٢] وَقَوْلُهُ أَوَّلَ هَذِهِ السُّورَةِ «قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْزِيَ قَرَأَتِهِمْ تَبَدُّوهُمَا وَيُخَفِّفُونَ كَثِيرًا» الْآيَةُ [الأنعام: ٩١]، وَبَعْدَهَا «وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ» الْآيَةُ [الأنعام: ٩١، ٩٢].

وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَى مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ مَا أَوْفَى مُوسَى» قَالَ تَعَالَى: «أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَى مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كِفْرٍ» [القصص: ٤٨] وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْجِنِّ أَنَّهُمْ قَالُوا: «يَقُولُونَ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظَرُونَ^(١٥٨) إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَأَسْتَمْتَهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ^(١٥٩) مِنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ^(١٦٠) قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ^(١٦١) قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ^(١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أُبْعِثُ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ^(١٦٤) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقَافَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ^(١٦٥)

مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ... الْآيَةُ [الأحزاب: ٣٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا» أَيْ آتَيْنَاهُ الْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْهِ تَمَامًا كَامِلًا جَامِعًا، لِمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي شَرِيْعَتِهِ كَقَوْلِهِ: «وَكِتَابَنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ... الْآيَةُ [الأعراف: ١٤٥]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ» أَيْ جَزَاءً عَلَى إِحْسَانِهِ فِي الْعَمَلِ وَقِيَامِهِ بِأَوْامِرِنَا وَطَاعَتِنَا كَقَوْلِهِ: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ» [الرحمن: ٦٠] وَكَقَوْلِهِ: «وَإِذْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رِئُوسَهُ بِكَلِمَاتٍ فَاتَمَمَّتْ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا» [البقرة: ١٢٤] وَكَقَوْلِهِ: «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ» [السجدة: ٢٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً» فِيهِ (١) أحمد: ١٨٢/٤ (٢) تحفة الأحوذى: ١٥٢/٨ والنسائي في الكبرى: ٣٦١/٦

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ (١٥٨)

[تَهْدِيدٌ مِّنْ سَوَفَ بِإِيْمَانِهِ وَتَوْبَتِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِلْكَافِرِينَ بِهِ وَالْمُخَالِفِينَ لِرُسُلِهِ وَالْمُكَذِّبِينَ بآيَاتِهِ وَالصَّادِقِينَ عَنْ سَبِيلِهِ ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ وَذَلِكَ كَائِنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾ وَذَلِكَ قَبْلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَائِنْ مِنْ أَمَارَاتِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا حِينَ يَرَوْنَ شَيْئًا مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ. كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَأَاهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا» فَذَلِكَ حِينَ «لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ» (٤).

وَرَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالْذَّجَالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ» (٥). وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَعَنْدُهُ: «وَالْذَّخَانُ» (٦).

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَمْرِو بْنِ جُرَيْرٍ قَالَ: جَلَسَ ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَرْوَانَ بِالْمَدِينَةِ فَسَمِعُوهُ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنِ الْآيَاتِ يَقُولُ: إِنَّ أَوَّلَهَا الذَّجَالُ: قَالَ: فَانْصَرَفُوا إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فَحَدَّثُوهُ بِالَّذِي سَمِعُوهُ مِنْ مَرْوَانَ فِي الْآيَاتِ. فَقَالَ: لَمْ يَثْقُلْ مَرْوَانَ شَيْئًا، حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ ضُحَى، فَأَيُّهُمَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْأُخْرَى عَلَى أَثَرِهَا» ثُمَّ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ - وَكَانَ يَقْرَأُ الْكُتُبَ -: وَأَطْرُقُ أَوَّلَهَا خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَذَلِكَ أَنَّهَا كُلَّمَا غَرَبَتْ أَتَتْ تَحْتَ الْعَرْشِ وَسَجَدَتْ وَاسْتَأْذَنْتْ فِي الرُّجُوعِ، فَأُذِنَ لَهَا فِي الرُّجُوعِ حَتَّى إِذَا بَدَأَ اللَّهُ أَنْ تَطْلُعَ مِنْ مَغْرِبِهَا فَعَلَتْ كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ، أَتَتْ تَحْتَ الْعَرْشِ فَسَجَدَتْ وَاسْتَأْذَنْتْ فِي

مَدْحِ لِكِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٩) وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلَتْهُ مُبَارَكًا فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فِيهِ الدَّعْوَةُ إِلَى اتِّبَاعِ الْقُرْآنِ، يُرْغَبُ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ فِي كِتَابِهِ وَيَأْمُرُهُمْ بِتَذْكُرِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَوصَفَهُ بِالْبَرَكَةِ لِمَنِ اتَّبَعَهُ وَعَمِلَ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِأَنَّهُ حَبْلُ اللَّهِ الْمُتَيْنِ.

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ﴾ (١٦٠) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَعَجَرَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ (١٦١) [الْقُرْآنُ حُجَّةٌ لِلَّهِ عَلَى خَلْقِهِ]

قَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ: مَعْنَاهُ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ لِنَلَّا تَقُولُوا: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ يَعْنِي لِيَنْقَطِعَ عَذْرُكُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ يَمَّا قَدِمَتْ آيَاتُهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ﴾ الْآيَةُ [الْقَصَص: ٤٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ (١). قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى (٢). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ (٣). وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ﴾ أَيُّ وَمَا كُنَّا نَفْهَمُ مَا يَقُولُونَ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِلِسَانِنَا وَنَحْنُ فِي غَفْلَةٍ وَشُغْلٍ مَعَ ذَلِكَ عَمَّا هُمْ فِيهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ أَيُّ وَقَطَعْنَا تَعَلُّكُكُمْ أَنْ تَقُولُوا: لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فِيمَا أُوتُوهُ كَقَوْلِهِ ﴿وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لِيَنْجِبَهُمْ مِنْ جَاهِهِمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُوا أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ ... الْآيَةُ [فَاطِر: ٤٢]، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ يَقُولُ: فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ قُرْآنٌ عَظِيمٌ فِيهِ بَيَانٌ لِلْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَهُدًى لِمَا فِي الْقُلُوبِ وَرَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُ وَيَقْتَفُونَ مَا فِيهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أَيُّ لَمْ يَتَّبِعْ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَلَا اتَّبَعَ مَا أُرْسِلَ بِهِ وَلَا تَرَكَ غَيْرَهُ بَلْ صَدَفَ عَنْ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللَّهِ؛ أَيُّ صَرَفَ النَّاسَ وَصَدَّهُمْ عَنْ ذَلِكَ. قَالَهُ السُّدِّيُّ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ: ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾: أَعْرَضَ عَنْهَا.

(١) الطبري: ٢٣٩/١٢ (٢) الطبري: ٢٤٠/١٢ (٣) الطبري:

٢٤١/١٢ (٤) فتح الباري: ١٤٧/٨ (٥) الطبري: ٢٦٥/١٢

(٦) أحمد: ٤٤٥/٢

الرُّجُوع، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهَا شَيْءٌ ثُمَّ اسْتَأْذَنْتَ فِي الرُّجُوعِ، فَلَا يَرُدُّ عَلَيْهَا شَيْءٌ، حَتَّى إِذَا ذَهَبَ مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَذْهَبَ وَعَرَفْتَ أَنَّهُ إِذَا أُذِنَ لَهَا فِي الرُّجُوعِ لَمْ تَذْكُرِي الْمَشْرِقَ! قَالَتْ: رَبِّ مَا أَبْعَدَ الْمَشْرِقُ! مَنْ لِي بِالنَّاسِ؟ حَتَّى إِذَا صَارَ الْأَفُقُ كَأَنَّهُ طَوْقٌ اسْتَأْذَنْتَ فِي الرُّجُوعِ فَقِيلَ لَهَا: مِنْ مَكَانِكَ فَاطْلُعِي فَطَلَعَتْ عَلَى النَّاسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، ثُمَّ تَلَا عَبْدُ اللَّهِ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ (١) ... الْآيَةُ (٢). وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ فِي سُنَنِهِمَا (٣).

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ إِذَا أَنْشَأَ الْكَافِرُ إِيْمَانًا يَوْمَنِيذٍ لَا يَقْبَلُ مِنْهُ فَأَمَّا مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَبْلَ ذَلِكَ: فَإِنْ كَانَ مُضِلِّحًا فِي عَمَلِهِ فَهُوَ بِخَيْرٍ عَظِيمٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُضِلِّحًا فَأَحَدَتْ تَوْبَةً حَتَّى يَكُنَّ لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ تَوْبَتُهُ، كَمَا ذَكَرْتُ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثَ الْمُتَقَدِّمَةَ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ أَيْ وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا كَسْبُ عَمَلٍ صَالِحٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَامِلًا بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيَنْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لِلْكَافِرِينَ، وَوَعْدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ سَوَّفَ بِإِيْمَانِهِ وَتَوْبَتِهِ إِلَى وَقْتٍ لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا الْحُكْمُ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا لِاقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَظُهُورِ أَشْرَاطِهَا كَمَا قَالَ: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنْ هُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذَكَرْتَهُمْ﴾ [محمد: ١٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسًا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٤) فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا ... الْآيَةُ [غافر: ٨٤، ٨٥].

الرُّجُوع، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهَا شَيْءٌ ثُمَّ اسْتَأْذَنْتَ فِي الرُّجُوعِ، فَلَا يَرُدُّ عَلَيْهَا شَيْءٌ، حَتَّى إِذَا ذَهَبَ مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَذْهَبَ وَعَرَفْتَ أَنَّهُ إِذَا أُذِنَ لَهَا فِي الرُّجُوعِ لَمْ تَذْكُرِي الْمَشْرِقَ! قَالَتْ: رَبِّ مَا أَبْعَدَ الْمَشْرِقُ! مَنْ لِي بِالنَّاسِ؟ حَتَّى إِذَا صَارَ الْأَفُقُ كَأَنَّهُ طَوْقٌ اسْتَأْذَنْتَ فِي الرُّجُوعِ فَقِيلَ لَهَا: مِنْ مَكَانِكَ فَاطْلُعِي فَطَلَعَتْ عَلَى النَّاسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، ثُمَّ تَلَا عَبْدُ اللَّهِ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ (١) ... الْآيَةُ (٢). وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ فِي سُنَنِهِمَا (٣).

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ إِذَا أَنْشَأَ الْكَافِرُ إِيْمَانًا يَوْمَنِيذٍ لَا يَقْبَلُ مِنْهُ فَأَمَّا مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَبْلَ ذَلِكَ: فَإِنْ كَانَ مُضِلِّحًا فِي عَمَلِهِ فَهُوَ بِخَيْرٍ عَظِيمٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُضِلِّحًا فَأَحَدَتْ تَوْبَةً حَتَّى يَكُنَّ لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ تَوْبَتُهُ، كَمَا ذَكَرْتُ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثَ الْمُتَقَدِّمَةَ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ أَيْ وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا كَسْبُ عَمَلٍ صَالِحٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَامِلًا بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيَنْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لِلْكَافِرِينَ، وَوَعْدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ سَوَّفَ بِإِيْمَانِهِ وَتَوْبَتِهِ إِلَى وَقْتٍ لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا الْحُكْمُ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا لِاقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَظُهُورِ أَشْرَاطِهَا كَمَا قَالَ: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنْ هُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذَكَرْتَهُمْ﴾ [محمد: ١٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسًا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٤) فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا ... الْآيَةُ [غافر: ٨٤، ٨٥].

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ لِنَمَّا أَمَرْتَهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يَنْتَهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٥)

[ذَمُّ التَّفَرُّقَةِ]

قَالَ مُجَاهِدٌ وَتَقَادَرُ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى (٦). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اخْتَلَفُوا قَبْلَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَتَفَرَّقُوا، فَلَمَّا بَعَثَ مُحَمَّدٌ ﷺ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (٧) الْآيَةُ (٨). وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ فَارَقَ دِينَ اللَّهِ، وَكَانَ مُحَالِفًا لَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ رَسُولَهُ بِالْهَدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَشَرَعُهُ وَاحِدٌ لَا

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا أَمْلًا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٩)

[الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا]

وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مُفَصَّلَةٌ لِمَا أَجْمَلَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ مُطَابِقَةً لِهَذِهِ الْآيَةِ، كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَبِلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِيمَا يَرَوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «إِنَّ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ رَحِيمٌ، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ وَاحِدَةٌ، أَوْ يَمْحُوهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ» (١٠) وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ (١١).

وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ عَمِلَ حَسَنَةً فَلَهُ

(١) أحمد: ٢٠١/٢ (٢) مسلم: ٢٢٦٠/٤ وأبو داود: ٤٩٠/٤
(٣) الطبري: ٢٧٠، ٢٦٩/١٢ (٤) الطبري: ٢٦٩/١٢ وعائلته مشهورون بالضعف (٥) فتح الباري: ٥٥٠/٦ (٦) أحمد: ٢٧٩/١ (٧) فتح الباري: ١١/٣٣١ ومسلم: ١١٨/١ والنسائي في الكبرى: ٣٩٦/٤

﴿مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠] وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ١٧٨] وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ① شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ② وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لِمَنْ الصَّالِحِينَ ③ ثُمَّ أَوحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣] وَلَيْسَ يُلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ ﷺ أَمِيرًا بِاتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْحَنِيفِيَّةِ، أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَكْمَلَ مِنْهُ فِيهَا، لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَامَ بِهَا قِيَامًا عَظِيمًا وَأَكْمَلَتْ لَهُ إِكْمَالًا تَامًا لَمْ يَسْفُهْ أَحَدٌ إِلَى هَذَا الْكَمَالِ. وَلِهَذَا كَانَ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَسَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَصَاحِبَ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ الَّذِي يَرْغَبُ إِلَيْهِ الْخَلْقُ حَتَّى الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الْأَدْيَانِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؟ قَالَ: «الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ» ④.

[الْأَمْرُ بِاخْتِلَاصِ الْعِبَادَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يَأْمُرُهُ تَعَالَى أَنْ يُخْبِرَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ وَيَذْبُحُونَ لِغَيْرِ اسْمِهِ أَنَّهُ مُخَالِفٌ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ صَلَاتَهُ لِلَّهِ وَنُسُكَهُ عَلَى اسْمِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] أَيْ أَخْلِصْ لَهُ صَلَاتَكَ وَذَبْحَكَ؛ فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَيَذْبُحُونَ لَهَا، فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمُخَالَفَتِهِمْ وَالْانْحِرَافِ عَمَّا هُمْ فِيهِ وَالْإِقْبَالَ بِالْقَصْدِ وَالنِّيَّةِ وَالْعَزْمِ عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى، قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ الشُّكُّ: الدُّبُحُ فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ.

عَشْرَ أَثْنَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَنْ عَمِلَ سَبَّحَةً فَجَزَّأُهَا مِنْهَا أَوْ أَغْفِرُ، وَمَنْ عَمِلَ قُرَابَ الْأَرْضِ خَطِيئَةً ثُمَّ لَقِيَني لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا جَعَلْتُ لَهُ مِثْلَهَا مَغْفِرَةً، وَمَنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ شَيْئًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً ① وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ ②. وَاعْلَمْ أَنَّ تَارِكَ السَّبَّحَةِ الَّذِي لَا يَعْمَلُهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ تَارَةً يَتْرُكُهَا اللَّهُ فَهَذَا نُكِبَتْ لَهُ حَسَنَتُهُ عَلَى كُفِّهِ عَنْهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَهَذَا: عَمَلٌ وَبِئْسَ. وَلِهَذَا جَاءَ أَنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ حَسَنَةٌ كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ أَلْفَافِ الصَّحِيحِ: «فَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَائِي أَيْ مِنْ أَجْلِي» وَتَارَةً يَتْرُكُهَا نِسْيَانًا وَذُهُولًا عَنْهَا، فَهَذَا لَا لَهُ وَلَا عَلَيْهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَنْوِ خَيْرًا وَلَا فَعَلَ شَرًّا، وَتَارَةً يَتْرُكُهَا عَجْزًا وَكَسَلًا عَنْهَا بَعْدَ السَّعْيِ فِي أَسْبَابِهَا وَالتَّلَبُّسِ بِمَا يَقْرُبُ مِنْهَا، فَهَذَا بِمَنْزِلَةِ فَاعِلِهَا كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَفِيئِهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بِالْأَقَاتِلِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ» ③.

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْجُمُعَةُ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالِهَا﴾» ④. وَعَنْ أَبِي دَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ فَقَدْ صَامَ الدَّهْرَ كُلَّهُ» رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَهَذَا لَقِظُهُ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَزَادَ: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالِهَا﴾ الْيَوْمَ بِعَشْرَةِ أَيَّامٍ» ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ ⑤. وَالْأَحَادِيثُ وَالْأَثَارُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَفِيمَا ذَكَرَ كِفَايَةً إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَبِهِ الثِّقَةُ.

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ⑥ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑦ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ

الْمُسْلِمِينَ ⑧

[الْإِسْلَامُ هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ]

يَقُولُ تَعَالَى أَمِيرًا نَبِيَّهُ ﷺ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ أَنْ يُخْبِرَ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ: مِنَ الْهُدَايَةِ إِلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي لَا إِعْوجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ ﴿وَبِنَا قِيَمًا﴾ أَيْ قَائِمًا ثَابِتًا

(١) أحمد: ١٥٣/٥ (٢) مسلم: ٢٠٦٨/٤ (٣) البخاري:

٣١، ٦٨٧٥، ٧٠٨٣ (٤) الطبراني: ٢٩٨/٣ إسناده ضعيف فيه محمد بن إسماعيل بن عياش مع ضعفه لم يسمع من أبيه شيئا [الجرح والتعديل] رقم الترجمة ١٠٧٨ لكن يشهد له حديث أبي هريرة عند مسلم ٢٧، ٨٥٧/٢٦، وغيره بنحوه وليس فيه ذكر الآية.

(٥) أحمد: ١٤٦/٥ وتحفة الأحوذني: ٤٧٠/٣ والنسائي: ٤/

٢١٨ وابن ماجه: ٥٤٥/١ (٦) أحمد: ٢٣٦/١

وَأَمَّهَاتِ شَتَّى، فَالَّذِينَ وَاحِدٌ وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِنْ تَوَعَّتِ الشَّرَائِعُ الَّتِي هِيَ بِمَنْزِلَةِ الْأَمَّهَاتِ، كَمَا أَنَّ إِخْوَةَ الْأَخْيَافِ عَكْسُ هَذَا بَنُو الْأُمِّ الْوَاحِدَةِ مِنْ أَبَاءِ شَتَّى. وَالْإِخْوَةُ الْأَغْيَانُ الْأَشْقَاءُ مِنْ أَبٍ وَاحِدٍ وَأُمٍّ وَاحِدَةٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا كَبَّرَ اسْتَفْتَحَ ثُمَّ قَالَ: «وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ»^(١).

[دين جميع الأنبياء هو الإسلام]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ» قَالَ قَتَادَةُ: أَيُّ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ^(٢). وَهُوَ كَمَا قَالَ. فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ كُلُّهُمْ كَانَتْ دَعْوَتُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَصْلُهُ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَمَا قَالَ: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» [الأنبياء: ٢٥] وَقَدْ أَخْبَرَنَا تَعَالَى عَنْ نُوحٍ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: «فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُكُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» [يونس: ٧٢] وَقَالَ تَعَالَى: «وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِّي فَلَمْ يَرْجِعْهُ إِلَّا مِنْ سِفَةٍ نَفْسُهُ وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ» [٣٦] إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [٣٧] وَوَعَى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» [البقرة: ١٣٠-١٣٢] وَقَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ» [يوسف: ١٠١] وَقَالَ مُوسَى: «يَعْلَمُ إِنَّكُمْ عَامَنَّا بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ» [٨٩] فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [٩٥] وَنَحْنُ بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوَمِ الْكَافِرِينَ» [يونس: ٨٤-٨٦] وَقَالَ تَعَالَى: «إِنَّا أَرْسَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَهْدِيكُمْ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ»... [الأنبياء: ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: «وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» [المائدة: ١١١] فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ بَعَثَ رُسُلَهُ بِالْإِسْلَامِ، وَلَكِنَّهُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِيهِ بِحَسَبِ شَرَائِعِهِمُ الْخَاصَّةِ الَّتِي يَنْسَخُ بَعْضُهَا بَعْضًا، إِلَى أَنْ نَسَخْتُ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي لَا تُنْسَخُ أَبَدَ الْأَبَدِينَ، وَلَا تَرَالُ قَائِمَةٌ مَنْصُورَةٌ وَأَعْلَامُهَا مَنْصُورَةٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عِلَالٍ، وَبَيْنَنَا وَاجِدٌ»^(٣). فَإِنَّ أَوْلَادَ الْعِلَالِ هُمُ الْإِخْوَةُ مِنْ أَبٍ وَاحِدٍ

﴿قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِّي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِدُ وَازِدَةً وَزِدَ أَخْرَأْتُكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ مَهْجُوكُمْ فَبَيْتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ [١٦٤]

[الْأَمْرُ بِإِخْلَاصِ التَّوَكُّلِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ فِي إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ﴿أَغْنَى اللَّهُ عَنِّي رَبًّا﴾ أَيُّ أَطْلُبُ رَبًّا سِوَاهُ، ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُرَبِّبُنِي وَيَحْفَظُنِي وَيَكُلِّفُنِي وَيَذَبِّرُ أَمْرِي، أَيُّ لَا أَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ وَلَا أُتَيِّبُ إِلَّا إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ. فَبِى هَذِهِ الْآيَةِ الْأَمْرُ بِإِخْلَاصِ التَّوَكُّلِ، كَمَا تَضَمَّنَتْ الَّتِي قَبْلَهَا إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهَذَا الْمَعْنَى يَقْرَأُ بِالْآخِرِ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى مُرْشِدًا لِعِبَادِهِ أَنْ يَقُولُوا لَهُ: ﴿إِنَّاكَ نَعْبُدُ وَإِنَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ عَامِنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩] وَقَوْلِهِ:

(١) الحاكم: ٤٦٧/٢ إسناده ضعيف لضعف محمد بن إسحاق وجهالة حال أبي عياش المغامري المصري أنظر للتفصيل في الإرواء للالباني (١١٣٨) (٢) الطبري: ٢٨٥/١٢ (٣) فتح الباري: ٥٥٠/٦ (٤) أحمد: ١٠٢/١ (٥) مسلم: ٥٣٤/١

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي يَوْمِ عِيدِ التَّحْرِ بِكَبْشَيْنِ وَقَالَ حِينَ ذَبَحَهُمَا: «وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ»^(١).

[دين جميع الأنبياء هو الإسلام]

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ» قَالَ قَتَادَةُ: أَيُّ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ^(٢). وَهُوَ كَمَا قَالَ. فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ كُلُّهُمْ كَانَتْ دَعْوَتُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَصْلُهُ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَمَا قَالَ: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» [الأنبياء: ٢٥] وَقَدْ أَخْبَرَنَا تَعَالَى عَنْ نُوحٍ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: «فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُكُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» [يونس: ٧٢] وَقَالَ تَعَالَى: «وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِّي فَلَمْ يَرْجِعْهُ إِلَّا مِنْ سِفَةٍ نَفْسُهُ وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ» [٣٦] إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [٣٧] وَوَعَى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» [البقرة: ١٣٠-١٣٢] وَقَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ» [يوسف: ١٠١] وَقَالَ مُوسَى: «يَعْلَمُ إِنَّكُمْ عَامَنَّا بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ» [٨٩] فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [٩٥] وَنَحْنُ بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوَمِ الْكَافِرِينَ» [يونس: ٨٤-٨٦] وَقَالَ تَعَالَى: «إِنَّا أَرْسَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَهْدِيكُمْ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ»... [الأنبياء: ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: «وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» [المائدة: ١١١] فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ بَعَثَ رُسُلَهُ بِالْإِسْلَامِ، وَلَكِنَّهُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِيهِ بِحَسَبِ شَرَائِعِهِمُ الْخَاصَّةِ الَّتِي يَنْسَخُ بَعْضُهَا بَعْضًا، إِلَى أَنْ نَسَخْتُ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي لَا تُنْسَخُ أَبَدَ الْأَبَدِينَ، وَلَا تَرَالُ قَائِمَةٌ مَنْصُورَةٌ وَأَعْلَامُهَا مَنْصُورَةٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عِلَالٍ، وَبَيْنَنَا وَاجِدٌ»^(٣). فَإِنَّ أَوْلَادَ الْعِلَالِ هُمُ الْإِخْوَةُ مِنْ أَبٍ وَاحِدٍ

﴿رَبِّ الشَّرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]
وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

[لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكِثُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَىٰ وَزْنِ لِّهَا﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، إِنْجَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي جَزَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُكْمِهِ وَعَدْلِهِ، أَنَّ النَّفُوسَ إِنَّمَا تُجَازَى بِأَعْمَالِهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَأَنَّهُ لَا يُحْمَلُ مِنْ خَطِيئَةِ أَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ وَهَذَا مِنْ عَدْلِهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] قَالَ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ: أَيُّ فَلَا يُظْلَمُ بِأَنْ: يُحْمَلُ عَلَيْهِ سَيِّئَاتُ غَيْرِهِ. وَلَا يُهْضَمُ بِأَنْ: يُنْقَصَ مِنْ حَسَنَاتِهِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينًا﴾ (٢٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ [المدثر: ٣٨، ٣٩] مَعْنَاهُ كُلُّ نَفْسٍ مُّرْتَهَنَةٌ بِعَمَلِهَا السَّيِّئِ، إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فَإِنَّهُ قَدْ يَعُودُ بَرَكَهُ أَعْمَالُهُمُ الصَّالِحَةِ عَلَى دُرِّيَّاتِهِمْ وَقَرَابَاتِهِمْ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الطُّورِ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الآية: ٢١]، أَيُّ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ فِي الْجَنَّةِ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا قَدْ شَارَكُوهُمْ فِي الْأَعْمَالِ، بَلْ فِي أَصْلِ الْإِيمَانِ، ﴿وَمَا أَلْتْنَاهُمْ﴾ أَيُّ أَنْقَضْنَا أَوَّلِيكَ السَّادَةِ الرَّفْعَاءِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ شَيْئًا، حَتَّى سَاوَيْنَاهُمْ وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ أَنْقَضُ مِنْهُمْ مَنْزِلَةً، بَلْ رَفَعَهُمْ تَعَالَى إِلَىٰ مَنْزِلَةِ الْآبَاءِ بِرَحْمَةِ أَعْمَالِهِمْ بِفَضْلِهِ وَمِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أَيُّ مِنْ شَرٍّ، وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لَكُمْ رَيْكُ ثُمَّ كَرِهَتْ لَقِيَّتَكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ أَيُّ ائِمُّوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ عَلَى مَا نَحْنُ عَلَيْهِ فَسَتَعَرَّضُونَ وَنُعَرِّضُ عَلَيْهِ، وَنَبْنِئُ وَإِنَّا كُمْ بِأَعْمَالِنَا وَأَعْمَالِكُمْ وَمَا كُنَّا نَخْتَلِفُ فِيهِ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمُنَا وَلَا تَسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ﴾ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ [سبا: ٢٥، ٢٦].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٦)

[جَعَلَ اللَّهُ النَّاسَ خَلَائِفَ وَمُتَفَاتِيهِ الدَّرَجَاتِ لِيَبْلُوَهُمْ] يَقُولُ تَعَالَى ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ أَيُّ

جَعَلَكُمْ تَعْمُرُونَهَا جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَقَرْنَا بَعْدَ قَرْنٍ وَخَلَفَا بَعْدَ سَلَفٍ. قَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ لَكِئِكَ فِي الْأَرْضِ بَخِلُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢] وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وَقَوْلُهُ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عِذُّكُمْ وَنَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩] وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أَيُّ فَآوَتْ بَيْنَكُمْ فِي الْأَرْزَاقِ وَالْأَحْلَاقِ وَالْمَحَاسِنِ وَالْمَسَاسِيءِ وَالْمَنَاطِرِ وَالْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ، وَلَهُ الْحُكْمَةُ فِي ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نَحْنُ فَهَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا شُرَكَاءَ﴾ [الزخرف: ٣١] وَقَوْلُهُ: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَآخِرُهُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أَيُّ لِيَخْتَبِرَكُمْ فِي الَّذِي أُنْعِمَ بِهِ عَلَيْكُمْ وَامْتَحَنَكُمْ بِهِ، لِيَخْتَبِرَ الْغَنَى فِي غِنَاهُ وَيَسْأَلَهُ عَنْ شُكْرِهِ، وَالْفَقِيرَ فِي فَقْرِهِ وَيَسْأَلَهُ عَنْ صَبْرِهِ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَتَاطَرُ مَاذَا تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النَّسَاءِ» (١). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تَرْهيبٌ وَتَرْغِيبٌ: أَنَّ حِسَابَهُ وَعِقَابَهُ سَرِيعٌ، فَيَمْنُ عَصَاهُ وَخَالَفَ رُسُلَهُ ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لِمَنْ وَالَاهُ وَاتَّبَعَ رُسُلَهُ فِيمَا جَاؤُوا بِهِ مِنْ خَيْرٍ وَطَلَبَ. وَكَثِيرًا مَا يَقْرُنُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ بَيْنَ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ، كَقَوْلِهِ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦] وَقَوْلُهُ: ﴿بَيْنَ عِبَادَتِي أَيُّ أَنَا الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٢) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [الحجر: ٤٩، ٥٠] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ، فَتَارَةً يَدْعُو عِبَادَهُ إِلَيْهِ بِالرَّغْبَةِ وَصِفَةِ الْجَنَّةِ وَالتَّرْغِيبِ فِيمَا لَدَيْهِ، وَتَارَةً يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ بِالرَّهْبَةِ وَذِكْرِ النَّارِ وَأَنْكَالِهَا وَعَذَابِهَا وَالْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهَا، وَتَارَةً بِهِمَا لِيَنْجَعَ فِي كُلِّ بِحْسَبِهِ، جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْ أَطَاعِهِ فِيمَا أَمَرَ، وَتَرَكَ مَا عَنْهُ نَهَى وَرَجَرَ،

سُورَةُ الْأَعْرَافِ ١٥١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصِّ ① كَتَبْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ② أَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مِمَّا تَدْكُرُونَ ③ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ أَوْهَمَ فَأَبْلُوتُ ④ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ⑤ فَلَنَسْتَكَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَكَنَّ الْمُرْسَلِينَ ⑥ فَلَنَقْضِيَنَّهُمْ عَلَيْهُمْ يُعَلِّمُونَ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ⑦ وَأَلْوَزْنَا بِوَمَيْدِ الْحَقِّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑧ وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ⑨ فَلَقَدْ مَكَّتَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مِمَّا تَشْكُرُونَ ⑩ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ⑪

ظَالِمِينَ ⑤ فَلَنَسْتَكَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَكَنَّ الْمُرْسَلِينَ ⑥ فَلَنَقْضِيَنَّهُمْ عَلَيْهُمْ يُعَلِّمُونَ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ⑦ [أَحْوَالُ قُرَى أَهْلَكْتَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أَيُّ بِمُخَالَفَةِ رُسُلِنَا وَتَكْذِيبِهِمْ، فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ خِزْيُ الدُّنْيَا مُؤْضُولًا بِدَلِّ الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠] وَكَقَوْلِهِ: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِشَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِى مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَإِنَّكَ مَسْكُونُهُمْ لَمْ تَشْكُنْ مِنْ بَدْوِهِ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَعْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨] وَقَوْلُهُ: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ أَوْ هُمْ فَأَبْلُوتُ﴾ أَيُّ فَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ جَاءَهُ أَمْرُ اللَّهِ وَبَأْسُهُ وَنَقَمَتُهُ بَيِّنَاتٍ

وَصَدَقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ، إِنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ سَمِيعٌ الدُّعَاءِ جَوَادٌ كَرِيمٌ وَهَابٌ.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَطَعَ أَحَدٌ مِنَ الْجَنَّةِ، خَلَقَ اللَّهُ مِائَةَ رَحْمَةٍ فَوَضَعَ وَاحِدَةً بَيْنَ خَلْفِهِ يَتَرَا حُمُونَ بِهَا، وَعِنْدَ اللَّهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ» وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١). وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»^(٢). آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصِّ ① كَتَبْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ② أَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مِمَّا تَدْكُرُونَ ③ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِالْحُرُوفِ ﴿كَتَبْنَا إِلَيْكَ﴾ أَيُّ هَذَا كِتَابُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ أَيُّ مِنْ رَبِّكَ ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَتَقَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: شَكٌّ مِنْهُ^(٣). وَقِيلَ: لَا تَخْرُجْ بِهِ فِي إِبْلَاغِهِ وَالْإِنْذَارِ بِهِ ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوَّلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف: ٣٥] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِيُنْذِرَ بِهِ﴾ أَيُّ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِيُنْذِرَ بِهِ الْكَافِرِينَ ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخَاطَبًا لِلْعَالَمِ: ﴿أَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَيُّ اقْتَفُوا آثَارَ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي جَاءَكُمْ بِكِتَابٍ أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أَيُّ لَا تَخْرُجُوا عَمَّا جَاءَكُمْ بِهِ الرَّسُولُ إِلَى غَيْرِهِ، فَتَكُونُوا قَدْ عَدَلْتُمْ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ إِلَى حُكْمِ غَيْرِهِ ﴿قَلِيلًا مِمَّا تَدْكُرُونَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ تُلَاقُوا نَاسًا أَكْثَرَ مِنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الْآيَةُ [الأنعام: ١١٦] وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ أَوْ هُمْ فَأَبْلُوتُ ④ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ⑤﴾

(١) أحمد: ٣٣٤/٢ وتحفة الأحوذى: ٥٢٧/٩ ومسلم: ٤/٤
 ٢١٠٩ (٢) مسلم: ٤/٢١٠٧ (٣) الطبري: ١٢/٢٩٦

﴿الْحَقُّ﴾ أَي لَا يَظْلُمُ تَعَالَى أَحَدًا كَقَوْلِهِ ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ
الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ ثِقَلٌ
حَسَنٌ مِنْ خَرْدَلٍ أُنْثِيَ بِهَا وَكَفَى بِهَا حَسِيبًا﴾ [الأنبياء: ٤٧]
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا ذَرَفٌ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً
يُضْعِفُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦١﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ
رَاضِيَةٍ ﴿٦٢﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦٣﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٦٤﴾
وَمَا آذَنَكَ مَا هِيَ ﴿٦٥﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦-١١] وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿فَإِذَا فُجِعَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا
يَسْأَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾
[المؤمنون: ١٠١-١٠٣].

(فصل) وَالَّذِي يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قِيلَ:
الْأَعْمَالُ وَإِنْ كَانَتْ أَغْرَاضًا إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُهَا يَوْمَ
الْقِيَامَةِ أَجْسَامًا. قَالَ الْبَغَوِيُّ: يُرْوَى نَحْوُ هَذَا عَنِ ابْنِ
عَبَّاسٍ^(٣). كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ أَنَّ الْقَبْرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ
يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَابَتَانِ أَوْ فُرْقَانِ مِنْ
طَرَفِ صَوَافٍ^(٤). وَمِنْ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ قِصَّةُ الْقُرْآنِ وَأَنَّهُ
يَأْتِي صَاحِبَهُ فِي صُورَةٍ شَابٌّ شَاحِبُ اللَّوْنِ يَقُولُ: مَنْ
أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا الْقُرْآنُ الَّذِي أَشْهَرْتُ لَيْلَكَ وَأَطْمَأَنَّ
نَهَارَكَ^(٥). وَفِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ فِي قِصَّةِ سُؤَالِ الْقَبْرِ: «فَيَأْتِي
الْمُؤْمِنَ شَابٌّ حَسَنُ اللَّوْنِ طَيِّبُ الرَّيْحِ فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟
فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ»^(٦). وَذَكَرَ عَكْسَهُ فِي شَأْنِ
الْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ.

وَقِيلَ: يُورَنُ كِتَابُ الْأَعْمَالِ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ
الْبُطَاقَةِ فِي الرَّجُلِ الَّذِي يُؤْتَى بِهِ وَيُوضَعُ لَهُ فِي كَفِّهِ تِسْعَةٌ
وَتِسْعُونَ سِجْلًا كُلُّ سِجْلٍ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِتِلْكَ
الْبُطَاقَةِ فِيهَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَمَا هَذِهِ الْبُطَاقَةُ
مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ.
فَتُوضَعُ تِلْكَ الْبُطَاقَةُ فِي كَفِّهِ الْمِيزَانِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ وَثَقُلَتِ الْبُطَاقَةُ»^(٧) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ بِنَحْوِ
مِنْ هَذَا وَصَحَّحَهُ.

وَقِيلَ: يُورَنُ صَاحِبُ الْعَمَلِ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «يُؤْتَى

أَي لَيْلًا، أَوْ هُمْ قَائِلُونَ مِنَ الْقَائِلَةِ وَهِيَ الْإِسْتِرَاحَةُ وَسَطُ
النَّهَارِ، وَكِلَا الْوَقْتَيْنِ وَثُتْ غَفْلَةٌ وَلَهُوَ، كَمَا قَالَ: ﴿أَفَأَمِنْ
أَهْلَ الْفَرَجِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيْنَا وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٠﴾ أَوْ أَمِنْ أَهْلَ
الْفَرَجِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحَى وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧،
٩٨] وَقَالَ: ﴿أَفَأَمِنْ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخِفَّ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٠﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي
تَقْلِبِهِمْ مَتَا هُمْ يَمْتَعِرِينَ ﴿٩١﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّؤُوفُ
رَجِيبٌ﴾ [النحل: ٤٥-٤٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا
كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أَي فَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ عِنْدَ مَجِيءِ الْعَذَابِ، إِلَّا
أَنْ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ وَأَنَّهُمْ حَقِيقُونَ بِهَذَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿خَالِدِينَ﴾
[الأنبياء: ١١-١٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾... الْآيَةُ.
كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:
٦٥] وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ أَرْسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالَوَا لَا
عِلْمَ لَكَ إِنَّكَ أَنْتَ عِلْمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩] فَيَسْأَلُ اللَّهُ
الْأُمَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا أَجَابُوا رُسُلَهُ فِيمَا أُرْسِلَهُمْ بِهِ،
وَيَسْأَلُ الرُّسُلَ أَيْضًا عَنْ إِبْلَاحِ رِسَالَاتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ
أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ
الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ قَالَ: عَمَّا
بَلَّغُوا^(١).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَنَقْصَنَّ عَنْهُمْ بَعْلَهُمْ وَمَا كُنَّا
بَعْمَلُونَ﴾^(٢). يُوَضِّعُ الْكِتَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ^(٣). ﴿وَمَا كُنَّا بَعْمَلُونَ﴾ يَعْنِي أَنَّهُ تَعَالَى يُخَيِّرُ عِبَادَهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا قَالُوا وَبِمَا عَمِلُوا، مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ وَجَلِيلٍ
وَحَقِيرٍ، لِأَنَّهُ تَعَالَى الشَّهِيدُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ لَا يَغِيبُ عَنْهُ
شَيْءٌ، وَلَا يَغْفُلُ عَنْ شَيْءٍ، بَلْ هُوَ الْعَالِمُ بِخَائِنَةِ الْأَعْيُنِ
وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَرَقَةٍ إِلَّا لَا يَسْمَعُهَا وَلَا
حَبْرٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾
[الأنعام: ٥٩].

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾
وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا

يَظْلِمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

[بَيَانُ وَزْنِ الْأَعْمَالِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَالْوَزْنُ﴾ أَي لِلْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(١) الطبري: ٣٠٦/١٢ (٢) الطبري: ٣٠٨/١٢ (٣) البغوي:

١٤٩/٢ (٤) مسلم: ٥٥٣/١ (٥) ابن ماجه: ١٢٤٢/٢ (٦)

أحمد: ٢٨٧/٤ (٧) تحفة الأحوذى: ٣٩٥/٧

لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ نَسْرًا مِّن صَلَاحٍ مِّن حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٧٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ ﴿٧٩﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩] وَذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِيَدِهِ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ، وَصَوْرُهُ بَشَرًا سَوِيًّا، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ تَعْظِيمًا لِشَأْنِ الرَّبِّ تَعَالَى وَجَلَالِهِ، فَسَمِعُوا كُلُّهُمْ وَأَطَاعُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى إِبْلِيسَ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ آدَمَ وَإِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ بِالْجَمْعِ، لِأَنَّهُ أَبُو الْبَشَرِ، كَمَا يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿وَعَلَّمْنَاكُمُ الْعِلْمَ وَآزَلْنَاكُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ الَّتِي آلِهَتُهُمْ بِدُونِ اللَّهِ الْأُولَئِينَ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [البقرة: ٥٧] وَالْمُرَادُ أَبَاؤُهُمُ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ مُوسَى، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَى الْأَبَاءِ الَّذِينَ هُمْ أَصْلُ، صَارَ كَأَنَّهُ وَاقِعٌ عَلَى الْأَبْنَاءِ، وَهَذَا بِخِلَافِ قَوْلِهِ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [الأنبياء: ١٢]، فَإِنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ آدَمَ الْمَخْلُوقَ مِنَ السَّلَالَةِ - وَذَرِيَّتَهُ مَخْلُوقُونَ مِنْ نُطْفَةٍ - وَصَحَّ هَذَا لِأَنَّ الْمُرَادَ مِنْ: ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ الْجِنْسَ لَا مَعْنِيًّا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ عَلَىٰ أَنْ تَسْجُدَ لِمَنْ تَخْلَقُ مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتُمُ مِنْ طِينٍ﴾

طِينٍ ﴿٨٠﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا مَنَّكَ عَلَىٰ أَنْ تَسْجُدَ﴾ تَقْدِيرُهُ: مَا أَخْرَجَكَ وَأَلَزَمَكَ وَاضْطَرَّكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ... وَنَحْوُ هَذَا، قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَهَذَا الْقَوْلُ قَوِيٌّ حَسَنٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُ إِبْلِيسَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ مِنَ الْعُذْرِ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الذَّنْبِ، كَأَنَّهُ ائْتَمَعَ مِنَ الطَّاعَةِ لِأَنَّهُ لَا يُؤْمَرُ الْفَاضِلُ بِالسُّجُودِ لِلْمُفْضُولِ، - يَعْنِي لَعَنَهُ اللَّهُ - وَأَنَا خَيْرٌ مِنْهُ فَكَيْفَ تَأْمُرُنِي بِالسُّجُودِ لَهُ؟ ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُ بِأَنَّهُ خَلِقَ مِنْ نَارٍ، وَالنَّارُ أَشْرَفُ مِمَّا خَلَقَتْهُ مِنْهُ وَهُوَ الطِّينُ، فَنَظَرَ اللَّعِينُ إِلَى أَصْلِ الْعُنْصُرِ وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَى التَّشْرِيفِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَقَاسَ قِيَاسًا فَاسِيدًا فِي مُقَابَلَةِ نَصِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩] فَشَدَّ مِنْ بَيْنِ الْمَلَائِكَةِ لِتَرْكِ السُّجُودِ، فَلِهَذَا أَبْلَسَ مِنَ الرَّحْمَةِ أَيُّ: أَيْسَ مِنَ الرَّحْمَةِ. فَأَخْطَأَ - قَبَحَهُ اللَّهُ - فِي قِيَاسِهِ، وَدَعَا: أَنَّ النَّارَ أَشْرَفُ مِنَ الطِّينِ - أَيْضًا - فَإِنَّ الطِّينَ مِنْ شَأْنِهِ الرِّزَانَةُ وَالْحِلْمُ وَالْأَنَاءُ وَالتَّثَبُّتُ، وَالطِّينُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالرَّجُلِ السَّيِّئِ فَلَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] ﴿١﴾. وَفِي مَنَاقِبِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ دَقَّةِ سَاقِيهِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَهْمَا فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أُحُدٍ» ﴿٢﴾. وَقَدْ يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآثَارِ بِأَنَّ يَكُونَ ذَلِكَ كُلُّهُ صَحِيحًا، فَتَارَةً تُوزَنُ الْأَعْمَالُ، وَتَارَةً تُوزَنُ مَحَالُّهَا، وَتَارَةً يُوزَنُ فَاعِلُهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ﴿وَلَقَدْ كَفَرْنَا بِكُمْ فِي الْآدَمِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١١﴾

[سَائِرُ نِعَمِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ خُلِقَتْ لِلْإِنْسَانِ]

يَقُولُ تَعَالَى: مُمْتَنًّا عَلَى عِبِيدِهِ فِيمَا مَكَنَ لَهُمْ، مِنْ أَنَّهُ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْهَارًا، وَجَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مَنَازِلَ وَبُيُوتًا وَأَبَاحَ لَهُمْ مَنَافِعَهَا، وَسَخَّرَ لَهُمُ السَّحَابَ لِإِخْرَاجِ أَرْزَاقِهِمْ مِنْهَا، وَجَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مَعَاشٍ أَيْ مَكَاسِبَ وَأَسْبَابًا يَكْسِبُونَ بِهَا وَتَتَجَرَّوْنَ فِيهَا وَيَسْتَسْبِغُونَ أَنْوَاعَ الْأَسْنَابِ وَأَكْثَرُهُمْ مَعَ هَذَا قَلِيلُ الشُّكْرِ عَلَى ذَلِكَ كَقَوْلِهِ ﴿إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وَقَدْ قَرَأَ الْجَمِيعُ: ﴿مَعَاشٍ﴾ بِلَا هَمْزٍ إِلَّا عَبْدَ الرَّحْمَنِ ابْنُ هُرْمُزٍ الْأَعْرَجُ فَإِنَّهُ هَمَزَهَا. وَالصَّوَابُ الَّذِي عَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ بِلَا هَمْزٍ، لِأَنَّ مَعَاشَ جَمْعَ مَعِيشَةٍ، مِنْ عَاشَ يَعِيشُ عَيْشًا، وَمَعِيشَةٌ أَصْلُهَا: مَعِيشَةٌ، فَاسْتَقْبَلَتْ الْكُسْرُ عَلَى الْبَاءِ فَتَقِلَّتْ إِلَى الْعَيْنِ فَصَارَتْ مَعِيشَةً، فَلَمَّا جُمِعَتْ رَجَعَتْ الْحَرَكَةُ إِلَى الْبَاءِ لِزَوَالِ الْإِسْتِقْفَالِ فَقِيلَ: مَعَاشٍ وَوَزْنُهُ مَفَاعِلٌ، لِأَنَّ الْبَاءَ أَصْلِيَّةٌ فِي الْكَلِمَةِ بِخِلَافِ مَدَائِنَ وَصَحَائِفَ وَبَصَائِرَ، جَمْعُ مَدِيْنَةٍ وَصَحِيفَةٍ وَبَصِيرَةٍ مِنْ مَدَنٍ وَصَحْفٍ وَأَبْصَرَ، فَإِنَّ الْبَاءَ فِيهَا زَائِدَةٌ، وَلِهَذَا تُجْمَعُ عَلَى فَعَائِلَ وَتُهْمَزُ لِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ

فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿١٢﴾

[قِصَّةُ سُجُودِ الْمَلَائِكَةِ لِآدَمَ وَاسْتِكْبَارِ إِبْلِيسَ]

يُنَبِّهُ تَعَالَى بَنِي آدَمَ فِي هَذَا الْمَقَامِ عَلَى شَرَفِ أَبِيهِمْ آدَمَ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ عَدَاوَةَ عَدُوِّهِمْ إِبْلِيسَ، وَمَا هُوَ مُنْطَوٍ عَلَيْهِ مِنَ الْحَسَدِ لَهُمْ وَلَا يَبْهِيهِمْ آدَمَ، لِيَحْذَرُوهُ وَلَا يَتَّبِعُوا طَرِيقَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٥٢

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا سَجْدًا إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ
وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٣﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ
فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٤﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ
﴿١٥﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَ لَهُمْ
صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ
اخْرُجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ يَتَّبِعْ مِنْهُمْ لَا مَلَائِكَةً مِنْهُمْ مِنْكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَتَكَادَمُ أَسْكُنُ أَتَى وَرَزَوَجُكَ الْجَنَّةَ فَكَلَامًا مِنْ حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ
لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْمَهِمَا وَقَالَ
مَا نَهَىٰكُمْ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا
مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُ تَيْمَهُمَا طُفْقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا
عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾

الَّذِي أَبْعَدَنِي بِسَبَبِهِ - عَلَى ﴿صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أَيُّ طَرِيقِ
الْحَقِّ وَسَبِيلِ النَّجَاةِ، لِأَصِلْتُهُمْ عَنْهَا لِيَتَلَّابِعُوا يَعْذُوكَ وَلَا
يُوحِدُوكَ بِسَبَبِ إِضْلَالِكَ إِيَّايَ. قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿صِرَاطَكَ
الْمُسْتَقِيمَ﴾ بَغْيِي الْحَقِّ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَبْرَةَ بِنِ أَبِي
الْفُكَيْهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ
قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِطَرَفِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: أَسْلِمُ
وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ؟ قَالَ: فَعَصَاهُ وَأَسْلَمَ» - قَالَ: - قَعَدَ
لَهُ بِطَرِيقِ الْهَجْرَةِ فَقَالَ: أَتَهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟
وَأِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَالْفَرَسِ فِي الطَّوْلِ، فَعَصَاهُ وَهَاجَرَ. ثُمَّ
قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ وَهُوَ جِهَادُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَقَالَ:
تُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتَنْصَحُ الْمَرْأَةَ وَيُقَسِّمُ الْمَالَ؟ - قَالَ: - فَعَصَاهُ
وَجَاهَدَ - وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: - مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ
فَمَاتَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ قُتِلَ كَانَ

مَحَلُّ النَّبَاتِ وَالنَّمُوِّ وَالزِّيَادَةِ وَالْإِصْلَاحِ. وَالنَّارُ مِنْ شَأْنِهَا:
الْإِحْرَاقُ وَالطَّيْشُ وَالسَّرْعَةُ، وَلِهَذَا خَانَ إِبْلِيسُ غَضْرَهُ وَنَفَعَ
أَدَمَ غَضْرَهُ بِالرُّجُوعِ وَالْإِنَابَةِ وَالِاسْتِكَانَةِ وَالِانْقِيَادِ
وَالِاسْتِسْلَامِ لِأَمْرِ اللَّهِ وَالِاغْتِرَافِ وَطَلَبِ التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ.
وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ
إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وَصَفَ لَكُمْ» (١).
[أَوَّلُ مَنْ قَاسَ إِبْلِيسَ]

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الْحَسَنِ فِي قَوْلِهِ ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ
وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ قَالَ: قَاسَ إِبْلِيسُ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ قَاسَ (٢).
إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، وَرَوَى عَنِ ابْنِ سِيرِينَ، قَالَ: أَوَّلُ مَنْ قَاسَ
إِبْلِيسُ، وَمَا عُبِدَتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ إِلَّا بِالْمَقَاسِ (٣). إِسْنَادُ
صَحِيحٌ أَيْضًا.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ
الصَّاغِرِينَ﴾ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ
﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِإِبْلِيسَ بِأَمْرِ قَدَرِي كَوْنِي ﴿فَاهْبِطْ
مِنْهَا﴾ أَيُّ بَسَبِ عَصِيَانِكَ لِأَمْرِي وَخُرُوجِكَ عَنْ طَاعَتِي،
فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا، قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ:
الضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا إِلَى الْمَنْزِلَةِ
الَّتِي هُوَ فِيهَا فِي الْمَلَكُوتِ الْأَعْلَى ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ
الصَّاغِرِينَ﴾ أَيُّ الدَّلِيلِينَ الْحَقِيرِينَ، مُعَامَلَةٌ لَهُ بِتَقْيِضِ قَضَائِهِ
وَمُكَافَأَةٍ لِمَرَادِهِ بِضَدِّهِ.

فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَدْرَكَ اللَّعِينُ وَسَأَلَ النَّظَرَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ،
قَالَ: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ أَجَابَهُ
تَعَالَى إِلَى مَا سَأَلَ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْإِرَادَةِ
وَالْمُشِيئَةِ الَّتِي لَا تُخَالَفُ وَلَا تُمَانَعُ، وَلَا مُعَقَّبٌ لِحُكْمِهِ وَهُوَ
سَرِيعُ الْحِسَابِ.

﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ
بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ
شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا أَنْظَرَ إِبْلِيسَ ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾
وَاسْتَوْتَنَ إِبْلِيسَ بِذَلِكَ، أَخَذَ فِي الْمَعَانِدَةِ وَالتَّمَرُّدِ، فَقَالَ:
﴿فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أَيُّ كَمَا أُغْوِيَنِي،
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَمَا أَضَلَلْتَنِي (٤). وَقَالَ غَيْرُهُ: كَمَا
أَهْلَكْتَنِي. ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾ لِإِعَادِكَ - الَّذِينَ تَخْلُقُهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ هَذَا

(١) مسلم: ٢٢٩٤/٤ (٢) الطبري: ٣٢٨/١٢ (٣) الطبري:

٣٢٨/١٢ (٤) الطبري: ٣٣٢/١٢

الْعَيْبِ مِنَ الذَّمِّ. قَالَ: وَالْمَذْهُورُ: الْمُقْصِي، هُوَ الْمُتَعَدُّ الْمَطْرُودُ^(٧). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: مَا نَعْرِفُ الْمَذْهُومَ وَالْمَذْمُومَ إِلَّا وَاحِدًا^(٨). وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الثَّمِيمِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا﴾ قَالَ: مَقِيَّتًا^(٩). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: صَغِيرًا مَقِيَّتًا^(١٠). وَقَالَ السُّدِّيُّ: مَقِيَّتًا مَطْرُودًا^(١١). وَقَالَ قَتَادَةُ: لَعِينًا مَقِيَّتًا^(١٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَنُفِيًّا مَطْرُودًا^(١٣). وَقَالَ الرَّيِّعُ بْنُ أَنَسٍ: مَذْذُومًا مَنُفِيًّا وَالْمَذْهُورُ الْمَصْرُورُ^(١٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ يَمَلَكَ مِنْهُمْ لَأْمَلَانٌ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكَ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾^(١٥) وَاسْتَفْرَزَ مِنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْنِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا^(١٦) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا [الإسراء: ٦٣-٦٥].

﴿وَبَقَادُمْ اسْتَكْنَى أَنْتَ وَوَيْلَكَ الْجَنَّةُ فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ شِئْنَا وَلَا نَقْبَا هَذِهِ الشَّجَرَةُ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١٧) فَوَسَّسَ لَهَا الشَّيْطَانُ لِيُؤْذِيَ لَهَا مَا وَرَى عَنْهُمَا مِنْ سَوَاءٍ تَهْمَا وَقَالَ مَا نَهَنَّا رُبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَئِن أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ^(١٨) وَقَاسَمَهُمَا إِيَّيْ لَكُمْ لَيْنَ النَّصِيحَةِ^(١٩)

[مَكَرُ الشَّيْطَانِ مَعَ آدَمَ وَحَوَاءَ وَأَكْلُهُمَا مِنَ الشَّجَرَةِ] يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَبَاحَ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلِزَوْجَتِهِ حَوَاءَ الْجَنَّةَ أَنْ يَأْكُلَا مِنْهَا مِنْ جَمِيعِ ثِمَارِهَا إِلَّا شَجَرَةَ وَاحِدَةً. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ. فَعِنْدَ ذَلِكَ حَسَدَهُمَا الشَّيْطَانُ وَسَعَى فِي الْمَكْرِ وَالْوَسْوَسَةِ وَالْحَدِيدَةِ، لِيَسْلُبَهُمَا مَا هُمَا فِيهِ مِنَ النِّعَمَةِ وَاللِّبَاسِ الْحَسَنِ ﴿وَقَالَ﴾ كَذَبًا وَافْتِرَاءً: ﴿مَا نَهَنَّا رُبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَئِن﴾ أَي لِنَلَّا تَكُونَا مَلَكَئِن أَوْ خَالِدِينَ هَا هُنَا، وَلَوْ أَنَّكُمَا أَكَلْتُمَا مِنْهَا لَحَصَلْ لَكُمْ

حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرَقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ^(٢٠). وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الْآيَةُ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أَشْكَكُهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أَرْغَبُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ ﴿وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ﴾ أَشَبَّهُ عَلَيْهِمْ أَمْرَ دِينِهِمْ ﴿وَعَنْ شَمَالِهِمْ﴾ أَشْهَى لَهُمُ الْمَعَاصِي^(٢١).

وَالْمُرَادُ جَمِيعُ طُرُقِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، فَالْخَيْرُ يَصُدُّهُمْ عَنْهُ وَالشَّرُّ يَحْبِيهِ لَهُمْ. وَقَالَ الْحَكَمُ بْنُ أَبَانَ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَالِهِمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: مِنْ فَوْقِهِمْ، لِأَنَّ الرَّحْمَةَ تَنْزِلُ مِنْ فَوْقِهِمْ^(٢٢). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شُكْرًا قَالَ: مُوحِّدِينَ^(٢٣). وَقَوْلُ إِبْلِيسَ هَذَا إِنَّمَا هُوَ ظَنٌّ مِنْهُ وَتَوَهُّمٌ، وَقَدْ وَافَقَ فِي هَذَا الْوَاقِعِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢٤) وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِيَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّي بِالْآخِرَةِ وَمَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ [سبأ: ٢٠، ٢١] وَلِهَذَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْإِسْتِعَاذَةُ مِنْ تَسَلُّطِ الشَّيْطَانِ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ جِهَاتِهِ كُلِّهَا.

كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمَسِّي: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي. اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي. اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي» قَالَ وَكَيْعٌ: مِنْ تَحْتِي يَعْنِي الْخَسْفَ^(٢٥). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ وَابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ^(٢٦). وَقَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ.

﴿قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا لَنْ يَمَلَكَ مِنْهُمْ لَأْمَلَانٌ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

أَجْمَعِينَ

أَكَّدَ تَعَالَى عَلَيْهِمُ اللَّعْنَةَ وَالطَّرْدَ وَالْإِبْعَادَ وَالنَّفْيَ عَنْ مَحَلِّ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، بِقَوْلِهِ: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَمَّا الْمَذْمُومُ فَهُوَ الْمَعِيبُ، وَالذَّامُ - غَيْرُ مُشَدَّدٍ - الْعَيْبُ. يُقَالُ: دَامَهُ يَذْمُهُ دَامًا فَهُوَ مَذْمُومٌ. وَتَرَكُونِ الْهَمَزَةَ فَيَقُولُونَ: ذِمَّتُهُ أَذِيْمُهُ ذِيْمًا وَدَامًا، وَالذَّامُ وَالذِّمُّ أُبْلَغَ فِي

(١) أحمد: ٤٨٣/٣ (٢) الطبري: ٣٣٨/١٢ (٣) الطبري:

٣٤١/١٢ (٤) الطبري: ٣٤٢/١٢ (٥) أحمد: ٢٥/٢ (٦)

أبو داود: ٣١٥/٥ والنسائي: ٢٨٢/٨ وابن ماجه: ١٢٧٣/٢

وابن حبان: ١٥٥/٢ والحاكم: ٥١٧/١ (٧) الطبري: ١٢/

٣٤٢ (٨) الطبري: ٣٤٤/١٢ (٩) الطبري: ٣٤٤/١٢ إسناده

ضعيف فيه أبو إسحاق السبيعي مدلس ولم يصرح بالسماع (١٠)

الطبري: ٣٤٣/١٢ (١١) الطبري: ٣٤٣/١٢ (١٢) الطبري:

٣٤٣/١٢ (١٣) الطبري: ٣٤٣/١٢ (١٤) الطبري: ٣٤٤/١٢

ذَلِكُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ يَتَكَاذِبُ هَلْ أَتَاكَ عَلَى شَجَرَةِ الْغُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلُ﴾ [طه: ١٢٠] كَقَوْلِهِ: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [المائدة: ١٧٦] أَيْ لِئَلَّا تَضِلُّوا ﴿وَأَلَّن فِي الْأَرْضِ رَوْسَكَ أَنْ يَبْدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] أَيْ لِئَلَّا تَمِيدَ بِكُمْ ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أَيْ حَلَفَ لَهُمَا بِاللَّهِ ﴿إِنِّي لَكُمَا لَيِّنُ النَّصِيحَةِ﴾ فَإِنِّي مِنْ قَبْلِكُمَا هَاهُنَا وَأَعْلَمُ بِهَذَا الْمَكَانِ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الْمُفَاعَلَةِ، وَالْمُرَادُ أَحَدَ الطَّرَفَيْنِ. أَيْ حَلَفَ لَهُمَا بِاللَّهِ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى خَدَعَهُمَا وَقَدْ يُخَدَعُ الْمُؤْمِنُ بِاللَّهِ. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي الْآيَةِ: حَلَفَ بِاللَّهِ: إِنِّي خُلِفْتُ قَبْلَكُمْ وَأَنَا أَعْلَمُ مِنْكُمَا فَاتَّبِعَانِي أَرْضِدْكُمْ.

﴿قَدْ لَبَّيْهُمَا بِرُؤُوسِهِمَا فَلَمَّا ذَاكَ الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ٢٢ ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّارْتِفَاعَ لَنَا وَتَرَحَّمْنَا لَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ٢٣

عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ آدَمُ رَجُلًا طَوَالًا كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ، كَثِيرُ شَعْرِ الرَّأْسِ، فَلَمَّا وَقَعَ فِيهَا وَقَعَ بِهِ مِنَ الْخَطِيئَةِ، بَدَتْ لَهُ عَوْرَتُهُ عِنْدَ ذَلِكَ وَكَانَ لَا يَرَاهَا، فَانْطَلَقَ هَارِبًا فِي الْجَنَّةِ فَتَعَلَّقَتْ بِرَأْسِهِ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهَا: أَرْسِلِينِي. فَقَالَتْ: إِنِّي غَيْرُ مُرْسِلَتِكَ. فَنَادَاهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا آدَمُ أَمِنِّي تَقَرُّ؟ قَالَ: يَارَبِّ! إِنِّي اسْتَحْيَيْتُكَ^(١). وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طُرُقٍ، عَنِ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مَرْفُوعًا^(٢). وَالْمَوْقُوفُ أَصَحُّ إِسْنَادًا.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قَالَ: وَرَقُ التَّيْنِ^(٣). صَحِيحٌ إِلَيْهِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: جَعَلَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ، قَالَ: كَهَيْئَةِ النَّوْبِ^(٤).

وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنْبِيٍّ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ قَالَ: كَانَ لِبَاسُ آدَمَ وَحَوَّاءَ نُورًا عَلَى فُرُوجِهِمَا لَا يَرَى هَذَا عَوْرَةَ هَذِهِ وَلَا هَذِهِ عَوْرَةَ هَذَا، فَلَمَّا أَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا^(٥). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ إِلَيْهِ. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: قَالَ آدَمُ: أَيْ رَبِّ! أَرَأَيْتَ إِنْ ثُبْتُ وَاسْتَفْرْتُ، قَالَ: إِذَا أَذْخَلْتُكَ الْجَنَّةَ. وَأَمَّا إِبْلِيسُ فَلَمْ يَسْأَلْهُ التَّوْبَةَ وَسَأَلَهُ النَّظْرَةَ، فَأَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الَّذِي سَأَلَهُ^(٦). وَقَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مُرَاجِمٍ فِي قَوْلِهِ ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّارْتِفَاعَ لَنَا وَتَرَحَّمْنَا لَنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ هِيَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي تَلَفَّاهَا آدَمُ مِنْ رَبِّهِ^(٧).

﴿قَالَ أَهَيُّطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنٌ إِلَى حِينٍ﴾ ٢٤ ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ ٢٥ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٢٦ ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنِ اتَّبَعْتُ لَأُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَأَقْسِمُ بِالْقُسْطِ وَاقِمْوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ ٢٧ ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ٢٨

قِيلَ: الْمُرَادُ بِالْخِطَابِ فِي ﴿أَهَيُّطُوا﴾ آدَمُ وَحَوَّاءُ وَإِبْلِيسُ وَالْحَيَّةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَذْكُرِ الْحَيَّةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالْعُمْدَةُ فِي الْعِدَاوَةِ آدَمُ وَإِبْلِيسُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ طه قَالَ: ﴿أَهَيُّطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾... الْآيَةُ. وَحَوَّاءُ تَبَعَ لِآدَمَ، وَالْحَيَّةُ - إِنْ كَانَ ذِكْرُهَا صَحِيحًا - فَهِيَ تَبَعَ لِإِبْلِيسَ، وَقَدْ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ الْأَمَّاكِينَ الَّتِي هَبَطَ فِيهَا كُلُّ مِنْهُمْ، وَبَرَجُ حَاصِلُ تِلْكَ الْأَخْبَارِ إِلَى الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصَحَّتِهَا، وَلَوْ كَانَ فِي تَعْيِينِ تِلْكَ الْبِقَاعِ فَائِدَةٌ تَعُودُ عَلَى الْمُكَلِّفِينَ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ أَوْ دُنْيَاهُمْ لَذَكَرَهَا اللَّهُ

(١) الطبري: ٣٥٤/١٢ (٢) الطبري: ٣٥٢/١٢ (٣) الطبري:

(٤) الطبري: ٣٥٣/١٢ (٥) الطبري: ٣٥٥/١٢

(٦) عبد الرزاق: ٢٢٦/٢ (٧) الطبري: ٣٥٧/١٢

وَأَدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الْإِيْنُ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٦﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ
وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن
دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٧﴾

[عَمَلُ الْكُفَّارِ الْفَاحِشَةِ وَنَسْبَتُهَا إِلَى اللَّهِ]

قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاءَ.
يَقُولُونَ: نَطُوفُ كَمَا وَلَدْنَا أُمَّهَاتِنَا، فَتَضَعُ الْمَرْأَةُ عَلَى
فَرْجِهَا الشَّعَةَ أَوْ الشَّيْءَ وَتَقُولُ:
الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ
وَمَا بَدَأَ مِنْهُ فَلَا أَحِلُّهُ^(٣)

فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ
أَمْرًا بِهَا﴾... الْآيَةُ، قُلْتُ: كَانَتِ الْعَرَبُ مَا عَدَا قُرَيْشًا لَا
يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ فِي ثِيَابِهِمُ الَّتِي لِبِسُوهَا، يَتَأَوَّلُونَ فِي ذَلِكَ:
أَنَّهُمْ لَا يَطُوفُونَ فِي ثِيَابِ عَصَا اللَّهِ فِيهَا، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ -
وَهُمُ الْحُمْسُ - يَطُوفُونَ فِي ثِيَابِهِمْ، وَمَنْ أَعَارَهُ أَحْمَسِيٌّ
ثَوْبًا طَافَ فِيهِ، وَمَنْ مَعَهُ ثَوْبٌ جَدِيدٌ طَافَ فِيهِ ثُمَّ يَلْقِيهِ فَلَا
يَتَمَلَّكُهُ أَحَدٌ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ ثَوْبًا جَدِيدًا، وَلَا أَعَارَهُ أَحْمَسِيٌّ
ثَوْبًا طَافَ عُرْيَانًا، وَرُبَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ فَتَطُوفُ عُرْيَانَةً
فَتَجْعَلُ عَلَى فَرْجِهَا شَيْئًا لِيَسْتُرَهُ بَعْضُ الشَّرِّ فَتَقُولُ:
الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ

وَمَا بَدَأَ مِنْهُ فَلَا أَحِلُّهُ
وَأَكْثَرُ مَا كَانَ النِّسَاءُ يَطْفَنَ عُرَاءَ بِاللَّيْلِ، وَكَانَ هَذَا
شَيْئًا قَدْ ابْتَدَعُوهُ مِنْ تَلَقَّاءِ أَنْفُسِهِمْ وَاتَّبَعُوا فِيهِ آبَاءَهُمْ،
وَيَتَقَبَّلُونَ أَنْ فَعَلَ آبَاؤُهُمْ مُسْتَنَدٌ إِلَى أَمْرِ مِنَ اللَّهِ وَشَرَعٍ،
فَانْتَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً
قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمْرًا بِهَا﴾

[إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، بَلْ بِالْقِسْطِ وَالْإِحْلَاصِ]
فَقَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿قُلْ﴾ أَيُّ يَا مُحَمَّدُ لِمَنْ أَدْعَى
ذَلِكَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أَيُّ هَذَا الَّذِي تَصْنَعُونَهُ
فَاحِشَةً مُتَكَرِّرَةً، وَاللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِمِثْلِ ذَلِكَ ﴿أَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا
لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ أَتُسَبِّحُونَ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْأَقْوَالِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ صِحَّتَهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أَيُّ
بِالْعَدْلِ وَالِاسْتِقَامَةِ ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ
وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الْإِيْنُ﴾ أَيُّ أَمَرَكُمْ بِالِاسْتِقَامَةِ فِي عِبَادَتِهِ
فِي مَحَالِّهَا وَهِيَ مُتَابَعَةُ الْمُرْسَلِينَ الْمُؤَيَّدِينَ بِالْمُعْجَزَاتِ،

(١) الطبري: ٣٦٤/١٢ (٢) الطبري: ٣٦٨/١٢ (٣) الطبري:

تَعَالَى فِي كِتَابِهِ، أَوْ رَسُولُهُ ﷺ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكُمُ فِي الْأَرْضِ
مُسْتَفَرٌّ وَمَتَّعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦] أَيُّ قَرَارٌ، وَأَعْمَارٌ
مَضْرُوبَةٌ إِلَى أَجَالٍ مَعْلُومَةٍ، قَدْ جَرَى بِهَا الْقَلَمُ وَأَخْصَاهَا
الْقَدَرُ، وَسَطُرَتْ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ. وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ فِيهَا
تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥] كَقَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾
[طه: ٥٥] يُخْبِرُ تَعَالَى: أَنَّهُ جَعَلَ الْأَرْضَ دَارًا لِبَنِي آدَمَ مُدَّةَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فِيهَا مَحْيَاهُمْ وَفِيهَا مَمَاتُهُمْ، وَقُبُورُهُمْ وَمِنْهَا
نُشُورُهُمْ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، الَّذِي يَجْمَعُ اللَّهُ فِيهِ الْأَوَّلِينَ
وَالْآخِرِينَ، وَبِحَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ.

﴿يَبْقَى آدَمُ قَدْ أُرْنَاكَ عَلَيْكَ لِبَاسًا يَوْمَ سَوَّيْنَاكَ وَرَبَّنَا وَلِبَاسُ
الْقَوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٨﴾

[إِنْزَالُ اللَّبَاسِ وَالزَّيْنَةِ]

يَمْتَرُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ بِمَا جَعَلَ لَهُمْ مِنَ اللَّبَاسِ
وَالرَّيْشِ، فَاللَّبَاسُ الْمَذْكُورُ هَهُنَا لِسِتْرِ الْعَوْرَاتِ وَهِيَ
السُّوَاتُ، وَالرِّيَاشُ وَالرَّيْشُ مَا يَتَجَمَّلُ بِهِ ظَاهِرًا، فَالْأَوَّلُ
مِنَ الصَّرُورِيَّاتِ وَالرَّيْشُ مِنَ التَّكْمِلَاتِ وَالزَّيَادَاتِ. قَالَ
ابْنُ جَرِيرٍ: أَلرِّيَاشُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْأَثَاثُ وَمَا ظَهَرَ مِنَ
الْبَيْتِ^(١).

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿وَلِبَاسُ الْقَوَى﴾
يَبْقَى اللَّهُ فَيُورِي عَوْرَتَهُ فَذَلِكَ لِبَاسُ الْقَوَى^(٢).

﴿يَبْقَى آدَمُ لَا يَفْنَىكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ
الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَهُمَا إِنَّهُمْ فِي بَرْصَةٍ
هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ
لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٩﴾

[التَّحْذِيرُ مِنْ فِتْنَةِ الشَّيْطَانِ]

يُحَذِّرُ تَعَالَى بَنِي آدَمَ مِنْ إِبْلِيسَ وَقَبِيلِهِ، مُبَيِّنًا لَهُمْ
عِدَاوَتَهُ الْقَدِيمَةَ لِأَبِي الْبَشَرِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي سَعْيِهِ
فِي إِخْرَاجِهِ مِنَ الْجَنَّةِ الَّتِي هِيَ دَارُ النِّعَمِ إِلَى دَارِ التَّعَبِ
وَالْعَنَاءِ، وَالتَّسَبُّبِ فِي هَتَاكَ عَوْرَتِهِ بَعْدَ مَا كَانَتْ مُسْتَوْرَةً
عَنْهُ، وَمَا هَذَا إِلَّا عَنْ عِدَاوَةٍ أَكِيدَةٍ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿أَفَنَسِيخُهُنَّ وَذُرِّيَّاتُهُنَّ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ
لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمْرًا بِهَا قُلْ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٠﴾
قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُفَاءً، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ»^(١).
 الْحَدِيثُ. وَوَجْهَ الْجَمْعِ عَلَى هَذَا: أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَهُمْ لِيَكُونَ مِنْهُمْ مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ فِي ثَانِي الْحَالِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ فَطَرَ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ وَتَوْحِيدِهِ وَالْعِلْمِ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، كَمَا أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ بِذَلِكَ وَجَعَلَهُ فِي غَرَائِزِهِمْ وَفَطَرِهِمْ وَمَعَ هَذَا قَدَّرَ أَنَّ مِنْهُمْ شَقِيًّا وَمِنْهُمْ سَعِيدًا «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كُفْرًا وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ» [التغابن: ٢] وَفِي الْحَدِيثِ: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَاتَعَ نَفْسَهُ فَمَعَّتْهَا أَوْ مُوَبِّهًا»^(٢). وَقَدَّرَ اللَّهُ نَافِذَ فِي بَرِيَّتِهِ، فَإِنَّهُ هُوَ «الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى» [الأعلى: ٣] وَ«الَّذِي أَتَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» [طه: ٥٠] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»^(٣). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ» ثُمَّ عَلَّلَ ذَلِكَ فَقَالَ: «إِنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي الْآيَاتِ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ»^(٤) الْآيَةِ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا مِنْ أَبْيَنِ الدَّلَالَةِ عَلَى خَطَا مَنْ زَعَمَ: أَنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا عَلَى مَعْصِيَةِ رَكِبَهَا أَوْ ضَلَالَةٍ إِعْتَقَدَهَا، إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهَا بَعْدَ عِلْمٍ مِنْهُ بِضَوَابٍ وَجْهًا، فَيَرَكِبَهَا عِنَادًا مِنْهُ لِرَبِّهِ فِيهَا.

لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ فَرِيقِ الضَّلَالَةِ - الَّذِي ضَلَّ وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ هَادٍ - وَفَرِيقِ الْهُدَى، فَرْقٌ. وَقَدْ فَرَّقَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ أَسْمَائِهِمَا وَأَحْكَامِهِمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ^(٥).

«يَبْنِي عَادَمٌ خُدُودَ زَيْنَتِكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا

سُرُوقًا إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسْرِفِينَ»^(٦)

[الْأَمْرُ بِالتَّجَمُّلِ عِنْدَ الدَّهَابِ إِلَى الْمَسَاجِدِ]

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ رَدٌّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِيمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ، مِنَ الطَّوَافِ بِالْبَيْتِ غُرَاةً كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتَّسَائِيَّ وَابْنَ جَرِيرٍ - وَاللَّفْظُ لَهُ - مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ عَنْ

(١) الطبري: ٣٨٥/١٢ (٢) الطبري: ٣٨٥/١٢ (٣) الطبري: ٣٨٦/١٢

(٤) الطبري: ٣٨٥/١٢ (٥) الطبري: ٣٨٦/١٢ (٦) فتح الباري: ٤٤٥/٦ ١٣٥/٨ ومسلم: ٢١٩٤/٤ (٧)

الطبري: ٣٨٢/١٢ (٨) فتح الباري: ٤٨٦/١١ (٩) فتح الباري: ٢٩٠/٣ ومسلم: ٢٠٤٧/٤ (١٠) مسلم: ٢١٩٧/٤

(١١) مسلم: ٢٠٣/١ (١٢) فتح الباري: ٢٦٧/٣ ومسلم: ٢٠٣٩

(١٣) الطبري: ٣٨٨/١٢

فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ عَنِ اللَّهِ وَمَا جَاؤُوا بِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ وَبِإِخْلَاصٍ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ الْعَمَلَ حَتَّى يَجْمَعَ هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ، أَنْ يَكُونَ صَوَابًا مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ، وَأَنْ يَكُونَ خَالِصًا مِنَ الشَّرِّ.

[مَقْهُومُ الْبَدْءِ وَالْعَوْدَةِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» إِلَى قَوْلِهِ: «الضَّلَالَةَ» اخْتَلَفَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» فَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» يُحْيِيكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ^(١). وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: كَمَا بَدَأَكُمْ فِي الدُّنْيَا كَذَلِكَ تَعُودُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْيَاءً^(٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» قَالَ: بَدَأَ فَخَلَقَهُمْ وَلَمْ يَكُونُوا شَيْئًا ثُمَّ ذَهَبُوا ثُمَّ يُعِيدُهُمْ^(٣). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: كَمَا بَدَأَكُمْ أَوَّلًا كَذَلِكَ يُعِيدُكُمْ آخِرًا^(٤). وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ أَبُو جَعْفَرٍ ابْنُ جَرِيرٍ، وَأَيَّدَهُ بِمَا رَوَاهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَوْعِظَةٍ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاةً غُرَاةً غُرْلًا، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدْنَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ»^(٥) وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخْرَجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٦).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَوْلُهُ «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ»^(٧) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ» قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَدَأَ خَلْقَ ابْنِ آدَمَ مُؤْمِنًا وَكَافِرًا، كَمَا قَالَ: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كُفْرًا وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ» [التغابن: ٢] ثُمَّ يُعِيدُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا بَدَأَهُمْ مُؤْمِنًا وَكَافِرًا^(٨): قُلْتُ: وَبَيَّانُ هَذَا الْقَوْلِ بِحَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: «فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ! إِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ، فَيَسْقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ فَيَسْقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ»^(٩). قُلْتُ: وَلَا بُدَّ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ هَذَا الْقَوْلِ - إِنْ كَانَ هُوَ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ - وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا»

[الروم: ٣٠] وَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيَمَجْسَانِهِ»^(١٠).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ، قَالَ: قَالَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٥٤

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا
وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ
الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْأَيَّاتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَفِي الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا
بَطَنٌ وَالْإِثْمُ وَالْبَغْيُ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ
سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ
فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾
يَبْنِيْءَ آدَمَ إِمَامًا يَتَّبِعُكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ
اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكَذِبِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ
رُسُلُنَا يَتَوَقَّعُهُمْ قَالُوا أَأَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
قَالُوا اضْلُوعًا وَنَحْنُ نَسْهَى أَنْفُسَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ^(١). وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَوْلُهُ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَفِي الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ وَالْإِثْمُ وَالْبَغْيُ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ حَدَّهُ فِي حَلَالٍ أَوْ حَرَامٍ، الْغَالِينَ فِيهِمَا أَحَلَّ بِإِخْلَالِ الْحَرَامِ أَوْ بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ، وَلَكِنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يُحَلَّلَ مَا أَحَلَّ وَيُحَرَّمَ مَا حَرَّمَ، وَذَلِكَ الْعَدْلُ الَّذِي أَمَرَ بِهِ ^(١).

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْأَيَّاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

- (١) مسلم: ٢٣٢٠/٤ والنسائي في الكبرى: ٣٤٥/٦ والطبري: ٣٩٠/١٢ (٢) الطبري: ٣٩١/١٢ إسناده ضعيف، فيه العوفي وعاتلته (٣) الطبري: ٣٩٢/١٢-٣٩٤ (٤) أحمد: ٢٤٧/١ (٥) أبو داود: ٣٣٢/٤ وتحفة الأحوذى: ٧٢/٧ وابن ماجه: ١/٤٧٣ (٦) فتح الباري: ٢٦٤/١٠ (٧) الطبري: ٣٩٤/١٢ (٨) أحمد: ١٣٢/٤ (٩) الترمذي: ٢٣٨٠ والنسائي في الكبرى: ١٧٨/٤ (١٠) الطبري: ٣٩٤/١٢ (١١) الطبري: ٣٩٥/١٢

سَلَّمَ بَنُ كُهَيْلٍ عَنْ مُسْلِمِ الْبُطَيْنِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَالَ: كَانُوا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عَرَاءَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، الرِّجَالُ بِالنَّهَارِ وَالنِّسَاءُ بِاللَّيْلِ، وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تَقُولُ: أَلْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ

وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أَجْلُهُ ^(١) فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الْآيَةِ، قَالَ: كَانَ رِجَالٌ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عَرَاءَ فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالزَّيْنَةِ، وَالزَّيْنَةُ: اللَّبَاسُ، وَهُوَ مَا يُوَارِي السَّوَاءَ وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ حَيْدِ الْبَرِّ وَالْمَتَاعِ، فَأَمَرُوا أَنْ يَأْخُذُوا زِينَتَهُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ^(٢). وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَإِبْرَاهِيمُ التَّخَعِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَالضُّحَّاكُ، وَمَالِكٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ ^(٣)، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَيْمَةِ السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِهَا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي طَوَافِ الْمُشْرِكِينَ بِالْبَيْتِ عَرَاءَ. وَلِهَذَا الْآيَةُ وَمَا وَرَدَ فِي مَعْنَاهَا مِنَ السُّنَنِ يُسْتَحَبُّ التَّجَمُّلُ عِنْدَ الصَّلَاةِ - وَلَا سِيَّمَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَيَوْمَ الْيَعْدِ - وَالطَّيِّبُ، لِأَنَّهُ مِنَ الزَّيْنَةِ، وَالسَّوَاكُ، لِأَنَّهُ مِنْ تَمَامِ ذَلِكَ.

وَمِنْ أَفْضَلِ اللَّبَاسِ الْبَيَاضُ كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبَيَاضَ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ، وَكَفُّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ، وَإِنْ خَيْرٌ أَكْحَالِكُمْ الْإِثْمِدُ، فَإِنَّهُ يَجْلُو الْبَصَرَ وَيُنْبِتُ الشَّعْرَ» ^(٤). هَذَا حَدِيثٌ حَيْدُ الْإِسْنَادِ، رِجَالُهُ عَلَى شَرِّطِ مُسْلِمٍ وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ ^(٥).

[الْتَهْيِ عَنِ الْإِسْرَافِ فِي الْمَطْعَمِ وَالْمَلْبَسِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾... الْآيَةِ، وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُلُّ مَا شِئْتَ وَالْبَسُ مَا شِئْتَ، مَا أَخْطَأَتْكَ خَصْلَتَانِ: سَرَفٌ وَمَخِيلَةٌ ^(١). وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ نُورٍ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: أَحَلَّ اللَّهُ الْأَكْلَ وَالشَّرْبَ مَا لَمْ يَكُنْ سَرَفًا أَوْ مَخِيلَةً ^(٢). إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ الْمُقْدَامِ بْنِ مَعْدِيكَرِبِ الْكِنْدِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أَكْلَاتٌ يُقْمَنُ صُلْبُهُ، فَإِنْ كَانَ فَاعِلًا لَا مَحَالَةَ، فَتَلَّتْ طَعَامًا، وَتَلَّتْ شَرَابًا، وَتَلَّتْ لِنَفْسِهِ» ^(٣). وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ ^(٤). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ وَفِي نُسَخَةٍ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى رَدًّا عَلَى مَنْ حَرَّمَ شَيْئًا مِنَ الْمَأْكَلِ أَوْ الْمَشَارِبِ أَوْ الْمَلَابِيسِ، مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ شَرْعٍ مِنَ اللَّهِ ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ يُحَرِّمُونَ مَا يُحَرِّمُونَ بِأَرَائِهِمُ الْفَاسِدَةَ وَابْتِدَآءِهِمْ ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةُ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ الآية، أَي: هِيَ مَخْلُوقَةٌ لِمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَعَبَدَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَإِنْ شَرِكْتَهُمْ فِيهَا الْكُفَّارُ حُبًّا فِي الدُّنْيَا فَهِيَ لَهُمْ خَاصَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَشْرِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ مِنَ الْكُفَّارِ، فَإِنَّ الْحِجَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٤﴾

[الْحَرَامُ هُوَ الْفَوَاحِشُ وَالْإِثْمُ وَالْبَغْيُ وَالشُّرْكُ وَالْإِفْتِرَاءُ عَلَى اللَّهِ]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا أَحَدٌ أَغْبَرُ مِنَ اللَّهِ، فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ»^(١). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٢). وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِالْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ. وَقَوْلُهُ: «وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ» قَالَ السُّدِّيُّ: أَمَّا الْإِثْمُ فَالْمَعْصِيَةُ وَالْبَغْيُ أَنْ تَبْغِيَ عَلَى النَّاسِ بِغَيْرِ الْحَقِّ^(٣). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْإِثْمُ: الْمَعَاصِي كُلُّهَا وَأَخْبَرَ أَنَّ الْبَاغِيَّ، بَغْيُهُ عَلَى نَفْسِهِ^(٤). وَحَاصِلُ مَا فُسِّرَ بِهِ الْإِثْمُ أَنَّهُ الْخَطَايَا الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْفَاعِلِ نَفْسِهِ، وَالْبَغْيُ هُوَ التَّعَدِّي إِلَى النَّاسِ فَحَرَّمَ اللَّهُ هَذَا وَهَذَا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا» أَي تَجْعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ فِي عِبَادَتِهِ «وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» مِنَ الْإِفْتِرَاءِ وَالْكَذِبِ مِنْ دَعْوَى أَنَّ لَهُ وَلَدًا وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا لَا عِلْمَ لَكُمْ بِهِ، كَقَوْلِهِ: «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ» الآية [الحج: ٣٠].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ بَيَّنَّى مَادَّامَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَصْطَوْعُ عَلَيْكُمْ أَيْتِي فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ» أَي قَرْنٍ وَجِيلٍ «أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ» أَي مِيقَاتُهُمُ الْمُقَدَّرُ لَهُمْ «لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا

يَسْتَقْدِمُونَ» ثُمَّ أَنْذَرَ تَعَالَى بَنِي آدَمَ أَنَّهُ سَيَبْعَثُ إِلَيْهِمْ رَسُولًا يَصْطَوْعُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيَشْرُرُ وَحَذَّرَ، فَقَالَ: ﴿فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ﴾ أَي تَرَكَ الْمُحَرَّمَاتِ وَفَعَلَ الطَّاعَاتِ ﴿فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ كَذَّبَتْ بِهَا قُلُوبُهُمْ وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ الْعَمَلِ بِهَا ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أَي مَا كَثُرَ فِيهَا مُكْنًا مُخَلَّدًا.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ يَكُونُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّنْ الْكَذِبِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَقَّعُهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ ﴿٣٦﴾

[الْمُشْرِكُونَ الْمُفْتَرُونَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ وَيَضِلُّ عَنْهُمْ أُولَئِيَا هُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ]

يَقُولُ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِنَا﴾ أَي لَا أَحَدَ أَظْلَمَ، مِمَّنْ افْتَرَى الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ الْمُنَزَّلَةِ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ: «أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكَذِبِ» قَالَ: عَمَلُهُ وَرِزْقُهُ وَعُمْرُهُ^(٥). وَكَذَا قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ^(٦). كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠] وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُهُ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٣٧﴾ نُنَبِّئُهُمْ قَلِيلًا [القمان: ٢٣، ٢٤] الآية، وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَقَّعُهُمْ﴾ الآية، يُخْبِرُ تَعَالَى: أَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِذَا تَوَقَّعَتِ الْمُشْرِكِينَ تَفْزَعُهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ وَفَقِصَ أَرْوَاحُهُمْ إِلَى النَّارِ يَقُولُونَ لَهُمْ: أَيْنَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ بِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَدْعُونَهُمْ وَتَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَدْعُوهُمْ يَخْلَصُوكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ قَالُوا: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ أَي ذَهَبُوا عَنَّا فَلَا تَرْجُو نَفْعَهُمْ وَلَا خَيْرَهُمْ ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أَي أَقْرُوا وَاعْتَرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَنْتُمْ لَهَا خُبْرًا حَتَّى إِذَا أَذْرَكُوا فِيهَا

(١) أحمد: ٣٨١/١ (٢) فتح الباري: ٢٣٠/٩ و مسلم: ٤/

٢١١٤ (٣) الطبري: ٤٠٣/١٢ (٤) الطبري: ٤٠٣/١٢ (٥)

الطبري: ٤١٣/١٢ (٦) الطبري: ٤١٤، ٤١٣/١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٥٥

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرُنُهُمْ لِأُولُنْهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونَا فَعَاتَبَهُمُ عَذَابًا ضَعُفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضَعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولُنْهُمْ لِأَخْرُنُهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلِ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا تَكُنْ فِتْنًا أَلَسَّهَا إِلَّا وَسَّعَهَا أَوْلِيَاكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَزَعْنَا مَا فِي صُورِهِمْ مِنْ غَلٍ نَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِيعُوا أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ عَنْ الْهَدْيِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ تُجْرِمُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِيعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ أَيْلٍ وَاللَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آصْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٣٢، ١٣٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤١﴾

[الْمُكَذِّبُونَ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ أَبَدًا]

قَوْلُهُ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ لَا يَرْفَعُ لَهُمْ مِنْهَا عَمَلٌ صَالِحٌ وَلَا دُعَاءٌ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ

جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرُنُهُمْ لِأُولُنْهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونَا فَعَاتَبَهُمُ عَذَابًا ضَعُفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضَعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولُنْهُمْ لِأَخْرُنُهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلِ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ [تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ وَتَلَاغُهُمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يَقُولُهُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ، الْمُفْتَرِينَ عَلَيْهِ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِهِ: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمُورٍ﴾ أَيْ مِنْ أَمْثَالِكُمْ وَعَلَى صِفَاتِكُمْ ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أَيْ مِنَ الْأُمَمِ الشَّالِفَةِ الْكَافِرَةِ ﴿مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ ﴿فِي أُمَّةٍ﴾ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ﴿فِي أُمَّةٍ﴾ أَيْ مَعَ أُمَّةٍ، وَقَوْلُهُ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا﴾ كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ الْآيَةُ [العنكبوت: ٢٥]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ ﴿٣٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ لَعَنَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧] وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أَيْ اجْتَمَعُوا فِيهَا كُلُّهُمْ ﴿قَالَتْ أُخْرُنُهُمْ لِأُولُنْهُمْ﴾ أَيْ أَخْرَاهُمْ دُخُولًا، وَهُمْ الْأَتْبَاعُ لِأُولَاهُمْ وَهُمْ الْمَتَّبِعُونَ، لِأَنَّهُمْ أَشَدُّ جُرْمًا مِنْ أَتْبَاعِهِمْ، فَدَخَلُوا قَبْلَهُمْ فَيُسْكَوهُمْ الْأَتْبَاعُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ أَصْلَوْهُمْ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، فَيَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونَا فَعَاتَبَهُمُ عَذَابًا ضَعُفًا مِنَ النَّارِ﴾ أَيْ أضعِفْ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ بَلَلَّتْنَا أَطْعَمَنَا اللَّهُ وَأَطْعَمَنَا الرَّسُولَ﴾ ﴿٣٩﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصْلُونَا السَّبِيلَ﴾ ﴿٣٩﴾ رَبَّنَا عَاتِبْهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الْآيَةُ [الأحزاب: ٦٦-٦٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضَعْفٌ﴾ أَيْ قَدْ فَعَلْنَا ذَلِكَ وَجَازَيْنَا كُلًّا بِحَسَبِهِ، كَقَوْلِهِ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ رَدَّتْهُمْ عَذَابًا﴾ الْآيَةُ [النحل: ٨٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وَقَالَ: ﴿وَمِنْ أَوْرَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الْآيَةُ [النحل: ٢٥]، وَقَالَتْ أُولُنْهُمْ لِأَخْرُنُهُمْ ﴿أَيُّ قَالَ الْمَتَّبِعُونَ لِلْأَتْبَاعِ﴾ ﴿فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلِ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: فَقَدْ ضَلَلْتُمْ كَمَا ضَلَلْنَا^(١) ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ وَهَذِهِ الْحَالُ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي حَالِ مَحْشَرِهِمْ

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ أَيُّ مِنْ حَسَدٍ وَبُغْضٍ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُسِبُوا عَلَى قَطْرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَاقْتَصَرَ لَهُمْ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هَدُّبُوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنْ أَحَدَهُمْ بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ أَذِلُّ مِنْهُ بِمَسْكَنِهِ كَانِ فِي الدُّنْيَا» (١٢). وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ: «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ» الْآيَةِ، إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا سَفِقُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَجَدُوا عِنْدَ بَابِهَا شَجَرَةً، فِي أَصْلِ سَاقِهَا عَيْنَانِ فَشَرِبُوا مِنْ إِحْدَاهُمَا فَيَنْزِعُ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ فَهُوَ الشَّرَابُ الطَّهُّورُ، وَاعْتَسَلُوا مِنَ الْأُخْرَى فَجَرَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةُ النِّعَمِ، فَلَمْ يَشْعَبُوا وَلَمْ يَسْخَبُوا بَعْدَهَا أَبَدًا (١٣).

وَرَوَى النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَرْدُوَيْهِ - وَاللَّفْظُ لَهُ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، فَيَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي، فَيَكُونُ لَهُ شُكْرًا، وَكُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي، فَيَكُونُ لَهُ حَسْرَةً» (١٤). وَلِهَذَا لَمَّا أُورِثُوا مَقَاعِدَ أَهْلِ النَّارِ مِنَ الْجَنَّةِ «وَوُودُوا أَنْ يَلِكُمْ الْجَنَّةُ أُرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أَيُّ بِسَبَبِ أَعْمَالِكُمْ: نَالْتُمْ الرَّحْمَةَ، فَدَخَلْتُمْ الْجَنَّةَ. وَتَبَوَّأْتُمْ مَنَازِلَكُمْ بِحَسَبِ أَعْمَالِكُمْ. وَإِنَّمَا وَجِبَ الْحَمْلُ عَلَى هَذَا لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يُدْخِلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ» (١٥).

﴿وَأَدْنَى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ

جُبَيْرٌ، وَرَوَاهُ الْعَوْفِيُّ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (١). وَكَذَا رَوَاهُ الثَّوْرِيُّ عَنْ لَيْثٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (٢). وَقِيلَ: الْمُرَادُ لَا تُفْتَحُ لِأَرْوَاحِهِمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ. رَوَاهُ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (٣). وَقَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ (٤). وَيُؤَيِّدُهُ مَا رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ عَنِ الْبَرَاءِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ قَبْضَ رُوحِ الْفَاجِرِ، وَأَنَّهُ يَصْعَدُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ [قَالَ]: فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا تُثْمَرُ عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الْحَيَّةُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانٌ بِأَفْجَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَتْ يُدْعَى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيَسْتَفْتَحُونَ بِأَبَائِهَا لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ» الْآيَةَ (٥). هَكَذَا رَوَاهُ وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثٍ طَوِيلٍ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ (٦).

وَقَدْ قَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: «لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ» لَا تُفْتَحُ لِأَعْمَالِهِمْ وَلَا لِأَرْوَاحِهِمْ (٧). وَهَذَا فِيهِ جَمْعٌ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ» فَسَرُوهُ بِأَنَّهُ الْجَبِيرُ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: هُوَ الْجَمَلُ ابْنُ النَّاقَةِ، وَفِي رِوَايَةِ زَوْجِ النَّاقَةِ (٨). وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُهَا: (حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) بِضَمِّ الْجِيمِ وَتَشْدِيدِ الْمِيمِ، يَعْنِي الْحَبْلَ الْغَلِيظَ فِي حُرْمِ الْإِبْرَةِ (٩). وَقَوْلُهُ: «لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ» قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ «لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ» قَالَ: الْقُرْشُ «وَمِنْ قَوْفِهِمْ غَوَاشٍ» قَالَ: اللَّحْفُ (١٠). وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ وَالسُّدِّيُّ (١١).

﴿وَكَذَلِكَ تَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولَ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ يَتَّبِعُوا الْجَنَّةَ أُرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣)

[بَيَانُ مَالِ الصَّالِحِينَ وَأَحْوَالِهِمْ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ عَطَفَ بِذِكْرِ حَالِ السَّعْدَاءِ فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أَيُّ أَمَنْتُمْ قُلُوبُهُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِجَوَارِحِهِمْ ضِدَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا، وَبُنِيَ تَعَالَى عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ بِهِ سَهْلٌ، لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ:

(١) الطبري: ٤٢٢/١٢، ٤٢٣ (٢) الطبري: ٤٢٢/١٢ (٣)

الطبري: ٤٢٢/١٢ (٤) الطبري: ٤٢٢/١٢ (٥) الطبري:

٤٢٤/١٢ (٦) أبو داود: ١١٤/٥ والنسائي: ٧٨/٤ وابن ماجه:

٤٩٤/١ (٧) الطبري: ٤٢٣/١٢ (٨) الطبري: ٤٢٨/١٢ (٩)

الطبري: ٤٣١/١٢ (١٠) الطبري: ٤٣٦/١٢ (١١) الطبري:

٤٣٦/١٢ (١٢) فتح الباري: ١١٥/٥ (١٣) الطبري: ١٢/

٤٣٩ (١٤) النسائي في الكبرى: ٤٤٧/٦ (١٥) فتح الباري:

٣٠٠/١١ ومسلم: ٣١٧٠/٤

الْأَعْرَافِ

١٥٦

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمَّا دَخَلُوا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا أَتُّمُ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا زَرَعْتُمْ اللَّهُ قَالُوا لَيْتَ اللَّهُ يَمَسُّهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا يَتَنَبَّأُونَ بِحَدُوثِ ﴿٥١﴾

أَبْصَرُهُمْ لِقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

[الْأَعْرَافُ وَأَصْحَابُهَا]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مُخَاطَبَةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَعَ أَهْلِ النَّارِ بَنَى أَنْ يَبَيِّنَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ حِجَابًا وَهُوَ الْحَاجِزُ الْمَانِعُ مِنْ وَصُولِ أَهْلِ النَّارِ إِلَى الْجَنَّةِ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهُوَ السُّورُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿فَضْرِبْ بَيْنَهُمْ سُورًا لَّهُمُ بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظُهُورُهُمْ مِنْ بَيْنِهِ أَلْمَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] وَهُوَ الْأَعْرَافُ. الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ ^(١) ثُمَّ رَوَى بِإِسْنَادِهِ عَنِ السُّدِّيِّ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ وَهُوَ السُّورُ، وَهُوَ الْأَعْرَافُ ^(٢). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْأَعْرَافُ حِجَابٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، سُورٌ لَهُ بَابٌ ^(٣). قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالْأَعْرَافُ جَمْعُ عُرْفٍ، وَكُلُّ مُرْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ عِنْدَ الْعَرَبِ يُسَمَّى عُرْفًا، وَإِنَّمَا قِيلَ لِعُرْفِ الدِّيكِ: عُرْفًا

وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ ﴿٤٥﴾

[لِلْأَهْلِ جَهَنَّمَ حَسْرَةٌ فَوْقَ حَسْرَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى بِمَا يُخَاطَبُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ عَلَى وَجْهِ التَّفْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ إِذَا اسْتَقَرُّوا فِي مَنَازِلِهِمْ ﴿٤٤﴾ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا ﴿٤٥﴾ هَهُنَا مَفْسَرَةٌ لِلْقَوْلِ الْمَحْذُوفِ، ﴿وَقَدْ﴾ لِلتَّحْقِيقِ، أَيْ قَالُوا لَهُمْ: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ عَنِ الَّذِي كَانَ لَهُ قَرِينٌ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿فَاطْلِعْ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءٍ الْحَجِيرِ﴾ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَالَهُ إِنَّ كِدْتَ لَتُرِيدُنِي ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَمَّا نَحْنُ بِمِيتَتَيْنِ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْلَانَا الْأَوَّلَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيَيْنِ﴾ [الصافات: ٥٥-٥٩] أَيْ: يُنْكِرُ عَلَيْهِ مَقَالَتَهُ الَّتِي يَقُولُهَا فِي الدُّنْيَا وَيَقْرَعُهَا بِمَا صَارَ إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالتَّكَالِ، وَكَذَلِكَ تَقْرَعُهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَقُولُونَ لَهُمْ: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٧﴾ أَفَسِحَّرَ هَذَا أَمْ أَنْتَ لَا تَبْصُرُونَ ﴿٨﴾ أَصْلَحُوا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٤-١٦] وَكَذَلِكَ قَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُلَى الْقَلِيبِ يَوْمَ يَنْدِرُ فَنَادَى: «يَا أَبَا جَهْلُ بْنُ هِشَامٍ، وَيَا عَتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَيَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ - وَسَمَى رُؤُوسَهُمْ - هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا» وَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! تُخَاطَبُ قَوْمًا قَدْ جَافَوْا؟ فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا» ^(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ أَعْلَمَ مُعْلِمٌ وَنَادَى مُنَادٍ ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أَيْ مُسْتَقَرَّةٌ عَلَيْهِمْ. ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أَيْ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنْ اتِّبَاعِ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ وَمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ، وَيَبْغُونَ أَنْ تَكُونَ السَّبِيلُ مُعْوَجَّةً غَيْرَ مُسْتَقِيمَةٍ حَتَّى لَا يَتَّبِعَهَا أَحَدٌ ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ﴾ أَيْ وَهُمْ بِلِقَاءِ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كَافِرُونَ، أَيْ: جَاحِدُونَ مُكْذِبُونَ بِذَلِكَ لَا يُصَدِّقُونَهُ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، فَلِهَذَا لَا يُبَالُونَ بِمَا يَأْتُونَ مِنْ مُنْكَرٍ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَخَافُونَ حِسَابًا عَلَيْهِ وَلَا عِقَابًا، فَهُمْ شَرُّ النَّاسِ أَقْوَالًا وَأَعْمَالًا.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمَّا دَخَلُوا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ

(١) مسلم: ٢٢٠٣/٤ (٢) الطبري: ٢٤٩/١٢ (٣) الطبري:

٤٤٩/١٢ (٤) الطبري: ٤٥١/١٢

لَا زَيْفَ فِيهِ.

وَقَالَ الشَّدِيُّ: إِنَّمَا سُمِّيَ الْأَعْرَافُ: أَعْرَافًا لِأَنَّ أَصْحَابَهُ يَعْرِفُونَ النَّاسَ^(١). وَأَصْحَابُ الْأَعْرَافِ هُمْ قَوْمٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ، نَصَّ عَلَيْهِ حَدِيثُهُ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ حَدِيثِهِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ - قَالَ - فَقَالَ: هُمْ قَوْمٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ فَقَعَدَتْ بِهِمْ سَيِّئَاتُهُمْ عَنِ الْجَنَّةِ وَخَلَفَتْ بِهِمْ حَسَنَاتُهُمْ عَنِ النَّارِ، قَالَ: فَوَقَفُوا هُنَاكَ عَلَى السُّورِ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيهِمْ^(٢).

وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يظْمَئُونَ﴾ قَالَ: وَاللَّهِ مَا جَعَلَ ذَلِكَ الطَّعْمَ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا لِكِرَامَةٍ يُرِيدُهَا بِهِمْ^(٣). وَقَالَ قَتَادَةُ: قَدْ أَنْبَأَكُمْ اللَّهُ بِمَكَانِهِمْ مِنَ الطَّعْمِ^(٤). وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا بِإِغْوَاءِ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ إِذَا نَظَرُوا إِلَى أَهْلِ النَّارِ وَعَرَفُوهُمْ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٥).

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ بِمَا لَمْ يَعْرِفُوهُمْ بِسْمِئِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٦) أَهْلُوا الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَبَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ^(٧) يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ تَفْرِيعِ أَهْلِ الْأَعْرَافِ لِرِجَالٍ مِنْ صَنَادِيدِ الْمُشْرِكِينَ وَقَادَتِهِمْ يَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ بِسِمَائِهِمْ ﴿مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أَيُّ كَثْرَتِكُمْ ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أَيُّ لَا يَنْفَعُكُمْ كَثْرَتُكُمْ وَلَا جُمُوعُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، بَلْ صِرْتُمْ إِلَى مَا أَنتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿أَهْلُوا الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَبَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ - قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ يَعْنِي أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ - ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾^(٨).

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَيْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٩) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْهَيْوَةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَائِبِينَ يَحْدُثُونَ^(١٠)

[نَعِيمُ الْجَنَّةِ حَرَامٌ عَلَى أَهْلِ النَّارِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ذِلَّةِ أَهْلِ النَّارِ وَسَوْأِ لَهُمْ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنْ شَرَابِهِمْ وَطَعَامِهِمْ وَأَنَّهُمْ لَا يُجَابُونَ إِلَى ذَلِكَ. قَالَ:

الشَّدِيُّ ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَيْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ يَعْنِي الطَّعَامَ^(١١). وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: عَنْ عُثْمَانَ الثَّقَفِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: يُنَادِي الرَّجُلُ أَبَاهُ أَوْ أَخَاهُ فَيَقُولُ لَهُ: قَدْ احْتَرَفْتُ فَأَفِضْ عَلَيَّ مِنَ الْمَاءِ، فَيَقَالَ لَهُمْ: أَجِيبُوهُمْ فَيَقُولُونَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(١٢). وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يَعْنِي طَعَامَ الْجَنَّةِ وَشَرَابَهَا^(١٣).

ثُمَّ وَصَفَ تَعَالَى الْكَافِرِينَ بِمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ فِي الدُّنْيَا بِاتِّخَاذِهِمُ الدِّينَ لَهْوًا وَلَعِبًا وَاعْتِرَازِهِمْ بِالذُّنُوبِ وَزَيْفَتِهَا وَزُخْرُفِهَا عَمَّا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أَيُّ يُعَامِلُهُمْ مُعَامَلَةً مِنْ نَسِيهِمْ، لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَشُدُّ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ وَلَا يَنْسَاهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] وَإِنَّمَا قَالَ تَعَالَى هَذَا مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ كَقَوْلِهِ ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وَقَالَ ﴿كَذَلِكَ أَنْتَ أُنْتَنَا فَنَسِينَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسُوكُ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [العجاثية: ١٣٤] وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ ﴿فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ قَالَ: نَسِيَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ وَلَمْ يَنْسَهُمْ مِنَ الشَّرِّ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: تَنَزَّكُّهُمْ كَمَا تَرَكَوْا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: تَنَزَّكُّهُمْ فِي النَّارِ. وَقَالَ الشَّدِيُّ تَنَزَّكُّهُمْ مِنَ الرَّحْمَةِ كَمَا تَرَكَوْا أَنْ يَعْمَلُوا لِلِقَاءِ يَوْمِهِمْ هَذَا. وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَلَمْ أَرْوِّجْكَ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكَ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسَ وَتَرْبَعٍ؟» فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: أَطُنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: فَالْيَوْمَ أَنُصَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي^(١٤).

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَفَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عَلَيْهِمْ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ

(١) الطبري: ٤٤٩/١٢ (٢) الطبري: ٤٥٣/١٢ ذكر البيهقي في "البعث والنشور" ص ١٠٥ أن رواية الشعبي عن حذيفة مرسلة. (٣) عبد الرزاق: ٢٣٠/٢ (٤) الطبري: ٤٦٥/١٢

(٥) الطبري: ٤٦٣/١٢ هذا أيضًا منقطع الضحاك لم يسمع من ابن عباس كما مر. (٦) الطبري: ٤٦٩/١٢ (٧) الطبري: ١٢/١٢

٤٧٣ (٨) الطبري: ٤٧٤/١٢ (٩) الطبري: ٤٧٤/١٢ (١٠) مسلم: ٢٢٧٩/٤

يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ
سُوءَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ
فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ
وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

[لَا مَجَالَ لِلْمُشْرِكِينَ لِإِعْذَارٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ إِعْذَارِهِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ بِإِرسَالِ
الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ بِالْكِتَابِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ، وَأَنَّهُ كِتَابٌ
مُفَصَّلٌ مُبَيِّنٌ كَقَوْلِهِ: ﴿كُتِبَ أَخْكَمْتُ بَيْنَهُ ثُمَّ قُضِلَتْ﴾ [الآيَةُ
[هود: ١]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَصَلَّنَاهُ عَلَى عَلِيٍّ أَتَى عَلَى عِلْمٍ مِنَّا بِمَا
فَصَلَّنَاهُ بِهِ. كَقَوْلِهِ: ﴿أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِنَا﴾ [النساء: ١٦٦]
وَالْمَقْصُودُ: أَنَّهُ لَمَّا أَخْبَرَ بِمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْخَسَارَةِ فِي
الْآخِرَةِ ذَكَرَ: أَنَّهُ قَدْ أَزَاحَ عَنْهُمْ فِي الدُّنْيَا بِإِرسَالِ الرُّسُلِ
وِإِنزَالِ الْكِتَابِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾
[الاسراء: ١٥] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أَيْ مَا
وَعُدُّوا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ
وغير واحد^(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَهُ ابْنُ
عَبَّاسٍ. ^(٢) يَقُولُ الَّذِينَ سُوءَ مِنْ قَبْلُ: أَيْ تَرَكُوا الْعَمَلَ بِهِ
وَتَنَاسَوْهُ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا
مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ أَيْ فِي خِلَاصِنَا مِمَّا صَرْنَا إِلَيْهِ مِمَّا
نَحْنُ فِيهِ ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا
نَعْمَلُ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ رَدُّوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَكَلِّمُنَا نُرَدُّ وَلَا
تُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٧] بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ
مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نَبَّهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ [الأنعام:
٢٧، ٢٨] كَمَا قَالَ هُتَيْتَا: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا
كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أَيْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِدُخُولِهِمُ النَّارَ
وَدُخُولِهِمْ فِيهَا ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أَيْ ذَهَبَ عَنْهُمْ
مَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَلَا يَشْفَعُونَ فِيهِمْ وَلَا
يَنْصُرُونَهُمْ وَلَا يَقْذِرُونَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ.

﴿إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَبِطًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ﴾ [٥٤]

[خَلَقَ الْكَوْنُ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَلَقَ الْعَالَمَ سَمَآوَاتِهِ وَأَرْضَهُ وَمَا بَيْنَ
ذَلِكَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنْ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

١٥٧

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ
الَّذِينَ سُوءَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا
مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ
قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾
إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَبِطًا
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ
وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا
وُخُوفَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي
الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ
اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ
الرِّيحَ بَشْرًا يَكِدُّ بِذِي رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا
ثِقَالًا اسْقَنَهُ لِبَدًا مِّمَّيْنٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ
الشَّعْبِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

الْقُرْآنَ، وَالسِتَّةُ الْأَيَّامُ هِيَ: الْأَحَدُ وَالْإِثْنَيْنِ وَالثَّلَاثَاءُ
وَالْأَرْبَعَاءُ وَالْخَمِيسُ وَالْجُمُعَةُ وَفِيهِ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ كُلُّهُ،
وَفِيهِ خُلِقَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاخْتَلَفُوا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ هَلْ كُلُّ
يَوْمٍ مِنْهَا كَهَذِهِ الْأَيَّامِ كَمَا هُوَ الْمُتَبَادَّرُ إِلَى الْأَذْهَانِ أَوْ كُلُّ
يَوْمٍ كَأَلْفِ سَنَةٍ كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ مُجَاهِدٌ^(٣). وَالْإِمَامُ
أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ. وَيُرْوَى ذَلِكَ مِنْ رِوَايَةِ الضَّحَّاكِ عَنْ ابْنِ
عَبَّاسٍ، فَأَمَّا يَوْمُ السَّبْتِ فَلَمْ يَقَعْ فِيهِ خَلْقٌ لِأَنَّهُ الْيَوْمُ
السَّابِعُ، وَمِنْهُ سُمِّيَ السَّبْتُ وَهُوَ الْقَطْعُ. رَوَى الْإِمَامُ
أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي فَقَالَ:
خَلَقَ اللَّهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ الْجِبَالَ فِيهَا يَوْمَ
الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ فِيهَا يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ
الثَّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ الثَّوْرَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ
الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ الْعَصْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ آخِرَ الْخَلْقِ
فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى

(١) الطبري: ٤٧٩/١٢ (٢) الطبري: ٤٧٩/١٢ (٣) الطبري:

اللَّيْلِ^(١).كُلُّهُ^(٢).

[تفسير الاستواء]

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ فَلِلنَّاسِ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَقَالَاتٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِهَا، وَإِنَّمَا نَشْكُ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَذْهَبَ السَّلَفِ الصَّالِحِ مَالِكٍ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَالثَّوْرِيِّ وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهُوِيهِ وَغَيْرِهِمْ، مِنْ أَيْمَةِ الْمُسْلِمِينَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَهُوَ إِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَشْبِيهِ وَلَا تَعْطِيلٍ. وَالظَّاهِرُ الْمُتَبَادُّرُ إِلَى أَذْهَانِ الْمُشَبِّهِينَ مَنَافِي عَنِ اللَّهِ لَا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ وَ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] بَلِ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ الْأَيْمَةُ مِنْهُمْ نَعِمَ بِنِ حَمَادٍ الْخَزَاعِيِّ شَيْخِ الْبُخَارِيِّ قَالَ: مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ كَفَرَ، وَمَنْ جَعَلَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَيْسَ فِيمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولُهُ تَشْبِيهِ، فَمَنْ أَثَبَتَ اللَّهُ تَعَالَى مَا وَرَدَتْ بِهِ الْآيَاتُ الصَّرِيحَةُ وَالْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيقُ بِجَلَالِ اللَّهِ، وَنَفَى عَنِ اللَّهِ تَعَالَى النِّقَاطِصَ فَقَدْ سَلَكَ سَبِيلَ الْهُدَى.

[اللَّيْلِ وَالتَّهَارُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿يَعْنَى أَيْلَ التَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُكَ﴾ أَيْ يَذْهَبُ ظِلَامٌ هَذَا بِضِيَاءٍ هَذَا وَضِيَاءٌ هَذَا بِظِلَامٍ هَذَا وَكُلُّ مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَيْثُكَ أَيْ سَرِيعًا لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ، بَلِ إِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا وَعَكْسُهُ كَقَوْلِهِ ﴿وَأَيَّاهُ لُهُمُ الْيَلُّ فَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارُ فَإِذَا هُمُ مُظْلَمُونَ﴾ [الشمس: ٣٧] وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَرَبِ الْعَلِيْمِ (٣٨) وَالْقَمَرُ قَدَرْتُهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْوُونِ الْقَدِيرِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَبْغِي لَهَا أَنْ تَذُرِكَ الْقَمَرُ وَلَا الْيَلُّ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [يس: ٣٧-٤٠] فَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا الْيَلُّ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أَيْ لَا يَقُوتُهُ بِوَقْتٍ يَتَأَخَّرُ عَنْهُ بَلْ هُوَ فِي أَثَرِهِ بَلَا وَاسِطَةً بَيْنَهُمَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُكَ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالشُّجُومُ مَسْحَرَتٍ بِأَمْرِهِ﴾ مِنْهُمْ مَنْ نَصَبَ وَمِنْهُمْ مَنْ رَفَعَ وَكَلاَهُمَا قَرِيبُ الْمَعْنَى، أَيْ الْجَمِيعُ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَمَشِيتِيهِ وَلِهَذَا قَالَ مِنْهَا ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أَيْ لَهُ الْمُلْكُ وَالتَّصَرُّفُ ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] كَقَوْلِهِ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا...﴾ [الفرقان: ٦١].

وَفِي الدُّعَاءِ الْمَأْتُورِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، وَرَوَى مَرْفُوعًا: «اللَّهُمَّ لَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ، وَلَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَالْإِلَهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ

﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ نَضَرًا وَخُفْيَةً إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُنْعَدِينَ﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِمَّنِ الْمُحْسِنِينَ﴾

[التَّوَعُّبُ فِي الدُّعَاءِ]

أَرْشَدَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى دُعَائِهِ الَّذِي هُوَ صَلَاحُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ فَقَالَ ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ نَضَرًا وَخُفْيَةً﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ تَذَلُّلاً وَاسْتِكَانَةً، وَخُفْيَةً كَقَوْلِهِ ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ [الآية: الأعراف: ٢٠٥] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: رَفَعَ النَّاسُ أَصْوَاتَهُمْ بِالْأَدْعَاءِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ»^(٣). الْحَدِيثُ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: ﴿نَضَرًا﴾ تَذَلُّلاً وَاسْتِكَانَةً لِبَطَاعَتِهِ وَ﴿خُفْيَةً﴾ يَقُولُ: بِخُشُوعِ قُلُوبِكُمْ وَصِحَّةِ الْيَقِينِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ لَا جَهْرًا مُرَاءَةً^(٤).

[النَّهْيُ عَنِ الْإِعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ]

رَوَى عَنْ عَطَاءِ الْخُرَّاسَانِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُنْعَدِينَ﴾ فِي الدُّعَاءِ وَلَا فِي غَيْرِهِ^(٥). وَقَالَ أَبُو مَجْلَزٍ: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُنْعَدِينَ﴾ لَا يَسْأَلُ مَنَازِلَ الْأَنْبِيَاءِ^(٦). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي نُعَامَةَ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ مَعْقِلٍ سَمِعَ ابْنَهُ يَقُولُ: اَللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْقَصْرَ الْأَبْيَضَ عَنْ يَمِينِ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلْتُهَا فَقَالَ: يَا بُنَيَّ! سَلِ اللَّهَ الْجَنَّةَ وَعُدْ بِهِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَالطُّهُورِ»^(٧). وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ^(٨). وَهُوَ إِسْنَادٌ حَسَنٌ لَا بَأْسَ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) أحمد: ٣٢٧/٢ ومسلم: ٢١٤٩ (٢) ضعيف، المرفوع روي من حديث أبي سعيد الخدري عند البيهقي في الشعب (٤٤٠٠) والديلمي في "مسند الفردوس" ٦٨١٧ وفيه خالد بن يزيد كذبه أبو حاتم ويحيى وقال ابن حبان: "يروي الموضوعات عن الأثبات" وعن حذيفة عند أحمد ٣٩٦/٥ وفي إسناده جهالة وعن سعد بن أبي وقاص عند البيهقي في الشعب (٤٣٩٩) وفي إسناده أبو بلج يحيى بن سليم قال البخاري فيه نظر. (٣) فتح الباري: ١٩١/١١ ومسلم: ٢٠٧٦/٤ (٤) الطبري: ٤٨٥/١٢ (٥) الطبري: ٤٨٦/١٢ (٦) الطبري: ٤٨٦/١٢ (٧) أحمد: ٥٥/٥ (٨) ابن ماجه: ٢١٧١/٢ وأبو داود: ٧٣/١

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ وَيَأْتِيهِ مِنَ الْبَلَدِ الْغَيْرِ وَالَّذِي خُبْتُ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نَضْرِبُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾
لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾
قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَالَّةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مَنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾

وَقَوْلُهُ: ﴿سُقْنَتُهُ لِيَكْلِي مَيْتَةً﴾ أَيُّ إِلَىٰ أَرْضٍ مَيْتَةٍ مُّجْدِيَّةٍ لَا نَبَاتَ فِيهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَيُّهُ لَّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي تَتَّخِذُ أَجْسِدَهَا﴾ الْآيَةُ [يس: ٣٣]. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ تَخْرُجُ الْمَوْتَى﴾ أَيُّ كَمَا أَحْيَيْنَا هَذِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ نُحْيِي الْأَجْسَادَ بَعْدَ صَيُورِ رَتْبِهَا رَمِيمًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يُزَلُّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَاءٌ مِنَ السَّمَاءِ فَيُمْطَرُ الْأَرْضَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَتَنْبُثُ مِنْهُ الْأَجْسَادُ فِي قُبُورِهَا كَمَا يَنْبُثُ الْحَبُّ فِي الْأَرْضِ. وَهَذَا الْمَعْنَى كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ يَضْرِبُ اللَّهُ مَثَلًا لِّيَوْمِ الْقِيَامَةِ بِأَحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ وَيَأْتِيهِ مِنَ الْبَلَدِ الْغَيْرِ﴾ أَيُّ وَالْأَرْضُ الطَّيِّبَةُ يَخْرِجُ نَبَاتَهَا سَرِيعًا حَسَنًا كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْبَتْنَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] ﴿وَالَّذِي خُبْتُ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: كَالسَّبَاخِ ^(١) وَنَحْوِهَا. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ

[الْهَيَّ عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ يَنْهَى تَعَالَى عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ وَمَا أَصْرُهُ بَعْدَ الْإِصْلَاحِ! فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتْ الْأُمُورُ مَاشِيَةً عَلَى السَّدَادِ ثُمَّ وَقَعَ الْإِفْسَادُ بَعْدَ ذَلِكَ كَانَ أَصْرًا مَا يَكُونُ عَلَى الْعِبَادِ، فَهَنَى تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ وَأَمَرَ بِعِبَادَتِهِ وَدُعَائِهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ وَالتَّذَلُّلِ لَدَيْهِ فَقَالَ: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أَيُّ خَوْفًا مِمَّا عِنْدَهُ مِنْ وَبِيلِ الْعِقَابِ وَطَمَعًا فِيمَا عِنْدَهُ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أَيُّ: إِنَّ رَحْمَتَهُ مُرْصِدَةٌ لِلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَوَامِرَهُ وَيَتْرَكُونَ زَوَاجِرَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَاسْتَخَيِّرْنِي لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الْآيَةُ [الأعراف: ١٥٦] وَقَالَ: ﴿قَرِيبٌ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: (قَرِيبَةٌ) لِأَنَّهُ ضَمَّنَ الرَّحْمَةَ مَعْنَى الثَّوَابِ أَوْ لِأَنَّهَا مُضَافَةٌ إِلَى اللَّهِ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. وَقَالَ مَطَرُ الْوَرَّاقِ: تَنْجِزُوا مَوْعُودَ اللَّهِ بِطَاعَتِهِ، فَإِنَّهُ قَضَى: أَنَّ رَحْمَتَهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ^(١).

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَتَهُ لِيَكْلِي مَيْتَةً فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ تَخْرُجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ وَيَأْتِيهِ مِنَ الْبَلَدِ الْغَيْرِ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نَضْرِبُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

[مِنْ آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُ يُنْزِلُ الْمَطَرَ وَيُخْرِجُ الثَّمَرَ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ الْمُدَبِّرُ الْمُسَخِّرُ، وَأَرَشَدَ إِلَى دُعَائِهِ لِأَنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ، تَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ الرَّزَّاقُ وَأَنَّهُ يُعِيدُ الْمَوْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ نُشْرًا) أَيُّ نَاشِرَةً بَيْنَ يَدَيْ السَّحَابِ الْحَامِلِ لِلْمَطَرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَرَأَ: ﴿بُشْرًا﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرِينَ﴾ [الروم: ٤٦].

وَقَوْلُهُ ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أَيُّ بَيْنَ الْمَطَرِ كَمَا قَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِلُّ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨] وَقَالَ: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ عَائِثٍ رَّحِمَتْ اللَّهُ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَجَائِبِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠] وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أَيُّ حَمَلَتْ الرِّيَّاحُ سَحَابًا ثِقَالًا أَيُّ مِنْ كَثْرَةِ مَا فِيهَا مِنَ الْمَاءِ تَكُونُ ثَقِيلَةً قَرِيبَةً مِنَ الْأَرْضِ مُذْلِمَةً.

اللَّهُ ﷻ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْهُدَى كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا نَفِثَةٌ قَلِيلَتِ الْمَاءِ فَأَنْبَتَ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلِمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»^(١).

«لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» إِنَّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ: إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُنَبِّئُكُمْ رَسُولَتِي رَسَلْتُ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

[قِصَّةُ نُوحٍ وَقَوْمِهِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّةَ آدَمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ وَفَرَعَ مِنْهُ، شَرَعَ تَعَالَى فِي ذِكْرِ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ، فَابْتَدَأَ بِذِكْرِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ بَعْدَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ نُوحُ ابْنُ لَامَكَ بْنِ مَتُوشَلَخَ بْنِ خَنُوحَ وَهُوَ إِدْرِيسُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا يَزْعُمُونَ - وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِالْقَلَمِ - ابْنُ يَزِيدَ بْنِ مِهْلِيلِ بْنِ قَيْنِ بْنِ يَانِشَ بْنِ شِيثَ بْنِ آدَمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هَكَذَا نَسَبَهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَئِمَّةِ النَّسَبِ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ: وَكَانَ أَوَّلُ مَا عُبِدَتْ الْأَصْنَامُ: أَنَّ قَوْمًا صَالِحِينَ مَاتُوا فَبَنَى قَوْمُهُمْ عَلَيْهِمْ مَسَاجِدَ وَصَوَّرُوا صُورَةَ أُولَئِكَ فِيهَا، لِيَتَذَكَّرُوا حَالَهُمْ وَعِبَادَتَهُمْ فَيَتَسَبَّهُوا بِهِمْ، فَلَمَّا طَالَ الزَّمَانُ جَعَلُوا أَجْسَادًا عَلَى تِلْكَ الصُّورِ، فَلَمَّا تَمَادَى الزَّمَانُ عَبَدُوا تِلْكَ الْأَصْنَامَ وَسَمَّوْهَا بِأَسْمَاءِ أُولَئِكَ الصَّالِحِينَ وَذَا، وَسَوَاعًا وَيَعُوثَ، وَيَعُوقَ، وَنَسْرًا. فَلَمَّا تَفَاقَمَ الْأَمْرُ بَعَثَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ - رَسُولَهُ نُوحًا فَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَقَالَ: «يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» إِنَّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ أَيُّ مَنْ عَذَابَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِذَا لَقِيتُمْ اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ. «قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ» أَيُّ

(١) فتح الباري: ١/٢١١ (٢) مسلم: ٢/٨٩٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٥٩

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

أَتْلَعُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجَبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا لِلَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَلَنْ نَدِينَهُمْ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ أْتَجِدُونَ نِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَظَرِّينَ ﴿٧١﴾ فَأَجْعِلْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بَرْحَةً مِنَّا وَطَعْنَاهُ دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ نَكَمٌ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٣﴾

نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَنَعُّتُهُ نَعْتٌ رَجُلٍ قَدْ رَأَاهُ، قَالَ: لَا وَلَكِنِّي قَدْ حَدَّثْتُ عَنْهُ، فَقَالَ الْحَضْرَمِيُّ: وَمَا شَأْنُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: فِيهِ قَبْرُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ ^(١).
وَهَذَا فِيهِ فَائِدَةٌ: أَنَّ مَسَاجِدَهُمْ كَانَتْ بِالْيَمَنِ، فَإِنَّ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ دُفِنَ هُنَاكَ. وَقَدْ كَانَ مِنْ أَشْرَفِ قَوْمِهِ نَسَبًا؛ لِأَنَّ الرُّسُلَ إِنَّمَا يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ مِنْ أَفْضَلِ الْقَبَائِلِ وَأَشْرَفِهِمْ. وَلَكِنْ كَانَ قَوْمُهُ كَمَا شَدَّدَ خَلْقُهُمْ شَدَّدَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَكَانُوا مِنْ أَشَدِّ الْأُمَمِ تَكْذِيبًا لِلْحَقِّ، وَلِهَذَا دَعَاهُمْ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَإِلَى طَاعَتِهِ وَتَقْوَاهُ.

[مَا دَارَ بَيْنَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ]

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ وَالْمَلَأُ هُمْ

(١) الطبري: ٥٠٧/١٢ إسناده ضعيف فيه محمد بن عبدالله بن أبي سعيد الخزازي لا يعرف وابن إسحاق مدلس ولم يصرح.

أَتَقَمَ لِأَوْلِيَائِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَأُنَجَّى رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَأَهْلَكَ أَعْدَاءَهُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ الْآيَةُ [غافر: ٥١].

وَهَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ، فِي عِبَادِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: أَنَّ الْعَاقِبَةَ فِيهَا لِلْمُتَّقِينَ وَالظَّالِمِينَ وَالْغَلَبَ لَهُمْ، كَمَا أَهْلَكَ قَوْمَ نُوحٍ بِالْعَرَقِ وَنَجَّى نُوحًا وَأَصْحَابَهُ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ: بَلَغَنِي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ نَجَا مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ ثَمَانُونَ رَجُلًا أَحَدُهُمْ جُرْهُمُ، وَكَانَ لِسَانُهُ عَرَبِيًّا. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. وَرَوَى مُتَّصِلًا مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿وَلِإِذَا عَادَ آخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ: إِنَّا لَنَرُوكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٩﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ أَتْلَعُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجَبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا لِلَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

[قِصَّةُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَسَبُ قَوْمِ عَادٍ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَكَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ نُوحٍ نُوحًا، كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا إِلَى عَادٍ آخَاهُمْ هُودًا. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: هُمْ وَلَدُ عَادِ بْنِ إِرَمَ بْنِ عَوْصِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ.
قُلْتُ: هَؤُلَاءِ هُمْ عَادُ الْأَوَّلَى الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ، وَهُمْ أَوْلَادُ عَادِ بْنِ إِرَمَ الَّذِينَ كَانُوا يَأْوُونَ إِلَى الْعَمَدِ فِي الْبَرِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦٨﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧١﴾ الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ﴾ [الفجر: ٦-٨] وَذَلِكَ لِشِدَّةِ بَاسِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا عَادَ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

[مَسَاجِدُ قَوْمِ عَادٍ]

وَقَدْ كَانَتْ مَسَاجِدُهُمْ بِالْيَمَنِ بِالْأَخْقَافِ وَهِيَ جِبَالُ الرَّمْلِ. وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَامِرِ بْنِ وَائِلَةَ سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ لِرَجُلٍ مِنْ حَضْرَمَوْتٍ: هَلْ رَأَيْتَ كَثِيبًا أَحْمَرَ، يُخَالِطُهُ مَدْرَةٌ حُمْرَاءُ، ذَا أَرَاكَ وَسِندٍ كَثِيرٍ بِتَاجِيَةٍ كَذَا وَكَذَا مِنْ أَرْضِ حَضْرَمَوْتٍ. هَلْ رَأَيْتُهُ؟ قَالَ:

مِنْ رِجْزٍ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ: سُخْطٌ وَغَضَبٌ^(١).
 ﴿أَتُحَدِّثُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أَيُّ
 أَتُحَاوِلُونِي فِي هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ
 إِلَهَةً وَهِيَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَى
 عِبَادَتِهَا حُجَّةً وَلَا دَلِيلًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا
 مِنْ سُلْطَانٍ فَانْظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ
 وَوَعِيدٌ مِنَ الرَّسُولِ لِقَوْمِهِ وَلِهَذَا عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ:

[مَصِيرُ قَوْمِ عَادٍ]

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَطَعْنَاهُ دَايِرَ الْأَيْنِ
 كَذِبًا﴾ بِأَيْنِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ. وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ
 صِفَةً إِيْلَاهِيهِمْ فِي أَمَاكِنَ أُخَرَ مِنَ الْقُرْآنِ، بِأَنَّهُ أَرْسَلَ عَلَيْهِمُ
 الرِّيحَ الْعَقِيمَ، مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ
 كَالرِّيمِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى ﴿وَلَمَّا عَادَ فَأَتَوْكَأُ
 بِرِيحٍ صَرْسَرٍ عَلَيْهِمْ ۖ سَاحِرْهَا عَلَيْهِمْ سِتْرٌ لِّيَالِي وَثَمِينَةٍ أَيَّامٍ
 حُسُومًا فَفَرَّقَ الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَارٌ نَحْلٌ ۖ حَاوِيَةٌ ۖ فَهَلْ
 تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٨] لَمَّا تَمَرَّدُوا وَعَتَوْا
 أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِرِيحٍ عَاتِيَةٍ فَكَانَتْ تَحْمِلُ الرَّجُلَ مِنْهُمْ فَتَرْفَعُهُ
 فِي الْهَوَاءِ ثُمَّ تُنْكِسُهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ فَتُلْغُ رَأْسَهُ حَتَّى تُبْسِئَهُ مِنْ
 جُتْبَتِهِ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَارٌ نَحْلٌ ۖ حَاوِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٧]
 وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: كَانُوا يَسْكُنُونَ بِالْيَمَنِ بَيْنَ عُمانَ
 وَحَضْرَمَوْتَ وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ قَدْ فَسَدُوا فِي الْأَرْضِ وَفَهَرُوا
 أَهْلُهَا بِفَضْلِ قُوَّتِهِمُ الَّتِي آتَاهُمُ اللَّهُ وَكَانُوا أَصْحَابَ أَوْتَانٍ
 يَغْدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ
 وَهُوَ مِنْ أَوْسَطِهِمْ نَسَبًا وَأَفْضَلِهِمْ مَوْضِعًا فَأَمَرَهُمْ أَنْ
 يُوحِدُوا اللَّهَ وَلَا يَجْعَلُوا مَعَهُ إِلَهًا غَيْرَهُ وَأَنْ يَكْفُوا عَنْ ظُلْمِ
 النَّاسِ فَأَبَوْا عَلَيْهِ وَكَذَّبُوهُ وَقَالُوا: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً وَاتَّبَعَهُ
 مِنْهُمْ نَاسٌ وَهُمْ يَسِيرُ يَكْتُمُونَ إِيْمَانَهُمْ، فَلَمَّا عَتَتْ عَادَ عَلَى
 اللَّهِ وَكَذَّبُوا نَبِيَّهَ وَأَكْثَرُوا فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ، وَتَجَبَّرُوا وَبَنَوْا
 بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً عَنَّا بِغَيْرِ نَفْعٍ كَلَّمَهُمْ هُودٌ فَقَالَ: ﴿أَتُنْبِئُونَ بِكُلِّ
 رِيحٍ آيَةً تَقْنُتُونَ ۖ وَتَسْخَدُونَ مَصَالِحَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۖ وَإِنَّا
 بِطُغْيَانِكُمْ بِطَشْمَرٍ جَابِرِينَ ۖ فَاقْفُوا لِلَّهِ وَاطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣١]
 ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي
 آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ إِنَّ نَقُولَ إِلَّا
 أَعْتَدْنَاكَ بَعْضَ آلِهَتِنَا سِوَهُ ۖ أَيُّ بِجُونٍ ۖ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ

الْجُمُهورُ وَالسَّادَةُ وَالْقَادَةُ مِنْهُمْ ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي سَفَاهَةٍ
 وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أَيُّ فِي ضَلَالَةٍ حَيْثُ تَدْعُونَا
 إِلَى تَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ،
 كَمَا تَعَجَّبَ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى إِلَهٍ وَاحِدٍ
 فَقَالُوا: ﴿أَجْعَلِ الْأَلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ الْآيَةُ [ص: ٥]. قَالَ
 يَقُولُ لَيْسَ بِ سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ أَيُّ
 لَسْتُ كَمَا تَزْعُمُونَ بَلْ جِئْتُكُمْ بِالْحَقِّ مِنَ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ
 شَيْءٍ فَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ ۖ أَتُفْلِكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَأَنَا
 لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۖ وَهَذِهِ الصِّفَاتُ الَّتِي يَتَّصِفُ بِهَا الرَّسُولُ:
 الْبَلَاغُ وَالنُّصْحُ وَالْأَمَانَةُ ۖ أَوْ عَجَبُهُ أَنْ جَاءَهُ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكَ
 عَلَى نَحْلِ يَنْكُرُ يُنْذِرُكُمْ ۖ أَيُّ لَا تَعَجَبُوا أَنْ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ
 رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ أَيَّامَ اللَّهِ وَلِقَاءَهُ، بَلْ أَحْمَدُوا
 اللَّهَ عَلَى ذَاكُم ۖ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قُورَيْشٍ ۖ
 أَيُّ وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فِي جَعْلِكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ نُوحٍ الَّذِي
 أَهْلَكَ اللَّهُ أَهْلَ الْأَرْضِ بِدَعْوَتِهِ لَمَّا خَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ
 ۖ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ أَيُّ زَادَ طَوْلَكُمْ عَلَى النَّاسِ
 ۖ بَسْطَةً ۖ أَيُّ جَعَلَكُمْ أَطْوَلَ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِكُمْ كَقَوْلِهِ فِي
 قِصَّةِ طَالُوتَ ۖ وَزَادَهُمْ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ
 [البقرة: ٢٤٧] ۖ فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ ۖ أَيُّ نِعْمَهُ وَمِنَنَهُ عَلَيْكُمْ
 ۖ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۖ وَالْآلَاءُ جَمْعٌ إِلَى وَقِيلَ: أَلَى.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ
 آبَاؤُنَا فَأَمَّا إِيْمَانُ قَدِيدًا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۖ﴾ قَالَ قَدْ
 وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُحَدِّثُونِي فِي أَسْمَاءٍ
 سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْظُرُوا
 إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۖ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ
 مِنَّا وَطَعْنَاهُ دَايِرَ الْأَيْنِ كَذِبًا بِأَيْنِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ۖ
 يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَرُّدِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَإِنْكَارِهِمْ
 عَلَى هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ۖ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ
 وَحْدَهُ... الْآيَةُ، كَقَوْلِ الْكُفَّارِ مِنْ قُرَيْشٍ ﴿وَإِذْ قَالُوا
 اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا
 جِجَارَةً مِثْلَ السَّكَنِ أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابٍ آلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]
 وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ أَنََّّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ
 أَصْنَامًا، فَصَنَمٌ يُقَالُ لَهُ: صُدَاءُ. وَآخَرُ يُقَالُ: صُمُودٌ.
 وَآخَرُ يُقَالُ لَهُ: آلِهَاءُ. وَلِهَذَا قَالَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَدْ
 وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَيُّ قَدْ وَجَبَ
 عَلَيْكُمْ بِمَقَالَتِكُمْ هَذِهِ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ قِيلَ: هُوَ مَقْلُوبٌ

وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا شَكَّرْتُمْ ۖ (٥٦) مِنْ دُونِهِ ۚ فَيَذَرُني جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ۖ (٥٧) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۖ (٥٨) [هود: ٥٣-٥٦]

[قِصَّةُ وَافِدِ عَادٍ]

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْحَارِثِ الْبَكْرِيِّ قَالَ: خَرَجْتُ أَشْكُو الْعِلَاءَ بَنَ الْحَضْرَمِيِّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمَرَرْتُ بِالرَّبْدَةِ إِذَا بِعَجُوزٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ مُنْقَطِعٍ بِهَا، فَقَالَتْ لِي: يَا عَبْدَ اللَّهِ! إِنَّ لِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَاجَةً هَلْ أَنْتَ مُبْلَغُنِي إِلَيْهِ؟ قَالَ: فَحَمَلْتُهَا فَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ إِذَا الْمَسْجِدُ غَاصُّ بِأَهْلِهِ، وَإِذَا رَايَةُ سَوْدَاءٍ تَخْفِقُ، وَإِذَا بِلَالٌ مُتَقَلِّدٌ سَيْفًا بَيْنَ يَدَي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: مَا شَأْنُ النَّاسِ؟ قَالُوا: يُرِيدُ أَنْ يَبْعَثَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَجْهًا. قَالَ: فَجَلَسْتُ فَدَخَلْتُ مَنْرَلَهُ - أَوْ قَالَ رَحْلَهُ - فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لِي فَدَخَلْتُ وَسَلَّمْتُ، فَقَالَ: «هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ تَمِيمٍ شَيْءٌ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، وَكَانَتْ لَنَا الدَّبْرَةُ عَلَيْهِمْ، وَمَرَرْتُ بِعَجُوزٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ مُنْقَطِعٍ بِهَا، فَسَأَلْتُنِي أَنْ أَحْمِلَهَا إِلَيْكَ وَهَا هِيَ بِالْبَابِ، فَأَذِنَ لَهَا فَدَخَلْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ رَأَيْتُ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ تَمِيمٍ حَاجِزًا فَاجْعَلِ الدَّهْنَاءَ، فَحَمِيتِ الْعُجُوزَ وَاسْتَوْفَرْتُ، وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَإِلَى أَيْنَ [تَضْطَرُّ مُضْرَكًا؟] قَالَ: قُلْتُ: إِنَّ مِثْلِي مِثْلُ مَا قَالَ الْأَوَّلُ: «مِعْزَى حَمَلْتُ حَنْفَهَا» حَمَلْتُ هَذِهِ وَلَا أَشْعُرُ أَنَّهَا كَانَتْ لِي خَصْمًا، أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ أَنْ أَكُونَ كَوَافِدَ عَادٍ. قَالَ لِي: «وَمَا وَافِدٌ عَادٍ؟» وَهُوَ أَغْلَمُ بِالْحَدِيثِ مِنْهُ وَلَكِنْ يَسْتَطِيعُهُ، قُلْتُ: إِنَّ عَادًا فُحِطُوا فَبَعُثُوا وَافِدًا لَهُمْ يُقَالُ لَهُ: قَيْلٌ، فَمَرَّ بِمَعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرٍ فَأَقَامَ عِنْدَهُ شَهْرًا يَسْقِيهِ الْخَمْرَ وَتُعْنِيهِ جَارِيَتَانِ يُقَالُ لَهُمَا: الْجَرَادَتَانِ، فَلَمَّا مَضَى الشَّهْرُ خَرَجَ إِلَى جِبَالٍ مَهْرَةٍ. فَقَالَ: أَلَلَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَجِءْ إِلَى مَرِيضٍ فَأَدَاوِيهِ، وَلَا إِلَى أَسِيرٍ فَأُفَادِيهِ، أَلَلَّهُمَّ اسْقِ عَادًا مَا كُنْتُ تَسْقِيهِ. فَمَرَّتْ بِهِ سَحَابَاتٌ سُودٌ فَنَوْدِي مِنْهَا: اخْتَرِي، فَأَوْمَأُ إِلَى سَحَابَةٍ مِنْهَا سَوْدَاءَ فَنَوْدِي مِنْهَا: خُذْهَا رِمَادًا رَمِيدًا، لَا تَبْقِي مِنْ عَادٍ أَحَدًا. قَالَ: فَمَا بَلَغُنِي أَنَّهُ بَعَثَ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ إِلَّا قَدَّرَ مَا يَجْرِي فِي خَاتَمِي هَذَا حَتَّى هَلَكُوا. قَالَ أَبُو وَائِلٍ: وَصَدَقَ. قَالَ: وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ وَالرَّجُلُ إِذَا بَعُثُوا وَافِدًا لَهُمْ قَالُوا: «لَا تَكُنْ كَوَافِدَ عَادٍ». هَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (٢). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ

وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يَبُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۖ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ صَلَاحًا مَرَّسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ۖ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۖ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَتَيْنَا بِمَا نَعُدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۖ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ۖ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَنجِبُونَ النَّصِيحَتِ ۖ (٧٩) وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحْشَاءَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ۖ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۖ (٨١)

نَحْوَهُ، وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ (٣).

«وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرْوَهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسَوِّوْهُ فَيَاخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ (٧٣) وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءً مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يَبُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۖ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ صَلَاحًا مَرَّسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ۖ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۖ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَتَيْنَا بِمَا نَعُدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۖ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ

(١) الطبري: ٥٠٧/١٢ (٢) أحمد: ٤٨٢/٣ (٣) تحفة الأحوذني: ١٦١/٩ والنسائي في الكبرى: ١٨١/٥ وابن ماجه: ٩٤١/٢

جَنِينٍ ﴿٧٨﴾

[مَسَاكِينُ قَوْمِ ثَمُودَ وَنَسَبُهُمْ]

قَالَ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ وَالتَّنْسِبِ: ثَمُودُ بْنُ عَائِثِ بْنِ إِدْرِمْ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ وَهُوَ أَخُو جَدِيسِ بْنِ عَائِثٍ، وَكَذَلِكَ قَبِيلُهُ طَسَمٌ؛ كُلُّ هَؤُلَاءِ كَانُوا أَحْيَاءَ مِنَ الْعَرَبِ الْعَرَابِيَّةِ قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَانَتْ ثَمُودُ بَعْدَ عَادٍ وَمَسَاكِينُهُمْ مَشْهُورَةٌ فِيمَا بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ، إِلَى وَادِي الْقَرْيَ وَمَا حَوْلَهُ، وَقَدْ مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى دِيَارِهِمْ وَمَسَاكِينِهِمْ وَهُوَ ذَاهِبٌ إِلَى تَبُوكَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: لَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّاسِ عَلَى تَبُوكَ نَزَلَ بِهِمُ الْحَجَرُ عِنْدَ يَبُوتَ ثَمُودَ، فَاسْتَقَى النَّاسُ مِنَ الْآبَارِ الَّتِي كَانَتْ تَشْرُبُ مِنْهَا ثَمُودُ، فَعَجَنُوا مِنْهَا وَنَضَبُوا لَهَا الْقُدُورَ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَأَهْرَقُوا الْقُدُورَ وَعَلَفُوا الْعَجِينَ الْإِبِلَ. ثُمَّ ارْتَحَلَ بِهِمْ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ عَلَى الْبُئْرِ الَّتِي كَانَتْ تَشْرُبُ مِنْهَا النَّاقَةُ، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ عَذَّبُوا وَقَالَ: «إِنِّي أَخْشَى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ»^(١). وَرَوَى أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِالْحَجَرِ: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ»^(٢). وَأَصْلُ هَذَا الْحَدِيثِ مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٣).

[قِصَّةُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَثَمُودَ]

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالِئِكَ ثَمُودٌ﴾ أَيْ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى قَبِيلَةِ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴿قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ فَجَمِيعُ الرُّسُلِ يَدْعُونَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

[ثَمُودُ طَلَبَتْ نَاقَةً مِنْ صَخْرَةٍ فَظَهَرَتْ]

وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ أَيْ قَدْ جَاءَكُمْ حُجَّةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى صَدْقِ مَا جِئْتُمْ بِهِ وَكَانُوا هُمُ الَّذِينَ سَأَلُوا صَالِحًا أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَافْتَرَحُوا عَلَيْهِ بِأَنْ تُخْرِجَ لَهُمْ مِنْ صَخْرَةٍ صَمَاءً عَيُّوْهَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَهِيَ صَخْرَةٌ مُتَفَرِّدَةٌ فِي نَاحِيَةِ الْحَجَرِ يُقَالُ لَهَا:

الْكَاثِبَةُ. فَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ تُخْرِجَ لَهُمْ مِنْهَا نَاقَةً عُسْرَاءَ تَمَخَضُ، فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ صَالِحٌ الْعَهْدَ وَالْمَوَاقِفَ لِمَنْ أَجَابَهُمُ اللَّهُ إِلَى سُؤَالِهِمْ وَأَجَابَهُمْ إِلَى طَلِبَتِهِمْ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَتَّبِعَنَّهُ، فَلَمَّا أَعْطَوْهُ عَلَى ذَلِكَ عَهْدَهُمْ وَمَوَاقِفَهُمْ قَامَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى صَلَاتِهِ، وَدَعَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَتَحَرَّكَتْ تِلْكَ الصَّخْرَةُ ثُمَّ انْصَدَعَتْ عَنْ نَاقَةٍ جَوْفَاءَ وَبَرَاءَ، يَتَحَرَّكُ جَنِينُهَا بَيْنَ جَنِينَيْهَا كَمَا سَأَلُوا، فَعِنْدَ ذَلِكَ آمَنَ رِيسُ الْقَوْمِ جُنْدُعُ ابْنُ عَمْرٍو وَمَنْ كَانَ مَعَهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَأَرَادَ بَقِيَّةُ أَشْرَافِ ثَمُودَ أَنْ يُؤْمِنُوا، فَصَدَّهُمْ ذُوَابُ بْنُ عَمْرٍو بْنُ لَبِيدٍ، وَالْحَبَابُ صَاحِبُ أَوْثَانِهِمْ، وَرَبَابُ بْنُ [صَمْعَرٍ] بْنُ جَلْهَسٍ، وَكَانَ لِحُنْدَعُ بْنُ عَمْرٍو، ابْنُ عَمٍّ يُقَالُ لَهُ: شِهَابُ ابْنِ خَلِيفَةَ بْنِ مِخْلَةَ بْنِ لَبِيدِ بْنِ جَوَّاسٍ، وَكَانَ مِنْ أَشْرَافِ ثَمُودَ وَأَفَاضِلِهَا، فَأَرَادَ أَنْ يُسَلِّمَ أَيْضًا فَنَهَاهُ أُولَئِكَ الرَّمْطُ فَأَطَاعَهُمْ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ رَجُلٌ مِنْ مُؤْمِنِي ثَمُودَ يُقَالُ لَهُ: مَهُوشُ بْنُ [عَنْمَةَ] بْنِ الدَّمِيلِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَكَانَتْ غَضَبَةٌ مِنْ آلِ عَمْرٍو

إِلَى دِينِ النَّبِيِّ دَعَا شُهَابًا

عَزِيزَ ثَمُودَ كُلُّهُمْ جَمِيعًا

فَهُمْ بِأَنْ يُجِيبَ فَلَوْ أَجَابَا

لَأَضْبَحَ صَالِحٌ فِينَا عَزِيزًا

وَمَا عَدَلُوا بِصَاحِبِهِمْ ذُوَابَا

وَلَكِنَّ الْغُفَاةَ مِنْ آلِ حَجَرٍ

تَوَلَّوْا بَعْدَ رُشْدِهِمْ ذُنَابَا

وَأَقَامَتِ النَّاقَةُ وَفَصِّلُهَا - بَعْدَ مَا وَضَعَتْهُ - بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ مُدَّةً تَشْرَبُ مِنْ بَرِّهَا يَوْمًا وَتَدْعُهُ لَهُمْ يَوْمًا، وَكَانُوا يَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمَ شُرْبِهَا يَحْتَلِبُونَهَا فَيَمْلَأُونَ مَا سَأَلُوا مِنْ أَوْعِيَتِهِمْ وَأَوَانِيهِمْ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَيَبْتَنُّونَ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌّ﴾ [القمر: ٢٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شِرْبٌ وَلَكِنْ شِرْبُ يَوْمٍ مَقْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] وَكَانَتْ تَسْرُحُ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ تَرُدُّ مِنْ فَحٍّ وَتَصْدُرُ مِنْ غَيْرِهِ لِيَسْعَهَا، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَنْضَلَعُ مِنَ الْمَاءِ وَكَانَتْ عَلَى مَا ذَكَرَ خَلْقًا هَائِلًا وَمَنْظَرًا رَائِعًا، إِذَا مَرَّتْ بِأَنْعَامِهِمْ نَفَرَتْ مِنْهَا، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَاسْتَدَّتْ تَكْذِيبَهُمْ لِصَالِحِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ

(١) أحمد: ١١٧/٢ (٢) أحمد: ٧٤/٢ (٣) فتح الباري: ٦/

٤٣٦ ومسلم: ٢٢٨٦/٤

السَّلَامُ - عَزَمُوا عَلَى قَتْلِهَا لِيَسْتَأْثِرُوا بِالْمَاءِ كُلَّ يَوْمٍ. **يَقَالُ:** إِنَّهُمْ اتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى قَتْلِهَا. قَالَ قَتَادَةُ: بَلَّغَنِي أَنَّ الَّذِي قَتَلَهَا طَافَ عَلَيْهِمْ كُلُّهُمْ: أَنَّهُمْ رَاضُونَ بِقَتْلِهَا؟ حَتَّى عَلَى النِّسَاءِ فِي خُذُورِهِنَّ وَعَلَى الصَّبِيَّانِ^(١).

قُلْتُ: وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤] **وَقَالَ:** ﴿وَالْيَنَّا ثَمُودَ أَن تُلَاقُوا مِجْرَةَ فظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩] **وَقَالَ:** ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ فَأَسْبَدَ ذَلِكَ عَلَى مَجْمُوعِ الْقَبِيلَةِ، فَدَلَّ عَلَى رِضَا جَمِيعِهِمْ بِذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[قَتْلُ النَّاقَةِ]

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ: أَنَّ سَبَبَ قَتْلِ النَّاقَةِ أَنَّ امْرَأَةً مِنْهُمْ يُقَالُ لَهَا: عُبَيْرَةُ ابْنَةُ عَنَمِ بْنِ مِجْلَزٍ، وَتُكْنَى أُمُّ عَنَمٍ كَانَتْ عَجُوزًا كَافِرَةً، وَكَانَتْ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَتْ لَهَا بَنَاتٌ حِسَانٌ وَمَالٌ جَزِيلٌ، وَكَانَ زَوْجُهَا ذُوَابُ ابْنِ عَمْرِو أَحَدَ رُؤَسَاءِ ثَمُودَ، وَامْرَأَةٌ أُخْرَى يُقَالُ لَهَا: صَدُوفُ بِنْتُ الْمُحَيَّا بْنِ دَهْرٍ بْنِ الْمُحَيَّا، ذَاتُ حَسَبٍ وَمَالٍ وَجَمَالٍ، وَكَانَتْ تَحْتَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ مِنْ ثَمُودَ فَفَارَقَتْهُ، فَكَانَتَا تَجْعَلَانِ لِمَنْ التَزَمَ لِهَمَّا بِقَتْلِ النَّاقَةِ، فَدَعَتْ صَدُوفُ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ: الْحَبَّابُ، فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ نَفْسَهَا إِنْ هُوَ عَقَرَ النَّاقَةَ فَأَبَى عَلَيْهَا، فَدَعَتْ ابْنَ عَمٍّ لَهَا يُقَالُ لَهُ: مِصْدَعُ بْنُ مَهْرَجِ بْنِ الْمُحَيَّا فَأَجَابَهَا إِلَى ذَلِكَ، وَدَعَتْ عُبَيْرَةَ بِنْتُ عَنَمٍ قُدَارُ بْنُ سَالِفِ بْنِ جُنْدَعٍ، وَكَانَ رَجُلًا أَحْمَرَ أَرْزَقَ قَصِيرًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَانَ وَلَدَ زَيْتٍ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَبِيهِ الَّذِي يُنْسَبُ إِلَيْهِ وَهُوَ سَالِفٌ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: صَهْبَادٌ وَلَكِنْ وَلِدَ عَلَى فِرَاشِ سَالِفٍ. وَقَالَتْ لَهُ: أَعْطِيكَ أَيَّ بَنَاتِي شِئْتَ عَلَى أَنْ تَعْقِرَ النَّاقَةَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ انْطَلَقَ قُدَارُ بْنُ سَالِفٍ، وَمِصْدَعُ بْنُ مَهْرَجٍ فَاسْتَوْجَبَا غَوَاةً مِنْ ثَمُودَ فَاتَّبَعَهُمَا سَبْعَةُ نَفَرٍ، فَصَارُوا بِسَعَةِ رَهْطٍ وَهُمْ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ فِي الْوَادِيَةِ سَبْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨] وَكَانُوا رُؤَسَاءَ فِي قَوْمِهِمْ فَاسْتَمْلَأُوا الْقَبِيلَةَ الْكَافِرَةَ بِكَمَالِهَا فَطَاوَعْتُهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَانْطَلَقُوا فَارْصَدُوا النَّاقَةَ حِينَ صَدَرَتْ مِنَ الْمَاءِ، وَقَدْ كَمَنَ لَهَا قُدَارُ بْنُ سَالِفٍ فِي أَضْلٍ صَخْرَةٍ عَلَى طَرِيقِهَا، وَكَمَنَ لَهَا مِصْدَعُ بْنُ سَالِفٍ فِي أَضْلٍ أُخْرَى، فَمَرَّتْ عَلَى مِصْدَعٍ فَرَمَاهَا بِسَهْمٍ، فَانْتَظَمَ بِهِ غَضَلَةً سَاقِهَا وَخَرَجَتْ أُمُّ عَنَمٍ عُبَيْرَةُ

وَأَمَرَتْ ابْنَتَهَا وَكَانَتْ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا، فَسَفَرَتْ عَنْ وَجْهِهَا لِقُدَارٍ وَدَمَرَتْهُ، [فَشَدَّ] عَلَى النَّاقَةِ بِالسَّيْفِ فَكَسَفَ عُرْفُوبَهَا فَخَرَّتْ سَاقِطَةً إِلَى الْأَرْضِ وَرَعَتْ رُغَاةً وَاحِدَةً تُحَذِّرُ سَبْقَهَا ثُمَّ طَعَنَ فِي لَبَتِهَا فَنَحَرَهَا، وَانْطَلَقَ سَبْقُهَا وَهُوَ فَصِيلُهَا حَتَّى أَتَى جَبَلًا مَتِيعًا، فَصَعِدَ أَعْلَى صَخْرَةٍ فِيهِ وَرَعَا^(٢). فَزَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَمَّنْ سَمِعَ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَبِّ أَيْنَ أُمِّي؟ وَيُقَالُ: إِنَّهُ رَعَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَإِنَّهُ دَخَلَ فِي صَخْرَةٍ فَنَابَ فِيهَا، وَيُقَالُ: بَلَّ اتَّبَعُوهُ فَعَقَرُوهُ مَعَ أُمِّهِ^(٣). فَاللَّهُ أَعْلَمُ. فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ وَفَرَعُوا مِنَ عَقْرِ النَّاقَةِ وَبَلَغَ الْخَبَرُ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَجَاءَهُمْ وَهُمْ مُجْتَمِعُونَ، فَلَمَّا رَأَى النَّاقَةَ بَكَى وَقَالَ: ﴿تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [الآية: هود: ٦٥].

[مُحَاوَلَةُ الْمُفْسِدِينَ بِقَتْلِ صَالِحٍ وَبِدَايَةُ الْعَذَابِ بِهِمْ، ثُمَّ نَزُولُ الْعَذَابِ عَلَى ثَمُودَ]

وَكَانَ قَتْلُهُمُ النَّاقَةَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، فَلَمَّا أَمْسَى أُولَئِكَ الشَّعْثَةُ الرَّهْطُ عَزَمُوا عَلَى قَتْلِ صَالِحٍ وَقَالُوا: إِنْ كَانَ صَادِقًا عَجَلْنَاهُ قَبْلَنَا وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا أَلْحَقْنَاهُ بِنَاقَتِهِ ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾^(٤) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ^(٥) فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ مَكْرِهِمْ^(٦) [الآية: النمل: ٤٩-٥١]، فَلَمَّا عَزَمُوا عَلَى ذَلِكَ وَتَوَاطَوْا عَلَيْهِ، وَجَاوُوا مِنَ اللَّيْلِ لِيَفْتَكُوا بِنَبِيِّ اللَّهِ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلَهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً فَرَضَحَتْهُمْ سَلَفًا وَتَعَجِيلًا قَبْلَ قَوْمِهِمْ، وَأَصْبَحَ ثَمُودُ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَهُوَ الْيَوْمُ الْأَوَّلُ مِنْ أَيَّامِ النَّظَرَةِ وَوُجُوهُهُمْ مُصْفَرَّةٌ كَمَا وَعَدَهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَصْبَحُوا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي مِنْ أَيَّامِ التَّاجِيلِ وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَوُجُوهُهُمْ مُحْصَرَّةٌ، وَأَصْبَحُوا فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ مِنْ أَيَّامِ الْمَتَاعِ وَهُوَ يَوْمُ السَّبْتِ وَوُجُوهُهُمْ مُسَوَّدَةٌ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا مِنْ يَوْمِ الْأَحَدِ وَقَدْ تَحَنُّطُوا وَقَعْدُوا يَنْتَظِرُونَ نِقْمَةَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ - عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ - لَا يَذَرُونَ مَاذَا يُفْعَلُ بِهِمْ وَلَا كَيْفَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ، وَأَشْرَفَتِ الشَّمْسُ: جَاءَتْهُمْ صَيْحَةً مِنَ السَّمَاءِ وَرَجْفَةً شَدِيدَةً مِنْ أَسْفَلٍ مِنْهُمْ، فَفَاضَتْ الْأَرْوَاحُ وَرَهَقَتِ الثُّغُوسُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيًّا﴾^(٧) أَيَّ صَرَعَى لَا أَرْوَاحَ

(١) الطبري: ٥٣٧/١٢ (٢) الطبري: ٥٣١/١٢ (٣) عبد الرزاق: ٢٣١/٢ فيه شيخ معمر مبهم.

رِسَالَةَ رَبِّي وَصَحَّتْ لَكُمْ ﴿٧٩﴾ أَيُّ فَلَمْ تَتَّبِعُوا بِذَلِكَ، لِأَنَّكُمْ لَا تُحِبُّونَ الْحَقَّ وَلَا تَتَّبِعُونَ نَاصِحًا، وَلِهَذَا قَالَ ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾
[قِصَّةُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿و﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴿لُوطًا﴾ أَوْ تَقْدِيرُهُ: ﴿و﴾ اذْكُرْ ﴿لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ ﴿وَلُوطٌ هُوَ ابْنُ هَارَانَ بْنِ آزَرَ وَهُوَ ابْنُ أَحِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَكَانَ قَدْ آمَنَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهَاجَرَ مَعَهُ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ، فَبَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ سُدُومَ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الْقُرَى، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا كَانُوا يَزْكِيُونَهُ مِنَ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ وَالْفَوَاحِشِ الَّتِي اخْتَرَعُوهَا، لَمْ يَسْفِكْهُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ وَلَا غَيْرِهِمْ، وَهُوَ اثْنَانِ الذُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ، وَهَذَا شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ بَنُو آدَمَ تَعْبُدُهُ وَلَا تَأْلِفُهُ وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِمْ، حَتَّى صَنَعَ ذَلِكَ أَهْلُ سُدُومَ، عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ.

قَالَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ: مَا نَرَا ذَكَرَ عَلَى ذَكَرٍ حَتَّى كَانَ قَوْمُ لُوطٍ (٥). وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ أَيُّ عَدَلْتُمْ عَنِ النِّسَاءِ وَمَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْهُنَّ إِلَى الرِّجَالِ، وَهَذَا إِسْرَافٌ مِنْكُمْ وَجَهْلٌ، لِأَنَّهُ وَضَعَ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتٌ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [هود: ٧١]

فَأَرَشَدَهُمْ إِلَى نِسَائِهِمْ فَاعْتَدَرُوا إِلَيْهِ بِأَنَّهُمْ لَا يَشْتَهُونَهُنَّ، ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا رِيدُ﴾ [هود: ٧٩] أَيُّ لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَا إِزْبَ لَنَا فِي النِّسَاءِ وَلَا (١) الطبري: ٥٣٤/١٢ (٢) عبد الرزاق: ٢٣٢/٢ هذا مرسل كما قال ابن كثير وقد روي متصلًا عند أبي داود كتاب الخراج باب نبش القبور العادية يكون فيها المال (٣٠٨٨) وإسناده ضعيف بحير بن أبي بحير مجهول وقال ابن كثير: تفرد بوصله بحير بن أبي بحير هذا وهو شيخ لا يعرف إلا بهذا الحديث. أنظر أيضًا البداية والنهاية ١٥٨/١ وله شواهد ضعيفة. (٣) عبد الرزاق: ٢/ ٢٣٢ (٤) فتح الباري: ٣٥١/٧ ومسلم: ٢٢٠٣/٤ (٥) الطبري: ٥٤٨/١٢

فِيهِمْ، وَلَمْ يَفْلِتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ لَا صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ لَا ذَكَرٌ وَلَا أُنْثَى، قَالُوا: إِلَّا جَارِيَةً كَانَتْ مُفْعَدَةً وَاسْمُهَا كَلْبَةُ ابْنَةِ السَّلَوِيِّ، وَيُقَالُ لَهَا: الزُّرَيْقَةُ، وَكَانَتْ كَافِرَةً شَدِيدَةَ الْعَدَاوَةِ لِصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا رَأَتْ مَا رَأَتْ مِنَ الْعَذَابِ أَطْلَقَتْ رِجْلَاهَا، فَقَامَتْ تَسْعَى كَأَسْرَعَ شَيْءٍ، فَأَنْتَ حَيًّا مِنَ الْأَحْيَاءِ فَأَخْبَرْتَهُمْ بِمَا رَأَتْ وَمَا حَلَّ بِقَوْمِهَا ثُمَّ اسْتَسْقَتْهُمْ مِنَ الْمَاءِ، فَلَمَّا شَرِبَتْ مَاتَتْ (١).

قَالَ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ: وَلَمْ يَبْقَ مِنْ ذُرِّيَّةِ نَمُودَ أَحَدٍ سِوَى صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَنْ تَبِعَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، إِلَّا أَنَّ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ: أَبُو رِغَالٍ كَانَ لَمَّا وَقَعَتِ النَّفْثَةُ بِقَوْمِهِ مُقِيمًا إِذْ ذَاكَ فِي الْحَرَمِ فَلَمْ يُصِبْهُ شَيْءٌ، فَلَمَّا خَرَجَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ إِلَى الْجَلِّ جَاءَهُ حَجَرٌ مِنَ السَّمَاءِ فَفَتَلَهُ. قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ: أَخْبَرَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ أُمَيَّةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَبْرِ أَبِي رِغَالٍ فَقَالَ: «أَتَذَرُونَ مَنْ هَذَا؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذَا قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ رَجُلٍ مِنْ نَمُودَ، كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ فَمَنَعَهُ حَرَمُ اللَّهِ عَذَابَ اللَّهِ، فَلَمَّا خَرَجَ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ فَدُفِنَ هَاهُنَا، وَدُفِنَ مَعَهُ غَضُنٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَنَزَلَ الْقَوْمُ فَابْتَدَرُوهُ بِأَسْيَافِهِمْ فَبَحَثُوا عَنْهُ فَاسْتَخْرَجُوا الْغَضْنَ» (٢). وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الزُّهْرِيُّ: أَبُو رِغَالٍ: أَبُو ثَقِيفٍ (٣).

﴿فَقَتَلُوا عَنْهُمْ وَقَالَ يَفْقَهُوا لَقَدْ أَهْلَكْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَصَحَّتْ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾ (٧٩)

هَذَا تَفْرِيعٌ مِنْ صَالِحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِقَوْمِهِ، لَمَّا أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِمُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُ وَتَمَرُّدِهِمْ عَلَى اللَّهِ وَإِيَابَتِهِمْ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْهُدَى إِلَى الْعَمَى، قَالَ لَهُمْ صَالِحٌ ذَلِكَ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ، تَفْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَهُمْ يَسْمَعُونَ ذَلِكَ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا ظَهَرَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ أَقَامَ هُنَاكَ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَمَرَ بِرِجَالِهِ فَنُذِتْ بَعْدَ ثَلَاثٍ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَرَكِبَهَا ثُمَّ سَارَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى الْقَلْبِيبِ قَلِيبٍ بَدْرٍ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «يَا أَبَا جَهْلٍ بْنَ هِشَامٍ، يَا عُتْبَةَ بْنَ رِبْعَةَ، يَا شَيْبَةَ بْنَ رِبْعَةَ، وَيَا فُلَانُ ابْنَ فُلَانٍ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا» فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا تَكْلُمُ مِنْ أَقْوَامٍ قَدْ جِيئُوا؟ فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ - لِمَا أَقُولُ - مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لَا يُجِيبُونَ» (٤).

وَهَكَذَا صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿لَقَدْ أَهْلَكْتُمْكُمْ

إِرَادَةً، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مُرَادَنَا مِنْ أَضْيَافِكَ.

﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ (٨٢)

أَيَّ مَا أَجَابُوا لُوطًا إِلَّا أَنْ هُمَا بِإِخْرَاجِهِ وَتَفْيِهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، فَأَخْرَجَهُ اللَّهُ تَعَالَى سَالِمًا وَأَهْلَكَهُمْ فِي أَرْضِهِمْ صَاغِرِينَ مُهَانِينَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: غَابُوهُمْ بِغَيْرِ عَيْبٍ^(١). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ مِنْ أَذْبَارِ الرِّجَالِ وَأَذْبَارِ النِّسَاءِ^(٢). وَرَوَى مِثْلَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا^(٣).

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِينَ﴾ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٨٤)

يَقُولُ تَعَالَى: فَأَنجَيْنَا لُوطًا وَأَهْلَهُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ، سِوَى أَهْلِ بَيْتِهِ فَقَطَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٥) فَمَا وَدَّعْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الدَّارِيَات: ٣٥، ٣٦] إِلَّا امْرَأَتَهُ فَإِنَّهَا لَمْ تُؤْمِنْ بِهِ، بَلْ كَانَتْ عَلَى دِينِ قَوْمِهَا تَمَائِلُهُمْ عَلَيْهِ وَتَعْلُمُهُمْ بِمَنْ يَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ مِنْ ضَيْفَانِهِ بِإِشَارَاتِ بَيْنِهَا وَبَيْنَهُمْ. وَلِهَذَا لَمَّا أَمَرَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيُسْرِيَ بِأَهْلِهِ أَمَرَ أَنْ لَا يَعْلَمَهَا وَلَا يُخْرِجَهَا مِنَ الْبَلَدِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: بَلِ اتَّبَعْتُهُمْ فَلَمَّا جَاءَ الْعَذَابُ انْتَفَتَتْ هِيَ، فَأَصَابَهَا مَا أَصَابَهُمْ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّهَا لَمْ تَخْرُجْ مِنَ الْبَلَدِ وَلَا أَعْلَمَهَا لُوطٌ بَلْ بَقِيََتْ مَعَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِينَ﴾ أَيُّ الْبَاقِينَ.

وَقِيلَ: مِنَ الْهَالِكِينَ وَهُوَ تَفْسِيرٌ بِاللَّازِمِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ مُفَسَّرٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنُصُورٍ﴾ (٨٧) شَسُومَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ [هود: ٨٢، ٨٣] وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أَيُّ أَنْظُرْ يَا مُحَمَّدُ! كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَنْ يَجْتَرِئُ عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيُكَذِّبُ رُسُلَهُ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ^(٤).

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورُوا عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ

وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ (٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِينَ﴾ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٨٤) وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورُوا عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٧)

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨٥)

[قِصَّةُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَدْيَنَ]

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: هُمْ مِنْ سُلَالَةِ مَدْيَنَ بْنِ مَدْيَانَ ابْنِ إِدْرِاهِيمَ، وَشُعَيْبٌ وَهُوَ ابْنُ مَيْكِلَ بْنِ يَشْجَرَ، قَالَ: وَاسْمُهُ بِالسَّرَّانِيَّةِ يَثْرُونَ^(٥).

(قُلْتُ) مَدْيَنُ تُطْلَقُ عَلَى الْقَبِيلَةِ وَعَلَى الْمَدِينَةِ، وَهِيَ الَّتِي يَقْرُبُ مَعَانٍ مِنْ طَرِيقِ الْحِجَازِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا وَدَّ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْتَفُونَ﴾ [الفصص: ٢٣] وَهُمْ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ كَمَا سَنَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَبِهِ التَّكْفُّ. ﴿قَالَ يَنْقُورُوا عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ هَذِهِ دَعْوَةُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَيُّ قَدْ أَقَامَ اللَّهُ الْحُجَجَ وَالْبَيِّنَاتِ عَلَى صِدْقِ مَا جِئْتُمْ بِهِ، ثُمَّ وَعَظَهُمْ فِي مَعَامَلَتِهِمُ النَّاسَ بِأَنْ

(١) الطبري: ٥٥٠/١٢ (٢) الطبري: ٥٥٠/١٢ (٣) الطبري:

٥٥٠/١٢ (٤) أحمد: ٣٠٠/١ والترمذي: ١٤٥٦ وأبو داود:

٤٤٦٢ وابن ماجه: ٢٥٦١ (٥) الطبري: ٥٥٤/١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٦٢

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿٨٦﴾ قَالَ أَلَمَّا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِبُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ
كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٧﴾ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ
بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مَتَابًا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاحِشِينَ ﴿٨٨﴾ وَقَالَ أَلَمَّا
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنْ كُنَّا إِذَا الْخَسِرُونَ
﴿٨٩﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٩٠﴾
الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا
كَأَنَّهُمْ الْخَاسِرِينَ ﴿٩١﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ
أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأُ
عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا
أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٣﴾ ثُمَّ
بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ
آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٩٤﴾

وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ
قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاحِشِينَ ﴿٨٨﴾

هَذَا خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا وَاجَهَتْ بِهِ الْكُفَّارُ بَيْنَهُ شُعَيْبًا
وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَعُّدِهِمْ إِثَابَهُ وَمَنْ مَعَهُ بِالْقِيَامِ عَنْ
الْقَرْيَةِ أَوْ الْإِكْرَاهِ عَلَى الرُّجُوعِ فِي مِلَّتِهِمْ وَالْدُخُولِ مَعَهُمْ
فِيمَا هُمْ فِيهِ، وَهَذَا خِطَابٌ مَعَ الرُّسُولِ، وَالْمُرَادُ أَتْبَاعُهُ
الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ عَلَى الْمِلَّةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾
يَقُولُ: أَوْ أَنتُمْ فَاعِلُونَ ذَلِكَ وَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ مَا تَدْعُونَا
إِلَيْهِ! فَإِنَّا إِنْ رَجَعْنَا إِلَى مِلَّتِكُمْ وَدَخَلْنَا مَعَكُمْ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ،
فَقَدْ أَعْظَمْنَا الْفِرْيَةَ عَلَى اللَّهِ فِي جَعْلِ الشُّرَكَاءِ مَعَهُ أَتْدَادًا،
وَهَذَا تَعْيِيرٌ مِنْهُ عَنْ أَتْبَاعِهِ ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ وَهَذَا رَدٌّ إِلَى الْمَشِيشَةِ، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ
وَقَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أَيُّ فِي أُمُورِنَا
مَا نَأْتِي مِنْهَا وَمَا نَذَرُ ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾

يُوفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ وَلَا يَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ،
أَيُّ لَا يَحُونُوا النَّاسَ فِي أَمْوَالِهِمْ وَيَأْخُذُوا بِهَا عَلَى وَجْهِ
الْبَخْسِ وَهُوَ: نَقْصُ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ خُفْيَةً وَتَذْلِيلًا،
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
[المطففين: ٦-١] وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، نَسَأُ اللَّهُ
الْعَاقِبَةَ مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ شُعَيْبٍ الَّذِي يَقَالُ
لَهُ: خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ، لِفَصَاحَةِ عِبَارَتِهِ، وَجَزَالَةِ مُوَاعِظِهِ.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْذِرُوا إِذْ كُنْتُمْ
قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٨٨﴾
وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ
لَمْ يُؤْمَرُوا فَأَصْبِرُوا حَتَّى يَخُوكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٩﴾
بَيْنَهُمْ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ الْحِصِيِّ
وَالْمَعْنَوِيِّ يَقُولُهُ: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾
أَيُّ تَتَوَعَّدُونَ النَّاسَ بِالْقَتْلِ إِنْ لَمْ يُعْطَوْكُمْ أَمْوَالَهُمْ. قَالَ
السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: كَانُوا عَشَارِينَ^(١). وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ
وَمُجَاهِدٍ وَغَيْرِ وَاحِدٍ ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾
أَيُّ تَتَوَعَّدُونَ الْمُؤْمِنِينَ الْآتِينَ إِلَى شُعَيْبٍ لِيَتَّبِعُوهُ^(٢).
وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ وَهُوَ الطَّرِيقُ
وَهَذَا الثَّانِي هُوَ قَوْلُهُ ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ
بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أَيُّ وَتَوَدُّونَ أَنْ تَكُونَ سَبِيلُ اللَّهِ
عِوَجًا مَائِلَةً ﴿وَأَنْذِرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ﴾ أَيُّ
كُنْتُمْ مُسْتَضْعَفِينَ لِقِلَّتِكُمْ فَصَرْنَاهُمْ أَعَزَّةً لِكَثْرَةِ عَدَدِكُمْ فَأَذْكُرُوا
نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ ﴿وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ
الْمُفْسِدِينَ﴾ أَيُّ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ وَالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ، وَمَا
حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ بِاجْتِرَائِهِمْ عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ
وَتَكْذِيبِ رُسُلِهِ.

وَقَوْلُهُ ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ
بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمَرُوا﴾ أَيُّ قَدْ اخْتَلَفْتُمْ عَلَيَّ ﴿فَأَصْبِرُوا﴾ أَيُّ
إِنْتَظَرُوا ﴿حَتَّى يَخُوكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ وَبَيْنَكُمْ أَيُّ بِفَصْلِ ﴿وَهُوَ
خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فَإِنَّهُ سَيَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ، وَالْدَّمَارَ عَلَى
الْكَافِرِينَ.

﴿٨٩﴾ قَالَ أَلَمَّا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِبُ وَالَّذِينَ
آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا
كَارِهِينَ ﴿٩٠﴾ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ
جَعَلْنَا اللَّهُ مَتَابًا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا

﴿يَقُولُ لَقَدْ أَلْبَسْتُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أَي قَدْ أَدَبْتُ إِلَيْكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ فَلَا آسَفَ عَلَيْكُمْ وَقَدْ كَفَرْتُمْ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسِءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَعُونَ﴾ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاؤُنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥)

[إِتِلَاءُ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ]

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَمَّا اخْتَبَرَ بِهِ الْأُمَمُ الْمَاضِيَةُ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الْأَنْبِيَاءُ، بِالْبَاسِءِ وَالضَّرَاءِ، يَعْنِي بِالْبَاسِءِ مَا يُصِيبُهُمْ فِي أَبْدَانِهِمْ مِنْ أَمْرَاضٍ وَأَسْقَامٍ، وَالضَّرَاءِ مَا يُصِيبُهُمْ مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَعُونَ﴾، أَي يَدْعُونَ وَيَخْشَعُونَ وَيَتَهَلَّلُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي كُشْفِ مَا نَزَلَ بِهِمْ، وَتَقْدِيرِ الْكَلَامِ: أَنَّهُ ائْتَلَاهُمْ بِالشَّدَةِ لِيَتَضَرَّعُوا، فَمَا فَعَلُوا شَيْئًا مِنَ الَّذِي أَرَادَ مِنْهُمْ، فَقَلَبَ عَلَيْهِمُ الْحَالَ إِلَى الرَّخَاءِ لِيُخَبِّرَهُمْ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أَي حَوَّلْنَا الْحَالَ مِنْ شِدَّةٍ إِلَى رَخَاءٍ، وَمِنْ مَرَضٍ وَسُقْمٍ إِلَى صِحَّةٍ وَعَافِيَةٍ، وَمِنْ فَقْرٍ إِلَى غِنَى لِيَشْكُرُوا عَلَىٰ ذَلِكَ فَمَا فَعَلُوا، وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾ أَي كَثُرُوا وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوَّلَادُهُمْ، يُقَالُ: عَفَا الشَّيْءُ إِذَا كَثُرَ.

﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاؤُنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَىٰ: ائْتَلَيْنَاهُمْ بِهَذَا وَهَذَا، لِيَتَضَرَّعُوا وَيُتُوبُوا إِلَى اللَّهِ فَمَا نَجَّعَ فِيهِمْ لَا هَذَا وَلَا هَذَا، وَلَا ائْتَهُوا بِهَذَا وَلَا بِهَذَا، بَلْ قَالُوا: قَدْ مَسَّنَا مِنَ الْبَاسِءِ وَالضَّرَاءِ، ثُمَّ بَعَدَهُ مِنَ الرَّخَاءِ مِثْلُ مَا أَصَابَ آبَاءَنَا فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَالذَّهْرِ، وَإِنَّمَا هُوَ الذَّهْرُ تَارَتْ وَتَارَتْ، بَلْ لَمْ يَتَفَقَّطُوا لِأَمْرِ اللَّهِ فِيهِمْ وَلَا اسْتَشْعَرُوا ائْتِلَاءَ اللَّهِ لَهُمْ فِي الْحَالَيْنِ، وَهَذَا بِخِلَافِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى السَّرَّاءِ وَيَضَّرَعُونَ عَلَى الضَّرَّاءِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (١). فَأَلْمُومُ مَنْ يَتَفَقَّطُ لِمَا ائْتَلَاهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءِ، وَلِهَذَا عَقَّبَ هَذِهِ الصِّفَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَي أَخَذْنَاهُمْ بِالْعُقُوبَةِ بَغْتَةً،

أَي أَحْكَمُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا وَانْضَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاضِلِينَ﴾ أَي خَيْرُ الْحَاكِمِينَ، فَإِنَّكَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ أَبَدًا.

﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِن اتَّبَعْتُمْ شَيْئًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَيْرُونَ﴾ (٩٦) فَأَخَذْتُهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ (٩٧) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَان لَمْ يَنْتَوُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٨)

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ شِدَّةِ كُفْرِهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَمَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْمُخَالَفَةِ لِلْحَقِّ، وَلِهَذَا أَقْسَمُوا وَقَالُوا: ﴿لَئِن اتَّبَعْتُمْ شَيْئًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَيْرُونَ﴾ فَلِهَذَا عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَخَذْتُهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ﴾ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ هُنَا: أَنَّهُمْ أَخَذْنَاهُمُ الرِّجْفَةَ، وَذَلِكَ كَمَا أَرَجَفُوا شُعْبًا وَأَصْحَابَهُ وَتَوَعَّدُوهُمْ بِالْجَلَاءِ - كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي سُورَةِ هُودٍ فَقَالَ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْثَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِيمِينَ﴾ [هود: ٩٤] - وَالْمُنَاسِبَةُ هُنَاكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَنَّهُمْ لَمَّا تَهَكَّمُوا بِهِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿أَسْأَلُكَ تَأْمُرُكَ﴾ الْآيَةُ [هود: ٨٧]، فَجَاءَتِ الصَّيْثَةُ فَأَسْكَتَتْهُمْ. وَقَالَ تَعَالَىٰ إِخْبَارًا عَنْهُمْ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الشُّعَرَاءِ: ١٨٩] وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ فِي سَبَاقِ الْقِصَّةِ: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الشُّعَرَاءِ: ١٨٧] الْآيَةَ. فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَصَابَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ، وَقَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ كُلُّهُ ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ﴾ وَهِيَ سَحَابَةٌ أَظْلَمَتْ فِيهَا شَرٌّ مِنْ نَّارٍ وَلَهَبٍ وَوَهَجٍ عَظِيمٍ، ثُمَّ جَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ وَرَجْفَةٌ مِنَ الْأَرْضِ شَدِيدَةٌ مِنْ أَسْفَلٍ مِنْهُمْ، فَزَهَقَتِ الْأَرْوَاحُ وَفَاضَتِ النُّفُوسُ وَخَمَدَتِ الْأَجْسَامُ ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَانَ لَمْ يَنْتَوُوا فِيهَا﴾ أَي كَانَتْهُمْ لَمَّا أَصَابَتْهُمْ النِّقْمَةُ لَمْ يُقِيمُوا بِدِيَارِهِمُ الَّتِي أَرَادُوا إِجْلَاءَ الرُّسُولِ وَصَحْبِهِ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُقَابِلًا لِقِيلِهِمْ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿فَقَوْلَىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَقُولُوا لَقَدْ أَلْبَسْتُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٩٩) أَي فَقَوْلَىٰ عَنْهُمْ شُعْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنِّقْمَةِ وَالنَّكَالِ، وَقَالَ مُقَرَّعًا لَهُمْ وَمُؤَبِّحًا:

أَيَّ عَلَى بَعْتِهِ، وَعَدَمَ شُعُورِ مِنْهُمْ، أَيَّ أَخَذْنَاهُمْ فَجَاءَهُ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «مَوْتُ الْفَجَاءِ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ، وَأَخْذُهُ أَسْفَى لِلْكَافِرِ»^(١).

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَادِيُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضَيًّا وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

[الْبَرَكَاتُ مَعَ الْإِيمَانِ وَالْبَطْشُ مَعَ الْكُفْرِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قَلِيلٍ إِيْمَانٍ أَهْلِ الْقُرَى الَّذِينَ أُرْسِلَ فِيهِمْ
الرُّسُلُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا
إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْا لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] أَيَّ مَا ءَامَنَتْ
قَرْيَةٌ بِتَمَامِهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْا، فَإِنَّهُمْ ءَامَنُوا وَذَلِكَ بَعْدَمَا
عَاقَبُوا الْعَذَابَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ
زَيْدٍ وَرَبِّكَ يَعْلَمُ﴾ [الصافات: ١٢٧] فَتَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ [الصافات: ١٢٨]

[148, 149]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ﴾ الْآيَةَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أَيْ آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ بِمَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ وَصَدَّقَتْ بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَاتَّقَوْا بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ وَتَرَكِ الْمَحْرَمَاتِ ﴿فَلَنَنصَحَنَّ عَلَيْهِم بِرُكُودِهِمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ قَطَرُ السَّمَاءِ وَنَبَاتُ الْأَرْضِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِن كَذَّبُوا فَاعَذَّبْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أَيْ وَلَكِنْ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ فَعَاقَبْنَاهُمْ بِالْهَلَاكِ عَلَى مَا كَسَبُوا مِنَ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُحَذِّرًا وَمُحَذَّرًا مِنْ مُخَالَفَةِ أَوَامِرِهِ وَالتَّجَرُّؤِ عَلَى زَوَاجِرِهِ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ الْكَاثِرَةُ ﴿أَن يَأْتِيَهُمْ﴾ أَيْ الْيَأْتِيَهُمْ ﴿أَيَّ عَذَابًا وَكَانُوا لَا يَتَّقُونَ﴾ أَيْ لَيْلًا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بِأَسَاسًا ضَعِيفٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أَيْ فِي حَالِ شُغْلِهِمْ وَغَفْلَتِهِمْ ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ أَيْ بِأَسَاسِهِ وَرِيقَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَيْهِمْ وَأَحْذَهُ إِيَّاهُمْ فِي حَالِ سَهْوِهِمْ وَغَفْلَتِهِمْ ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وَلِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَجَمَهُ اللَّهُ: الْمُؤْمِنُ يَعْمَلُ بِالطَّاعَاتِ وَهُوَ مُشْفِقٌ وَجَلَّ خَائِفٌ، وَالْفَاجِرُ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي وَهُوَ آمِنٌ.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَحْنَاهُمْ دَابَّةً وَنَحْنُ مُنْظِرُونَ﴾

سُورَةُ الْأَعْقَابِ

165

الحمد لله

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ
مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿١٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا
وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا
ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ
مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ
يَرْتُوبُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْشَاءَ أَصْبَابُهُمْ
يَذُوبُهُمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾
بَلَّغْنَا الْقُرَىٰ نَقْصَ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبِيَآيَهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ
كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿٢١﴾ وَمَا وَجَدْنَا
لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿٢٢﴾
ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
ظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرْتُهُمْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢٣﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٤﴾

يَسْمَعُونَ

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ
لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أَوْ لَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ أَنَّ
لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ (٢).
وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهَا: يَقُولُ تَعَالَى: أَوْ لَمْ
يُبَيِّنْ لِلَّذِينَ يَسْتَخْلِفُونَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ إِهْلَاكِ آخَرِينَ
قَبْلَهُمْ كَانُوا أَهْلَهَا، فَسَارُوا سِيرَتَهُمْ وَعَمِلُوا أَعْمَالَهُمْ وَعَتَوْا
عَلَى رَبِّهِمْ ﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْتَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ يَقُولُ: أَنَّ لَوْ
نَشَاءُ فَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا فَعَلْنَا بِمَنْ قَبْلَهُمْ ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾
يَقُولُ وَنَحْتِمُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ مَوْعِظَةٌ وَلَا
تَذَكُّرٌ (٣).

(قُلْتُ) وَهَكَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا

الَّتِي ﴿طه: ١٢٨﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ
 أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦] وَقَالَ: ﴿أَوَلَمْ
 تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ
 فِي مَسَاجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٥] وَقَالَ
 تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِصُّ مِنْهُمْ مِّن أَحَدٍ أَوْ
 تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [طه: ٩٨] أَيْ هَلْ تَرَى لَهُمْ شَخْصًا أَوْ
 تَسْمَعُ لَهُمْ صَوْتًا؟ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى
 حُلُولِ نِقْمِهِ بِأَعْدَائِهِ وَحُصُولِ نِعْمِهِ لِأَوْلِيَائِهِ، وَلِهَذَا عَقَّبَ
 بِقَوْلِهِ وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ وَرَبُّ الْعَالَمِينَ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي كَانَتْ لِلْجُنُودِ الَّتِي كَانَتْ تَكْفُرُ بِآيَاتِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَكَانَتْ تَبْطُلُ بِمَا كَانَتْ تَعْمَلُ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَنَنُوا أَنَّهُمْ كَانُوا مَعَهُ لَكُنُوا يُفَكَّرُونَ﴾

لَمَّا قَصَّ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ خَبَرَ قَوْمِ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ
وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ، وَمَا كَانَ مِنْ إِهْلَاكِهِ الْكَافِرِينَ وَإِنْجَائِهِ
الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّهُ تَعَالَى أَعْدَرَ إِلَيْهِمْ بِأَنْ يَبَيِّنَ لَهُمُ الْحَقَّ
بِالْحُجَجِ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ،
قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ الْقَرْنَى نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أَيَّ يَا مُحَمَّدُ! ﴿مِنْ
أَنْبِيَآءٍ﴾ أَيَّ مِنْ أَخْبَارِهِمَا ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيَّ
الْحُجَجِ عَلَى صِدْقِهِمْ فِيمَا أَخْبَرُوهُمْ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَقَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ
وَحَصِيدٌ﴾ (١٠٠) وَمَا طَلَعَتْهُمْ وَلَكِنْ طَلَعُوا أَنْفُسَهُمْ ﴿هود: ١٠٠،
١٠١﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا كَانُوا يُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ
قَبْلُ﴾ الْآبَاءُ سَبَبُهُ، أَيَّ فَمَا كَانُوا يُؤْمِنُوا بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ
الرُّسُلُ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ أَوَّلَ مَا وَرَدَ عَلَيْهِمْ. حَكَاهُ
ابْنُ عَطِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَهُوَ مُتَّجِهٌ حَسَنٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا
يُشِيرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١١٩) وَنَقَلَبَ أَقْسَمَتَهُمْ
وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿الْآيَةُ (لِالْإِنْعَامِ:
١٠٩، ١١٠). وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿كَذَلِكَ يَطْمَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ

١٦٤

حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ
بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ
جِئْتَ بِبَيِّنَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَى
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءُ
لِّلنَّظِيرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السَّحَرُ
عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾
قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تَوَكُّ
يَكْلِ السَّحَرِ عَلَيْهِ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ
لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ
لَمِنَ الْمُفْرَقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّمَا أَن تُلْقِيَ وَإِنَّمَا
نَكُونُ نَحْنُ الْمُثْلِقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَتَقُولُوا الْقَوْلَ الْفَوَاسِخَ سِحْرُ
أَعْيُنِ النَّاسِ وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءَ وَيَسْحَرُ عَظِيمٌ ﴿١١٦﴾
وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن لِّقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا
يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَّعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا
هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ

فَاقْرَءُوا بِذَلِكَ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِهِ. وَخَالِفُوهُ وَتَرَكُوهُ
وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَعَبَدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ لَأَمِنْ
عَقْلٍ وَلَا شَرْعٍ - وَفِي الْفُطْرَةِ السَّلِيمَةِ خِلَافُ ذَلِكَ -
وَجَاءَتِ الرُّسُلُ الْكِرَامُ مِنْ أَوْلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ بِالنَّهْيِ عَنْ
ذَلِكَ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنِّي
خَلَقْتُ عِبَادِي حَقَاءً، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ
دِينِهِمْ، وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ»^(١). وَفِي
الصَّحِيحَيْنِ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفُطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِيهِ
وَنَصْرَانِيهِ وَنَجَسَانِيهِ»^(٢). الْحَدِيثُ.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۖ فَظَلَمُوا بِهَا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿١٢٦﴾

[قِصَّةُ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَشَّرْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أَي الرُّسُلِ الْمُتَقَدِّمِ

(۱) مسلم: ۴/۲۱۹۷ (۲) فتح الباری: ۳/۲۹۰ و مسلم: ۴/

هَارُونَ عَنِ الْأَصْخِ بْنِ زَيْدٍ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ أَبِي أَيُّوبَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: ﴿فَأَلْفَى عَصَاهُ﴾ فَتَحَوَّلَتْ حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ فَاعْرَا فَاهَا مُسْرِعَةً إِلَى فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا رَأَاهَا فِرْعَوْنَ أَنَّهَا قَاصِدَةٌ إِلَيْهِ اقْتَحَمَ عَنْ سَرِيرِهِ وَاسْتَعَاثَ بِمُوسَى أَنْ يَكْفِهَا عَنْهُ فَفَعَلَ^(٣). وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا هِيَ تَعْبَانُ مِثْنُ﴾ الثُّعْبَانُ الذَّكَرُ مِنَ الْحَيَّاتِ، فَاتِحَةٌ فَاهَا وَاضِعَةٌ لَحْيَاهَا الْأَسْفَلَ فِي الْأَرْضِ وَالْأَعْلَى عَلَى سُورِ الْقَصْرِ، ثُمَّ تَوَجَّهَتْ نَحْوَ فِرْعَوْنَ لِتَأْخُذَهُ، فَلَمَّا رَأَاهَا دَعَرَ مِنْهَا وَوَتَبَ وَأَخَذَتْ، وَلَمْ يَكُنْ يُحَدِّثُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَصَاحَ يَا مُوسَى! خُذْهَا وَأَنَا أُوْمِنُ بِكَ وَأُرْسِلُ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَخَذَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَعَادَتْ عَصَا^(٤).

وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيْضَاءُ لِلنَّظِيرِ﴾ أَيُّ أَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ دَرْعِهِ بَعْدَ مَا أَدْخَلَهَا فِيهِ، فَإِذَا هِيَ بِيْضَاءُ تَتَلَأَلُّ مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ وَلَا مَرَضٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بِيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ [الزُّمَر: ١٢]. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي حَدِيثِ الْفُتُونِ: ﴿مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ يَعْنِي مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ، ثُمَّ أَعَادَهَا إِلَى كُمِّهِ فَعَادَتْ إِلَى لَوْنِهَا الْأَوَّلِ^(٥). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(٦).

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِجْرٌ عَلِيمٌ﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَنْصَبِكَ فَمَازَا تَأْمُرُونَ^(٧). [قَوْلُ قَوْمِ فِرْعَوْنَ فِي مُوسَى: إِنَّهُ سَاحِرٌ وَاتَّفَقَهُمْ عَلَى مُعَارَضَتِهِ بِالسَّحَرَةِ]

أَيُّ قَالَ الْمَلَأُ - وَهُمْ الْجُمْهُورُ وَالسَّادَةُ - مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ مُوَافِقِينَ لِقَوْلِ فِرْعَوْنَ فِيهِ بَعْدَمَا رَجَعَ إِلَيْهِ رَوْعُهُ وَاسْتَقَرَّ عَلَى سَرِيرِ مَمْلَكَتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ، قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِجْرٌ عَلِيمٌ﴾ فَوَافَقُوا وَقَالُوا كَمَا قَالَتْهُ وَتَشَاوَرُوا فِي أَمْرِهِ كَيْفَ يَصْنَعُونَ فِي أَمْرِهِ؟ وَكَيْفَ تَكُونُ حِيلَتُهُمْ فِي إِطْفَاءِ نُورِهِ وَإِخْمَادِ كَلِمَتِهِ وَظُهُورِ كَيْدِهِ وَافْتِرَائِهِ؟ وَتَخَوُّوا أَنْ يَسْتَمِيلَ النَّاسُ بِسِحْرِهِ - فِيمَا يَعْتَقِدُونَ - فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لظُهُورِهِ عَلَيْهِمْ وَإِخْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ، وَالَّذِي خَافُوا مِنْهُ وَقَعُوا فِيهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

(١) الطبري: ١٦/١٣ (٢) الطبري: ١٧/١٣ (٣) الطبري: ١٦/١٣ مسند أبي يعلى (٢٦١٨) ١٠/٥-٢٩ مطولا والسنن الكبرى للنسائي وذكره ابن كثير أيضا في تفسير سورة طه: ٤٠. (٤) الطبري: ١٥/١٣ (٥) الطبري: ١٧/١٣ (٦) الطبري: ١٨/١٣

ذَكَرَهُمْ كَنُوحٌ وَهُودٌ وَصَالِحٌ وَلُوطٌ وَشُعَيْبٌ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى سَائِرِ أَنْبِيََاءِ اللَّهِ أَجْمَعِينَ. ﴿مُوسَى يَتَذَكَّرُ﴾ أَيُّ بِحُجَّتِنَا وَدَلَالَتِنَا الْبَيِّنَةِ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَهُوَ مَلِكٌ مُضَرٌّ فِي زَمَنِ مُوسَى ﴿وَمَلَكِهِ﴾ أَيُّ قَوْمِهِ ﴿فَطَلَّمُوا بِهَا﴾ أَيُّ جَحَدُوا وَكَفَرُوا بِهَا ظُلْمًا مِنْهُمْ وَعِنَادًا، وَكَفَّوْهُ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤] أَيُّ الَّذِينَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، أَيُّ انْظُرْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ، أَعَرَفْتَاهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ بِمَرَأَى مِنْ مُوسَى وَقَوْمِهِ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي التَّكَاثُفِ بِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَأَشْفَى لِقُلُوبِ أَوْلِيَائِ اللَّهِ مُوسَى وَقَوْمِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَفِرْعَوْنَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَلَا تَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مُنَاطَرَةِ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ وَالْجَامِهِ إِثَّاهُ بِالْحُجَّةِ وَإِظْهَارِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ بِحُضْرَةِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ مِنْ قَبْطٍ مُضَرٍّ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَفِرْعَوْنَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيُّ أَرْسَلَنِي الَّذِي هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِكُهُ، ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أَيُّ وَاجِبٌ وَحَقٌّ عَلَى ذَلِكَ أَنْ لَا أُخْبِرَ عَنْهُ إِلَّا بِمَا هُوَ حَقٌّ وَصَدَقٌ، لِمَا أَعْلَمُ مِنْ جَلَالِهِ وَعَظِيمِ شَأْنِهِ ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَيُّ بِحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ مِنَ اللَّهِ أَعْطَانِيهَا ذَلِيلًا عَلَى صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أَيُّ أَطْلِقْهُمْ مِنْ أَسْرِكَ وَتَهْلِكَ، وَدَعْهُمْ وَعِبَادَةَ رَبِّكَ وَرَبِّهِمْ، فَإِنَّهُمْ مِنْ سُلَالَةِ نَبِيِّ كَرِيمٍ إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَلَا تَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أَيُّ قَالَ فِرْعَوْنُ: لَسْتُ بِمُصَدِّقِكَ فِيمَا قُلْتَ وَلَا بِمُطِيعِكَ فِيمَا طَلَبْتَ، فَإِنْ كَانَتْ مَعَكَ حُجَّةٌ فَأَظْهَرَهَا لِنَرَاهَا إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِيمَا ادَّعَيْتَ.

﴿فَأَلْفَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَعْبَانُ مِثْنُ﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيْضَاءُ لِلنَّظِيرِ

[عَصَا مُوسَى وَيَدُهُ الْبِيْضَاءُ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَعْبَانُ مِثْنُ﴾ الْحَيَّةُ الذَّكَرُ^(١). وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ وَالضَّحَّاكُ^(٢). وَفِي حَدِيثِ الْفُتُونِ مِنْ رِوَايَةِ يَزِيدَ بْنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٦٥

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

قَالُوا أَمْ آتَيْنَا رَبَّ الْأَعْلِينَ ﴿١٦١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٦٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَنْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَضِلَّ بِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٦٥﴾ وَمَا نَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَ تَنَارُ بَنِي إِفْرَءٍ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّأَ مُسْلِمِينَ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْعِلَاقَ قَالُوا سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٦٨﴾ قَالُوا أَوِذْ بِنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٧٠﴾

﴿فَلَمَّا أَتَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَهَوَوْهُمُ﴾ أَيَّ خَبَلُوا إِلَى الْأَبْصَارِ أَنْ مَا فَعَلُوا لَهُ: حَقِيقَةُ فِي الْخَارِجِ وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا مُجَرَّدُ صُنْعَةٍ وَخَيَالٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى﴾ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿١٨﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرِ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ ﴿طه: ٦٧-٦٩﴾.

رَوَى سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَلْقَوْا جِبَالَ غِلَاطًا وَخَشَبًا طَوَالًا، قَالَ: فَأَقْبَلْتُ بُخَيْلٌ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ^(٢).

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ ﴿١٧١﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٢﴾ فَعُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَافِرِينَ ﴿١٧٣﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴿١٧٤﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْأَعْلِينَ ﴿١٧٥﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٧٦﴾

﴿وَرَبِّي فِرْعَوْنُ وَهَمَنَ وَجُنُودُهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦] فَلَمَّا تَشَاوَرُوا فِي شَأْنِهِ وَاتَّخَمُوا بِمَا فِيهِ، اتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى مَا حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا أَزِجُّهُ وَآخَاهُ وَارْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿أَزِجُّهُ﴾ أَخْزَهُ ^(١) ﴿وَارْسِلْ﴾ أَيَّ إِنْجَثَ ﴿فِي الْمَدَائِنِ﴾ أَيَّ فِي الْأَقَالِيمِ وَمَدَائِنِ مُلْكِكَ ﴿حَاشِرِينَ﴾ أَيَّ مَنْ يَحْشُرُ لَكَ السَّحَرَةَ مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ وَيَجْمَعُهُمْ وَقَدْ كَانَ السَّحَرُ فِي زَمَانِهِمْ غَالِبًا كَثِيرًا ظَاهِرًا، وَاعْتَقَدَ مَنْ اعْتَقَدَ مِنْهُمْ وَأَوْهَمَ مَنْ أَوْهَمَ مِنْهُمْ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَبِيلٍ مَا تَسْعِيْدُهُ سَحَرُهُمْ، فَلِهَذَا جَمَعُوا لَهُ السَّحَرَةَ لِيُعَارِضُوهُ بِظَهْرِ مَا أَرَاهُمْ مِنَ الْبَيِّنَاتِ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ حَيْثُ قَالَ: ﴿فَلَسْنَا بِأَتَيْنَكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُغْلِبُكَ عَنْهُ وَلَا أَنْتَ مَكَاكُنَا سَوَى﴾ ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ الْإِنْسُ صُحَى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿طه: ٥٨-٦٠﴾ وَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ ﴿٦١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٦٢﴾ [اجْتِمَاعُ السَّحَرَةِ وَمُقَابَلَتُهُمْ مَعَ مُوسَى وَتَمْوِيهِهُمْ فِي تَحْوِيلِ جِبَالِهِمْ وَعَصِيهِمْ حَيَاتٍ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَشَارَطَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَالسَّحَرَةُ الَّذِينَ اسْتَدْعَاهُمْ لِمُعَارَضَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِنَّ غَلَبُوا مُوسَى لَيُخْشِرُهُمْ وَلَيُعْطِيَهُمْ عَطَاءَ جَزِيلًا، فَوَعَدَهُمْ وَمَنَاهُمْ أَنْ يُعْطِيَهُمْ مَا أَرَادُوا وَيَجْعَلُهُمْ مِنْ جُلَسَائِهِ وَالْمُقَرَّبِينَ عِنْدَهُ، فَلَمَّا تَوَقَّعُوا مِنْ فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللَّهُ -.

﴿قَالُوا بِمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ ﴿٦٣﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَهَوَوْهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿٦٤﴾

هَذِهِ مَبَارَزَةٌ مِنَ السَّحَرَةِ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ أَيَّ قَبْلَكَ. كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلِمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ ﴿طه: ٦٥﴾ فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿أَلْقُوا﴾ أَيَّ أَنْتُمْ أَوَّلًا. قِيلَ: أَلِحْكُمَةُ فِي هَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لِيَرَى النَّاسُ صَنِيعَهُمْ وَيَتَأَمَّلُوا، فَإِذَا فَرَعُوا مِنْ بَهْرَجِهِمْ وَمَحَالِهِمْ جَاءَهُمُ الْحَقُّ الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ بَعْدَ التَّطَلُّبِ لَهُ وَالْإِنْتِظَارِ مِنْهُمْ لِمَجِيئِهِ، فَيَكُونُ أَوْقَعَ فِي النَّفْسِ، وَكَذَا كَانَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

[غَلَبَةُ مُوسَى وَإِيمَانُ السَّحَرَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي ذَلِكَ الْمُوقِفِ الْعَظِيمِ الَّذِي فَرَّقَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِأَمْرِهِ بِأَنْ يُلْقَى مَا فِي يَمِينِهِ وَهِيَ عَصَاهُ ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ أَي تَأْكُلُ ﴿مَا يَأْكُونُ﴾ أَي مَا يُلْقَوْنَهُ وَيُوهِمُونَ أَنَّهُ حَقٌّ وَهُوَ بَاطِلٌ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَجَعَلَتْ لَا تَمُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ جِبَالِهِمْ وَلَا مِنْ خَشَبِهِمْ إِلَّا اتَّقَمَّتْهُ فَعَرَفَتْ السَّحَرَةَ أَنَّ هَذَا شَيْءٌ مِنَ السَّمَاءِ لَيْسَ هَذَا بِسِحْرِ فَحَرُّوا سُجَّدًا وَقَالُوا: ﴿أَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: جَعَلَتْ [تَبْتَلِعُ] تِلْكَ الْجِبَالَ وَالْعِصْيَ وَاحِدَةً وَاحِدَةً، حَتَّى مَا يَرَى بِالْوَادِي قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ مِمَّا أَلْقَوْا، ثُمَّ أَخَذَهَا مُوسَى إِذَا هِيَ عَصَا فِي يَدِهِ كَمَا كَانَتْ، وَوَقَعَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا: أَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ لَوْ كَانَ هَذَا سَاحِرًا مَا غَلَبَنَا^(١). وَقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ أَبِي بَرَّةَ: أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ أَلْقِيَ عَصَاكَ، فَأَلْقَى عَصَاهُ إِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ فَاعْرِ فَا هُ تَبْتَلِعُ جِبَالَهُمْ وَعِصْيَهُمْ فَأَلْقَى السَّحَرَةَ عِنْدَ ذَلِكَ سُجَّدًا، فَمَا رَعَوْا رُؤُوسَهُمْ حَتَّى رَأَوْا الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَتَوَابَ أَهْلُهُمَا^(٢).

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَاْمَنْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاْدَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوْا فِي الْمَدِيْنَةِ لِخُرُوجِهَا مِنْهَا ءَاهِلُهَا سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ﴾ لَأُطْعَمَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافِ ثُمَّ لَأَصْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَٰهَ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ ءَاْمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

[تَهْدِيدُ فِرْعَوْنَ السَّحَرَةَ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَجَوَابُهُمْ لَهُ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَوَعَّدَ بِهِ فِرْعَوْنَ - لَعْنَهُ اللَّهُ - السَّحَرَةَ لَمَّا آمَنُوا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا أَظْهَرَهُ لِلنَّاسِ مِنْ كَيْدِهِ وَمَكْرِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوْا فِي الْمَدِيْنَةِ لِخُرُوجِهَا مِنْهَا ءَاهِلُهَا﴾ أَي إِنَّ غَلَبَتَهُ لَكُمْ فِي يَوْمِكُمْ هَذَا، إِنَّمَا كَانَ عَنْ تَشَاوُرٍ مِنْكُمْ وَرِضًا مِنْكُمْ لِذَلِكَ، كَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿إِنَّهُمْ لَكَاِبِرٌ لَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [الشعراء: ٤٩، ٥٠] وَهُوَ يَعْلَمُ وَكُلُّ مَنْ لَهُ لُبٌّ أَنَّ هَذَا الَّذِي قَالَهُ مِنْ أَبْطِلِ الْبَاطِلِ، فَإِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمُجَرَّدِ مَا جَاءَ مِنْ مَدِينٍ دَعَا فِرْعَوْنَ إِلَى اللَّهِ، وَأَظْهَرَ الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةَ وَالْحُجَجَ الْقَاطِعَةَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَرْسَلَ فِرْعَوْنَ فِي مَدَائِنِ مُلْكِهِ وَمَعَامِلَةِ سُلْطَنِيَّتِهِ فَجَمَعَ سَحَرَةً مُتَفَرِّقِينَ مِنْ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ بِلَادٍ مُضَرٍّ، مِنْ خِيتَارِ هُوَ وَالْمَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ

وَأَحْضَرَهُمْ عِنْدَهُ وَوَعَدَهُمْ بِالْعَطَاءِ الْجَزِيلِ، وَلِهَذَا قَدْ كَانُوا مِنْ أَحْرَصِ النَّاسِ عَلَى ذَلِكَ، وَعَلَى الظُّهُورِ فِي مَقَامِهِمْ ذَلِكَ وَالتَّقَدُّمُ عِنْدَ فِرْعَوْنَ. وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَعْرِفُ أَحَدًا مِنْهُمْ، وَلَا رَأَى وَلَا اجْتَمَعَ بِهِ، وَفِرْعَوْنُ يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا تَسْتَرْيًا وَتَذَلُّيسًا عَلَى رَعَاعِ دَوْلَتِهِ وَجَهْلَتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَاطَاغُوْهُ﴾ [الزخرف: ٥٤] فَإِنَّ قَوْمًا صَدَّقُوهُ فِي قَوْلِهِ ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] مِنْ أَجْهَلِ خَلْقِ اللَّهِ وَأَصْلَهُمْ.

وَقَالَ الشَّدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ بِإِسْنَادِهِ الْمَشْهُورِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الصَّحَابَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوْا فِي الْمَدِيْنَةِ﴾ قَالَ: اِلْتَقَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَمِيرُ السَّحَرَةِ فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَرَأَيْتَكَ إِنْ غَلَبْتُكَ أَتُؤْمِنُ بِي وَتُسَهِّدُ أَنَّ مَا جِئْتُ بِهِ حَقٌّ؟ قَالَ السَّاحِرُ: لَا تَيِّنْ عَدَا بِسِحْرِ لَا يُغْلِبُهُ سِحْرٌ، فَوَاللَّهِ! لَئِنْ غَلَبْتَنِي لِأَوْمِنَنَّ بِكَ، وَلَا سَهْدَنَّا أَنَّكَ حَقٌّ، وَفِرْعَوْنُ يَنْظُرُ إِلَيْهِمَا. قَالُوا: فَلِهَذَا قَالَ مَا قَالَ. وَقَوْلُهُ: ﴿لِخُرُوجِهَا مِنْهَا ءَاهِلُهَا﴾^(٣) أَي تَخْتَمِعُوا أَنْتُمْ وَهُوَ، وَتَكُونُ لَكُمْ دَوْلَةٌ وَصَوْلَةٌ، وَتُخْرِجُوا مِنْهَا الْأَكَابِرَ وَالرُّؤُسَاءَ، وَتَكُونُ الدَّوْلَةُ وَالتَّصَرُّفُ لَكُمْ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أَي مَا أَصْنَعُ بِكُمْ، ثُمَّ فَسَّرَ هَذَا الْوَعِيدَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ يَعْنِي يَقْطَعُ يَدَ الرَّجُلِ الْيُمْنَى وَرِجْلَهُ الْبُسْرَى أَوْ بِالْعَكْسِ ﴿ثُمَّ لَأَصْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أَي عَلَى الْجُدُوعِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَلَبَ وَأَوَّلَ مَنْ قَطَعَ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلَ مِنْ خِلَافٍ فِرْعَوْنُ^(٤). وَقَوْلُ السَّحَرَةِ ﴿إِنَّا إِلَٰهَ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أَي قَدْ تَحَقَّقْنَا أَنَّا إِلَٰهٌ رَاجِعُونَ. وَعَذَابُهُ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِكَ، وَنَكَالُهُ - عَلَى مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ الْيَوْمَ، وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ - أَعْظَمُ مِنْ نَكَالِكَ، فَلَنَصْبِرَنَّ الْيَوْمَ عَلَى عَذَابِكَ لِتَخْلَصَ عَنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أَي عُمَّا بِالصَّبْرِ عَلَى دِينِكَ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أَي مُتَابِعِينَ لِنَبِيِّكَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿١٢٦﴾ إِنَّا ءَاْمَنَّا بِرَبِّنَا لِنُبْرِئَ لَنَا خَطِيئَتَنَا

(١) الطبري: ٣٠/١٣ (٢) الطبري: ٣٠/١٣ (٣) الطبري:

٣٣/١٣ (٤) الطبري: ٣٤/١٣

سورة الأعراف

١٦٦

سورة الأعراف

فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِينَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِيُتَسَحَّرْنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ۖ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا لِمُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ۖ يَمَاعِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَتُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِلُغْوِهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْنَمْنَا مِنْهُمُ طَائِفًا فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا ۚ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ۖ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ قَالُوا أَوْدَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ أَيُّ قَدْ فَعَلُوا بِنَا مِثْلَ مَا رَأَيْتَ مِنَ الْهَوَانِ وَإِلَّا ذُلَالٌ مِنْ قَبْلِ مَا جِئْتَ يَا مُوسَى وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، فَقَالَ مُنْبَهَا لَهُمْ عَلَىٰ حَالِهِمُ الْحَاضِرِ وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ فِي ثَانِي الْحَالِ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾... الآية، وَهَذَا تَحْضِيضٌ لَهُمْ عَلَى الْعَزْمِ عَلَى الشُّكْرِ عِنْدَ حُلُولِ النِّعَمِ وَرَوَالِ النِّعَمِ.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسَّيِّئِ وَنَقِصٍ مِنَ التَّحَارِبِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ﴿١٣٩﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ۖ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤٠﴾

[إِبْلَاءُ آلِ فِرْعَوْنَ بِالسَّيِّئِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۖ أَيُّ اخْتَبَرْنَا هُمْ وَامْتَحَنَّا هُمْ وَابْتَلَيْنَاهُمْ﴾ ﴿بِالسَّيِّئِ﴾ وَهِيَ [سِنِي] الْجُوعِ

وَمَا أَكْرَهْنَا عَلَيْهِ مِنْ السَّبْحِ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَبَاقٍ ﴿١٤١﴾ إِنَّهُمْ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ جَهْرًا ۖ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَهَنَّمُ لَا يُمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٤٢﴾ وَمَنْ يَأْتِيَهُ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ قَالُوا لَيْكَ لَمْ يَلِدْ وَلَكِنْ أَنْتَ الْكَافِرُ الْغَلِيٌّ ﴿١٤٣﴾ [طه: ٧٢-٧٥] فَكَانُوا فِي أَوَّلِ النَّهَارِ سَحَرَةً، فَصَارُوا فِي آخِرِهِ شُهَدَاءَ بَرَّةً. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ وَقَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيْجٍ: كَانُوا فِي أَوَّلِ النَّهَارِ سَحَرَةً وَفِي آخِرِهِ شُهَدَاءَ ^(١).

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْدَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنْقِيلُ أَبْنَاءَهُمْ وَسَنَكْنِي ۖ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ ﴿١٤٤﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا ۚ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٤٥﴾ قَالُوا أَوْدَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤٦﴾

[تَحْرِيسُ الْقَوْمِ وَاسْتِعْدَادُ فِرْعَوْنَ لِقَتْلِ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَشُكُوكُ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَوَعْدُهُ بِنَصْرِ اللَّهِ] يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَمَّا تَمَلَّأَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَمَلَأَهُ وَمَا أَضْمَرُوهُ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ مِنَ الْأَذَى وَالْبَغْضَةِ ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ: أَيُّ لِفِرْعَوْنَ: أَتَنْدَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ﴾ أَيُّ أَتَدْعُهُمْ ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ لِيُفْسِدُوا أَهْلَ رِعْيَتِكَ، وَيَذَرُوكَ إِلَىٰ عِبَادَةِ رَبِّهِمْ دُونَكَ؟ يَا لِلَّهِ الْعَجَبُ! صَارَ هَؤُلَاءِ يُشْفِقُونَ مِنْ إِفْسَادِ مُوسَىٰ وَقَوْمِهِ - أَلَا إِنْ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ - وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾. وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ وَاللَّهُ - فِيمَا زَعَمَ ابْنُ عَبَّاسٍ - كَانَتْ الْبَقَرُ كَانُوا إِذَا رَأَوْا بَقَرَةً حَسَنَةً أَمَرَهُمْ فِرْعَوْنُ أَنْ يَعْبُدُوهَا، فَلِذَلِكَ أَخْرَجَ لَهُمُ السَّامِرِيُّ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٍ ^(٢).

فَأَجَابَهُمْ فِرْعَوْنُ فِيمَا سَأَلُوهُ بِقَوْلِهِ: ﴿سَنْقِيلُ أَبْنَاءَهُمْ وَسَنَكْنِي ۖ نِسَاءَهُمْ﴾ وَهَذَا أَمْرٌ ثَانٍ بِهَذَا الصَّنِيعِ، وَقَدْ كَانَ نَكَلَ بِهِمْ قَبْلَ وَلَادَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَذَرًا مِنْ وُجُودِهِ، فَكَانَ خِلَافَ مَا رَأَاهُ وَضَدًا مَا قَصَدَهُ فِرْعَوْنُ. وَهَكَذَا عُومِلَ فِي صَنِيعِهِ أَيْضًا لَمَّا أَرَادَ إِذْلالَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَقَهْرَهُمْ فَجَاءَ الْأَمْرُ عَلَىٰ خِلَافِ مَا أَرَادَ: أَعَزَّهُمُ اللَّهُ وَأَذَلَّهُ، وَأَرْغَمَ أَنْفَهُ وَأَعْرَفَهُ وَجُنُودَهُ. وَلَمَّا صَمَّمْ فِرْعَوْنُ عَلَىٰ مَا ذَكَرَهُ مِنْ الْمُسَاوَةِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا﴾ وَوَعَدَهُمُ بِالْعَاقِبَةِ وَأَنَّ الدَّارَ سَتَصِيرُ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾

عَبَّاسٍ: هُوَ الشُّوسُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْحِنْطَةِ^(٨). وَعَنْهُ أَنَّهُ الدَّبِيُّ - وَهُوَ الْجَرَادُ الصَّغِيرُ الَّذِي لَا أَجْنَحَةَ لَهُ^(٩). وَبِهِ قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ. وَعَنِ الْحَسَنِ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: الْقُمَّلُ: دَوَابُّ شَوْدٌ صَغَارٌ^(١٠). وَرَوَى أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: لَمَّا أَتَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِرْعَوْنَ قَالَ لَهُ: أُرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمْ يُرْسِلْهُمْ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ، وَهُوَ الْمَطَرُ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ مِنْهُ شَيْئًا خَافُوا أَنْ يَكُونَ عَذَابًا فَقَالُوا لِمُوسَى: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَكْشِفْ عَنَّا الْمَطَرَ، فَنُؤْمِنَ لَكَ وَنُرْسِلَ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَلَمْ يُؤْمِنُوا وَلَمْ يُرْسِلُوا مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَلْبَسَتْ لَهُمْ فِي تِلْكَ السَّنَةِ شَيْئًا لَمْ يُنْبِتْهُ قَبْلَ ذَلِكَ مِنَ الزُّرُوعِ وَالنَّمَارِ وَالْكَلَّا، فَقَالُوا: هَذَا مَا كُنَّا نَتَمَنَّى! فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَرَادَ فَسَلَطَهُ عَلَى الْكَلَّا، فَلَمَّا رَأَوْا أَثَرَهُ فِي الْكَلَّا عَرَفُوا أَنَّهُ لَا يُبْقِي الزَّرْعَ، فَقَالُوا: يَا مُوسَى! ادْعُ لَنَا رَبَّكَ فَيَكْشِفْ عَنَّا الْجَرَادَ فَنُؤْمِنَ لَكَ وَنُرْسِلَ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ الْجَرَادَ فَلَمْ يُؤْمِنُوا، وَلَمْ يُرْسِلُوا مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَدَاسُوا وَأَحْرَقُوا فِي النَّبُوتِ. فَقَالُوا: قَدْ أَحْرَقْنَا فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقُمَّلَ وَهُوَ الشُّوسُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْهُ، فَكَانَ الرَّجُلُ يُخْرِجُ عَشْرَةَ أَجْرَبَةٍ إِلَى الرَّحَى فَلَا يَرُدُّ مِنْهَا إِلَّا ثَلَاثَةً أَفْزَرَهُ. فَقَالُوا: يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَكْشِفْ عَنَّا الْقُمَّلَ فَنُؤْمِنَ لَكَ وَنُرْسِلَ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُرْسِلُوا مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَبَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ عِنْدَ فِرْعَوْنَ إِذْ سَمِعَ نَقِيقَ ضِفْدَعٍ فَقَالَ لِفِرْعَوْنَ: مَا تَلْقَى أَنْتَ وَقَوْمُكَ مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ كَيْدٌ هَذَا؟ فَمَا أَمْسُوا حَتَّى كَانَ الرَّجُلُ يَجْلِسُ إِلَى دَفْنِهِ فِي الضَّفَادِعِ وَبِهِمْ أَنْ يَتَكَلَّمَ فَيَتَّبِ الضَّفْدَعُ فِي فِيهِ، فَقَالُوا لِمُوسَى: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَكْشِفْ عَنَّا هَذِهِ الضَّفَادِعَ فَنُؤْمِنَ لَكَ وَنُرْسِلَ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَلَمْ يُؤْمِنُوا، وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الدَّمَ فَكَانُوا مَا اسْتَقَوْا مِنَ الْأَنْهَارِ وَالْأَبَارِ وَمَا كَانَ فِي أَوْعِيَّتِهِمْ

بِسَبَبِ قِلَّةِ الزُّرُوعِ ﴿وَنَقِصَ مِنَ الشَّجَرِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: وَهُوَ دُونَ ذَلِكَ^(١١). وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ رَجَاءِ بْنِ حَيَوَةَ: كَانَتْ التَّخْلَةُ لَا تَحْمِلُ إِلَّا ثَمَرَةً وَاحِدَةً^(١٢). ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾^(١٣) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ أَتَى مِنَ الْخُسْبِ وَالرِّزْقِ ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أَيْ هَذَا لَنَا بِمَا نَسْتَحِقُّهُ ﴿وَلِنْ نَصْنَعَهُمْ سَيِّئَةً﴾ أَيْ جَذَبَ وَقَحَطَ ﴿يَطِيرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ أَيْ هَذَا بِسَبَبِهِمْ وَمَا جَاءُوا بِهِ ﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يَقُولُ: مَصَابِيَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١٤).

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ^(١٦) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا لِمُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيَنْ كَشِفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ^(١٧) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِلِغْوِهِ إِذَا هُمْ يَنْكُورُونَ^(١٨)

[تَمَرَّدُ قَوْمُ فِرْعَوْنَ وَعِقَابُ اللَّهِ لَهُمْ بِآيَاتٍ]

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ تَمَرُّدِ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وَعُتُوِّهِمْ وَعِنَادِهِمْ لِلْحَقِّ، وَإِضْرَارِهِمْ عَلَى الْبَاطِلِ فِي قَوْلِهِمْ ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يَقُولُونَ: أَيُّ آيَةٍ جِئْتَنَا بِهَا وَدَلَالَةٍ وَحُجَّةٍ أَقَمْتَهَا رَدَدْنَاهَا فَلَا نَقْبَلُهَا مِنْكَ، وَلَا نُؤْمِنُ بِكَ وَلَا بِمَا جِئْتَ بِهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي رَوَايَةٍ: كَثُرَ الْأَمْطَارُ الْمُغْرِقَةُ الْمُثْلِفَةُ لِلزُّرُوعِ وَالنَّمَارِ. وَعَنْهُ فِي رَوَايَةٍ أُخْرَى: هُوَ كَثْرَةُ الْمَوْتِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الطُّوفَانُ: الْمَاءُ وَالطَّاعُونُ عَلَى كُلِّ حَالٍ^(١٩).

وَأَمَّا الْجَرَادُ فَمَعْرُوفٌ مَشْهُورٌ، وَهُوَ مَأْكُولٌ، لِمَا تَبَيَّنَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي يَعْفُورٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى عَنِ الْجَرَادِ، فَقَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَبْعَ غَزَوَاتٍ نَأْكُلُ الْجَرَادَ^(٢٠). وَرَوَى الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ ابْنُ حَنْبَلٍ وَابْنُ مَاجَهٍ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ عُمرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَجِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ: الْحُوتُ وَالْجَرَادُ، وَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ»^(٢١). وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ﴾ قَالَ: كَانَتْ تَأْكُلُ مَسَامِيرَ أَبْوَابِهِمْ وَتَدْعُ الْخَشَبَ^(٢٢). وَأَمَّا الْقُمَّلُ فَعَنِ ابْنِ

(١) الطبري: ٤٦/١٣ (٢) الطبري: ٤٦/١٣ (٣) الطبري: ٤٨/١٣ (٤) الطبري: ٥٠/١٣ (٥) فتح الباري: ٥٣٥/٩ ومسلم: ١٥٤٦/٣ (٦) مسند الشافعي: ١٧٣/٢ وأحمد: ٩٧ وابن ماجه: ١٠٧٣/٢ (٧) الطبري: ٦٨/١٣ (٨) الطبري: ٥٤/١٣ (٩) الطبري: ٥٤/١٣ (١٠) الطبري: ١٣/٥٥

الْبُرْجَانِ

١٦٧

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَجَازَنَابِيَّ إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُمُونَ عَلَى
 أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ
 قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُواهُمْ فِيهِ وَيَطُلُّ
 مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا
 وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَخْبَرْنَاكُمْ
 مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْنِلُونَ
 أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ
 رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ * وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً
 وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَتَ رَبِّهِ أَزْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ
 مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْ فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ
 سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ
 رَبُّهُ قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ
 إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا تَجَلَّى
 رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ
 قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

عَنْهَا عَصَائِبُ ﴿١٣٨﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ
 الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَنَرُكُنَا فِيهَا وَكَمَتِ كُلُّ رِجْلٍ أَخْشَى
 عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْغُرُ فِرْعَوْنُ
 وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٩﴾

[إِغْرَاقُ آلِ فِرْعَوْنَ فِي الْيَمِّ وَتَوَرُّيْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ
 الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَمَّا عَتَوْا وَتَمَرَّدُوا مَعَ ابْنِ لَئِيٍّ إِيَّاهُمْ
 بِالْآيَاتِ الْمُتَوَاتِرَةِ - وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ - انْتَقَمَ مِنْهُمْ
 بِإِغْرَاقِهِ إِيَّاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ الْبَحْرُ الَّذِي فَرَقَهُ لِمُوسَى،
 فَجَاوَزَهُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ مَعَهُ، ثُمَّ وَرَدَهُ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ عَلَى
 إِثْرِهِمْ، فَلَمَّا اسْتَكْمَلُوا فِيهِ ارْتَضَمَ عَلَيْهِمْ فَعَرَفُوا عَنْ
 آخِرِهِمْ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَتَعَاظُلِهِمْ عَنْهَا،
 وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْرَثَ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ،
 وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ، مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا.

وَجَدُوهُ دَمَا عَيْطًا، فَسَكَّوْا إِلَى فِرْعَوْنَ فَقَالُوا: إِنَّا قَدْ ابْتُلِينَا
 بِالْدَّمَ وَلَيْسَ لَنَا شَرَابٌ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ سَحَرَكُمُ! فَقَالُوا: مِنْ
 أَيْنَ سَحَرْنَا وَنَحْنُ لَا نَجِدُ فِي أَوْعِيَّتِنَا شَيْئًا مِنَ الْمَاءِ إِلَّا
 وَجَدْنَاهُ دَمَا عَيْطًا! فَأَتَوْهُ وَقَالُوا: يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ
 يَكْشِفْ عَنَّا هَذَا الدَّمَ، فَنُؤْمِنَ لَكَ وَنُرْسِلَ مَعَكَ بَنِي
 إِسْرَائِيلَ. فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَلَئِمُوا، وَلَمْ يُرْسِلُوا
 مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَقَدْ رَوِيَ نَحْنُ هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ
 وَالسُّدِّيِّ وَتَفَادَةَ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ: أَنَّهُ أَخْبَرَ
 بِذَلِكَ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَجَعَلَ عَدُوُّ
 اللَّهِ فِرْعَوْنُ حِينَ آمَنَتِ السَّحَرَةُ مَغْلُوبًا مَغْلُولًا، ثُمَّ أَهْبَى إِلَّا
 الْإِقَامَةَ عَلَى الْكُفْرِ وَالتَّمَادِي فِي الشَّرِّ فَتَابَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ
 الْآيَاتِ فَأَخَذَهُ بِالسِّنِينَ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِ الطُّوفَانَ، ثُمَّ الْجَرَادَ،
 ثُمَّ الْقُمَّلَ، ثُمَّ الضَّفَادِعَ، ثُمَّ الدَّمَ، آيَاتٍ مُفْصَلَاتٍ،
 فَأَرْسَلَ الطُّوفَانَ وَهُوَ الْمَاءُ فَقَاضَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، ثُمَّ
 رَكَدَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَخْرُتُوا وَلَا أَنْ يَعْمَلُوا شَيْئًا حَتَّى
 جَهْدُوا جُوعًا، فَلَمَّا بَلَغَهُمْ ذَلِكَ ﴿قَالُوا يَمُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ
 يَمَا عَهْدَ عِنْدِكَ لِنَبْ كَشَفْتَ عَنَّا الْجَحْرَ لِنُؤْمِنَ لَكَ وَلِنُرْسِلَ
 مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ فَدَعَا مُوسَى رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَلَمْ
 يَقُوا لَهُ بِشَيْءٍ مِمَّا قَالُوا، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَرَادَ فَأَكَلَ
 الشَّجَرَ فِيمَا بَلَغْنِي، حَتَّى إِنْ كَانَ لَيَأْكُلُ مَسَامِيرَ الْأَبْوَابِ
 مِنَ الْحَدِيدِ حَتَّى تَقَعَ دُورُهُمْ وَمَسَاكِينُهُمْ فَقَالُوا مِثْلَ مَا
 قَالُوا. فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَلَمْ يَقُوا لَهُ بِشَيْءٍ مِمَّا قَالُوا.
 فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقُمَّلَ فَذَكَرَ لِي أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
 أَمَرَ أَنْ يَمْشِيَ إِلَى كِتَابٍ حَتَّى يَضْرِبَهُ بِعَصَاهُ فَمَشَى إِلَى
 كِتَابٍ أَهِيلَ عَظِيمٍ فَضْرِبَهُ بِهَا، فَاثْنَالٍ عَلَيْهِمْ قُمَّلًا حَتَّى
 غَلَبَ عَلَى النَّبُوتِ وَالْأَطْعِمَةِ، وَمَنْعَهُمُ النَّوْمَ وَالْقَرَارَ، فَلَمَّا
 جَهْدَهُمْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالُوا. فَدَعَا رَبَّهُ، فَكَشَفَ عَنْهُمْ، فَلَمْ
 يَقُوا لَهُ بِشَيْءٍ مِمَّا قَالُوا فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الضَّفَادِعَ فَمَلَأَتْ
 النَّبُوتَ وَالْأَطْعِمَةَ وَالْآيَةَ، فَلَا يَكْشِفُ أَحَدٌ ثُوبًا وَلَا طَعَامًا
 إِلَّا وَجَدَ فِيهِ الضَّفَادِعَ قَدْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا جَهْدَهُمْ ذَلِكَ
 قَالُوا لَهُ مِثْلَ مَا قَالُوا فَسَأَلَ رَبَّهُ، فَكَشَفَ عَنْهُمْ، فَلَمْ يَقُوا لَهُ
 بِشَيْءٍ مِمَّا قَالُوا، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الدَّمَ فَصَارَتْ مِيَاهُ آلِ
 فِرْعَوْنَ دَمًا لَا يَسْتَقُونَ مِنْ بَرٍّ وَلَا نَهْرٍ، وَلَا يَعْتَرِفُونَ مِنْ
 إِنَاءٍ إِلَّا عَادَ دَمَا عَيْطًا ^(١).

﴿فَانْقَمَتْ مِنْهُمْ فَأَعْرِفْتَهُمْ فِي آيَةٍ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا

وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَقَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَشْرِفٌ
الْأَرْضِ وَمَعْرِبَهَا أَلَىٰ بَرْكِنَا فِيهَا﴾ يَغْنِي الشَّامَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَمَتَ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْقَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا
صَبَرُوا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ جَرِيرٍ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرُبُّهُ
أَنْ تَمَنَّٰ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً
وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (٥) وَتَمَنَّٰ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرَبِّي فَرَعَوْنُ
وَهَمْدُنَ وَجَوْنَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦]
وَقَوْلُهُ: ﴿وَدَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فَرَعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾
أَيَّ وَحَرَبْنَا مَا كَانَ فَرَعَوْنُ وَقَوْمُهُ يَصْنَعُونَهُ مِنَ الْعِمَارَاتِ
وَالْمَزَارِعِ ﴿وَمَا كَانُوا يَعْشِرُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ
وَمُجَاهِدٌ: ﴿يَعْشِرُونَ﴾ يَبْنُونَ^(١).

﴿وَجَوْنَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَاوْا عَلَىٰ قَوْرِ يَعْكَفُونَ عَلَىٰ
أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾ (٣٩).

[مُجَاوَزَةُ بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ وَمُرُورُهُمْ بِمَعْبُودٍ مُّجَسَّمٍ]
يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَمَّا قَالَهُ جَهْلُهُ بَنِي إِسْرَءِيلَ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ
السَّلَامُ حِينَ جَاوَزُوا الْبَحْرَ، وَقَدْ رَأَوْا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَعَظِيمِ
سُلْطَانِهِ مَا رَأَوْا ﴿فَأَتَاوْا﴾ أَيَّ فَمَرُّوا ﴿عَلَىٰ قَوْرِ يَعْكَفُونَ عَلَىٰ
أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾.

قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ كَانُوا مِنَ الْكَنْعَانِيِّينَ. وَقِيلَ: كَانُوا
مِنْ لَحْمٍ. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَكَانُوا يَعْبُدُونَ أَصْنَامًا عَلَىٰ صُورِ
الْبَقَرِ فَلِهَذَا أُنَارَ ذَلِكَ شُبْهَةً لَهُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ الْعِجْلَ بَعْدَ
ذَلِكَ، فَقَالُوا: ﴿يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (٢) أَيَّ تَجْهَلُونَ عَظَمَةَ اللَّهِ وَجَلَالَهُ، وَمَا
يَجِبُ أَنْ يَنْزِعَهُ عَنْهُ مِنَ الشَّرِيكِ وَالْمِثِيلِ: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا
هُمْ فِيهِ﴾ أَيَّ هَالِكٌ ﴿وَنَطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وَرَوَى
الإمامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ عَنْ أَبِي
وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ: أَنَّهُمْ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى
حُثَيْنَ، قَالَ: وَكَانَ لِلْكَفَّارِ سِدْرَةٌ يَعْكَفُونَ عِنْدَهَا، وَيَعْلَمُونَ
بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ - قَالَ: - فَمَرَرْنَا
بِسِدْرَةِ خَضِرَاءَ عَظِيمَةٍ قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! اجْعَلْ
لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ فَقَالَ: «فَلْتَمَّ وَالَّذِي
نَفْسِي بِيَدِهِ، كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَىٰ لِمُوسَىٰ: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا
كََمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُمْ فِيهِ
وَنَطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٩)».

﴿قَالَ أَعْبَدِ اللَّهَ أَنبِئَكُمْ إِلَهَهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى
الْعَالَمِينَ﴾ (٤٠) وَإِذْ أُنَبِّئُكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ
الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ
رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٤١).

[تَذْكِيرُ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِنِعَمِ اللَّهِ]
يَذْكُرُهُمْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ إِنْقَادِهِمْ
مِنْ أَشْرِ فِرْعَوْنَ وَقَهْرِهِ، وَمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْهُوَانِ، وَالذَّلَّةِ،
وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنَ الْبُعْثَةِ وَالْإِسْتِغْيَاءِ مِنْ عَدُوِّهِمْ، وَالنَّظَرِ
إِلَيْهِ فِي حَالِ هَوَانِهِ وَهَلَاكِهِ وَغَرْقِهِ، وَدَمَارِهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ
تَفْسِيرُهَا فِي الْبَقَرَةِ [البقرة: ٤٩، ٥٠].

﴿وَوَدَّعْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَنَمَّ مِيقَتَ رَبِّهِ
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي
وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٤٢).

[صَامَ مُوسَىٰ وَانْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً]
يَقُولُ تَعَالَىٰ مُمْتَنًا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ
الْهُدَايَةِ بِتَكْلِيمِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِعْطَائِهِ التَّوْرَةَ، وَفِيهَا
أَحْكَامُهُمْ وَتَفَاصِيلُ شُرْعِهِمْ. فَذَكَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ وَاعَدَ مُوسَىٰ
ثَلَاثِينَ لَيْلَةً. قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: فَصَامَهَا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ
وَطَوَّأَهَا، فَلَمَّا تَمَّ الْوِثَاقَاتِ إِسْنَاكَ بِلِحَاءِ شَجَرَةٍ فَأَمَرَهُ اللَّهُ
تَعَالَىٰ أَنْ يُكْمِلَ بِعَشْرِ: أَرْبَعِينَ، فَلَمَّا تَمَّ الْوِثَاقَاتِ وَعَزَمَ مُوسَىٰ
عَلَىٰ اللّٰهَابِ إِلَى الطُّورِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ
أُجِنْتُكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْتُكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ ... الْآيَةِ،
فَحِينَئِذٍ اسْتَخْلَفَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَخَاهُ
هَارُونَ وَوَصَّاهُ بِالْإِصْلَاحِ وَعَدَمِ الْإِفْسَادِ، وَهَذَا تَنْبِيْهُ
وَتَذْكِيرٌ، وَإِلَّا فَهَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيٌّ شَرِيفٌ كَرِيمٌ عَلَى
اللّٰهِ، لَهُ وَجَاهَةٌ وَجَلَالَةٌ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى
سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ
قَالَ لَنْ رُبْنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ
رَبَّنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا
فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُتُّ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٣)
[طَلَبَ مُوسَىٰ رُؤْيَا رَبِّهِ]

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ

(١) الطبري: ٧٨/١٣، ٧٩ (٢) الطبري: ٨٠/١٣ (٣)

الطبري: ٨٢/١٣

سورة الأعراف

١٦٨

سورة الأعراف

قَالَ يَمْؤُوسُ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلْمِي
فَخَذَ مَاءً أَتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا
لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ
شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِحَسَنِهَا سَأُورِيكُمْ
دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَاءً آيَةً لَا يُؤْمِنُوا
بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا
سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ
الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيقِهِمْ
عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمِيرُوا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ
سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ
فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا
رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

غَضَبُهُ فَلَطَمْتُهُ فَقَالَ: «لَا تُخَيِّرُونِي مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ
النَّاسَ يَضَعْفُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفْبِقُ، فَإِذَا أَنَا
بِمُوسَى أَجِدُ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ
قَبْلِي أَمْ جُوزِي بِصَفَةِ الطُّورِ؟» ﴿١٤٦﴾. وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي
أَمَاكِنَ كَثِيرَةٍ مِنْ صَحِيحِهِ وَمُسْلِمٌ فِي أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ،
وَأَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ السُّنَنِ مِنْ سُنَنِهِ ﴿١٤٧﴾. وَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي
هُرَيْرَةَ فَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانُ بِنَحْوِهِ ﴿١٤٨﴾.

﴿قَالَ يَمْؤُوسُ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلْمِي فَخَذَ مَاءً
أَتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ
كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ

لِمِيقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَصَلَ لَهُ التَّكْلِيمُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى
سَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ
إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي﴾ حَرْفُ «لَنْ» هُنَا عَلَى نَفْيِ الرُّؤْيَةِ فِي
الدُّنْيَا. لِأَنَّهُ قَدْ تَوَاتَرَتْ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِأَنَّ
الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ اللَّهَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كَمَا سُورِدَهَا عِنْدَ قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿١٤٥﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [عبس: ٢٢، ٢٣].

وَفِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِمُوسَى عَلَيْهِ
السَّلَامُ: «يَا مُوسَى! إِنَّهُ لَا يَرَانِي حَتَّى إِلَّا مَاتَ، وَلَا يَأْسُرُ
إِلَّا تَذَهَّدَهُ» ﴿١﴾ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ
دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ
النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ قَالَ: قَالَ
«هَكَذَا» يَعْنِي أَنَّهُ أَخْرَجَ طَرَفَ الْخِنْصِرِ ﴿٢﴾.

وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ ثُمَّ قَالَ: هَذَا
حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ ﴿٣﴾. وَهَكَذَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي
مُسْتَدْرَكِهِ مِنْ طَرَفِ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، بِهِ. وَقَالَ: هَذَا
حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ ﴿٤﴾. وَقَالَ
السُّدِّيُّ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:
﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ قَالَ: مَا تَجَلَّى مِنْهُ إِلَّا قَدَرُ
الْخِنْصِرِ ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قَالَ: تَرَابًا، ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾
قَالَ: مَغْشِيًا عَلَيْهِ ﴿٥﴾. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. كَمَا أَنَّ هُنَا قَرِينَةٌ
تَدُلُّ عَلَى الْغَشْيِ. وَهِيَ قَوْلُهُ ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ وَالْإِفَاقَةُ لَا تَكُونُ
إِلَّا عَنْ غَشْيٍ ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ﴾ تَزَيُّدُهَا وَتَعْظِيمُهَا وَإِجْلَالُهَا أَنَّ
يَرَاهُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا إِلَّا مَاتَ. وَقَوْلُهُ ﴿ثُبَّتْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ
مُجَاهِدٌ: أَنْ أَسْأَلَكَ الرُّؤْيَةَ، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ ابْنُ
عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَنَّهُ
لَا يَرَاكَ أَحَدٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ فِيهِ أَبُو سَعِيدٍ
وَأَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: فَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ فَأَسَنَدُهُ
الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ هُنَا، عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ
الْيَهُودِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَدْ لَطِمَ وَجْهَهُ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ
رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ مِنَ الْأَنْصَارِ لَطَمَ وَجْهِي، قَالَ:
«إِذْعَوْهُ» فَدَعَوْهُ: قَالَ: «لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ
اللَّهِ! إِنِّي مَرَرْتُ بِالْيَهُودِيِّ فَمَسِعْتُهُ يَقُولُ: وَالَّذِي أَصْطَفَى
مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ قَالَ: قُلْتُ: وَعَلَى مُحَمَّدٍ؟ وَأَخَذْتَنِي

(١) البداية والنهاية: ١١٢/٣ (٢) أحمد: ١٢٥/٣ (٣) تحفة
الأحوذى: ٤٥١/٨ (٤) الحاكم: ٣٢٠/٢ (٥) الطبري: ١٣/
٩٧ (٦) فتح الباري: ١٥٢/٨ (٧) البخاري: ٢٤١٢، ٣٣٩٨،
٤٦٣٨، ٦٩١٧، ٧٤٢٧، ٦٥١٨ ومسلم: ٢٣٧٤ وأبو داود:
٤٦٦٨ (٨) أحمد: ٢٦٤/٢ وفتح الباري: ٤٥٥/١٣ ومسلم:

فَوَمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهِ سَازِيكَو دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

[اضطفاء موسى وإعطائه الألواح]

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَاطَبَ مُوسَى بِأَنَّهُ اضْطَفَاهُ عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِ بِرِسَالَاتِهِ تَعَالَى وَبِكَلَامِهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَلِهَذَا اخْتَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ جَعَلَهُ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ الَّذِي تَسْتَمِرُّ شَرِيعَتُهُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ وَأَتْبَاعُهُ أَكْثَرُ مِنْ أَتْبَاعِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ كُلِّهِمْ، وَبَعْدَهُ فِي الشَّرَفِ وَالْفَضْلِ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ كَلِيمُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْنَكَ﴾ أَيْ مِنَ الْكَلَامِ وَالْمُنَاجَاةِ ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أَيْ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا تَطْلُبْ مَا لَا طَاقَةَ لَكَ بِهِ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ كَتَبَ لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ، قِيلَ: كَانَتْ الْأَلْوَحُ مِنْ جَوْهَرٍ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ لَهُ فِيهَا مَوَاعِظَ وَأَحْكَامًا مُفَصَّلَةً مُبَيَّنَةً لِلْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَلْوَحُ مُشْتَمِلَةً عَلَى التَّوْرَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَدَمَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [الفصل: ٤٣] وَقِيلَ: الْأَلْوَحُ أَعْطَاهَا مُوسَى قَبْلَ التَّوْرَةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أَيْ بِعَزْمٍ عَلَى الطَّاعَةِ ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهِ﴾ قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعْدٍ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أَمَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَأْخُذَ بِأَشَدِّ مَا أَمَرَ قَوْمُهُ^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿سَازِيكَو دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أَيْ سَتَرُونَ عَاقِبَةَ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَخَرَجَ عَنْ طَاعَتِي، كَيْفَ يَصِيرُ إِلَى الْهَلَاكِ وَالْدَّمَارِ وَالنَّجَابِ؟.

﴿سَاصِرْفَ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَكْتُمُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً بِآيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْفِتْنَةِ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

[يُحَرِّمُ الْمُتَكَبِّرُونَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿سَاصِرْفَ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَكْتُمُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أَيْ سَأَمْنَعُ فَهَمَ الْحُجَجِ وَالْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِي وَشَرِيعَتِي وَأَحْكَامِي قُلُوبَ الْمُتَكَبِّرِينَ عَنْ طَاعَتِي وَيَتَكَبَّرُونَ عَلَى النَّاسِ بِغَيْرِ حَقٍّ، أَيْ كَمَا اسْتَكْبَرُوا

بِغَيْرِ حَقٍّ أَذَلَّهُمُ اللَّهُ بِالْجَهْلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَصْدِرُهُمْ كَمَا لَوْ يَوْمُنَا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَاصِرْفَ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَكْتُمُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قَالَ: أَنْزِعْ عَنْهُمْ فَهَمَ الْقُرْآنِ وَأَصْرِفْهُمْ عَنْ آيَاتِي^(٢). قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْخُطَابَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ^(٣).

(قُلْتُ) لَيْسَ هَذَا بِالْأَزْمِ لِأَنَّ ابْنَ عُيَيْنَةَ إِنَّمَا أَرَادَ أَنَّ هَذَا مُطَرَّدٌ فِي حَقِّ كُلِّ أُمَّةٍ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَحَدٍ وَآخَرٍ فِي هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً بِآيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٤٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس: ٩٦، ٩٧] وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أَيْ وَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ سَبِيلُ الرُّشْدِ أَيْ طَرِيقُ النِّجَاةِ لَا يَسْلُكُونَهَا، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُمْ طَرِيقُ الْهَلَاكِ وَالضَّلَالِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، ثُمَّ عَلَّلَ مَصِيرَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أَيْ كَذَّبَتْ بِهَا قُلُوبُهُمْ ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أَيْ لَا يَعْلَمُونَ [شَيْئًا مِمَّا] فِيهَا، وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَالُهُمْ﴾ أَيْ مَنْ فَعَلَ مِنْهُمْ ذَلِكَ وَاسْتَمَرَّ عَلَيْهِ إِلَى الْمَمَاتِ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ إِنَّمَا نُجَازِيهِمْ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي أَسْلَفُوا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ وَكَمَا تَدِينُ لِدُنَّ.

﴿وَأَتَّخِذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِمْ عَجَلًا جَدَسًا لَهُ خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ ﴿١٤٨﴾ وَمَا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَيْنَ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبَّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

[قِسْصَةُ عِبَادَةِ الْعِجَلِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ضَلَالِ مَنْ ضَلَّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ الَّذِي اتَّخَذَهُ لَهُمُ السَّامِرِيُّ، مِنْ حُلِيِّ الْقَبِيطِ

(١) الطبري: ١١٠/١٣ إسناده ضعيف فيه أبو سعد هو البقال سعيد بن مرزبان الكوفي الأعور ضعيف مدلس [تقريب] قال البخاري منكر الحديث قال ابن عدي هو في جملة الضعفاء [التاريخ الكبير ٥١٥/٢ الكامل في ضعفاء الرجال ٢٨٣/٢].

(٢) الطبري: ١١٢/١٣ (٣) الطبري: ١١٣/١٣

الْأَعْرَافِ

١٦٩

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَ عَلَيْهِمْ أَسَافًا قَالَ بَسْمًا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَا لَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا بِرَبِّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسخِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَآخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِيُقَدِّمُ أَهْلَهُمْ إِلَيْنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِنِّي أَتَّبِعُكَ كَمَا فَعَلْتَ السَّفَهَاءَ مِنْ آدَمَ إِلَى الْإِفْئِنَّاكَ تُوَضَّلُ بِهِمَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾

أَلْقَى الْأَلْوَحَ غَضَبًا عَلَى قَوْمِهِ، وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ سَلَفًا وَخَلْفًا. وَقَوْلُهُ: «وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ» خَوْفًا أَنْ يَكُونَ قَدْ قَصَرَ فِي نَهْيِهِمْ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: «قَالَ يَهْرُونَ مَا مَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا» ﴿١٥٢﴾ أَلَا تَتَّبِعُ أَفْضَيْتُ أَمْرِي ﴿١٥٣﴾ قَالَ يَنْبَغُ لَا تَأْخُذْ بِلِجَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي» ﴿طه: ٩٢-٩٤﴾ وَقَالَ هُنَا: «ابْنَ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» أَيُّ لَا تَسْتَفْئِي مَسَافَهُمْ وَلَا تَخْلُطَنِي مَعَهُمْ وَإِنَّمَا قَالَ: ابْنَ أُمِّ لِيَكُونَ أَرْقَ وَأَنْجَعَ عِنْدَهُ وَإِلَّا فَهُوَ شَقِيقُهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ فَلَمَّا تَحَقَّقَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَرَاءَةَ سَاحَةِ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقُولُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي» ﴿طه: ٩٠﴾ فَيَنْدُ ذَلِكَ «قَالَ» مُوسَى «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ

الَّذِي كَانُوا اسْتَعَارَوْهُ مِنْهُمْ فَشَكَّلَ لَهُمْ مِنْهُ عِجْلًا، ثُمَّ أَلْقَى فِيهِ الْقَبْضَةَ مِنَ الثَّرَابِ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ أَثَرِ فَرَسِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَصَارَ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ - وَالْخَوَارُ: صَوْتُ الْبَقْرِ - وَكَانَ هَذَا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَهَابِ مُوسَى لِيَمِيقَاتِ رَبِّهِ تَعَالَى، فَأَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ وَهُوَ عَلَى الطُّورِ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى إِنْخَارًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ: «قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ الشَّامِيُّ» ﴿طه: ٨٥﴾ وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذَا الْعِجْلِ هَلْ صَارَ لَحْمًا وَدَمًا لَهُ خَوَارٌ، أَوْ اسْتَمَرَّ عَلَى كَوْنِهِ مِنْ ذَهَبٍ إِلَّا أَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ الْهَوَاءُ فَيَصَوْتُ كَالْبَقْرِ عَلَى قَوْلَيْنِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَيُقَالُ: إِنَّهُمْ لَمَّا صَوَّتَ لَهُمُ الْعِجْلُ رَفَعُوا حَوْلَهُ وَافْتَتَنُوا بِهِ وَقَالُوا: هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَتَسَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «فَلَا يَرَوْنَ إِلَّا بَرَجًا لِأَيُّهُمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًْا وَلَا نَفْعًا» ﴿طه: ٨٩﴾ وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: «الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا» يُكَبِّرُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي ضَلَالِهِمْ بِالْعِجْلِ وَدُهُولِهِمْ عَنْ خَالِقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ أَنْ عَبَدُوا مَعَهُ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ، لَا يَكَلِّمُهُمْ وَلَا يُرْشِدُهُمْ إِلَى خَيْرٍ، وَلَكِنْ غُطِّيَ عَلَى أَعْيُنِ بَصَائِرِهِمْ عَمَى الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ وَقَوْلُهُ: «وَلَمَّا سَقَطَ وَتَ أَيْدِيهِمْ» أَيُّ نَدَمُوا عَلَى مَا فَعَلُوا «وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَيْنَ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا» وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: «لَيْنَ لَمْ تَرْحَمْنَا» بِالتَّاءِ الْمُثَنَّى مِنْ فَوْقِ (رَبَّنَا) مُتَادِي (وَتَغْفِرْ لَنَا) «لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» أَيُّ مِنَ الْهَالِكِينَ، وَهَذَا إِعْزَافٌ مِنْهُمْ بِذَنبِهِمْ، وَالْإِجَاءُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. «وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَ عَلَيْهِمْ أَسَافًا قَالَ بَسْمًا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ مِنْ مُنَاجَاةِ رَبِّهِ تَعَالَى وَهُوَ غَضَبَانُ أَسِيفٌ قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: الْأَسِيفُ: أَشَدُّ الْغَضَبِ. «قَالَ بَسْمًا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي» يَقُولُ: بِسْمَا مَا صَنَعْتُمْ فِي عِبَادَةِ الْعِجْلِ بَعْدَ أَنْ ذَهَبَتْ وَتَرَكْتُمْكُمْ، وَقَوْلُهُ: «أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ» يَقُولُ: اسْتَعْجَلْتُمْ مَجِيئِي إِلَيْكُمْ وَهُوَ مُقَدَّرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَوْلُهُ «وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ» وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَانِيَةِ» ^(١) ثُمَّ ظَاهِرُ السِّيَاقِ أَنَّهُ إِنَّمَا

وَعَضَبَا لَهُ ﴿وَفِي سُخْرِيهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ يَقُولُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفْسِّرِينَ: إِنَّهَا لَمَّا أَلْقَاهَا تَكَسَّرَتْ ثُمَّ جَمَعَهَا بَعْدَ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: فَوَجَدَ فِيهَا هُدًى وَرَحْمَةً. وَأَمَّا التَّفْصِيلُ: فَذَهَبَ. وَزَعَمُوا أَنَّ رُضَاصَهَا لَمْ يَزَلْ مَوْجُودًا فِي خَزَائِنِ الْمُلُوكِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصِحَّةِ هَذَا. وَأَمَّا الدَّلِيلُ الْقَاطِعُ عَلَى أَنَّهَا تَكَسَّرَتْ حِينَ أَلْقَاهَا، وَهِيَ مِنْ جَوَاهِرِ الْجَنَّةِ فَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا أَخَذَهَا بَعْدَ مَا أَلْقَاهَا وَجَدَ فِيهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ. صَمَّنَ الرُّهْبَةَ مَعْنَى الْخُضُوعِ، وَلِهَذَا عَدَّاهَا بِاللَّامِ. ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَائْتِي أَتَمِّلْكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفُ رَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ ﴿أَذْهَابَ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمِيقَاتِ رَبِّهِمْ، وَاهْلَاكُهُمْ﴾

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: كَانَ اللَّهُ أَمْرَهُ أَنْ يَخْتَارَ مِنْ قَوْمِهِ سَبْعِينَ رَجُلًا فَاخْتَارَ سَبْعِينَ رَجُلًا، فَبَرَزَ بِهِمْ لِيَدْعُو رَبَّهُمْ وَكَانَ فِيْمَا دَعَا اللَّهَ أَنْ قَالُوا: اللَّهُمَّ أَعْطِنَا مَا لَمْ تُعْطِهِ أَحَدًا قَبْلَنَا، وَلَا تُعْطِهِ أَحَدًا بَعْدَنَا، فَكَّرَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ دَعَائِهِمْ فَأَخَذَهُمُ الرَّجْفَةَ، قَالَ مُوسَى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَائْتِي﴾ الْآيَةِ (٥). وَقَالَ السُّدِّيُّ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ مُوسَى أَنْ يَأْتِيَهُ فِي ثَلَاثِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ وَوَعَدَهُمْ مَوْعِدًا ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ عَلَى عَيْنَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِمْ لِيَعْتَذِرُوا فَلَمَّا اتَّوَا ذَلِكَ الْمَكَانَ قَالُوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ يَا مُوسَى ﴿حَتَّى رَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ فَإِنَّكَ قَدْ كَلَّمْتَهُ فَأَرَانَا ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥] فَمَاتُوا، فَفَقَّامَ مُوسَى يَبْكِي وَيَدْعُو اللَّهَ وَيَقُولُ: رَبِّ مَاذَا أَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا لَقِيتُهُمْ وَقَدْ أَهْلَكْتَ خِيَارَهُمْ؟ ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَائْتِي﴾ (٦). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: اخْتَارَ مُوسَى مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَبْعِينَ رَجُلًا الْخَيْرَ فَالْخَيْرَ،

الرَّحِيمِ ﴿وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَيْسَ الْمَعَانِ كَالْمُخْبِرِ، أَخْبَرَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ قَوْمَهُ فُتِنُوا بَعْدَهُ فَلَمْ يَلْقَ الْأَلْوَا حَ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ وَعَابَتْهُمْ أَلْقَى الْأَلْوَا حَ» (١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٧﴾﴾ أَمَّا الْغَضَبُ الَّذِي نَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عِبَادَةِ الْعِجْلِ فَهُوَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَقْبَلْ لَهُمْ تَوْبَةً حَتَّى قَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿فَقَتَلُوا إِلَى بَابِكُمْ فَأَقْلَعُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَلَا بَ عَيْنَكُمْ إِنَّهُ هُوَ الذَّابُّ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤] وَأَمَّا الذَّلَّةُ فَأَعْلَبَهُمْ ذَلِكَ ذُلًا وَصَغَارًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾... نَائِلَةٌ لِكُلِّ مَنْ افْتَرَى بَدْعًا، فَإِنَّ ذُلَّ الْبِدْعَةِ وَمُخَالَفَةَ الرِّسَالَةِ مُتَّصِلَةٌ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى كَيْفِيهِ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِنَّ ذُلَّ الْبِدْعَةِ عَلَى أَكْثَانِهِمْ وَإِنْ هَمَلَجَتْ بِهِمُ الْبَغْلَاتُ وَطَقَطَتْ بِهِمُ الْبِرَادِينُ. وَهَكَذَا رَوَى أَيُّوبُ السَّخِينِيُّ عَنْ أَبِي قِلَابَةَ الْجَرْمِيِّ أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ فَقَالَ: هِيَ وَاللَّهُ لِكُلِّ مُفْتَرٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ (٢). وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: كُلُّ صَاحِبِ بَدْعَةٍ ذَلِيلٌ (٣). ثُمَّ تَبَّهَ تَعَالَى عِبَادَهُ وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى أَنَّهُ يَقْبَلُ تَوْبَةَ عِبَادِهِ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ حَتَّى وَلَوْ كَانَ مِنْ كُفْرٍ أَوْ شِرْكٍ أَوْ يَفَاقٍ أَوْ شِقَاقٍ، وَلِهَذَا عَقَّبَ هَذِهِ الْفِصَّةَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ﴾ أَيُّ يَا مُحَمَّدُ يَا رَسُولَ التَّوْبَةِ وَنَبِيَّ الرَّحْمَةِ ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أَيُّ مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الْفِعْلَةِ ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ يَعْنِي عَنِ الرَّجُلِ يَزِينُ بِالْمَرْأَةِ ثُمَّ يَتَزَوَّجُهَا فَقَالَ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٦﴾﴾ فَتَلَاهَا عَبْدُ اللَّهِ عَشْرَ مَرَّاتٍ فَلَمْ يَأْمُرْهُمْ بِهَا وَلَمْ يَنْهَهُمْ عَنْهَا (٤).

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَا حَ وَفِي سُخْرِيهَا

هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

[أَخَذَ مُوسَى الْأَلْوَا حَ بَعْدَ أَنْ سَكَتَ الْغَضَبُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ أَيُّ سَكَنَ ﴿عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ أَيُّ غَضِبَهُ عَلَى قَوْمِهِ ﴿أَخَذَ الْأَلْوَا حَ﴾ أَيُّ الَّتِي كَانَ أَلْقَاهَا مِنْ شِدَّةِ الْغَضَبِ عَلَى عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ، غَيْرَهُ اللَّهُ

(١) ابن ماجه: ٣٨٠/٢ (٢) الطبري: ١٣٥/١٣ (٣) الطبري:

١٣٦/١٣ (٤) الدر المنثور: ٥٦٦/٣ (٥) الطبري: ١٣/

١٤١ (٦) الطبري: ١٤٠/١٣

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

١٧٠

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا أَيْنِكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰ أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمَنْ قَوْمُ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ الْحَسَنَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ [الآية: ٢٠١] ﴿إِنَّا هُنَا أَيْنِكَ﴾ أَيُّ تَبَيَّنَّا وَرَحْمَتًا وَأَنْبَأْنَا إِلَيْكَ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالضَّحَّاكُ وَإِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ وَالسَّدُّيُّ، وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(١). وَهُوَ كَذَلِكَ لَعَنَ.

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ

بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

[رَحْمَةُ اللَّهِ مَكْتُوبَةٌ لِلْمُتَّقِينَ الْمَرْكُوبِينَ الْمُؤْمِنِينَ بِآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ]

يَقُولُ تَعَالَى مُجِيبًا لِنَفْسِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الآية، قَالَ: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أَيُّ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ وَأَحْكُمُ مَا أُرِيدُ، وَلِيَّ الْحِكْمَةُ وَالْعَدْلُ فِي كُلِّ ذَلِكَ، سُبْحَانَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

وَقَالَ: إِنِّظِلُّوا إِلَى اللَّهِ فَتَوْبُوا إِلَيْهِ مِمَّا صَنَعْتُمْ وَسلُّوهُ التَّوْبَةَ عَلَى مَنْ تَرَكْتُمْ وَرَأَيْتُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ، صُومُوا وَطَهِّرُوا وَطَهِّرُوا تَابِكُمْ، فَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى طُورٍ سِنَاءَ لِمِيقَاتٍ وَقَتَّهُ لَهُ رَبُّهُ، وَكَانَ لَا يَأْتِيهِ إِلَّا بِإِذْنٍ مِنْهُ وَعِلْمٍ، فَقَالَ لَهُ السَّبْعُونَ - فِيمَا ذَكَرَ لِي - حِينَ صَنَعُوا مَا أَمَرَهُمْ بِهِ وَخَرَجُوا مَعَهُ لِلِقَاءِ رَبِّهِ لِمُوسَى: أَطْلُبْ لَنَا نَسْمَعَ كَلَامَ رَبَّنَا، فَقَالَ: أَفْعَلْ، فَلَمَّا دَنَا مُوسَى مِنَ الْجَبَلِ وَقَعَ عَلَيْهِ غَمُودُ الْغَمَامِ حَتَّى تَغَشَّى الْجَبَلَ كُلَّهُ، وَدَنَا مُوسَى فَدَخَلَ فِيهِ وَقَالَ لِلْقَوْمِ: أَذْنُوا وَكَانَ مُوسَى إِذَا كَلَّمَهُ اللَّهُ وَقَعَ عَلَى جَبْهَةِ مُوسَى نُورٌ سَاطِعٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ فَضَرَبَ دُونَهُ بِالْحِجَابِ وَدَنَا الْقَوْمُ، حَتَّى إِذَا دَخَلُوا فِي الْغَمَامِ وَقَعُوا سُجُودًا فَسَمِعُوهُ وَهُوَ يَكَلِّمُ مُوسَى بِأَمْرِهِ وَيَنْهَاهُ، أَفْعَلْ وَلَا تَفْعَلْ. فَلَمَّا فَرَّغَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِهِ انْكَشَفَ عَنْ مُوسَى الْغَمَامُ فَأَقْبَلَ إِلَيْهِمْ فَقَالُوا: يَا مُوسَى! لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً، فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ وَهِيَ الصَّاعِقَةُ [فَأَفْتَلَتْ] أَرْوَاهُكُمْ فَمَاتُوا جَمِيعًا، فَقَامَ مُوسَى يُنَادِي رَبَّهُ وَيَدْعُوهُ وَيَرْغُبُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَائْتِي﴾ قَدْ سَفِهُوا، أَفْتَهْلِكُ مَنْ وَرَائِي مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟^(٢).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ وَابْنُ جُرَيْجٍ: إِنَّهُمْ أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا قَوْمَهُمْ فِي عِبَادَتِهِمُ الْعَجَلِ وَلَا نَهَوْهُمْ^(٣). وَيَتَوَجَّهَ هَذَا الْقَوْلُ بِقَوْلِ مُوسَى: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْأَسْفَهَاءُ مِنَّا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أَيُّ إِنِّتْلَاؤُكَ وَاخْتِبَارُكَ وَامْتِحَانُكَ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ ابْنُ أَنَسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ^(٤). وَلَا مَعْنَى لَهُ غَيْرُ ذَلِكَ، يَقُولُ: إِنْ الْأَمْرُ إِلَّا أَمْرُكَ وَإِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لَكَ فَمَا شِئْتَ كَانَ، تُضِلُّ مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ، وَلَا هَادِي لِمَنْ أَضَلَّكَ وَلَا مُضِلٌّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا مَانِعٌ لِمَا أُعْطِيَ، فَالْمُلْكُ كُلُّهُ لَكَ وَالْحُكْمُ كُلُّهُ لَكَ، لَكَ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ حَزْرُ الْعَفْرِينَ﴾ الْغَفْرُ هُوَ السِّرُّ وَتَرَكُ الْمُؤَاخَذَةَ بِالذَّنْبِ، وَالرَّحْمَةُ إِذَا قُرُنَتْ مَعَ الْغَفْرِ يَرَادُ بِهَا أَنْ لَا يُوَقَّعُ فِي مِثْلِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ﴿وَأَنْتَ حَزْرُ الْعَفْرِينَ﴾ أَيُّ لَا يَغْفِرُ الذَّنْبَ إِلَّا أَنْتَ. وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ الْفَضْلُ الْأَوَّلُ مِنَ الدُّعَاءِ لِدَفْعِ الْمَحْذُورِ وَهَذَا لِتَحْصِيلِ الْمَقْصُودِ ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أَيُّ أَوْجِبْ لَنَا وَأَنْتَبْ لَنَا فِيهِمَا حَسَنَةً.

(١) الطبري: ١٤٠/١٣ (٢) الطبري: ١٤٣/١٣، ١٤٤ (٣) الطبري: ١٥١/١٣ (٤) الطبري: ١٥٤/١٣، ١٥٥

كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي صَخْرٍ الْعُقَيْلِيِّ: حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، قَالَ: جَلَبْتُ حُلُوتَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا فَرَعْتُ مِنْ بَيْعِي قُلْتُ: لَا لِقِينَ هَذَا الرَّجُلَ فَلَا سَمْعَنَ مِنْهُ قَالَ: فَلَقَانِي بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ يَمْشُونَ. فَتَبِعْتُهُمْ حَتَّى أَتَوْا عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ نَاشِرًا التَّوْرَةَ يَقْرَؤُهَا، يُعْزِّي بِهَا نَفْسَهُ عَنِ ابْنِ لَهُ فِي الْمَوْتِ، كَأَجْمَلِ الْفَتَيَانِ [وَأَحْسَنِهِ] فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْشُدْكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ هَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِكَ هَذَا صِفَتِي وَمَخْرَجِي؟» فَقَالَ بِرَأْسِهِ هَكَذَا، أَيْ لَا. فَقَالَ ابْنُهُ: إِي وَالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ إِنَّا لَنَجِدُ فِي كِتَابِنَا صِفَتَكَ وَمَخْرَجَكَ. وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ: «أَقِيمُوا الْيَهُودِيَّ عَنْ أَخِيكُمْ» ثُمَّ تَوَلَّى كَفَنَهُ وَالصَّلَاةَ عَلَيْهِ^(٥). هَذَا حَدِيثٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ لَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ^(٦). وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَةِ قَالَ: أَجَلُ، وَاللَّهُ! إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ كَصِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ «يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» [الأحزاب: ٤٥] وَجِزْرًا لِلْأُمِّيِّينَ أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمِّيتُكَ الْمُتَوَكِّلَ لَيْسَ بِقَطٍّ وَلَا غَلِيظٌ، وَلَكِنْ يَقْبِضُهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ أَلَمَةَ الْعَوْجَاءِ بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَتَنَحَّ بِه قُلُوبًا غُلْفًا وَأَذَانًا صُمًّا وَأَعْيُنًا عُمَيَّا، قَالَ عَطَاءٌ: ثُمَّ لَقِيتُ كَعْبًا فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَمَا اخْتَلَفَ حَرْفًا إِلَّا أَنَّ كَعْبًا قَالَ بُلُغْتِهِ: قَالَ: قُلُوبًا غُلُوفِيًّا وَأَذَانًا صُومِيًّا وَأَعْيُنًا عُمُومِيًّا^(٧). وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ وَزَادَ بَعْدَ قَوْلِهِ: لَيْسَ بِقَطٍّ وَلَا غَلِيظٌ: وَلَا صَخَابَ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَصْفَحُ^(٨). وَذَكَرَ حَدِيثَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، ثُمَّ قَالَ: وَيَقَعُ فِي كَلَامٍ كَثِيرٍ مِنَ السَّلَفِ إِطْلَاقُ التَّوْرَةِ عَلَى كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَقَدْ وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ مَا يُشِيرُ هَذَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ آيَةُ عَظِيمَةُ الشُّمُولِ وَالْعُمُومِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ، أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [إِغْفَار: ١٧]. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جُنْدُبٍ وَهُوَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَأَنَاحَ رَاحِلَتَهُ ثُمَّ عَقَلَهَا ثُمَّ صَلَّى خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَتَى رَاحِلَتَهُ فَأَطْلَقَ عَقَالَهَا ثُمَّ رَكِبَهَا ثُمَّ نَادَى: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلَا تُشْرِكْ فِي رَحْمَتِنَا أَحَدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَقُولُونَ هَذَا أَصْلُ أَمْ بَعِيرُهُ؟ أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ؟» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «لَقَدْ حَظَرْتُ رَحْمَةً وَاسِعَةً، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَنْزَلَ رَحْمَةً يَتَعَاطَفُ بِهَا الْخَلْقُ جَنُودًا وَإِنْسًا وَبَهَائِمًا وَآخَرَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً. أَتَقُولُونَ هُوَ أَصْلُ أَمْ بَعِيرُهُ؟»^(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ^(٢). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ سَلْمَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مِائَةَ رَحْمَةٍ فَمِنْهَا رَحْمَةٌ يَتَرَاخَمُ بِهَا الْخَلْقُ وَبِهَا تَعَطَّفُ الْوُحُوشُ عَلَى أَوْلَادِهَا وَآخَرُ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣) فَفَرَّادٍ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ^(٤). وَقَوْلُهُ: «سَأَلْتُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ...» الْآيَةُ، يَغْنِي فَسَأَوْجِبُ حُصُولَ رَحْمَتِي مِنْهُ مِنِّي وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وَقَوْلُهُ: «لِلَّذِينَ يَنْقُونَ» أَيِ سَاجِعِهَا لِلْمُتَصِفِينَ بِهِذِهِ الصِّفَاتِ، وَهُمْ أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ ﷺ «لِلَّذِينَ يَنْقُونَ» أَيِ الشُّرْكَ وَالْعِظَائِمِ مِنَ الذُّنُوبِ. قَوْلُهُ: «وَيُؤْتُونَكَ الزَّكَاةَ» قِيلَ: زَكَاةُ النَّفُوسِ وَقِيلَ: الْأَمْوَالُ وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ غَامَةً لَهُمَا فَإِنَّ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ «وَالَّذِينَ هُمْ بِإِيَابِنَا يُؤْمِنُونَ» أَيِ يُصَدِّقُونَ.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِذَا زُلْزِلَتْ أَمْثُلًا بَدًّا وَعَزْرُوه وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ

أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

[صِفَاتُ ذَلِكَ الرَّسُولِ ﷺ]

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ وَهَذِهِ صِفَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ بَشَرُوا أُمَّمَهُمْ بِبَعْثِهِ وَأَمْرُوهُمْ بِمَتَابِعَتِهِ، وَلَمْ تَزَلْ صِفَاتُهُ مُوجُودَةً فِي كُتُبِهِمْ يَعْرِفُهَا عُلَمَاؤُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ.

(١) أحمد: ٣١٢/٤ إسناده ضعيف لجهالة أبي عبدالله الجُشمي وأصل الحديث عند البخاري في كتاب الآداب (٦٠١٠) من حديث أبي هريرة مختصراً (٢) أبو داود: ١٩٧/٥ (٣) أحمد: ٤٣٩/٥ (٤) مسلم: ٢١٠٨/٤ (٥) أحمد: ٤١١/٥ (٦) فتح الباري: ٢٥٩/٣ (٧) الطبري: ١٦٤/١٣ (٨) فتح الباري: ٤/٤٠٢ يبدو أن نسخة الطبري عند ابن كثير كانت خالية من هذه الزيادة، وإلا فهي موجودة عند الطبري المطبوع. كما بأعلاه.

الْمُفْلِحُونَ» أَيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٨)

[عُمُومُ رِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ لِلْعَالَمِ كُلِّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ! يَتَّيِبُهَا النَّاسُ﴾ وَهَذَا خِطَابٌ لِلْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ وَالْعَرَبِيِّ وَالْعَجَمِيِّ ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أَيِّ جَمِيعِكُمْ وَهَذَا مِنْ شَرَفِهِ وَعَظَمَتِهِ ﷺ: أَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَأَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُذَكِّرَكُمْ بِهِ وَمَنْ يَلْغُ﴾ [الأنعام: ١٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأُلْتَأْذِرُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [هود: ١٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُنْيَسَ: اسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِلَّا قَوْلًا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ [آل عمران: ٢٠] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ كَمَا أَنَّ الْأَحَادِيثَ فِي هَذَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ، وَهُوَ مَعْلُومٌ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ ضُرُورَةٌ أَنَّهُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ. رَوَى الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَتْ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مُحَاوَرَةٌ فَأَغْضَبَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ فَأَنْصَرَفَ عَنْهُ عُمَرُ مُغْضَبًا، فَاتَّبَعَهُ أَبُو بَكْرٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ، فَلَمْ يَفْعَلْ حَتَّى أَغْلَقَ بَابَهُ فِي وَجْهِهِ فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ وَنَحْنُ عِنْدَهُ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا صَاحِبُكُمْ هَذَا فَقَدْ غَامَرَ» أَيُّ غَاصَبٌ وَحَاقِدٌ. قَالَ: وَنَدِمَ عُمَرُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، فَأَقْبَلَ حَتَّى سَلَّمَ وَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَصَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْخَبَرَ، قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَقُولُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي؟ إِنِّي قُلْتُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ» (١) انْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا أَنَّ رَسُولَ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ هَذِهِ صِفَةُ الرَّسُولِ ﷺ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَهَكَذَا كَانَتْ حَالُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِخَيْرٍ وَلَا يَنْهَى إِلَّا عَنْ شَرٍّ كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَتَّيِبُهَا لِلْزَيْنِ مَأْمُونًا﴾ [آل عمران: ١٠٢] فَأَزْعِهَا سَمْعَكَ فَإِنَّهُ خَيْرٌ تُؤْمَرُ بِهِ أَوْ شَرٌّ تُنْهَى عَنْهُ. وَمِنْ أَهَمِّ ذَلِكَ وَأَعْظَمِهِ مَا بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ بِعِبَادَتِهِ وَخَدُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَالتَّهْيِ عَنْ عِبَادَةِ مَنْ سِوَاهُ كَمَا أَرْسَلَ بِهِ جَمِيعَ الرُّسُلِ قَبْلَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ أَيُّ يُحِلُّ لَهُمْ مَا كَانُوا حَرَمُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَابِغِ وَالْوَصَائِلِ وَالْحَامِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا كَانُوا ضَمُّوا بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كُلُّهُمْ الْخُزَيْرِ وَالرَّبَا، وَمَا كَانُوا يَسْتَحِلُّونَهُ مِنْ الْمُحَرَّمَاتِ مِنَ الْمَأْكَلِ الَّتِي حَرَّمَهَا اللَّهُ تَعَالَى (٢). وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ أَنَّهُ جَاءَ بِالتَّيْسِيرِ وَالسَّامَحَةِ وَقَالَ ﷺ لِأَمِيرِيهِ مُعَاذٍ وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ لَمَّا بَعَثَهُمَا إِلَى الْيَمَنِ: «بَشِّرَا وَلَا تُفْرَا وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا وَطَاطَوْعَا وَلَا تُخْتَلِفَا» (٣). وَقَالَ صَاحِبُهُ أَبُو بَرَزَةَ الْأَسْلَمِيُّ: إِنِّي صَحَبْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَشَهِدْتُ تَيْسِيرَهُ، وَقَدْ كَانَتْ الْأُمَمُ الَّتِي قَبَلْنَا فِي شَرَائِعِهِمْ ضَيِّقٌ عَلَيْهِمْ، فَوَسَّعَ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أُمُورَهَا وَسَهَّلَهَا لَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ» (٤). وَقَالَ: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ» (٥) وَلِهَذَا أَرَادَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَنْ يَقُولُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وَتَبَّتْ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ بَعْدَ كُلِّ سُؤَالٍ مِنْ هَذِهِ: قَدْ فَعَلْتُ. قَدْ فَعَلْتُ. وَقَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَصَرُّوهُ وَتَضَرُّوهُ﴾ أَيُّ عَظِّمُوهُ وَوَقِّرُوهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ أَيُّ الْقُرْآنَ وَالْوَحْيَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُبَلِّغًا إِلَى النَّاسِ ﴿أُولَئِكَ هُمُ

(١) الطبري: ١٦٦/١٣ (٢) فتح الباري: ١٨٨/٥ (٣) فتح

الباري: ٣٠٠/٩ (٤) ابن ماجه: ٦٥٩/١ (٥) فتح الباري:

الْحَمْدُ لِلَّهِ

١٧١

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنْبِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاتِ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦١﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَرِيدًا ﴿١٦٢﴾ فَذَلَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٣﴾ وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٤﴾

عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاتِ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦١﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَرِيدًا ﴿١٦٢﴾ فَذَلَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٣﴾

تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ هَذَا كُلِّهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ، وَهَذَا السِّيَاقُ مَكِّيٌّ وَبَنَيْنَا عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ هَذَا السِّيَاقِ وَذَلِكَ، بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ

اللَّهُ ﷻ قَالَ: «أَعْطَيْتُ حَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيَّ قَبْلِي وَلَا أَقُولُهُ فَخَرًا: بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً: الْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ، وَنُصِرْتُ بِالرَّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، وَأَعْطَيْتُ الشَّفَاعَةَ فَأَخَّرْتُهَا لِأَمْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيهِ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا»^(١) إِسْنَادٌ جَيِّدٌ وَلَمْ يُخْرِجُوهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِي لَمْ يَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ صِفَةُ ﴿اللَّهِ﴾ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ أَيِ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِكُهُ الَّذِي يَبْدُو الْمُلْكُ وَالْإِحْيَاءُ وَالْإِمَاتَةُ وَلَهُ الْحُكْمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِاتِّبَاعِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ. ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ أَيِ الَّذِي وَعَدْتُمْ بِهِ وَبَشَّرْتُمْ بِهِ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّهُ مَنَعْتُ بِذَلِكَ فِي كُتُبِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أَيِ يُصَدِّقُ قَوْلَهُ عَمَلُهُ، وَهُوَ يُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴿وَاتَّبَعُوهُ﴾ أَيِ أَسْلَكُوا طَرِيقَهُ وَافْتَقُوا أَتْرَهُ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أَيِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

﴿وَمَنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ: أَنَّ مِنْهُمْ طَائِفَةً يَتَّبِعُونَ الْحَقَّ وَيَعْدِلُونَ بِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ كُلِّ نَازِلٍ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْفَعُونَ بِعَابَتِ اللَّهِ شَيْئًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَلَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [وَلَا يَمُنُّ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ] ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴿الْآيَةُ [القصص: ٥٢-٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُولُوا أَلْمَامَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا بَلَغَ عَلَيْهِمْ بِحُزْنٍ لِلَّذَانِ سُجَّدًا﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ وَيَخْرُجُونَ لِلَّذَانِ يَبْكَوْنَ وَيَرْبِدُهُنَّ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنْبِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا

(١) أحمد: ٣٠١/١ هذا إسناد ضعيف لضعف يزيد بن أبي زياد الهاشمي لكن هذا الحديث صَحَّحَ بالشواهد ومنها حديث جابر عند أحمد ٣/٣٠٤ والبخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) وحديث أبي ذر عند أحمد ٥/١٤٥، ١٤٨، ١٦١ وحديث عبدالله بن عمرو عند أحمد ٢/٢٢٢.

الْبَقَرَةُ

١٧٢

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَأَقَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَسْفُتُونَ ﴿١٦٦﴾
فَلَمَّا سَأَلُوا مَادَّ كُرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ
وَآخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٧﴾
فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَنَاهُوعِنَا فَلْنَاهُمْ كُوْنُوا فِرْدَةً خَاسِعِينَ ﴿١٦٨﴾
وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبْكُ لِبَعْنٍ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ
يُسْؤِمُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٩﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَامًا مِنْهُمْ
الضَّالِّحُونَ وَمِنْهُمْ دُونِ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ
وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٠﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ
وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا
وَأِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ
أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَارِ الْأُخْرَىٰ
خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُنْقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ وَالَّذِينَ يَمَسُكُونَ
بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٢﴾

[مَسْحُومٌ قِرْدَةً وَنَجَاةُ النَّاهِينَ دُونَ السَّاكِنِينَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ أَنَّهُمْ صَارُوا إِلَى ثَلَاثِ
فُرُقٍ: فِرْقَةٌ ارْتَكَبَتِ الْمُحْذَرَّ وَاحْتَالُوا عَلَى اضْطِیَادِ
السَّمَكِ يَوْمَ السَّبْتِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ. وَفِرْقَةٌ
نَهَتْ عَنْ ذَلِكَ وَاعْتَزَلَتْهُمْ. وَفِرْقَةٌ سَكَتَتْ فَلَمْ تَفْعَلْ وَلَمْ تَنْهَ
وَلَكِنَّهَا قَالَتْ لِلْمُنْكَرَةِ: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ
مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أَيْ لِمَ تَنْهَوْنَ هَؤُلَاءِ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ
قَدْ هَلَكُوا وَاسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ مِنَ اللَّهِ؟ فَلَا فَائِدَةَ فِي نَهْيِكُمْ
إِيَّاهُمْ، قَالَتْ لَهُمُ الْمُنْكَرَةُ: ﴿مَعَذَرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أَيْ فِيمَا

يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِبَانُهُمْ يَوْمَ سَنِيهِمْ
شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْئُرُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ تَبْلُوهُمْ بِمَا
كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٦﴾

[عُدْوَانُ الْيَهُودِ فِي السَّبْتِ]

هَذَا السِّيَاقُ هُوَ بَسْطُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ
أَعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ الْآيَةُ [البقرة: ٦٥]، يَقُولُ تَعَالَى
لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ﴾ أَيْ وَاسْأَلْ
هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ الَّذِينَ بِحَضْرَتِكَ عَنْ قِصَّةِ أَصْحَابِهِمُ الَّذِينَ
خَالَفُوا أَمْرَ اللَّهِ، فَفَاجَأْتَهُمْ نِقْمَتُهُ عَلَى صِغِيرِهِمْ وَاعْتِدَائِهِمْ
وَاحْتِيَالِهِمْ فِي الْمَخَالِفَةِ، وَحَذَّرَ هَؤُلَاءِ مِنْ كَيْفَانِ صِفَتِكَ
الَّتِي يَجِدُونَهَا فِي كُتُبِهِمْ لِقَالِ يَحِلُّ بِهِمْ مَا حَلَّ بِأَخْوَانِهِمْ
وَسَأَلَهُمْ. وَهَذِهِ الْقَرْيَةُ هِيَ «أَيْلَةُ» وَهِيَ عَلَى شاطئِ بَحْرِ
الْقَلْزُومِ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْحَصِينِ عَنْ
عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ
الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قَالَ: هِيَ قَرْيَةُ يُقَالُ
لَهَا: «أَيْلَةُ»، بَيْنَ مَدْيَنَ وَالطُّورِ^(١). وَكَذَا قَالَ عِكْرَمَةُ
وَمُجَاهِدٌ وَتَقَادَةُ وَالسُّدِّيُّ^(٢). وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي
السَّبْتِ﴾ أَيْ يَعْتَدُونَ فِيهِ وَيُخَالِفُونَ أَمْرَ اللَّهِ فِيهِ لَهُمْ بِالْوَصَاةِ
بِهِ إِذْ ذَاكَ ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ جِبَانُهُمْ يَوْمَ سَنِيهِمْ شُرْعًا﴾.
قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيْ ظَاهِرَةً عَلَى الْمَاءِ^(٣).
قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْئُرُونَ لَا تَأْتِيهِمْ
كَذَلِكَ تَبْلُوهُمْ﴾ أَيْ نَحْتَبِرُهُمْ بِإِظْهَارِ السَّمَكِ لَهُمْ عَلَى
ظَهْرِ الْمَاءِ فِي الْيَوْمِ الْمُحَرَّمِ عَلَيْهِمْ صَيْدُهُ وَإِخْفَائِهِ عَنْهُمْ فِي
الْيَوْمِ الْحَلَالِ لَهُمْ صَيْدُهُ ﴿كَذَلِكَ تَبْلُوهُمْ﴾ نَحْتَبِرُهُمْ
﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يَقُولُ: يَفْسُقُهُمْ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ
وُخْرُوجِهِمْ عَنْهَا^(٤). وَهَؤُلَاءِ قَوْمٌ إِحْتَالُوا عَلَى انْتِهَاكِ
مَحَارِمِ اللَّهِ بِمَا تَعَاطَوْا مِنَ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي مَعْنَاهَا
فِي الْبَاطِنِ: تَعَاطَى الْحَرَامَ. وَقَدْ رَوَى الْفَقِيهُ الْإِمَامُ أَبُو
عَبْدِ اللَّهِ بْنُ بَطَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
قَالَ: «لَا تَزَكَّبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ فَتَسْتَعْلُوا مَحَارِمَ اللَّهِ
بِأَذْنِ الْحَيْلِ»^(٥). وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا
شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَسْفُتُونَ ﴿١٦٦﴾ فَلَمَّا سَأَلُوا
مَادَّ كُرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَآخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا
بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٧﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ
فَلْنَاهُمْ كُوْنُوا فِرْدَةً خَاسِعِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

(١) الطبري: ١٨٠/١٣ (٢) الطبري: ١٨١، ١٨٠/١٣ (٣)
الطبري: ١٨٣/١٣ الضحاك لم يسمع من ابن عباس كما
تقدم (٤) الطبري: ١٨٣/١٣ (٥) الزفاف: ١٩٢ إرواء الغليل
١٥٣٥/٥ قال الألباني: وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات معروفون
من رجال "التهذيب" غير أبي الحسن أحمد بن محمد بن مسلم
وهو المخرمي كما جاء منسوباً في أكثر من موضع من كتابه الآخر
"الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية" (ق/١١٤ و١٤٤ و٢ وأما
الحافظ ابن كثير فقد أورد الحديث في تفسيره من طريق ابن بطّة.

أَمَرِهِمْ أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ أَنْصَارًا لِلدَّجَالِ فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ مَعَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَذَلِكَ آخِرَ الزَّمَانِ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ أَيُّ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَخَالَفَ شَرْعَهُ ﴿وَلَئِنَّ لَعَفُودَ رَجِمَةٍ﴾ أَيُّ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَتَابَ. وَهَذَا مِنْ بَابِ قَرْنِ الرَّحْمَةِ مَعَ الْعُقُوبَةِ لِئَلَّا يَحْصُلَ الْيَأْسُ، فَيَقْرَنُ تَعَالَى بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ كَثِيرًا، لِيَتَّبِعِيَ النَّفُوسَ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ.

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّثْلُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللِّدَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّ الَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿١٦٧﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٦٨﴾

[إِتِّشَارُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْأَرْضِ]

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ فَرَّقَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا، أَيُّ طَوَائِفَ وَفِرْقًا كَمَا قَالَ: ﴿وَقَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإِسْرَاءُ: ١٠٤] وَمِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ﴿[الإِسْرَاءُ: ١٠٤] أَيُّ فِيهِمُ الصَّالِحُ وَغَيْرُ ذَلِكَ كَقَوْلِ الْحِجْنِ: ﴿وَأَنَا وَمَا الصَّالِحُونَ وَمَا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرِيقَ فِدَا﴾ [الْحِجْن: ١١] ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ﴾ أَيُّ اخْتَبَرْنَاهُمْ ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أَيُّ بِالرَّخَاءِ وَالشَّدَّةِ وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ وَالْعَافِيَةِ وَالْبَلَاءِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ الْآيَةُ: يَقُولُ تَعَالَى: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْجِيلِ الَّذِينَ فِيهِمُ الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ خَلَفَ آخَرٌ لَا خَيْرَ فِيهِمْ، وَقَدْ وَرِثُوا دِرَاسَةَ الْكِتَابِ وَهُوَ التَّوْرَةُ: وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ قَالَ: لَا يَشْرَفُ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا أَخَذُوهُ - حَلَالًا كَانَ أَوْ حَرَامًا - وَيَتَمَتَّعُونَ الْمَغْفِرَةَ ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ﴾ (٦). وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ إِي وَاللَّهِ لَخَلَفُ سُوءٍ ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ بَعْدَ أَنْبِيَائِهِمْ

أَخَذَ عَلَيْنَا مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يَقُولُونَ: وَلَعَلَّهُمْ لِهَذَا الْإِنْكَارِ يَتَّقُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَيَتَرَكُونَهُ وَيَرْجِعُونَ إِلَى اللَّهِ تَائِبِينَ، فَإِذَا تَابُوا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَحِمَهُمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ﴾ أَيُّ فَلَمَّا أَبَى الْفَاعِلُونَ قَبُولَ النَّصِيحَةِ ﴿أَجِئْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَيُّ إِرْتَكَبُوا الْمَعْصِيَةَ ﴿بِعَذَابٍ يَبِيسٍ﴾ فَصَصَ عَلَى نَجَاةِ التَّائِبِينَ وَهَلَاكِ الظَّالِمِينَ وَسَكَتَ عَنِ السَّاكِنِينَ، لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ مَذْحًا فِيمَدَحُوا وَلَا إِرْتَكَبُوا عَظِيمًا فَيُعَذَّبُوا. وَعَنْ عِكْرَمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ، قَالَ: مَا أَذْرِي أَتَجَا الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَمْ يَنْظُرُوا قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أَمْ لَا؟ قَالَ: فَلَمْ أَرَلْ بِهِ حَتَّى عَرَفْتُهُ أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا فَكَسَانِي حُلَّةً (١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَیْسٍ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ بِالْمَفْهُومِ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ بَقُوا نَجَوْا. وَ ﴿بَیْسٍ﴾ مَعْنَاهُ فِي قَوْلِ مُجَاهِدٍ: الشَّدِيدُ (٢). وَفِي رَوَايَةٍ: أَلِيمٌ. وَقَالَ قَتَادَةُ: مُوجِعٌ (٣). وَالْكُلُّ مُتَقَارِبٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَوْلُهُ: ﴿خَمِيسِينَ﴾ أَيُّ ذَلِيلِينَ حَقِيرِينَ مُهَانِينَ.

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكْبُكَ لِبَعَثْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسْأَلُ مِنْهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَلَئِنَّ لَعَفُودَ رَجِمَةٍ﴾

رَجِمَةٍ ﴿١٦٨﴾

[الذَّلَّةُ الدَّائِمَةُ لِلْيَهُودِ]

﴿تَأَذَّتْ﴾ تَفَعَّلَ مِنَ الْأَذَانِ أَيُّ: أَعْلَمَ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَقَالَ غَيْرُهُ: أَمَرَ. وَفِي قُوَّةِ الْكَلَامِ مَا يُفِيدُ مَعْنَى الْقَسَمِ مِنْ هَذِهِ اللَّفْظَةِ، وَلِهَذَا [تَلَقَّيْتُ] بِاللَّامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَيُعَذَّبَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ عَلَى الْيَهُودِ ﴿إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسْأَلُ مِنْهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أَيُّ بِسَبَبِ عِصْيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ وَأَمْرِهِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ وَاحْتِيَالِهِمْ عَلَى الْمَحَارِمِ، وَيُقَالُ: إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ضَرَبَ عَلَيْهِمُ الْخَرَاجَ سَبْعَ سِنِينَ، وَقِيلَ: ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً. وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَ الْخَرَاجَ ثُمَّ كَانُوا فِي قَهْرِ الْمُلُوكِ مِنَ الْيُونَانِيِّينَ وَالْكُشْدَانِيِّينَ وَالْكَلْدَانِيِّينَ، ثُمَّ صَارُوا إِلَى قَهْرِ النَّصَارَى وَإِذْلَالِهِمْ إِيَّاهُمْ، وَأَخَذِهِمْ مِنْهُمْ الْجِزْيَةُ وَالْخَرَاجُ. ثُمَّ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمُحَمَّدٌ ﷺ فَكَانُوا تَحْتَ قَهْرِهِ وَذِمَّتِهِ يُؤَدُّونَ الْخَرَاجَ وَالْجِزْيَةَ. قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: هِيَ الْمَسْكَنَةُ وَأَخَذَ الْجِزْيَةَ مِنْهُمْ (٤). وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ: يَسْتَحِبُّ أَنْ تُبْعَثَ الْأَنْبَاطُ فِي الْجِزْيَةِ (٥). قُلْتُ: ثُمَّ آخِرُ

(١) الطبري: ١٨٧/١٣ (٢) الطبري: ٢٠٢/١٣ (٣) الطبري:

٢٠٢/١٣ (٤) الطبري: ٢٠٥/١٣ (٥) عبد الرزاق: ٢٤٠/٢

(٦) الطبري: ٢١٢/١٣

سورة الأعراف

١٧٣

سورة الأعراف

﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجِبْلَ فَوْقَهُمْ كَانَهُ ظِلْمَةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَاقُلْ عَلَيْهِمُ نَبَأُ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَأَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَكَانُوا مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثَ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا نَظِيمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَبِهِدَاهُ فَمَا تَنْتَهِدِي وَمَن يَضِلَّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

[رَفَعَ الطُّورَ عَلَى رُؤُوسِ الْيَهُودِ لِيَتَمَرَّدَهُمْ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجِبْلَ فَوْقَهُمْ﴾ يَقُولُ: رَفَعْنَاهُ. وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ﴾^(٤) [النساء: ١٥٤] وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: رَفَعْنَاهُ الْمَلَائِكَةُ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ [النساء: ١٥٤] وَقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ثُمَّ سَارَ بِهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ وَأَخَذَ الْأَلْوَاحَ بَعْدَ مَا سَكَتَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَأَمَرَهُمُ بِالَّذِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُبَلِّغَهُمْ مِنَ الْوُظَائِفِ فَتَقَلَّتْ عَلَيْهِمْ، وَأَبَوْا أَنْ يُفَرِّقُوا بِهَا حَتَّى تَنَقَّ اللَّهُ الْجِبْلَ فَوْقَهُمْ ﴿كَانَهُ ظِلْمَةٌ﴾ قَالَ: رَفَعْنَاهُ الْمَلَائِكَةُ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ. رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِطَوِيلِهِ^(٥).

وَرُؤُوسِهِمْ أَوْ رُؤُوسَهُمْ اللَّهُ وَعَهْدَ إِلَيْهِمْ. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ [الآية مريم: ٥٩] قَالَ: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ تَمَنَّوْا عَلَى اللَّهِ أَمَانِيَّ وَغِرَّةَ يَغْتَرُونَ بِهَا ﴿وَإِنْ يَأْتِيَهُمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ لَا يَسْغِلُهُمْ شَيْءٌ وَلَا يَنْهَاهُمْ شَيْءٌ عَنْ ذَلِكَ، كُلَّمَا هَفَّ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا أَكَلُوهُ لَا يَبَالُونَ حَلَالًا كَانَ أَوْ حَرَامًا^(١). وَقَالَ السُّدِّيُّ: قَوْلُهُ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَدَّرَسُوا مَا فِيهِ﴾ قَالَ: كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لَا يَسْتَفْضُونَ قَاضِيًا إِلَّا ارْتَشَى فِي الْحُكْمِ وَإِنْ خَيَّرَهُمْ اجْتَمَعُوا، فَأَخَذَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ الْعُهُودَ أَنْ لَا يَقْعُلُوا وَلَا يَرْتَشُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِذَا اسْتَفْضَى ارْتَشَى فَيَقَالُ لَهُ: مَا شَأْنُكَ تَرْتَشِي فِي الْحُكْمِ؟ فَيَقُولُ: سَيُغْفَرُ لِي، فَتَطْعُنُ عَلَيْهِ الْبَقِيَّةُ الْآخَرُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِيمَا صَنَعَ، فَإِذَا مَاتَ أَوْ نَزَعَ وَجُعِلَ مَكَانُهُ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ يَطْعُنُ عَلَيْهِ فَيَرْتَشِي، يَقُولُ: وَإِنْ يَأْتِ الْآخَرِينَ عَرَضُ الدُّنْيَا يَأْخُذُوهُ^(٢). قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يُوْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الآية]. يَقُولُ تَعَالَى مُكْرِمًا عَلَيْهِمْ فِي صَنِيعِهِمْ هَذَا مَعَ مَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمِيثَاقِ لِيُبَيِّنَ الْحَقَّ لِلنَّاسِ، وَلَا يَكْتُمُونَهُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَيَتَسَاءَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿أَلَمْ يُوْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ قَالَ: فِيمَا يَتَمَنَّوْنَ عَلَى اللَّهِ مِنْ غُفْرَانٍ ذُنُوبَهُمُ الَّتِي لَا يَزَالُونَ يَعُودُونَ فِيهَا وَلَا يَتُوبُونَ مِنْهَا^(٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُوا الْحَيَّرَ لِلَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يَرْعِبُهُمْ فِي جَزِيلِ نَوَابِهِ وَيُحَذِّرُهُمْ مِنْ وَبِيلِ عِقَابِهِ، أَيْ وَتَوَابِي وَمَا عِنْدِي خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى الْمَحَارِمَ وَتَرَكَ هَوَى نَفْسِهِ وَأَقْبَلَ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يَقُولُ: أَلَيْسَ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اغْتَاضُوا بِعَرَضِ الدُّنْيَا عَمَّا عِنْدِي غَفْلٌ يَرِدُّهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ السَّغْوِ وَالتَّبَذِيرِ، ثُمَّ أَتَى تَعَالَى عَلَى مَنْ تَمَسَّكَ بِكِتَابِهِ الَّذِي يَقُودُهُ إِلَى اتِّبَاعِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أَيْ اغْتَصَمُوا بِهِ وَاقْتَدُوا بِأَوَامِرِهِ، وَتَرَكُوا زَوَاجِرَهُ ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضْمِيعُ أَجْرَ الْمُضْلِمِينَ﴾.

﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجِبْلَ فَوْقَهُمْ كَانَهُ ظِلْمَةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

(١) الطبري: ٢١٣/١٣ (٢) الطبري: ٢١٣/١٣ (٣) الطبري: ٢١٥/١٣ (٤) الطبري: ٢١٨/١٣ (٥) النسائي في الكبرى:

أَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوْ لَمْ تُعْطَهَا ابْنُكَ دَاوُدُ؟ قَالَ: «فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَنَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ» ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَقَدْ رَوَى مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ^(٥). وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(٦).

فهذه الأحاديث وأمثالها دالة على أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ صُلْبِهِ وَمَيَّرَ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ قَالَ: «وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى» أَيُّ أَوْجَدَهُمْ شَاهِدِينَ بِذَلِكَ قَائِلِينَ لَهُ حَالًا وَقَالًا. وَالشَّهَادَةُ تَارَةً تَكُونُ بِالْقَوْلِ كَقَوْلِهِ: «قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا»... [الآية: ١٣٠]، وَتَارَةً تَكُونُ حَالًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفَرِ» [التوبة: ١٧] أَيُّ حَالُهُمْ شَاهِدٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، لَا أَنَّهُمْ قَائِلُونَ ذَلِكَ. وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَيْتَهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ» [العنكبوت: ٧] كَمَا أَنَّ السُّؤَالَ تَارَةً يَكُونُ بِالْقَالِ وَتَارَةً يَكُونُ بِالْحَالِ كَقَوْلِهِ: «وَأَتَسْتَكْمِنُ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ» [إبراهيم: ٣٤] قَالُوا: وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِذَا هَذَا: أَنَّ جَعَلَ هَذَا الْإِشْهَادَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ فِي الْإِشْرَافِ، فَلَوْ كَانَ قَدْ وَقَعَ هَذَا كَمَا قَالَ مَنْ قَالَهُ لَكَانَ كُلُّ أَحَدٍ يَذْكُرُهُ لِيَكُونَ حُجَّةً عَلَيْهِ. فَإِنْ قِيلَ: إِنْخَبَارُ الرَّسُولِ ﷺ بِهِ كَافٍ فِي وُجُودِهِ؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّ الْمُكَذِّبِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَكْذِبُونَ بِجَمِيعِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ، وَهَذَا جُعِلَ حُجَّةً مُسْتَقِلَّةً عَلَيْهِمْ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ الْفِطْرَةُ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا مِنَ الْإِفْرَارِ بِالتَّوْحِيدِ وَلِهَذَا قَالَ: «أَنْ تَقُولُوا» أَيُّ لَيْلًا تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ «إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا» أَيُّ التَّوْحِيدِ «غَافِلِينَ»^(٧) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا الْآيَةُ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

«وَأَتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَاَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَابَيْنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ»^(٨) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَتَّبِعْهُ كَتَلِّبِ الْكَلْبَ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتَرَكَّهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا

«وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ»^(٩) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ»^(١٠) وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»^(١١)

[بَيَانُ الْعَهْدِ الْمَأْخُوذِ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ بَنِي آدَمَ مِنْ أَضْلَابِهِمْ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّ اللَّهَ رَبُّهُمْ وَمَلِيكُهُمْ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، كَمَا أَنَّهُ تَعَالَى فَطَرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَجَبَلَهُمْ عَلَيْهِ قَالَ تَعَالَى: «فَافْقِدْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ» [الروم: ٣٠] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَيِّدَانِهِ وَيَنْصُرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُوَلَّدَ [الْبَهِيمَةُ] بِبَهِيمَةٍ جَمْعَاءَ هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَذَعَاءَ»^(١٢) وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُفَاءَ فَجَاءَهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَنَلْتَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّكَ لَهُمْ»^(١٣). وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ فِي أَخْذِ الذَّرِّيَّةِ مِنْ صُلْبِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَمْيِيزِهِمْ إِلَى أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَصْحَابِ الشَّمَالِ، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنَ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي»^(١٤). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(١٥).

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنِي كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبَيْصًا مِنْ نُورٍ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ! مَنْ هُوَ؟ قَالَ: هُوَ لَا ذُرِّيَّتَكَ فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعَجَبَهُ وَبَيْصٌ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ قَالَ: أَيُّ رَبِّ! مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ. قَالَ: رَبِّ وَكَمْ جَعَلْتَ عُمُرِي؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً قَالَ: أَيُّ رَبِّ! وَقَدْ وَهَبْتُ لَهُ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا انْقَضَى عُمُرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ قَالَ:

(١) فتح الباري: ٢٩٠/٣ ومسلم: ٢٠٤٧/٤ (٢) مسلم: ٤/٢١٩٧ (٣) أحمد: ١٢٧/٣ (٤) فتح الباري: ٤١٩/٦ ومسلم: ٢١٦٠/٤ (٥) تحفة الأحوذ: ٤٥٧/٨ (٦) الحاكم: ٣٢٥/٢

بِأَيِّنَّا فَاقْصِصْ الْفَقْصَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَانفُسُهُمْ كَالَّذِينَ يَمْشُونَ ﴿١٧٧﴾
[قِصَّة بُلْعَمِ بْنِ بَاعُورَاءَ وَمَثَلِ الْعَالَمِ الَّذِي يَنْسَلِخُ عَنْ
عِلْمِهِ]

رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الْآيَةِ مَا آتَيْنَاهُ فَأَنسَلِخْ
مِنْهَا﴾ الْآيَةُ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُقَالُ لَهُ: بُلْعَمُ
بْنُ بَاعُورَاءَ^(١). وَكَذَا رَوَاهُ شُعْبَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ مَنْصُورٍ
بِهِ^(٢). وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:
هُوَ صَيْغِي ابْنُ الرَّاهِبِ. قَالَ قَتَادَةُ: وَقَالَ كَعْبٌ: كَانَ
رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَلْعَاءِ وَكَانَ يَعْلَمُ الْأَسْمَ الْأَكْبَرَ وَكَانَ مُقِيمًا
بِبَيْتِ الْمُقَدَّسِ مَعَ الْجَبَّارِينَ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ يُقَالُ لَهُ: بُلْعَمُ أَتَاهُ
اللَّهُ آيَاتِهِ فَتَرَكَهَا^(٣). وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: كَانَ مِنْ عُلَمَاءِ
بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَانَ مُجَابِبَ الدَّعْوَةِ يُقَدِّمُونَهُ فِي الشَّدَائِدِ، بَعَثَهُ
نَبِيُّ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَلِكٍ مَدِينٍ يَدْعُوهُ إِلَى اللَّهِ
فَأَقْطَعَهُ وَأَعْطَاهُ، فَتَبِعَ دِينَهُ وَتَرَكَ دِينَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.
وَقَالَ [عِمْرَانُ] بَنُ عَيْنَةَ عَنْ حُصَيْنٍ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحَارِثِ
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ بُلْعَمُ بْنُ بَاعِرٍ^(٤). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ
وَعِكْرَمَةُ^(٥). وَقَالَتْ ثَقِيفٌ: هُوَ أُمِّيَّةٌ بَنُ أَبِي الصَّلْتِ.

وَأَمَّا الْمَشْهُورُ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فَإِنَّمَا
هُوَ رَجُلٌ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي زَمَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا قَالَ ابْنُ
مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ^(٦). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ
ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ رَجُلٌ مِنْ مَدِينَةِ الْجَبَّارِينَ يُقَالُ لَهُ: بُلْعَمُ
وَكَانَ يَعْلَمُ اسْمَ اللَّهِ الْأَكْبَرَ^(٧). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا نَزَلَ مُوسَى بِهِمْ يَغْنِي بِالْجَبَّارِينَ وَمَنْ
مَعَهُ أَتَاهُ - يَغْنِي بُلْعَمُ - أَتَاهُ بَنُو عَمِّهِ وَقَوْمُهُ فَقَالُوا: إِنَّ
مُوسَى رَجُلٌ حَدِيدٌ وَمَعَهُ جُنُودٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ إِنْ يَطْهَرُ عَلَيْنَا
يُهْلِكُنَا فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَرُدَّ عَنَّا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، قَالَ: إِنِّي
إِنْ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَرُدَّ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ذَهَبَتْ دُنْيَايَ
وَأَخْرَجْتِي، فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى دَعَا عَلَيْهِمْ، فَسَلَخَهُ اللَّهُ مَا
كَانَ عَلَيْهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَنسَلَخَ مِنْهَا فَاتْبَعَهُ
الشَّيْطَانُ﴾ الْآيَةُ^(٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى
الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أَيْ
لَرَفَعْنَاهُ مِنَ التُّدْنُسِ عَنْ قَادُورَاتِ الدُّنْيَا بِالْآيَاتِ الَّتِي آتَيْنَاهُ

إِيَّاهَا ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أَيْ، مَالَ إِلَى زِينَةِ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا وَأَقْبَلَ عَلَى لَذَائِهَا وَنَعِيمِهَا، وَغَرَّتْهُ
كَمَا غَرَّتْ غَيْرَهُ مِنْ غَيْرِ أَوَّلِي الْبَصَائِرِ وَالْهَيْ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارَ عَنْ سَالِمِ أَبِي النَّضْرِ
أَنَّهُ حَدَّثَ: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا نَزَلَ فِي أَرْضِ بَنِي
كَثْنَانَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، أَتَى قَوْمَ بُلْعَامَ إِلَيْهِ فَقَالُوا لَهُ: هَذَا
مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ جَاءَ يُخْرِجُنَا مِنْ
بِلَادِنَا وَيَقْتُلُنَا وَيُحِلُّهَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِنَّا قَوْمُكَ وَلَيْسَ لَنَا
مَنْزِلٌ وَأَنْتَ رَجُلٌ مُجَابِبُ الدَّعْوَةِ، فَأَخْرَجَ فَادْعَ اللَّهَ عَلَيْهِمْ،
قَالَ: وَيْلَكُمْ نَبِيُّ اللَّهِ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ، كَيْفَ
أَذْهَبَ أَذْغُو عَلَيْهِمْ وَأَنَا أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا أَعْلَمُ؟ قَالُوا لَهُ: مَا
لَنَا مِنْ مَنْزِلٍ فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ يُرْفِقُونَهُ وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ حَتَّى
فَتَنُوهُ، فَافْتَنَ، فَكَرِبَ حِمَارَةً لَهُ مُتَوَّجَهَا إِلَى الْجَبَلِ الَّذِي
يُطْلَعُ عَلَى عَسْكَرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُوَ جَبَلُ «حُسْبَانَ» فَلَمَّا
سَارَ عَلَيْهَا غَيْرَ كَثِيرٍ، رَبَضَتْ بِهِ فَتَزَلَّ عَنْهَا فَضَرَبَهَا حَتَّى إِذَا
أَزْلَقَهَا قَامَتْ فَكَرِبَهَا، فَلَمْ تَسِرْ بِهِ كَثِيرًا حَتَّى رَبَضَتْ بِهِ
فَضَرَبَهَا، حَتَّى إِذَا أَزْلَقَهَا أَذِنَ اللَّهُ لَهَا فَكَلَّمَتْهُ حُجَّةٌ عَلَيْهِ
فَقَالَتْ: وَيْحَكَ يَا بُلْعَمُ أَيْنَ تَذْهَبُ؟ أَمَا تَرَى الْمَلَائِكَةَ
أَمَامِي تَرُدُّنِي عَنْ وَجْهِي هَذَا؟ تَذْهَبُ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ
وَالْمُؤْمِنِينَ لَتَدْعُو عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَنْرُغْ عَنْهَا فَضَرَبَهَا فَخَلَّى اللَّهُ
سَبِيلَهَا حِينَ فَعَلَ بِهَا ذَلِكَ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ حَتَّى إِذَا أَشْرَفَتْ بِهِ
عَلَى رَأْسِ «حُسْبَانَ» عَلَى عَسْكَرِ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ جَعَلَ
يَدْعُو عَلَيْهِمْ وَلَا يَدْعُو عَلَيْهِمْ بِشَرٍّ إِلَّا صَرَفَ اللَّهُ لِسَانَهُ إِلَى
قَوْمِهِ وَلَا يَدْعُو لِقَوْمِهِ بِخَيْرٍ إِلَّا صَرَفَ لِسَانَهُ إِلَى بَنِي
إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ لَهُ قَوْمُهُ: أَتَنْذِرِي يَا بُلْعَمُ مَا تَصْنَعُ؟ إِنَّمَا
تَدْعُو لَهُمْ وَتَدْعُو عَلَيْنَا؟ قَالَ: فَهَذَا مَا لَا أَمْلِكُ. هَذَا شَيْءٌ
قَدْ غَلَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ. قَالَ: وَانْدَلَعَ لِسَانُهُ فَوَقَعَ عَلَى صَدْرِهِ
فَقَالَ لَهُمْ: قَدْ ذَهَبَتْ مِنِّي الْآنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ، وَلَمْ يَبْقَ
إِلَّا الْمَكْرُ وَالْحِيلَةُ فَسَأْمَكُرْ لَكُمْ وَأَخْتَالُ، جَمِّلُوا النِّسَاءَ
وَأَعْطُوهُنَّ السَّلَعَ، ثُمَّ أَرْسِلُوهُنَّ إِلَى الْعَسْكَرِ يَبِغْتَنَّهُ فِيهِ،
وَمُرُوهُنَّ فَلَا تَمْنَعْ امْرَأَةً نَفْسَهَا مِنْ رَجُلٍ أَرَادَهَا، فَإِنَّهُمْ إِنْ
زَنَى رَجُلٌ مِنْهُمْ وَاحِدٌ كَفَيْتُمُوهُمْ، فَفَعَلُوا. فَلَمَّا دَخَلَ

(١) عبد الرزاق: ٤٤٣/٢ (٢) الطبري: ٢٥٣/١٣ (٣)

الطبري: ٢٦١/١٣ العوفي وعائلته من الضعفاء (٤) الطبري:

٢٥٣/١٣ (٥) الطبري: ٢٥٤/١٣ (٦) الطبري: ٢٥٣/١٣

(٧) الطبري: ٢٥٨/١٣ (٨) الطبري: ٢٦٠/١٣

أَنَّ قَلْبَ الْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ وَالضَّالِّ ضَعِيفٌ فَارْغٌ مِنَ الْهُدَى فَهُوَ كَثِيرُ الْوَجِيبِ، فَعَبَّرَ عَنْ هَذَا بِهَذَا. نُقِلَ نَحْوُهُ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَغَيْرِهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ﴾ أَيُّ لَعَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعَالَمِينَ بِحَالِ بُلْعَامَ، وَمَا جَرَى لَهُ فِي إِضْلَالِ اللَّهِ إِيَّاهُ وَإِنْعَادِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ؛ بِسَبَبِ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي تَعْلِيمِهِ الْأَسْمَ الْأَعْظَمَ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، فِي غَيْرِ طَاعَةِ رَبِّهِ، بَلْ دَعَا بِهِ عَلَى جِزْبِ الرَّحْمَنِ وَشَعْبِ الْإِيمَانِ، أَتْبَاعَ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، كَلِمَ اللَّهِ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أَيُّ فَيَحْذَرُوا أَنْ يَكُونُوا مِثْلَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَاهُمْ عِلْمًا وَمَيَّرَهُمْ عَلَى مَنْ عَدَاهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ، وَجَعَلَ بِأَيْدِيهِمْ صِفَةً مُحَمَّدٍ ﷺ يَعْرفُونَهَا كَمَا يَعْرفُونَ أَتْبَاعَهُمْ، فَهُمْ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِاتِّبَاعِهِ وَمُنَاصَرَتِهِ وَمُؤَازَرَتِهِ، كَمَا أَخْبَرَهُمْ أَنْبِيَائُهُمْ بِذَلِكَ وَأَمَرَهُمْ بِهِ، وَلِهَذَا مَنْ خَالَفَ مِنْهُمْ مَا فِي كِتَابِهِ وَكَتَمَهُ، فَلَمْ يَعْلَمْ بِهِ الْعِبَادَ أَحَلَّ اللَّهُ بِهِ ذُلًّا فِي الدُّنْيَا مَوْضُولًا بِذُلِّ الْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يَقُولُ تَعَالَى: سَاءَ مَثَلًا مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا أَيُّ: سَاءَ مَثَلُهُمْ أَنْ شَبَّهُوا بِالْكِلَابِ الَّتِي لَا هِمَّةَ لَهَا إِلَّا فِي تَحْصِيلِ أَكْثَلِ أَوْ شَهْوَةٍ، فَمَنْ خَرَجَ عَنْ حَيْزِ الْعِلْمِ وَالْهُدَى وَأَقْبَلَ عَلَى شَهْوَةِ نَفْسِهِ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ صَارَ شَبَّهًا بِالْكَلْبِ. وَبِئْسَ الْمَثَلُ مِثْلُهُ، وَلِهَذَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ لَنَا مِثْلُ السَّوءِ، الْعَائِدُ فِي هَبْتِهِ كَالْكَلْبِ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ»^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أَيُّ مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ هُمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْهُدَى، وَطَاعَةِ الْمَوْلَى، إِلَى الرُّكُودِ إِلَى دَارِ الْبِلَى، وَالْإِقْبَالِ عَلَى تَحْصِيلِ اللَّذَاتِ وَمُوَافَقَةِ الْهَوَى.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَا وَلِيكَ هُمْ

الْمُفْسِدُونَ﴾ (١٧٨)

يَقُولُ تَعَالَى مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ فَإِنَّهُ لَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ أَضَلَّهُ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ وَضَلَّ لَا مَحَالَةَ. فَإِنَّهُ تَعَالَى مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ:

(١) الطبري: ٢٦٥/١٣ (٢) فتح الباري: ٢٨٨/٥

النِّسَاءُ الْعَسْكَرَ مَرَّتْ إِمْرَأَةٌ مِنَ الْكُنْعَانِيِّينَ اسْمُهَا [كَنْسِي] ابْنَةُ صُورٍ - رَأْسُ أُتْمِيه - بِرَجُلٍ مِنْ عُظَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُوَ زَمْرِيُّ ابْنِ شَلُومَ رَأْسُ سِبْطِ شَمْعُونَ بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا رَأَاهَا أُعْجِبَتْهُ، فَقَامَ فَأَخَذَ يَدَيْهَا وَأَتَى بِهَا مُوسَى وَقَالَ: إِنِّي أَظُنُّكَ سَتَقُولُ هَذَا حَرَامٌ عَلَيْكَ لَا تَقْرُبُهَا؟ قَالَ: أَجَلْ هِيَ حَرَامٌ عَلَيْكَ، قَالَ: فَوَاللَّهِ لَا أَطِيعُكَ فِي هَذَا، فَدَخَلَ بِهَا فُبَّتَهُ فَوَقَعَ عَلَيْهَا، وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الطَّاغُونَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ فِتْنَا حَاصٍ بَيْنَ الْعِيزَارِ بْنِ هَارُونَ صَاحِبِ أَمْرِ مُوسَى، وَكَانَ غَايَةً حِينَ صَنَعَ زَمْرِيُّ بْنُ شَلُومَ مَا صَنَعَ، فَجَاءَ وَالطَّاغُونَ يَجُوسُ فِيهِمْ فَأَخْبَرَ الْخَبِيرَ فَأَخَذَ حَرْبَتَهُ. وَكَانَتْ مِنْ حَدِيدٍ كُلُّهَا، ثُمَّ دَخَلَ الْقُبَّةَ وَهُمَا مُتَصَاحِبَانِ فَانْتَظَمَهُمَا بِحَرْبَتِهِ ثُمَّ خَرَجَ بِهِمَا رَافِعُهُمَا إِلَى السَّمَاءِ، وَالْحَرْبَةُ قَدْ أَخَذَهَا بِذِرَاعِهِ وَاعْتَمَدَ بِمِرْفَقِهِ عَلَى خَاصِرَتِهِ وَأَسْنَدَ الْحَرْبَةَ إِلَى [لِحْيَتِهِ] وَكَانَ بِكُرِّ الْعِيزَارِ - وَجَعَلَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ هَكَذَا نَفَعَلُ بِمَنْ يَعْصِيكَ. وَرُفِعَ الطَّاغُونَ، فَحُسِبَ مَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الطَّاغُونَ فِيمَا بَيْنَ أَنْ أَصَابَ زَمْرِيُّ الْمَرْأَةَ إِلَى أَنْ قَتَلَهُ فِتْنَا حَاصٍ، فَوَجَدُوهُ قَدْ هَلَكَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا. وَالْمُتَقَلِّلُ لَهُمْ يَقُولُ: عَشْرُونَ أَلْفًا. فِي سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ، فَمِنْ هُنَالِكَ تُعْطِي بَنُو إِسْرَائِيلَ وَلَدًا فِتْنَا حَاصٍ مِنْ كُلِّ ذَبِيحَةٍ ذَبَحُوهَا الرِّقَبَةَ وَالذِّرَاعَ وَاللِّحْيَ وَالْبِكْرَ مِنْ كُلِّ أُمُومَالِهِمْ وَأَنْفُسِهَا، لِأَنَّهُ كَانَ بِكُرِّ أَبِيهِ الْعِيزَارِ، فَفِي بُلْعَامَ ابْنِ بَاغُورَاءَ أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَأَقْلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمِثْلَهُ كَمِثْلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثَ﴾ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ، فَعَلَى سِيَاقِ ابْنِ إِسْحَاقَ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِي النَّضْرِ: أَنَّ بُلْعَامًا ائْتَلَعَ لِسَانَهُ عَلَى صَدْرِهِ^(١)، فَتَشَبَّهَ بِالْكَلْبِ فِي لَهْثِهِ فِي كِلْتَا حَالَتَيْهِ إِنْ رُجِرَ وَإِنْ تَرَكَ ظَاهِرًا، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: فَصَارَ مِثْلَهُ فِي ضَلَالِهِ وَاسْتِمْرَارِهِ فِيهِ وَعَدَمِ انْتِفَاعِهِ بِالْدُّعَاءِ إِلَى الْإِيمَانِ وَعَدَمِ الدُّعَاءِ، كَالْكَلْبِ فِي لَهْثِهِ فِي حَالَتَيْهِ إِنْ حَمَلَتْ عَلَيْهِ وَإِنْ تَرَكَتْهُ هُوَ يَلْهَثُ فِي الْحَالَيْنِ. فَكَذَلِكَ هَذَا لَا يَنْتَفِعُ بِالْمُوعِظَةِ وَالْدُّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ وَلَا عَدِمِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٧٤

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٤﴾
 وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٥﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٧٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٧﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٧٨﴾ أُولَٰئِكَ يَنْفَكِرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٧٩﴾ أُولَٰئِكَ يَنْظُرُوا فِي مَلَائِكَةِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدَرٌ أَقْرَبَ أَلْهَمَهُمْ فِي آيِ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُدْعَوْنَ ﴿١٨٠﴾ مِنْ يُضِلُّ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ يُضِلُّ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ يُنْقَلِتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْتَلُونَكُمْ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾

«إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ».

الْحَدِيثُ بِتَمَامِهِ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ وَغَيْرُهُمْ^(١).

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ ﴿١٧٤﴾

[الْكَفْرُ وَالْقُدْرُ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أَيَّ خَلَقْنَا وَجَعَلْنَا لِجَهَنَّمَ ﴿كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ أَيَّ هَيَأْتَانَهُمْ لَهَا وَيَعْمَلُ أَهْلِهَا يَعْمَلُونَ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ عَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ كَوْنِهِمْ فَكَتَبَ ذَلِكَ عِنْدَهُ فِي كِتَابٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، كَمَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»^(٢).

وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ وَمَسْأَلَةُ الْقَدْرِ كَبِيرَةٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُ بَسْطِهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يَعْنِي لَيْسَ يَنْتَفِعُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ هَذِهِ الْجَوَارِحِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ سَبَبًا لِلْهُدَايَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الْأَنْعَامُ: ٢٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] هَذَا فِي حَقِّ الْمُتَافِقِينَ.

وَقَالَ فِي حَقِّ الْكَافِرِينَ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٰ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] وَلَمْ يَكُونُوا صُمًّا وَلَا بُكْمًا وَلَا عُمْيًا إِلَّا عَنْ الْهُدَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّاسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] وَقَالَ: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزمر: ٢١] وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ﴾ أَيَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ الْحَقَّ وَلَا يَعُونَهُ وَلَا

يُبْصِرُونَ الْهُدَى. كَالْأَنْعَامِ السَّارِحَةِ الَّتِي لَا تَنْتَفِعُ بِهَذِهِ الْخَوَاسِ مِنْهَا إِلَّا فِي الَّذِي يُقِيئُهَا فِي ظَاهِرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَبْعُثُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ﴾ [البقرة: ١٧١] أَيَّ وَمَثَلُهُمْ فِي حَالِ دُعَائِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ كَمَثَلِ الْأَنْعَامِ إِذَا دَعَاهَا رَاعِيهَا لَا تَسْمَعُ إِلَّا صَوْتَهُ، وَلَا تَفْقَهُ مَا يَقُولُ. وَلِهَذَا قَالَ فِي هَؤُلَاءِ: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أَيَّ مِنَ الدَّوَابِّ، لِأَنَّهَا قَدْ تَسْتَجِيبُ مَعَ ذَلِكَ لِزَاعِيهَا إِذَا أَسَسَ بِهَا، وَإِنْ لَمْ تَفْقَهُ كَلَامَهُ بِخِلَافِ هَؤُلَاءِ. وَلِأَنَّهَا تَفْعَلُ مَا خُلِقَتْ لَهُ إِمَّا بِطَبْعِهَا وَإِمَّا بِتَسْخِيرِهَا بِخِلَافِ الْكَافِرِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا خُلِقَ لِيُعْبَدَ اللَّهَ وَيُوحِدَهُ فَكَفَرَ بِاللَّهِ وَأَشْرَكَ بِهِ.

وَلِهَذَا مَن أَطَاعَ اللَّهَ مِنَ الْبَشَرِ كَانَ أَشْرَفَ مِنْ مِثْلِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي مَعَادِهِ، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ مِنَ الْبَشَرِ كَانَتْ الدَّوَابُّ

(١) أحمد: ١/٣٩٢ وأبو داود: ٥٩١/٢ وتحفة الأحوذى: ٤/

٢٣٧ والنسائي: ١٠٥/٣ وابن ماجه: ٦٠٩/١ (٢) مسلم: ٤/

ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَصُرُّهُمْ مَنْ خَدَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ. وَفِي رِوَايَةٍ: «حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ» وَفِي رِوَايَةٍ: «وَهُمْ بِالشَّامِ»^(١).

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧١﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٧٢﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى: «وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ» وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ الرِّزْقِ وَوُجُوهَ الْمَعَاشِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَغْتَرُّوا بِمَا هُمْ فِيهِ وَيَعْتَقِدُوا أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «فَلَمَّا سَأَوْا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿١٧١﴾ قَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٢﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَأُمْلِي لَهُمْ» أَيِّ وَسْأَمِلِي لَهُمْ، أَيُّ أُطَوِّلُ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ، «إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» أَيُّ قُوَّتِي شَدِيدٌ.

﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُّوْا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٧٣﴾﴾ يَقُولُ تَعَالَى: «أَوَلَمْ يَنْفَكُّوْا» هُوَ لَا الْمُكَذَّبُونَ بِآيَاتِنَا «مَا بِصَاحِبِهِمْ» يَعْنِي مُحَمَّداً ﷺ «مِنْ جَنَّةٍ» أَيُّ لَيْسَ بِهِ جُنُودٌ، بَلْ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، دَعَا إِلَى حَقٍّ «إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ» أَيُّ ظَاهِرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ لُبٌّ وَقَلْبٌ يَعْقِلُ بِهِ وَيَعْيِي بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَا صَاحِبُكُمْ يَمْلِكُونَ» [التكوير: ٢٢] وَقَالَ تَعَالَى: «قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خُفٍّ» وَفَرَدَيْتُمْ تَنْفَكُّوْا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» [سبأ: ٤٦] يَقُولُ: إِنَّمَا أُطْلِبُ مِنْكُمْ أَنْ تَقُومُوا قِيَامًا خَالِصًا لِلَّهِ لَيْسَ فِيهِ تَعَصُّبٌ وَلَا عِنَادٌ «مِثْلَ خُفٍّ» وَفَرَدَيْتُمْ أَيُّ: مُجْتَمِعِينَ وَمُتَفَرِّقِينَ، «تَنْفَكُّوْا» فِي هَذَا الَّذِي جَاءَكُمْ بِالرِّسَالَةِ مِنَ اللَّهِ أَبِي جُنُودٍ أَمْ لَا، فَإِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ: بَانَ لَكُمْ وَظَهَرَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقًا. وَقَالَ قَتَادَةُ بْنُ دَعَامَةَ: ذَكَرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ عَلَى الصِّفَا فَدَعَا قُرَيْشًا، فَجَعَلَ يُفْخِدُهُمْ فَخِذًا: يَا بَنِي فُلَانٍ! يَا بَنِي فُلَانٍ! فَحَذَرَهُمْ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَوَقَائِعِ اللَّهِ، فَقَالَ قَائِلُهُمْ: إِنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا لَمَجْنُونٌ بَاتَ يُصَوِّتُ إِلَى الصَّبَاحِ - أَوْ حَتَّى أَصْبَحَ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:

أَتَمَّ مِنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْمُسْتَقْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي

أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

[يَبَيِّنُ أَسْمَاءَ اللَّهِ الْحُسْنَى]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعًا وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَهُوَ وَثَرٌ يُحِبُّ الْوَثَرَ» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(١). وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ مِثْلَهُ.

ثُمَّ لِيَعْلَمَنَّ أَنَّ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى غَيْرُ مُنْحَصِرَةٍ فِي تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ بِدَلِيلٍ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ أُمِّكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدَلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَشْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِّيتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتُ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رِبْعَ قَلْبِي، وَتُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَدَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ حُزْنَهُ وَهَمَّهُ، وَأَبْدَلَ مَكَانَهُ فَرَحًا» فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: «بَلَى يَنْبَغِي لِكُلِّ مَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»^(٢).

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قَالَ: الْإِلْحَادُ الْمُلْحِدِينَ أَنْ دَعَوْا اللَّاتَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ^(٣). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: «وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ» قَالَ: اسْتَشْفُوا اللَّاتَ مِنَ اللَّهِ، وَالْعَرَى مِنَ الْعَزِيزِ^(٤). وَقَالَ قَتَادَةُ: يُلْحِدُونَ: يُشْرِكُونَ فِي أَسْمَائِهِ^(٥). وَأَصْلُ الْإِلْحَادِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْعُدُولُ عَنِ الْقَصْدِ، وَالْمَيْلُ وَالْجَوْرُ وَالْإِنْجِرَافُ، وَمِنْهُ: اللَّحْدُ فِي الْقَبْرِ لِإِنْجِرَافِهِ إِلَى جِهَةِ الْقِبْلَةِ عَنْ سَمْتِ الْحَفْرِ.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى: «وَمِمَّنْ خَلَقْنَا» أَيُّ بَعْضُ الْأُمَمِ «أُمَّةٌ» قَائِمَةٌ بِالْحَقِّ قَوْلًا وَعَمَلًا «يَهْدُونَ بِالْحَقِّ» يَقُولُونَهُ وَيَدْعُونَ إِلَيْهِ «وَبِهِ يَعْدِلُونَ» يَعْمَلُونَ وَيَقْضُونَ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْأَثَارِ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ، هِيَ: هَذِهِ الْأُمَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي

(١) فتح الباري: ٤١٧/٥ ٢١٨/١١ ومسلم: ٢٠٦٢/٤ (٢)

أحمد: ٣٩١/١ (٣) الطبري: ٢٨٢/١٣ العوفي مَرَّارًا (٤)

الطبري: ٢٨٣/١٣ (٥) الطبري: ٢٨٣/١٣ (٦) فتح الباري:

١٥٢٤/٣ ومسلم: ٤٥١/١٣

عَبَّاسٍ: مُتَّهَمًا^(٢). أَي مَتَى مَحَطُّهَا وَأَيَّانَ آخِرُ مَدَّةِ الدُّنْيَا الَّذِي هُوَ أَوَّلُ وَقْتِ السَّاعَةِ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ أَمَرَ تَعَالَى رَسُولُهُ ﷺ إِذَا سُئِلَ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ أَنْ يَرُدَّ عِلْمَهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُجِيبُهَا لَوْفَتِهَا أَي يُعْلِمُ جَلِيَّةَ أَمْرِهَا وَمَتَى يَكُونُ عَلَى التَّحْدِيدِ: لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ تَعَالَى وَلِهَذَا قَالَ: ﴿تَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ: ثَقُلَ عِلْمُهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ: أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ^(٣). قَالَ مَعْمَرٌ: قَالَ الْحَسَنُ: إِذَا جَاءَتْ؛ ثَقُلَتْ عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. يَقُولُ: كَثُرَتْ عَلَيْهِمْ^(٤).

وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ: لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْخَلْقِ إِلَّا يُصِيبُهُ مِنْ ضَرَرِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(٥). وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿تَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ: إِذَا جَاءَتْ انْشَقَّتِ السَّمَاءُ وَانْتَرَبَتِ الشُّجُومُ، وَكُورَتِ الشَّمْسُ، وَسِيرَتِ الْجِبَالُ، وَكَانَ مَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَذَلِكَ ثَقُلَهَا.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿تَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يَقُولُ: حَفِيتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَلَا يَعْلَمُ قِيَامَهَا حِينَ تَقُومُ مِلْكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ^(٦). ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَنَةٌ﴾ يَبْتَغِيهِمْ قِيَامَهَا تَأْتِيهِمْ عَلَى غَفْلَةٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَنَةٌ﴾ قَضَى اللَّهُ أَنَّهَا ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَنَةٌ﴾ قَالَ: وَذَكَرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ السَّاعَةَ تَهْبِجُ بِالنَّاسِ، وَالرَّجُلُ يَضِلُّ حَوْضَهُ وَالرَّجُلُ يَسْقِي مَا شِئِنَهُ، وَالرَّجُلُ يُقِيمُ سِلْعَتَهُ فِي السُّوقِ وَيُخْفِضُ مِيزَانَهُ وَيَرْفَعُهُ»^(٧). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَأَاهَا النَّاسُ أَمَتُوا أَجْمَعُونَ، فَلَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ أَمَتَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا، فَلَا يَبْتَاعَانِهِ وَلَا يَبْطَوْنِيهِ. وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِفْحَتِهِ فَلَا

﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(٨). ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾^(٩)

يَقُولُ تَعَالَى: أَوَلَمْ يَنْظُرُوا هَؤُلَاءِ الْمَكْذُبُونَ بِآيَاتِنَا فِي مُلْكِ اللَّهِ وَسُلْطَانِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَفِيمَا خَلَقَ مِنْ شَيْءٍ فِيهِمَا، فَيَتَذَكَّرُوا ذَلِكَ وَيَتَعَبَّرُوا بِهِ، وَيَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ لِمَنْ لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا شَبِيهَ، وَمِنْ فِعْلِ مَنْ لَا يَتَّبِعِي أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ وَالِدِينُ الْخَالِصُ إِلَّا لَهُ، فَيُؤْمِنُوا بِهِ وَيُصَدِّقُوا رَسُولَهُ، وَيُسَبِّحُوا إِلَى طَاعَتِهِ، وَيَخْلَعُوا الْأَنْدَادَ وَالْأَوْتَانَ، وَيَحْذَرُوا أَنْ تَكُونَ أَجَالُهُمْ قَدِ اقْتَرَبَتْ فَيَهْلِكُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَيَصِيرُوا إِلَى عَذَابِ اللَّهِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ يَقُولُ: فَبِأَيِّ تَحْوِيلٍ وَتَحْذِيرٍ وَتَرْهيبٍ بَعْدَ تَحْذِيرِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَتَرْهيبِهِ، الَّذِي أَتَاهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فِي آيِ كِتَابِهِ، يُصَدِّقُونَ إِنْ لَمْ يُصَدِّقُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا هَادِيَ لَهُمْ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(١٠) يَقُولُ تَعَالَى: مَنْ كُتِبَ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَإِنَّهُ لَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ، وَلَوْ نَظَرَ لِنَفْسِهِ فِيمَا نَظَرَ فَإِنَّهُ لَا يَجْزِي عَنْهُ شَيْئًا ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١] وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ تَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَنَةٌ يُسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَافِيٌ عَتَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١١)

[بَيَانُ السَّاعَةِ وَأَسْرَاطِهَا]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٣] قِيلَ: نَزَلَتْ فِي قُرَيْشٍ، وَقِيلَ: فِي نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ، وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ لَأَنَّ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ، وَكَانُوا يَسْأَلُونَ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ اسْتِيعَادًا لِقُوفِهَا وَتَكَذِّبًا بِوُجُودِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَكَ فِي السَّاعَةِ لَمُنَّ صَالِكِي بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ

(١) الطبري: ٢٨٩/١٣ (٢) الطبري: ٢٩٤/١٣ (٣) عبد الرزاق: ٢٤٤/٢ (٤) عبد الرزاق: ٢٤٥/٢ (٥) والضحاك لم يسمع من ابن عباس (٦) الطبري: ٢٩٥/١٣ (٧) الطبري: ١٣/٢٩٧

يَطْعُمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيْطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَالرَّجُلُ قَدْ رَفَعَ أَكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعُمُهَا»^(١).

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عَنَّا» يَقُولُ: كَأَنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ مَوَدَّةٌ كَأَنَّكَ صَدِيقٌ لَهُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا سَأَلَ النَّاسُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ سَأَلُوهُ سُؤَالَ قَوْمٍ كَانَتْهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ مُحَمَّدًا خَفِيَ بِهِمْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَهُ إِشْتَارَ بِهِ، فَلَمْ يُطْلِعِ اللَّهُ عَلَيْهَا مَلَكًا مُقَرَّبًا وَلَا رَسُولًا^(٢). وَالصَّحِيحُ عَنْ مُجَاهِدٍ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ وَغَيْرِهِ. «يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عَنَّا» قَالَ: أُسْتَحْفِفَتْ عَنْهَا السُّؤَالُ حَتَّى عَلِمْتَ وَفَقَّهَا.

وَلِهَذَا قَالَ: «قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». وَلِهَذَا لَمَّا جَاءَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صُورَةِ أَعْرَابِيٍّ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ أَمْرَ دِينِهِمْ، فَجَلَسَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَجْلِسَ السَّائِلِ الْمُسْتَرْشِدِ، وَسَأَلَهُ ﷺ عَنِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ عَنِ الْإِيمَانِ، ثُمَّ عَنِ الْإِحْسَانِ، ثُمَّ قَالَ: فَمَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» أَيْ لَسْتُ أَعْلَمَ بِهَا مِنْكَ وَلَا أَحَدٌ أَعْلَمَ بِهَا مِنْ أَحَدٍ، ثُمَّ قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ» الْآيَةَ [لقمان: ٣٤].

وَفِي رِوَايَةٍ: فَسَأَلَهُ عَنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، فَبَيَّنَ لَهُ أَشْرَاطَ السَّاعَةِ، ثُمَّ قَالَ: «فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ» وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَفِي هَذَا كُلُّهُ يَقُولُ لَهُ بَعْدَ كُلِّ جَوَابٍ: صَدَقْتَ، وَلِهَذَا عَجِبَ الصَّحَابَةُ مِنْ هَذَا السَّائِلِ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ! ثُمَّ لَمَّا انْصَرَفَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ لِيُعَلِّمَكُمْ دِينَكُمْ»^(٣). وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: «وَمَا أَتَانِي فِي صُورَةٍ إِلَّا عَرَفْتُهُ فِيهَا، إِلَّا صُورَتُهُ هَذِهِ». وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَتْ الْأَعْرَابُ إِذَا قَلِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَأَلُوهُ عَنِ السَّاعَةِ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَيَنْظُرُ إِلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ قَبْلُ يَقُولُ: «إِنْ يَعْشَى هَذَا لَمْ يَذَرِكْهُ الْهَرَمُ حَتَّى قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ»^(٤). يَعْنِي بِذَلِكَ مَوْتَهُمُ الَّذِي يُقْضِي بِهِمْ إِلَى الْحُصُولِ فِي بَرْزَخِ الدَّارِ الْآخِرَةِ. ثُمَّ رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ يَعْشَى هَذَا الْعِلَامُ فَعَسَى أَنْ لَا يَذَرِكُهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»^(٥) انْفَرَدَ بِهِ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِشَهْرٍ: «تَسْأَلُونِي عَنِ السَّاعَةِ، وَإِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ! مَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ الْيَوْمَ مِنْ نَفْسٍ مَنُوفَسَةٍ تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَمَرَ مِثْلَهُ، قَالَ ابْنُ عَمَرَ: وَإِنَّمَا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنْخِرَامَ ذَلِكَ الْقُرْنِ. وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَقِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى، فَذَكَرُوا أَمْرَ السَّاعَةِ - قَالَ -: فَردُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: لَا عِلْمَ لِي بِهَا، فَردُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: لَا عِلْمَ لِي بِهَا فَردُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى عِيسَى فَقَالَ عِيسَى: أَمَّا وَجِبَتْهَا فَلَا يَعْلَمُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِيمَا عَهْدَ إِلَيَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ الدَّجَالَ خَارِجٌ - قَالَ -: وَمَعِيَ فَضِيانٌ، فَإِذَا رَأَيْتِي ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الرِّصَاصُ، قَالَ: فَيَهْلِكُكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا رَأَيْتِي حَتَّى إِنَّ الشَّجَرَ وَالْحَجَرَ يَقُولُ: يَا مُسْلِمُ! إِنَّ تَحْتِي كَافِرًا فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، قَالَ: فَيَهْلِكُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَى بِلَادِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ. قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَطْأُونَ بِلَادَهُمْ لَا يَأْتُونَ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا أَهْلَكَوْهُ وَلَا يَمُرُّونَ عَلَى مَاءٍ إِلَّا شَرِبُوهُ. قَالَ: ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَيَّ فَيَسْكَوْنَهُمْ، فَأَدْعُو اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ فَيَهْلِكُهُمْ وَيُمِيتُهُمْ حَتَّى تَجُوزِيَ الْأَرْضُ مِنْ تَتْنٍ رِيحِهِمْ - أَيْ تَتْنُيْنِ - قَالَ: فَيُنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَطَرَ فَيَجْتَرِفُ أَجْسَادَهُمْ حَتَّى يَقْدِفَهُمْ فِي الْبَحْرِ». قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: قَالَ يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ: ثُمَّ تُنْسَفُ الْجِبَالُ وَتُمَدُّ الْأَرْضُ مَدَّ الْأَدِيمِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى حَدِيثِ هُشَيْمٍ، قَالَ: «فَفِيمَا عَهْدَ إِلَيَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ السَّاعَةَ كَالْحَامِلِ الْمُتِمِّ لَا يَذَرِي أَهْلَهَا مَتَى تُفَاجِئُهُمْ يَوْلَادَتِهَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا»^(٦). وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ نَحْوَهُ^(٧). فَهَؤُلَاءِ أَكْبَارُ أُولِي الْعِزَمِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ لَيْسَ عَنْدهُمْ عِلْمٌ بِوَقْتِ السَّاعَةِ عَلَى التَّعْيِينِ، وَإِنَّمَا رَدُّوا الْأَمْرَ إِلَى عِيسَى

(١) فتح الباري: ١١/٣٦٠ (٢) الطبري: ١٣/٢٩٨ فيه ضعف العوفي (٣) فتح الباري: ١/١٤٠ (٤) مسلم: ٤/٢٢٦٩ (٥) مسلم: ٤/٢٢٧٠ (٦) أحمد: ١/٣٧٥ (٧) ابن ماجه: ٢/١٣٦٥

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ
 أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سَتَكُنْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ
 أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ
 مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا
 تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا
 اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾
 فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَلَّى
 اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيْشُرُكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
 ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾
 وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ
 أَمْ أَنْتُمْ صَاحِبُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 عِبَادُ أَثْمَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمُ الْكُرْآنَ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ آرَاجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ
 يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ
 يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٩٥﴾

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَى ذَلِكَ، لَوْ كُنْتُ
 أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَعْدَدْتُ لِلنَّسَةِ الْمُجِدِّيَةِ مِنَ الْمُخْصِيَةِ وَلَوْ قُبِ
 الْغُلَاءِ مِنَ الرُّخْصِ، فَاسْتَعْدَدْتُ لَهُ مِنَ الرُّخْصِ. وَقَالَ
 عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ﴾ قَالَ:
 لَا جَنَّبْتُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّرِّ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ وَانْقِئَتْهُ ^(١). ثُمَّ
 أَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا هُوَ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ، أَيْ نَذِيرٌ مِنَ الْعَذَابِ وَبَشِيرٌ
 لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ
 لِبَلْسَانِكَ لِيُنْشِرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم]:
 [٤٩٧].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا
 لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا
 أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾
 ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا

(١) أحمد: ٣٨٩/٥ (٢) الطبري: ٢٩٢/١٣ (٣) النسائي في
 الكبرى: ٥٠٦/٦ (٤) فتح الباري: ٣٥٥/١١ (٥) الدر
 المنثور: ٦٢٢/٣ الضحاك مَرَّ حَكَمَهُ (٦) الطبري: ٣٠٢/١٣

عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَتَكَلَّمَ عَلَى أَشْرَاطِهَا لِأَنَّهُ يَنْزِلُ فِي آخِرِ هَذِهِ
 الْأُمَّةِ مُتَقَدِّمًا لِأَحْكَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَقْتُلُ الْمَسِيحَ
 الدَّجَالَ، وَيَجْعَلُ اللَّهُ هَلَكَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ بِرَكَّةٍ دُعَائِهِ،
 فَأَخْبَرَ بِمَا أَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِلُّهَا لَوْفَهَا
 إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وَلَكِنْ سَأَخْبِرُكُمْ بِمَشَارِيطِهَا وَمَا
 يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهَا، إِنْ بَيْنَ يَدَيْهَا فِتْنَةٌ وَهَرَجًا قَالُوا: يَا
 رَسُولَ اللَّهِ! الْفِتْنَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا فَمَا الْهَرَجُ؟ قَالَ: «يَلْسَانُ
 الْحَبَشَةِ: الْقَتْلُ» قَالَ: «وَيُلْقَى بَيْنَ النَّاسِ التَّنَاقُرُ، فَلَا يَكَادُ
 أَحَدٌ يَعْرِفُ أَحَدًا» ^(١) لَمْ يَزُوه أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ الْكُتُبِ
 السُّنَّةِ مِنْ هَذَا الْوُجُوهِ. وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ: كَانَ
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَزَالُ يَذْكُرُ مِنْ شَأْنِ السَّاعَةِ حَتَّى نَزَلَتْ
 ﴿سَتُلَوَّكُ مِنَ السَّاعَةِ إِنْكَارٌ مُرْسَلًا﴾ الْآيَةَ ^(٢). وَرَوَاهُ
 النَّسَائِيُّ ^(٣). وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ، فَهَذَا النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ سَيِّدُ
 الرُّسُلِ وَخَاتِمُهُمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيُّ
 الرَّحْمَةِ وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الْمُلْحَمَةِ، وَالْعَاقِبُ وَالْمُقَفِّي،
 وَالْحَاشِرُ الَّذِي تُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيْهِ، مَعَ قَوْلِهِ فِيمَا
 ثَبَّتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ وَسَهْلِ بْنِ سَعْدٍ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» ^(٤). وَقَرَنَ
 بَيْنَ أَصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالَّتِي تَلِيهَا، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ قَدْ أَمَرَهُ اللَّهُ
 أَنْ يَرُدَّ عِلْمَ وَقْتِ السَّاعَةِ إِلَيْهِ إِذَا سُئِلَ عَنْهَا، فَقَالَ: ﴿قُلْ
 إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ
 الْغَيْبِ لَكُنْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ
 يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٨٨﴾

[الرَّسُولُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا يَمْلِكُ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا حَتَّى
 لِنَفْسِهِ]

أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُفَوِّضَ الْأُمُورَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُخْبِرَ عَنْ
 نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ الْمُسْتَقْبِلَ وَلَا اِطْلَاعَ لَهُ عَلَى
 شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِمَا أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
 ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾... الْآيَةُ [الجن]:
 [٢٦]. قَالَ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ
 الْغَيْبَ لَكُنْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ أَيُّ مِنَ الْمَالِ. وَفِي رِوَايَةٍ:
 لَعَلِمْتُ - إِذَا اشْتَرَيْتُ شَيْئًا - مَا أَرَبْتُ فِيهِ، فَلَا أَبِيعُ شَيْئًا
 إِلَّا رَبِحْتُ فِيهِ ﴿وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ﴾ وَلَا يُصِيبُنِي الْفَقْرُ ^(٥).

يُشْرِكُونَ ﴿١٩١﴾

[كُلُّ النَّاسِ أَوْلَادُ آدَمَ]

وَعَنْهُ قَالَ: عَنِ بِهَا ذُرِّيَّةَ آدَمَ وَمَنْ أَشْرَكَ مِنْهُمْ بَعْدَهُ
يَعْنِي ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ (١٩٢).

وَعَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: كَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ: هُمُ الْيَهُودُ،
وَالنَّصَارَى رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَوْلَادًا فَهَوِّدُوا وَنَصَّرُوا (١٩٣). وَهَذِهِ
أَسَانِيدُ صَحِيحَةٌ عَنِ الْحَسَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ فَسَّرَ الْآيَةَ
بِذَلِكَ، وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ التَّفَاسِيرِ وَأَوَّلَى مَا حُمِلَتْ عَلَيْهِ
الْآيَةُ.

وَأَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ آدَمَ وَحَوَّاءَ، وَإِنَّمَا
الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ: الْمُشْرِكُونَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَهُوَ كَالِاسْتِطْرَادِ
مِنْ ذِكْرِ الشَّخْصِ إِلَى الْجِنْسِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ رَزَقَنَا السَّمَاءَ
الْأُولَى بِمِصْرَاحٍ وَجَعَلْنَا رُجُومًا لِّلشَّيْطَانِ﴾ [الملك: ٥] وَمَعْلُومٌ أَنَّ
الْمِصْرَاحَ وَهِيَ النُّجُومُ الَّتِي رُزِّقَتْ بِهَا السَّمَاءُ لَيْسَتْ هِيَ
الَّتِي يُزْمَى بِهَا، وَإِنَّمَا هَذَا اسْتِطْرَادٌ مِنْ شَخْصِ الْمِصْرَاحِ
إِلَى جِنْسِهَا، وَلِهَذَا نَظَّارٌ فِي الْقُرْآنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿يُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْفُونَ﴾ (١٩٤) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ
نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٥﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا
يَسْتَجِيبُوا سِوَاكَ عَلَيْهِمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتَ صَمِيمٌ ﴿١٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمْنَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا
لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٧﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ
أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ
رَبِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٩﴾ وَالَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ
يَنْصُرُونَ ﴿٢٠٠﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْكُهُمْ
يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾

[الْهَةُ الْمُشْرِكِينَ لَا تَخْلُقُ وَلَا تَنْصُرُ وَلَا تَمْلِكُ شَيْئًا]

هَذَا إِنْكَارٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللَّهِ
غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ وَالْأَوْتَانِ، وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ
مَرْبُوبَةٌ مَصْنُوعَةٌ، لَا تَمْلِكُ شَيْئًا مِنَ الْأَمْرِ وَلَا تَنْصُرُ وَلَا
تَنْفَعُ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَنْصُرُ لِعِبَادِيهَا، بَلْ هِيَ جَمَادٌ لَا

يُبْنِيهِ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ خَلَقَ جَمِيعَ النَّاسِ مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ. وَأَنَّهُ خَلَقَ مِنْهُ زَوْجَتَهُ حَوَّاءَ ثُمَّ انْتَشَرَ النَّاسُ
مِنْهُمَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ
وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا
رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأنعام: ١٢١]
وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا
لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أَيْ لِيَأْلَفَهَا وَيَسْكُنَ بِهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ
ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ
بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] فَلَا أَلْفَةَ بَيْنَ زَوْجَيْنِ
أَعْظَمَ مِمَّا بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، وَلِهَذَا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ السَّاجِرَ رُبَّمَا
تَوَصَّلَ بِكَيْدِهِ إِلَى التَّفَرِّقَةِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ.

﴿فَلَمَّا تَعَاشَرَا﴾ أَيْ وَطَّئَا ﴿حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا﴾
وَذَلِكَ أَوَّلُ الْحَمْلِ لَا تَجِدُ الْمَرْأَةَ لَهُ أَلَمًا، إِنَّمَا هِيَ النُّطْفَةُ
ثُمَّ الْعَلَقَةُ ثُمَّ الْمُضْغَةُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: اسْتَمَرَّتْ بِحَمْلِهِ (١).
وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَالسُّدِّيَّ نَحْوَهُ (٢).
وَقَالَ مِيمُونُ بْنُ مِهْرَانَ عَنْ أَبِيهِ: اسْتَحَفَّتْهُ. وَقَالَ أَيُّوبُ:
سَأَلْتُ الْحَسَنَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قَالَ: لَوْ كُنْتُ رَجُلًا
عَرَبِيًّا لَعَرَفْتُ مَا هِيَ؟ إِنَّمَا هِيَ فَاسْتَمَرَّتْ بِهِ (٣). وَقَالَ
قَتَادَةُ: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ اسْتَبَانَ حَمْلُهَا (٤). وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ:
مَعْنَاهُ اسْتَمَرَّتْ بِالْمَاءِ قَامَتْ بِهِ وَقَعَدَتْ (٥). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: اسْتَمَرَّتْ بِهِ فَشَكَتْ أَحْمَلْتُ أَمْ لَا؟ ﴿فَلَمَّا
أَفْلَحَتْ﴾ أَيْ صَارَتْ ذَاتَ ثَقُلٍ بِحَمْلِهَا (٦). وَقَالَ السُّدِّيُّ:
كَبُرَ الْوَلَدُ فِي بَطْنِهَا (٧). ﴿دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْنَا صَاحِبًا﴾
أَيْ بَشَرًا سَوِيًّا، كَمَا قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَشْفَقَا
أَنْ يَكُونَ بَهِيمَةً (٨). وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو الْبَخْرِيِّ وَأَبُو مَالِكٍ:
أَشْفَقَا أَنْ لَا يَكُونَ إِنْسَانًا (٩).

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: لَئِنْ آتَيْنَا غُلَامًا (١٠). ﴿لَنَكُونَنَّ
مِنَ الْمُتَشْكِرِينَ﴾ (١١) فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا
ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ.

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الْحَسَنِ ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا
ءَاتَاهُمَا﴾ قَالَ: كَانَ هَذَا فِي بَعْضِ أَهْلِ الْوِلْدَانِ وَلَمْ يَكُنْ
بِأَدَمَ (١١).

(١) الطبري: ٣٠٥/١٣ (٢) الطبري: ٣٠٥، ٣٠٤/١٣ (٣)

الطبري: ٣٠٤/١٣ (٤) الطبري: ٣٠٥/١٣ (٥) الطبري:

٣٠٤/١٣ (٦) الطبري: ٣٠٥/١٣ (٧) الطبري: ٣٠٥/١٣

(٨) الطبري: ٣٠٦/١٣ (٩) الطبري: ٣٠٦/١٣ (١٠)

الطبري: ٣٠٦/١٣ (١١) الطبري: ٣١٤/١٣ (١٢) الطبري:

٣١٤/١٣ (١٣) الطبري: ٣١٥/١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٧٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٧٦﴾
وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا
أَنْفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ ﴿١٧٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا
وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧٨﴾ خذ الْعَفْوَ وَأْمُرْ
بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٧٩﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ
الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨٠﴾ إِنَّ
الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا
فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿١٨١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ
لَا يُقْصِرُونَ ﴿١٨٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا أَلَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا
قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحِي إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَافِيرُ مِنْ رَبِّكُمْ
وَهَدَى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ
فَأَسْمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٨٤﴾ وَأَذْكُرَنَّكَ
فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿١٨٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿١٨٦﴾

اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ وَجَعَلَ جَنَّةَ الْفِرْدَوْسِ مَا وَاهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾ الآية، يعني
أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لَا تَسْمَعُ دُعَاءَ مَنْ دَعَاهَا، وَسَوَاءٌ لَدَيْهَا مَنْ
دَعَاهَا وَمَنْ دَحَاهَا، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿يَتَّبِعُونَ لِي مَا قُلْتُ لَا يَسْمَعُونَ لِيَ وَلَا يَنْصِتُونَ لِيَ وَإِنِّي كُنْتُ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [مريم: ٤٢] ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى
أَنَّهَا عِبِيدٌ مِثْلُ عَابِدِيهَا أَيْ مَخْلُوقَاتٍ مِثْلَهُمْ، بَلِ الْإِنْسَانِي
أَكْمَلُ مِنْهَا، لِأَنَّهَا تَسْمَعُ وَتُبْصِرُ وَتَبْطِشُ، وَتِلْكَ لَا تَفْعَلُ
شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الآية، أَيْ
اسْتَغْنُوا بِهَا عَلَيَّ فَلَا تُؤْخِرُونِي طَرَفَةَ عَيْنٍ، وَاجْهَدُوا
جَهْدَكُمْ ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾
أَيَّ اللَّهُ حَسْبِي وَكَافِي، وَهُوَ نَصِيرِي وَعَلَيْهِ مُتَكَلِّي وَإِلَيْهِ
الْجَأُ، وَهُوَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهُوَ وَلِيُّ كُلِّ صَالِحٍ
بَعْدِي. وَهَذَا كَمَا قَالَ هُوْدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قَالَ لَهُ قَوْمُهُ:
﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسْمِ اللَّهِ أَشْهَدُ اللَّهُ وَأَشْهَدُوا
أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٦٧] مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا
تُظْهِرُونِ ﴿٦٨﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ

تَحْرُكُ وَلَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ، وَعَابِدُوهَا أَكْمَلُ مِنْهَا
بِسْمِ اللَّهِ وَبَصَرُهُمْ وَبَطْشُهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أُبَشِّرُكُمْ مَا لَا
يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ أَيْ أُشْرِكُونَ بِهِ مِنَ الْمَعْبُودَاتِ مَا لَا
يَخْلُقُ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ
ضَرْبٌ مِثْلُ مَا اسْتَجَعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا
يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّلَبِ وَالْمَلَّابُ (٧٧) مَا فَكَّرُوا اللَّهَ
حَقَّ فَكْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤] أَخْبَرَ
تَعَالَى أَنَّ إِلَهَهُمْ لَوْ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ مَا اسْتَطَاعُوا خَلْقَ ذُبَابَةٍ
بَلْ لَوْ سَلَبَتْهُمْ الذُّبَابَةُ شَيْئًا مِنْ حَقِيرِ الْمَطَاعِمِ وَطَارَتْ، لَمَا
اسْتَطَاعُوا إِنْقَادَهُ مِنْهَا، فَمَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ وَحَالُهُ كَيْفَ يُعْبَدُ -
لِيُزَوَّقَ - وَيُسْتَنْصَرُ؟ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ
يُخْلِقُونَ﴾ أَيْ بَلْ هُمْ مَخْلُوقُونَ مَصْنُوعُونَ كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ:
﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجُونَ﴾ الآية [الصافات: ٩٥].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ لَكُمْ نَصْرًا﴾ أَيْ لِعَابِدِيهِمْ
﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ﴾، يَعْنِي وَلَا لِأَنْفُسِهِمْ يَنْصُرُونَ مِمَّنْ
أَرَادَهُمْ بِسُوءٍ، كَمَا كَانَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
يَكْسِرُ أَصْنَامَ قَوْمِهِ وَيُهِنُهَا غَايَةَ الْإِهَانَةِ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى
عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ صُرًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣] وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَمْ يَلْمَهُمْ إِلَيْهِ
يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨] وَكَمَا كَانَ مُعَاذُ بْنُ عَمْرٍو بْنُ
الْجُمُوحِ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَكَانَا شَابِئِينَ قَدْ
أَسْلَمَا لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَكَانَا يَعْدُوَانِ فِي
اللَّيْلِ عَلَى أَصْنَامِ الْمُشْرِكِينَ يَكْسِرَانِهَا وَيُتْلِفَانِهَا وَيَتَخَذَانِهَا
حَطَبًا لِلْأَرَامِلِ لِيَعْتَبَرَ قَوْمُهُمَا بِذَلِكَ، وَيَزَوُّوا لِأَنْفُسِهِمْ،
فَكَانَ لِعَمْرٍو بْنِ الْجُمُوحِ - وَكَانَ سَيِّدًا فِي قَوْمِهِ - صَنْمٌ
يَعْبُدُهُ وَيُطِيبُهُ، فَكَانَا يَجِيئَانِ فِي اللَّيْلِ فَيَنْكَسِرَانِهِ عَلَى رَأْسِهِ
وَيُلَطِّخَانِهِ بِالْعَذَرَةِ، فَيَجِيءُ عَمْرٍو بْنُ الْجُمُوحِ فَيَرَى مَا
صَنَعَ بِهِ، فَيَغْسِلُهُ وَيُطِيبُهُ وَيَضَعُ عَنْدَهُ سِنْفًا وَيَقُولُ لَهُ:
اَنْتَصِرْ، ثُمَّ يَعْدُوَانِ لِمِثْلِ ذَلِكَ، وَيَعُودُ إِلَى صَنِيعِهِ أَيْضًا،
حَتَّى أَخَذَاهُ مَرَّةً فَقَرَنَاهُ مَعَ [حَبْرٍ] كَلْبٍ مَيِّتٍ، وَدَلَّيَاهُ فِي
حَبْلٍ فِي بَيْتٍ هُنَاكَ، فَلَمَّا جَاءَ عَمْرٍو بْنُ الْجُمُوحِ وَرَأَى
ذَلِكَ، نَظَرَ فَقَلِمَ أَنَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ بَاطِلًا، وَقَالَ:

تَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ إِلَهًا مُسْتَدِنٌ

لَمْ تَكْ وَالْكَلْبُ جَمِيعًا فِي قَرْنٍ

ثُمَّ أَسْلَمَ فَحَسَنَ إِسْلَامَهُ، وَقِيلَ يَوْمَ أُخِذَ شَهِيدًا رَضِيَ

وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ، وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ^(٧).

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الْعُرْفُ: الْمَعْرُوفُ. ثُمَّ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ بَنَ حُذَيْفَةَ، فَتَزَلَّ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُذْنِبُهُمْ عُمَرُ، وَكَانَ الْقُرَاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسٍ عُمَرُ وَمُشَاوَرَتِهِ كُتُوبًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أُخِي! لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ فَاسْتَاذِنْ لِي عَلَيْهِ، قَالَ: سَأَسْتَاذِنُكَ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاسْتَاذَنَ الْحُرُّ لِعُيَيْنَةَ فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِيَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَوَ اللَّهُ مَا تُعْطِينَا الْجَزَلَ وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ. فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ، وَاللَّهُ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٨). انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ.

وَقَدْ أَخَذَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ مَعْنَى الْآيَةِ، فَسَبَّكَ فِي بَيِّنَةٍ فِيهِمَا جَنَاسٌ، فَقَالَ:

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِعُرْفٍ كَمَا

أَمَرْتَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ

وَلَنْ فِي الْكَلَامِ لِكُلِّ الْأَنَامِ

فَمُسْتَحْسَنٌ مِنْ ذَوِي الْجَوَالِينِ

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: النَّاسُ رَجُلَانِ، فَرَجُلٌ مُحْسِنٌ

فَخُذْ مَا عَفَا لَكَ مِنْ إِحْسَانِهِ، وَلَا تُكَلِّفْهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ وَلَا

مَا يُحْرِجُهُ. وَإِمَّا مُسِيءٌ فَمُرْهُ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنْ تِمَادَى

عَلَى ضَلَالِهِ وَاسْتَعْصَى عَلَيْكَ وَاسْتَمَرَّ فِي جَهْلِهِ،

فَأَعْرِضْ عَنْهُ، فَلَعَلَّ ذَلِكَ أَنْ يَرُدَّ كَيْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ النَّسِيئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾^(٩) وَقُلْ

رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ^(١٠) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ

يَحْضُرُونِ^(١١) [المؤمنون: ٩٦-٩٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ

الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ

وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(١٢) وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا

بِنَاصِيئِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [هود: ٥٤-٥٦] وَكَقَوْلِ الْخَلِيلِ: ﴿أَسْتَمِعْ وَأَبَايُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾^(١٣) فَإِنَّمَا عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ^(١٤) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ [الشعراء: ٧٦-٧٨] وَكَقَوْلِهِ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾^(١٥) وَصَلَّاهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ^(١٦) [الزخرف: ٢٧، ٢٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، مُؤَكَّدٌ لِمَا تَقَدَّمَ إِلَّا أَنَّهُ بِصِيغَةِ الْخُطَابِ وَذَلِكَ بِصِيغَةِ الْغَيْبَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاكُمْ﴾^(١٧) الْآيَةُ [فاطر: ١٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَنُظَرُوهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ إِنَّمَا قَالَ: ﴿يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ﴾ أَيُّ يَقَابِلُونَكَ بِعُيُونٍ مُصَوَّرَةٍ كَأَنَّهَا نَاطِرَةٌ وَهِيَ جَمَادٍ. وَلِهَذَا عَامَلَهُمْ مُعَامَلَةً مَنْ يَعْقِلُ لِأَنَّهَا عَلَى صُورَةٍ مُصَوَّرَةٍ كَالْإِنْسَانِ، وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ، فَعَبَّرَ عَنْهَا بِضَمِيرٍ مَنْ يَعْقِلُ.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(١٨) وَإِمَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^(١٩) [الأنعام: ١١٠]

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ أَمْرَهُ اللَّهُ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ عَشْرَ سِنِينَ، ثُمَّ أَمْرَهُ بِالْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ^(٢٠)﴾. وَقَالَ غَيْرٌ وَاحِدٌ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قَالَ: مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ وَأَعْمَالِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَجَسُّسٍ^(٢١). وَقَالَ هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ: أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَأْخُذَ الْعَفْوَ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ^(٢٢). وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: خُذْ مَا عَفَا لَكَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ هِشَامَ عَنْ أَبِيهِ عُرْوَةَ عَنْ أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: إِنَّمَا أُنْزِلَ ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ^(٢٣). وَفِي رِوَايَةٍ لَيْعَنِيهِ: عَنْ هِشَامَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ^(٢٤). وَفِي رِوَايَةٍ: عَنْ هِشَامَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ^(٢٥). وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ جَمِيعًا: حَدَّثَنَا يُونُسُ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ هُوَ ابْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ [أُمِّ] قَالَ: لَمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟» قَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ أَنْ تَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ،

(١) الطبري: ٣٢٨/١٣ (٢) الطبري: ٣٢٧/١٣ (٣) الطبري:

٣٢٧/١٣ (٤) فتح الباري: ١٥٥/٨ (٥) فتح الباري: ٨/

١٥٦ (٦) فتح الباري: ١٥٦/٨ (٧) الطبري: ١٥٤/٦ وابن

أبي حاتم: ١٦٣٨/٥ (٨) فتح الباري: ١٥٥/٨

كَانُوا فِيهِ.

[إِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ يَمْدُونُ فِي الْعَنِيِّ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وإِخْوَانُهُمْ يَمْدُونَهُمْ﴾ أَيُّ وَإِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْإِنْسِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الْمَذِينِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الاسراء: ٢٧] وَهُمْ أَتْبَاعُهُمْ وَالْمُسْتَمِعُونَ لَهُمْ، الْقَابِلُونَ لِأَمْرِهِمْ ﴿يَمْدُونَهُمْ فِي الْعَنِيِّ﴾ أَيُّ تُسَاعِدُهُمُ الشَّيَاطِينُ عَلَى الْمَعَاصِي وَتُسَهِّلُهَا عَلَيْهِمْ وَتَحْسِنُهَا لَهُمْ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: الْمَدُّ: الزِّيَادَةُ يَعْنِي يَزِيدُونَهُمْ فِي الْعَنِيِّ، يَعْنِي الْجَهْلَ وَالسَّفَهَ. ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ إِنَّ الشَّيَاطِينِ تَمُدُّ [و] الْإِنْسَ لَا تُقْصِرُ فِي أَعْمَالِهِمْ بِذَلِكَ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وإِخْوَانُهُمْ يَمْدُونَهُمْ فِي الْعَنِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ الْآيَةَ، قَالَ: لَا الْإِنْسُ يُقْصِرُونَ عَمَّا يَعْمَلُونَ، وَلَا الشَّيَاطِينُ تُمَسِّكُ عَنْهُمْ^(١). ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ لَا تَقْتَرُ فِيهِ وَلَا تَبْطُلُ عَنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ نَوِّذُهُمْ أَرَأَيْتَ﴾ [مريم: ٨٣] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: تُزْعِجُهُمْ إِلَى الْمَعَاصِي إِزْعَاجًا^(٢).

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا آجَبَتْنَاهَا قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِمَا يَبُوحُ إِلَٰهٌ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ﴾

[طَلَبُ الْمُشْرِكِينَ الْآيَاتِ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا لَوْلَا آجَبَتْنَاهَا﴾ يَقُولُ: لَوْلَا تَلَقَّيْنَاهَا. وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى: لَوْلَا أَحَدَثْنَاهَا فَأَسْأَلْنَاهَا^(٤). وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَثِيرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا آجَبَتْنَاهَا﴾ قَالَ: لَوْلَا اقْتَضَيْنَاهَا، قَالُوا: تُنْجِرُهَا عَنْ نَفْسِكَ^(٥). وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٦). وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾ أَيُّ مُعْجِزَةٍ وَخَارِقٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ لَّمْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَظُلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَمَّا خَصَّصِينَ﴾ [الشعراء: ٤] يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ: أَلَا تَجْهَدُ نَفْسَكَ فِي طَلَبِ الْآيَاتِ مِنَ اللَّهِ، حَتَّى تَرَاهَا وَتُؤْمِنَ بِهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِمَا يَبُوحُ إِلَٰهٌ مِنْ رَبِّي﴾ أَيُّ أَنَا لَا

وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أَيُّ هَذِهِ الْوَصِيَّةُ ﴿وَلَمَّا يَزْعَمَنَّ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦] وَقَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ أَيْضًا: ﴿وَلَمَّا يَزْعَمَنَّ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فَهَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ فِي الْأَعْرَافِ وَالْمُؤْمِنُونَ وَحَمَّ السَّجْدَةِ لَا رَابِعَ لَهُنَّ، فَإِنَّهُ تَعَالَى، يُرْشِدُ فِيهِنَّ إِلَى مُعَامَلَةِ الْعَاصِي مِنَ الْإِنْسِ بِالْمَعْرُوفِ بِالنَّبِيِّ هِيَ أَحْسَنُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَكْفُهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ التَّمَرُّدِ بِإِذْنِهِ تَعَالَى، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِذَا أَلَذَّى يَبْنُكَ وَيَبْنِيكَ عَدَاوَةً كَانَتْ وَلِيَّ حَمِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤] ثُمَّ يُرْشِدُ تَعَالَى إِلَى الْإِسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنَ شَيْطَانِ الْجَانِّ، فَإِنَّهُ لَا يَكْفُهُ عَنْكَ الْإِحْسَانُ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ هَلَاكَكَ وَدَمَارَكَ بِالْكُلِّيَّةِ، فَإِنَّهُ عَدُوٌّ مُبِينٌ لَكَ وَلِأَيِّكَ مِنْ قَبْلِكَ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا يَزْعَمَنَّ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ وَإِنَّمَا يُغْضِبُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ غَضَبٌ يَصُدُّكَ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْجَاهِلِ وَيَحْمِلُكَ عَلَى مُجَازَاتِهِ ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ يَقُولُ: فَاسْتَجِرْ بِاللَّهِ مِنْ نَزْعِهِ ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سَمِيعٌ لِيَجْهَلَ الْجَاهِلُ عَلَيْكَ وَالْإِسْتِعَاذَةَ بِهِ مِنْ نَزْعِهِ، وَلِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كَلَامٍ خَلَقَهُ. لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ، عَلِيمٌ بِمَا يُذْهِبُ عَنْكَ نَزْعَ الشَّيْطَانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورٍ خَلَقَهُ^(١).

وَقَدْ قَدَّمْنَا أَحَادِيثَ الْإِسْتِعَاذَةِ فِي أَوَّلِ التَّفْسِيرِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ أَحَدٌ إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾

يُقْصِرُونَ

[عَمَلُ أَهْلِ التَّقْوَى عِنْدَ الْوَسْوَسَةِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُتَّقِينَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَطَاعُوهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَرَكُوا مَا عَنْهُ زَجَرَ، أَنَّهُمْ ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أَيُّ أَصَابَهُمْ (طِيفٌ). وَقَرَأَ الْآخَرُونَ ﴿طَلِيفٌ﴾ وَهُمَا قِرَاءَتَانِ مَشْهُورَتَانِ، قِيلَ: بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَقِيلَ: بَيْنَهُمَا فَرْقٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِالْغَضَبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِمَسِّ الشَّيْطَانِ بِالْصَّرْعِ وَنَحْوِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِالْهَمِّ بِالذَّنْبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِإِصَابَةِ الذَّنْبِ وَقَوْلُهُ: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أَيُّ عِقَابَ اللَّهِ وَجَزِيلَ ثَوَابِهِ وَوَعْدُهُ، وَوَعِيدُهُ، فَتَابُوا وَأَنَابُوا وَاسْتَعَاذُوا بِاللَّهِ وَرَجَعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ أَيُّ قَدْ اسْتَقَامُوا وَصَحُّوا وَمَا

(١) الطبري: ١٣/٣٣٢ (٢) الطبري: ١٣/٣٣٨ (٣) الطبري:

١٣/٢٥٢ (٤) الطبري: ١٣/٣٤١ (٥) الطبري: ١٣/٣٤١

(٦) الطبري: ١٣/٣٤١، ٣٤٢

الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ الآية. وَإِنَّمَا ذَكَرَهُمْ بِهَذَا لِيَقْتَدَى بِهِمْ فِي كَثْرَةِ طَاعَتِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ، وَلِهَذَا شَرَعَ لَنَا السُّجُودَ هَهُنَا - لِمَا ذَكَرَ سُجُودَهُمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ - كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «أَلَّا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا، يُثْمِنُونَ الصُّفُوفَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»^(٣). وَهَذِهِ أَوَّلُ سَجْدَةٍ فِي الْقُرْآنِ مِمَّا يُشْرَعُ لِتَالِيهَا وَمُسْتَمْعِهَا السُّجُودَ بِالْإِجْمَاعِ.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَنْفَالِ وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

آيَاتُهَا سَبْعُونَ وَخَمْسُ آيَاتٍ. كَلِمَاتُهَا: أَلْفُ كَلِمَةٍ وَسِتْمِائَةِ كَلِمَةٍ، وَإِحْدَى وَثَلَاثُونَ كَلِمَةً. حُرُوفُهَا: خَمْسَةٌ أَلْفٍ وَمِائَتَانِ وَأَرْبَعَةٌ وَتِسْعُونَ حَرْفًا. وَاللَّهُ أَغْلَمُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

[تَفْسِيرُ الْأَنْفَالِ]

قَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْأَنْفَالُ: الْمَغَانِمُ، ثُمَّ رَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سُورَةُ الْأَنْفَالِ؟ قَالَ: نَزَلَتْ فِي بَدْرٍ^(٤). أَمَّا مَا عَلَّقَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَكَذَلِكَ رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: الْأَنْفَالُ: أَلْعَنَانُ، كَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَالِصَةً لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْهَا شَيْءٌ^(٥). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ، وَعَطَاءٌ، وَالضَّحَّاكُ، وَقَتَادَةُ، وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَشْلَمَ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَنَّهَا الْمَغَانِمُ^(٦). [وَقِيلَ: أَلْتَقَلَّ مَا يُقَالُ لِلْإِمَامِ لِبَعْضِ الْأَشْخَاصِ، مِنْ سَلَبٍ أَوْ نَحْوِهِ بَعْدَ قَسَمِ أَصْلِ الْمُغْنَمِ، وَقِيلَ: هُوَ الْخُمْسُ بَعْدَ الْأَرْبَعَةِ مِنْ

أَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ تَعَالَى فِي شَيْءٍ، وَإِنَّمَا أَتَيْتُ مَا أَمَرَنِي بِهِ، فَأَمْتِثِلُ مَا يُوحِيهِ إِلَيَّ، فَإِنْ [بَعَثَ] آيَةً قَبْلَتَهَا وَإِنْ مَنَعَهَا لَمْ أَسْأَلْهُ ابْتِدَاءً إِنِّي أَهَآ، إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ لِي فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ، ثُمَّ أَرَشَدَهُمْ إِلَى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ أَكْثَرُ الْمُعْجَزَاتِ وَأَبْيَنُ الدَّلَالَاتِ وَأَصْدَقُ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ، فَقَالَ: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٧)
[الْأَمْرُ بِاسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ الْقُرْآنَ بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ، أَمَرَ تَعَالَى بِالْإِنْصَاتِ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ إِعْظَامًا لَهُ وَاخْتِرَامًا، لَا كَمَا كَانَ يَعْتمِدُهُ كُفَّارُ قُرَيْشٍ، الْمُشْرِكُونَ، فِي قَوْلِهِمْ: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَى فِيهِ﴾ الآية [فصلت: ٢٦]. قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: كُنَّا نُسَلِّمُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فِي الصَّلَاةِ، فَجَاءَ الْقُرْآنُ ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٨).

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْقُدُّوْ وَالْإِصْلَاحِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(٩) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ وَلَهُمْ يُسْجُدُونَ﴾^(١٠)

[الْأَمْرُ بِالذِّكْرِ وَالْعِبَادَةِ فِي الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ]

يَأْمُرُ تَعَالَى بِذِكْرِهِ أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ كَثِيرًا، كَمَا أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ فِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩] وَقَدْ كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَقْرَأَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ، وَهَذِهِ آيَةُ مَكِّيَّةٌ. وَقَالَ هَهُنَا: ﴿بِالْقُدُّوْ﴾ وَهُوَ أَوَّلُ النَّهَارِ، ﴿وَالْإِصْلَاحِ﴾ جَمْعُ أَصِيلٍ، كَمَا أَنَّ الْأَيْمَانَ جَمْعُ يَمِينٍ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أَيُّ أَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً وَبِالْقَوْلِ لَا جَهْرًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ﴾ وَهَكَذَا يُسْتَحَبُّ أَنْ يَكُونَ الذِّكْرُ لَا يَكُونُ يَدَاءً وَجَهْرًا بَلِيغًا.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَفَعَ النَّاسُ أَصْوَاتَهُمْ بِاللَّعَاءِ فِي بَعْضِ الْأَسْفَارِ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! ارْزِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقٍ رَاحِلَتِهِ»^(١١). وَالْمُرَادُ: الْحُضْرُ عَلَى كَثْرَةِ الذِّكْرِ مِنَ الْعِبَادَةِ بِالْقُدُّوْ وَالْإِصْلَاحِ، لِئَلَّا يَكُونُوا مِنَ الْغَافِلِينَ، وَلِهَذَا مَدَحَ

(١) إسناده منقطع: المسيب بن رافع لم يسمع من عبد الله بن مسعود شيئًا كما قال أحمد وأبو حاتم الرازي [جامع التحصيل وتهذيب التهذيب] (٢) فتح الباري: ١٥٧/٦ ومسلم: ٢٠٧٧/٤ (٣) مسلم: ٣٢٢/١ (٤) فتح الباري: ١٥٦/٨ (٥) الطبري: ٣٧٨/١٣ (٦) الطبري: ٣٦١/١٣

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَعَارَ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ نَقْلَ الرُّبْعِ، فَإِذَا أَقْبَلَ [وَكُلُّ النَّاسِ] رَاجِعًا نَقَلَ الثُّلُثَ، وَكَانَ يَكْرَهُ الْأَنْفَالَ^(٤). [وَيَقُولُ: لِيَزِدَّ قُوَّةَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى ضَعْفِهِمْ]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ نَحْوَهُ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ^(٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أَيِ اتَّقُوا اللَّهَ فِي أُمُورِكُمْ، وَأَصْلِحُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ، وَلَا تَظَالَمُوا وَلَا تَخَاصَمُوا، وَلَا تَسْجَرُوا، فَمَا آتَاكُمْ اللَّهُ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ خَيْرٌ مِمَّا تَخْتَصِمُونَ بِسَبِيلِهِ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَيِ فِي قَسْمِهِ بَيْنَكُمْ عَلَى مَا أَرَادَهُ اللَّهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَقْسِمُهُ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَذَا

الْأَخْمَاسِ. وَقِيلَ: هُوَ الْفَيْءُ. وَهُوَ مَا أَخَذَ مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ، وَمَا شَذَّ مِنْهُمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ دَابَّةٍ أَوْ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ أَوْ مَتَاعٍ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ صَالِحٍ ابْنِ حَتَّى قَالَ: بَلَغَنِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾: قَالَ: السَّرَايَا. وَمَعْنَى هَذَا مَا يُنْقَلُهُ الْإِمَامُ لِبَعْضِ السَّرَايَا زِيَادَةً عَلَى قَسْمِهِمْ مَعَ بَقِيَّةِ الْجَيْشِ.

[سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ]

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ شَفَانِي اللَّهُ الْيَوْمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَهَبْ لِي هَذَا السَّيْفَ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا السَّيْفَ لَا لَكَ وَلَا لِي، ضَعْنَاهُ» قَالَ: فَوَضَعْنَاهُ، ثُمَّ رَجَعْتُ قُلْتُ: عَسَى أَنْ يُعْطَى هَذَا السَّيْفُ مَنْ لَا يُبْلِي بِلَايَتِي، قَالَ: فَإِذَا رَجُلٌ يَدْعُونِي مِنْ وَرَائِي قَالَ: قُلْتُ: قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيَّ شَيْئًا؟ قَالَ ﷺ: «كُنْتُ سَأَلْتُنِي السَّيْفَ وَلَيْسَ هُوَ لِي، وَإِنَّهُ قَدْ وَهَبَ لِي، فَهُوَ لَكَ». قَالَ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(١). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٢).

سَبَبُ آخَرُ فِي نَزُولِ الْآيَةِ

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: سَأَلْتُ عُبَادَةَ عَنِ الْأَنْفَالِ؟ فَقَالَ: فِينَا - أَصْحَابَ بَدْرٍ - نَزَلَتْ، حِينَ اخْتَلَفْنَا فِي النِّقْلِ، وَسَاعَتْ فِيهِ أَخْلَاقُنَا، فَأَنْتَزَعَهُ اللَّهُ مِنْ أَيْدِينَا وَجَعَلَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَسَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ بَوَاءٍ - يَقُولُ: عَنْ سِوَاءٍ -^(٣). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَشَهِدْتُ مَعَهُ بَدْرًا، فَالْتَقَى النَّاسُ، فَهَزَمَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَدُوَّ، فَانْطَلَقَتْ طَائِفَةٌ فِي آثَارِهِمْ يَهْزِمُونَ وَيَقْتُلُونَ، وَأَقْبَلَتْ طَائِفَةٌ عَلَى الْعَسْكَرِ يَحْزِرُونَهُ وَيَجْمَعُونَهُ، وَأَحْدَقَتْ طَائِفَةٌ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا يُصِيبُ الْعَدُوُّ مِنْهُ غَرَّةٌ، حَتَّى إِذَا كَانَ اللَّيْلُ وَفَاءَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ الَّذِينَ جَمَعُوا الْغَنَائِمَ: نَحْنُ حَوَانَاهَا فَلَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَا نَصِيبٌ. وَقَالَ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي طَلَبِ الْعَدُوِّ: لَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهِ مِنَّا، نَحْنُ مَنَعْنَا عَنْهُ الْعَدُوَّ وَهَرَمْنَا هُمْ. وَقَالَ الَّذِينَ أَحْدَقُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: [لَسْتُمْ بِأَحَقَّ مِنَّا نَحْنُ أَحْدَقْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ] خِفْنَا أَنْ يُصِيبَ الْعَدُوُّ مِنْهُ غَرَّةٌ فَاسْتَعْلَنَّا بِهِ. فَنَزَلَتْ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾

(١) أحمد: ١٧٨/١ (٢) أبو داود: ١٧٧/٣ وتحفة الأحوذى:

٤٦٦/٨ والنسائي في الكبرى: ٣٤٨/٦ (٣) أحمد: ٣٢٢/٥

(٤) أحمد: ٣٢٣/٥ (٥) تحفة الأحوذى: ٤٦٨/٨ وابن ماجه:

الآيَةِ وَأَشْبَاهَهَا عَلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَتَفَاضُلِهِ فِي الْقُلُوبِ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ جُمْهُورِ الْأُمَّةِ، بَلْ قَدْ حَكَى الْإِجْمَاعُ عَلَى ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَيِّمَةِ كَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَأَبِي عُبَيْدٍ. كَمَا بَيَّنَّا ذَلِكَ مُسْتَقْصًى فِي أَوَّلِ شَرْحِ الْبُخَارِيِّ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

[بَيَانُ التَّوَكُّلِ]

﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أَيُّ لَا يَرْجُونَ سِوَاهُ، وَلَا يَقْضُونَ إِلَّا إِيَّاهُ، وَلَا يُلْجِئُونَ إِلَّا بِجَنَابِهِ، وَلَا يَطْلُبُونَ الْحَوَائِجَ إِلَّا مِنْهُ، وَلَا يَرْغَبُونَ إِلَّا إِلَيْهِ، وَاتَّهَ الْمُتَصَرِّفُ فِي شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَاتَّهَ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْمُلْكِ، وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا مُعْتَبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ، وَلِهَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ جَمَاعُ الْإِيمَانِ.

[بَيَانُ أَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ يُنْبِئُ تَعَالَى بِذَلِكَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ بَعْدَمَا ذَكَرَ اعْتِقَادَهُمْ، وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ تَشْمَلُ أَنْوَاعَ الْخَيْرِ كُلِّهَا، وَهُوَ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ وَهُوَ حَقُّ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَالَ قَتَادَةُ: إِقَامَةُ الصَّلَاةِ الْمُحَافَظَةُ عَلَى مَوَاقِيتِهَا وَوُضُوءِهَا وَرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا^(١). وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ: إِقَامَتُهَا الْمُحَافَظَةُ عَلَى مَوَاقِيتِهَا، وَإِسْبَاغُ الطَّهْوَرِ فِيهَا، وَتِمَامُ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا، وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ فِيهَا، وَالتَّسْهُدُ وَالصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ. هَذَا إِقَامَتُهَا^(٢). وَالْإِنْفَاقُ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ: يَشْمَلُ إِخْرَاجَ الزَّكَاةِ وَسَائِرِ الْحَقُوقِ لِلْعِبَادِ مِنْ وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ. وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِبَالُ اللَّهِ فَأَحَبُّهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِحَلْقِهِ.

[بَيَانُ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، أَيِ الْمُتَصَرِّفُونَ بِهِذِهِ الصِّفَاتِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا الْإِيمَانِ.

[تَمَرَّةُ الْإِيمَانِ الْكَامِلِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَيُّ مَنَازِلُ وَمَقَامَاتُ وَدَرَجَاتُ فِي الْجَنَّاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣] وَمَعْفَرَةٌ

تَحْرِيجٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ [عَلَى الْمُؤْمِنِينَ] أَنْ يَقْتُلُوا [اللَّهُ] وَيُضْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِهِمْ^(١). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ^(٢). وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أَيِ لَا تَسْتَبُوا^(٣).

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ] أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ

[أَوْصَافُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ]

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. قَالَ: الْمُنَافِقُونَ لَا يَدْخُلُ قُلُوبُهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عِنْدَ آدَاءِ فَرَائِضِهِ. وَلَا يُؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَلَا يَتَوَكَّلُونَ، وَلَا يُصَلُّونَ إِذَا غَابُوا، وَلَا يُؤَدُّونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ وَصَفَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فَأَدَّوْا فَرَائِضَهُ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا يَقُولُ: زَادَتْهُمْ تَصْدِيقًا ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يَقُولُ: لَا يَرْجُونَ غَيْرَهُ^(٤). وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فَرَقَتْ أَيِ فَرِغَتْ وَخَافَتْ^(٥). وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِ - حَقِّ الْمُؤْمِنِ - الَّذِي إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَ قَلْبُهُ^(٦). أَيِ خَافَ مِنْهُ، فَفَعَلَ أَوَامِرَهُ وَتَرَكَ زَوَاجِرَهُ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُبْصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [الَّذِينَ هُمْ أَلْمَؤُودُونَ] [النَّازِعَات: ٤٠، ٤١] وَلِهَذَا قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: سَمِعْتُ السُّدِّيَّ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قَالَ: هُوَ الرَّجُلُ يُرِيدُ أَنْ يَظْلِمَ أَوْ قَالَ: يَهُمُ بِمَعْصِيَةِ فَيَقَالُ لَهُ: إِنِّي اللَّهُ. فَيَجِلَ قَلْبُهُ.

[زِيَادَةُ الْإِيمَانِ إِذَا تَنَلَّى آيَاتُ الْقُرْآنِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]. وَقَدْ اسْتَدَلَّ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَيِّمَةِ بِهِذِهِ

(١) الطبري: ٣٨٤/١٣ (٢) الطبري: ٣٨٤/١٣ (٣) الطبري: ٣٨٦/١٣

(٤) الطبري: ٣٨٦/١٣ (٥) الطبري: ٣٨٦/١٣ (٦) الطبري: ٣٨٦/١٣

(٧) ابن أبي حاتم: ٣٧/١ (٨) ابن أبي حاتم: ٣٧/١

وَيَرَفَعُ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ، وَيَجْعَلُهُ غَالِبًا عَلَى الْأَدْيَانِ، وَهُوَ أَغْلَمُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ، وَهُوَ الَّذِي يَذَرُّكُمْ بَحْسِنِ تَذْيِيرِهِ، وَإِنْ كَانَ الْعِبَادُ يُحِبُّونَ خِلَافَ ذَلِكَ فِيمَا يَظْهَرُ لَهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَبِي سُفْيَانَ مُقْبِلًا مِنَ الشَّامِ نَذَبَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِمْ، وَقَالَ: «هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ فِيهَا أَمْوَالُهُمْ، فَأَخْرُجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُفْلِحَكُمْوهَا». فَانْتَدَبَ النَّاسُ فَحَفَّتْ بَعْضُهُمْ وَثَقُلَ بَعْضُهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَظُنُّوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَلْقَى حَرْبًا، وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَدْ اسْتَنْفَرَ حِينَ دَنَا مِنَ الْحِجَازِ يَتَجَسَّسُ الْأَخْبَارَ، وَيَسْأَلُ مَنْ لَقِيَ مِنَ الرُّكْبَانِ تَخَوُّفًا عَلَى أَمْرِ النَّاسِ، حَتَّى أَصَابَ خَبْرًا مِنْ بَعْضِ الرُّكْبَانِ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ اسْتَنْفَرَ أَصْحَابَهُ لَكَ وَلِعَبْرِكَ، فَحَذَرَ عِنْدَ ذَلِكَ فَاسْتَأْجَرَ ضَمَضَمَ بْنَ عَمْرٍو الْغِفَارِيَّ، فَجَعَلَهُ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَ قُرَيْشًا فَيَسْتَنْفِرَهُمْ إِلَى أَمْوَالِهِمْ، وَيُخْبِرَهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ عَرَضَ لَهَا فِي أَصْحَابِهِ، فَخَرَجَ ضَمَضَمُ بْنُ عَمْرٍو سَرِيعًا إِلَى مَكَّةَ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ، حَتَّى بَلَغَ وَادِيًا يُقَالُ لَهُ: ذَفِرَانُ، فَخَرَجَ مِنْهُ حَتَّى إِذَا كَانَ بِبَعْضِهِ نَزَلَ، وَأَتَاهُ الْخَبَرُ عَنْ قُرَيْشٍ بِمَسِيرِهِمْ، لِيَمْنَعُوا عِيرَهُمْ، فَاسْتَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ وَأَخْبَرَهُمْ عَنْ قُرَيْشٍ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ، فَأَحْسَنَ. ثُمَّ قَامَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ، فَأَحْسَنَ. ثُمَّ قَامَ الْمُقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِمضْ لِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ، فَتَحْنُ مَعَكَ وَاللَّهُ! لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: (إِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) وَلَكِنْ إِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ، فَوَ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! لَوْ سِرْتُ بِنَا إِلَى بَرْكِ الْغَمَادِ، يَعْنِي مَدِينَةَ الْحَبَشَةِ^(١) لَجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ حَتَّى تَبْلُغَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرًا وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ!» وَإِنَّمَا يُرِيدُ الْأَنْصَارَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا عَدَدَ النَّاسِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ حِينَ

أَيَّ يَغْفِرُ لَهُمْ السَّيِّئَاتِ وَيَشْكُرُ لَهُمُ الْحَسَنَاتِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ عَلَيْنَ لَيَرَاهُمْ مَنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْكُوكَبَ الْغَائِبَ فِي أَفْقٍ مِنْ أَفَاقِ السَّمَاءِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَنَالُهَا غَيْرُهُمْ. فَقَالَ: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ»^(٢). وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ [عَطِيَّة] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكُوكَبَ الْغَائِبَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ مِنْهُمْ وَأَنْعَمًا»^(٣).

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ ⑤ ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَرْظَوْنَ ⑥﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ عَرَّ ذَاتِ الشُّوْكَ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّقَ الْحَقَّ يَكْفِيتَهُ. وَيَقْطَعُ دَائِرَ الْكَافِرِينَ ⑦ ﴿لِيُخَيِّقَ الْحَقَّ وَيَهْطِلَ الْبَاطِلُ وَلَوْ كَرِهَ الْمُعْرِضُونَ ⑧﴾

[إِتْبَاعُ الرَّسُولِ بَاعِثُ خَيْرٍ لِلْمُؤْمِنِينَ]

قَوْلُهُ: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: شَبَّهَ بِهِ - فِي الصَّلَاحِ لِلْمُؤْمِنِينَ - إِتْقَانَهُمْ رَبَّهُمْ وَإِصْلَاحَهُمْ ذَاتَ بَيْنِهِمْ وَطَاعَتَهُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ. وَمَعْنَى هَذَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: كَمَا أَنَّكُمْ لَمَّا اخْتَلَفْتُمْ فِي الْمَغَانِمِ وَتَسَاحَحْتُمْ فِيهَا فَانْتَزَعَهَا اللَّهُ مِنْكُمْ وَجَعَلَهَا إِلَى قِسْمِهِ وَقَسَمَ رَسُولُهُ ﷺ، فَقَسَمَهَا عَلَى الْعَدْلِ وَالنُّسُوبَةِ، فَكَانَ هَذَا هُوَ الْمَصْلَحَةُ الثَّامَّةُ لَكُمْ. وَكَذَلِكَ لَمَّا كَرِهْتُمْ الْخُرُوجَ إِلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ قِتَالِ ذَاتِ الشُّوْكَ، وَهُمْ الْفَيْرُ الَّذِينَ خَرَجُوا لِنَصْرِ دِينِهِمْ وَإِحْرَازِ عِيرِهِمْ، فَكَانَ عَاقِبَةُ كَرَاهَتِكُمْ لِلْقِتَالِ - بِأَنْ قَدَّرَهُ لَكُمْ، وَجَمَعَ بِهِ بَيْنَكُمْ وَعَدُوَّكُمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ - رُشْدًا وَهُدًى، وَنَصْرًا وَقِتْحًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] قَالَ الشُّدِّي: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ لِيَطْلُبَ الْمُشْرِكِينَ ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ مُجَادَلَةً كَمَا جَادَلُوكَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالُوا: أَخْرَجْنَا لِعَبْرٍ وَلَمْ نُعْلِمْنَا قِتَالًا فَتَسْتَعِدُّ لَهُ؟ ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّقَ الْحَقَّ يَكْفِيتَهُ﴾ أَيُّ هُوَ يُرِيدُ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الطَّائِفَةِ الَّتِي لَهَا الشُّوْكَ وَالْقِتَالُ، لِيُظْفِرَكُمْ بِهِمْ وَيَنْصُرَكُمْ عَلَيْهِمْ، وَيُظْهِرَ دِينَهُ

(١) فتح الباري: ٦/٣٦٨ ومسلم: ٤/٢١٧٧ (٢) أحمد: ٣/٢٧ وأبو داود: ٤/٢٨٧ وتحفة الأحوذى: ٨/١٤٢ وابن ماجه: ١/٣٧ إسناده ضعيف فيه عطية العوفي وهو ضعيف مدلس وله شواهد ضعيفة (*) وهي الآن مدينة من اليمن، كما عند المؤرخين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ
مِّنَ الْمَلَكَةِ مُرَدِّفٍ ﴿١﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى
وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢﴾ إِذْ يَغْشِيكُمْ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ
عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُفْرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجَرِ
الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿٣﴾
إِذْ يُوحَىٰ رُبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا
سَأَلْفِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ
الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥﴾ ذَلِكَ كُفْرُكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابَ النَّارِ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ
كَفَرُوا رَحَقًا فَلَاحُوا قُلُوبَهُم بِالْأَذْبَارِ ﴿٧﴾ وَمَن يُؤْلَهِمْ يَوْمَئِذٍ
دُبْرَهُ لَا يُتَحَرَّفُ الْقُنَالُ أَوْ مُتَحَرِّجًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ
بِعَظْمٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَلَهُ جَهَنَّمَ وَبِسُ الْمَصِيرِ ﴿٨﴾

بَايَعُوهُ بِالْعَقَبَةِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّا بَرَاءٌ مِنْ ذِمَامِكَ حَتَّى
تَصِلَ إِلَى دَارِنَا، فَإِذَا وَصَلْتَ إِلَيْنَا فَأَنْتَ فِي ذِمَامِنَا، نَمْنَعُكَ
مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَتْبَاعَنَا وَنِسَاءَنَا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَخَوَّفُ
أَنْ لَا تَكُونَ الْأَنْصَارُ تَرَى عَلَيْهَا نُصْرَتَهُ، إِلَّا مِمَّنْ دَهَمَهُ
بِالْمَدِينَةِ مِنْ عَدُوِّهِ، وَأَنْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسِيرَ بِهِمْ إِلَى عَدُوٍّ
مِنْ بِلَادِهِمْ، فَلَمَّا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ قَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ
مُعَاذٍ: وَاللَّهِ لَكَائِكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَجَلٌ» فَقَالَ:
فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ،
وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاقِفَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،
فَأَمَضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! لِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ فَوَ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! إِنْ
اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخَضَّتْهُ لَحْضَنَاهُ مَعَكَ، مَا يَتَخَلَّفُ مِنَّا
رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكُرُهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوْنَا غَدًا، إِنَّا لَصَبْرٌ عِنْدَ
الْحَرْبِ صَدُوقٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَلَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقْرُبُهُ عَيْنُكَ،
فَيَسِّرُ بِنَا عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ، فَسَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَوْلِ سَعْدٍ وَنَسَّطَهُ
ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ: «سِيرُوا عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ
وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللَّهُ! لَكَائِي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ
الْقَوْمِ»^(١) وَرَوَى الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ نَحْوَ هَذَا^(٢). وَكَذَلِكَ
قَالَ السُّدِّيُّ وَفَتَادَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَشْلَمَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ
مِّنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ^(٣). اخْتَصَرْنَا أَقْوَالَهُمْ إِكْتِفَاءً بِسِيَاقِ
مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَكَةِ مُرَدِّفٍ﴾ ﴿١﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢﴾

[اِسْتِجَابَةُ الْمُسْلِمِينَ وَاسْتِجَابَةُ اللَّهِ لَهُمْ
بِإَنْزَالِ الْمَلَائِكَةِ]

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْمَغَازِي: بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:
﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَكَرِهَ
اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ثُمَّ رَوَى عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: شَهِدْتُ
مِنَ الْبُقْعَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ مَشْهُدًا لَّأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ
مِمَّا غَدِلَ بِهِ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ
فَقَالَ: لَا تَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: (اَذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ
فَقَاتِلَا) وَلَكِنَّا نَقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ
وَحَلْفِكَ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ. يَعْنِي:
قَوْلُهُ^(٤). ثُمَّ رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ
بَدْرٍ: «اللَّهُمَّ! أَنْشُدْكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ! إِنْ شِئْتَ لَمْ

تُعْبَدُ» فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ فَقَالَ: حَسْبُكَ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ:
«سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيَرْكَبُونَ الدُّبْرَ». وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ^(٥). وَقَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَكَةِ مُرَدِّفٍ﴾ أَيُّ يُرَدِّفُ بَعْضُهُمْ
بَعْضًا كَمَا قَالَ هَارُونُ بْنُ هُبَيْرَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿مُرَدِّفٍ﴾
مُتَّبَاعِينَ^(٦). رَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:
وَأَمَدَّ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ فَكَانَ
جِبْرِيلُ فِي خَمْسِمِائَةٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُجَنَّبَةٍ، وَمِيكَائِيلُ فِي
خَمْسِمِائَةٍ مُجَنَّبَةٍ^(٧). وَرَوَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ
وَمُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عُمَرَ حَدِيثًا^(٨) فِيهِ: بَيْنَا رَجُلٌ
مِّنَ الْمُسْلِمِينَ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ إِذْ
سَمِعَ ضَرْبَهُ بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتُ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمَ

(١) الطبري: ٣٩٩/١٣ (٢) الطبري: ٤٠٣/١٣ (٣) الطبري:
٤٠٥، ٤٠٢/١٣ (٤) فتح الباري: ٣٣٥/٧ (٥) فتح الباري:
٣٣٥/٧ والنسائي في الكبرى: ٤٧٧/٦ (٦) الطبري: ٤١٢/١٣
(٧) الطبري: ٤٢٣/١٣ (٨) الطبري: ٤٠٩/١٣ ومسلم: ٣/

حَيُّوْمُ، إِذْ نَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَحَرَّ مُسْتَلْقِيَا، قَالَ: فَتَطَرَّ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ حُطِمَ أَفْنُهُ وَشَقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ. فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «صَدَقْتُ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ»، فَقَتِلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ وَأَسْرُوا سَبْعِينَ^(١). وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: بَابُ شُهُودِ الْمَلَائِكَةِ بَدْرًا. ثُمَّ رَوَى عَنْ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعِ الزُّرَقِيِّ وَكَانَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، قَالَ: جَاءَ جَبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَا تَعْدُونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟ قَالَ: «مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ» أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا قَالَ: وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ^(٢). انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ وَقَدْ رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْمُعْجَمِ الْكَبِيرِ مِنْ حَدِيثِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ وَهُوَ خَطَأٌ، وَالصَّوَابُ رِوَايَةُ الْبُخَارِيِّ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِعُمَرَ لَمَّا شَاوَرَهُ فِي قَتْلِ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ قَدْ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: ااعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»^(٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى» آيَةً، أَيْ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ بَعَثَ الْمَلَائِكَةَ وَإِعْلَامَهُ إِيَّاكُمْ بِهِمْ إِلَّا بُشْرَى «وَلَتَعْلَمَنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ» وَإِلَّا فَهُوَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى نَصْرِكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ بِدُونِ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَمَا أَنْصَرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَرَقُونَهُمْ فَشَدُّوا الْوُثَاكُ فَمَا مَتَا بَعْدَ وَلَمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَرْزَأَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ^(٤) سَيَجْزِيهِمْ وَيُصْلِحُ بِأَمْوَالِهِمْ^(٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ» [محمد: ٤-٦] وَقَالَ تَعَالَى: «وَلَاكُمُ الْآيَاتُامُ ثَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ^(٦) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ» [آل عمران: ١٤٠، ١٤١] فَهَذِهِ حِكْمٌ شَرَعَ اللَّهُ جِهَادَ الْكُفَّارِ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ لِأَجْلِهَا. وَقَدْ كَانَ تَعَالَى إِنَّمَا يَعْقِبُ الْأُمَّةَ السَّالِفَةَ الْمَكْذِبَةَ لِلْأَنْبِيَاءِ بِالْقَوَارِعِ الَّتِي تَعُمُّ تِلْكَ الْأُمَّةَ الْمَكْذِبَةَ كَمَا أَهْلَكَ قَوْمَ نُوحٍ بِالطُّوفَانِ، وَعَادًا الْأُولَى بِالذَّبُورِ، وَثَمُودَ بِالصَّيْحَةِ، وَقَوْمَ لُوطٍ بِالْخَسْفِ وَالْقَلْبِ وَجِبَارَةَ السَّجِيلِ، وَقَوْمَ شَعْبٍ يَوْمَ الظُّلَّةِ، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى وَأَهْلَكَ عُدُوَّهُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ بِالْعُرْقِيِّ فِي الْيَمِّ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى التَّوْرَةَ شَرَعَ فِيهَا قِتَالَ الْكُفَّارِ، وَاسْتَمَرَ الْحُكْمُ فِي بَقِيَّةِ الشَّرَائِعِ بَعْدَهُ

عَلَى ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ» [الفصل: ٤٣] وَقَتْلُ الْمُؤْمِنِينَ لِلْكَافِرِينَ، أَشَدُّ إِهَانَةً لِلْكَافِرِينَ، وَأَشْفَى لِصُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ: «فَقَتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ» [التوبة: ١٤] وَلِهَذَا كَانَ قَتْلُ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ بِأَيْدِي أَعْدَائِهِمُ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ بِأَعْيُنٍ ارْزِزَائِهِمْ، أَنْكَى لَهُمْ وَأَشْفَى لِصُدُورِ حِزْبِ الْإِيمَانِ، فَقَتْلُ أَبِي جَهْلٍ فِي مَعْرَكَةِ الْبَقَالِ وَحَوْمَةِ الْوَعَى أَشَدُّ إِهَانَةً لَهُ مِنْ مَوْتِهِ عَلَى فِرَاشِهِ بِقَارِعَةٍ أَوْ صَاعِقَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، كَمَا مَاتَ أَبُو لَهَبٍ لَعَنَهُ اللَّهُ بِالْعَدَسَةِ بَحِثٌ لَمْ يَقْرَبْهُ أَحَدٌ مِنْ أَقَارِبِهِ، إِنَّمَا عَسَلُوهُ بِالْمَاءِ قَذْفًا مِنْ بَعِيدٍ، وَرَجَمُوهُ حَتَّى دَفَنُوهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ» أَيْ لَهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ» [غافر: ٥١] «حَكِيمٌ» فِيمَا شَرَعَهُ مِنْ قِتَالِ الْكُفَّارِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى دِمَارِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيَتَبَيَّنَ بِهِ الْأَقْدَامُ^(١) إِذْ يُوحَىٰ رُبَّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَلَيْسَ لَكُمْ فَتْنَةٌ أَلَيْسَ آمَنُوا سَائِلِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فَوَّحُوا قُبُورَهُمْ وَأَضْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ^(٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُسَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ^(٣) ذَلِكَ كَمَا فَدَوْفُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ^(٤) [غَلَبَةُ النُّعَاسِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ]

يُذَكِّرُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ الْإِقَائَةِ النُّعَاسِ عَلَيْهِمْ أَمَانًا آمَنَهُمْ بِهِ مِنْ خَوْفِهِمُ الَّذِي حَصَلَ لَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ عُدُوِّهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِهِمْ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ تَعَالَى بِهِمْ يَوْمَ أُحُدٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ...» آيَةً [آل عمران: ١٥٤]، قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: كُنْتُ مِنْ أَصَابِهِ النُّعَاسُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَلَقَدْ سَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِي مِرَارًا يَسْقُطُ

(١) مسلم: ١٣٨٤/٣ (٢) فتح الباري: ٣٦٢/٧ (٣) فتح الباري: ٣٥٥/٧ ومسلم: ١٩٤١/٤

وَأَخَذَهُ، وَيَسْقُطُ وَأَخَذَهُ، وَلَقَدْ نَظَرْتُ إِلَيْهِمْ يَمِيدُونَ وَهُمْ تَحْتَ الْحَجَفِ. وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا كَانَ فِينَا فَارِسٌ يَوْمَ بَدْرٍ غَيْرَ الْمِقْدَادِ، وَلَقَدْ رَأَيْنَا وَمَا فِينَا إِلَّا نَائِمٌ، إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي تَحْتَ شَجَرَةٍ وَيَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ^(١). وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: النَّعَاسُ فِي الْقِتَالِ أَمَنَةٌ مِنَ اللَّهِ، وَفِي الصَّلَاةِ مِنَ الشَّيْطَانِ^(٢). وَقَالَ قَتَادَةُ: النَّعَاسُ فِي الرَّأْسِ، وَالنُّومُ فِي الْقَلْبِ^(٣). قُلْتُ: أَمَّا النَّعَاسُ فَقَدْ أَصَابَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ وَأَمْرٌ ذَلِكَ مَشْهُورٌ جِدًّا. وَأَمَّا الْآيَةُ الشَّرِيفَةُ إِنَّمَا هِيَ فِي سِيَاقِ قِصَّةِ بَدْرٍ، وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى وَقُوعِ ذَلِكَ أَيْضًا، وَكَأَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ شِدَّةِ الْبَأْسِ لِيَتَكُونَ قُلُوبُهُمْ أَمَنَةً مُطْمَئِنَّةً بِنَصْرِ اللَّهِ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ وَبِعَمَلِهِ عَلَيْهِمْ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا [الشرح: ٥، ٦] وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ فِي الْعَرِيشِ مَعَ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُمَا يَدْعُوَانِ أَخَذَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سِنَّةٌ مِنَ النَّوْمِ، ثُمَّ اسْتَبَقَطَ مُتَسِمًّا فَقَالَ:

«أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ هَذَا جِبْرِيلُ عَلَى ثَنَائِيهِ النَّفْعُ» ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَابِ الْعَرِيشِ وَهُوَ يَتْلُو قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿سَيَرْجُمُ الْجَعَمُ وَيُؤَلِّقُونَ الذُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]^(٤).

[نُزُولُ الْمَطَرِ لَيْلَةَ بَدْرٍ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَارَ إِلَى بَدْرٍ وَالْمُشْرِكُونَ، بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَاءِ رَمْلَةٌ دَعَصَةٌ، وَأَصَابَ الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ شَدِيدٌ، وَأَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِهِمُ الْغَيْظَ يُوسُوسُ بَيْنَهُمْ: تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَقَدْ غَلَبَكُمْ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الْمَاءِ وَأَنْتُمْ تُصَلُّونَ مُجْنِبِينَ، فَأَمَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَطَرًا شَدِيدًا فَشَرِبَ الْمُسْلِمُونَ وَتَطَهَّرُوا وَأَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُمْ رَجَسَ الشَّيْطَانِ وَتَبَتِ الرَّمْلُ حِينَ أَصَابَهُ الْمَطَرُ، وَمَشَى النَّاسُ عَلَيْهِ وَالِدَوَابُّ فَسَارُوا إِلَى الْقَوْمِ، وَأَمَدَّ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَكَانَ جِبْرِيلُ فِي خَمْسِمِائَةٍ مُجَنَّبَةٍ، وَمِيكَائِيلُ فِي خَمْسِمِائَةٍ مُجَنَّبَةٍ^(٥).

وَأَحْسَنَ مَا فِي هَذَا مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ صَاحِبُ الْمَغَازِي رَجَمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ رُوْمَانَ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: بَعَثَ اللَّهُ السَّمَاءَ وَكَانَ الْوَادِي

وَقَوْلُهُ: ﴿لِيُظْهِرَكُمْ بِهِ﴾ أَيُّ مِنْ حَدِيثٍ أَضْعَرَّ أَوْ أَكْبَرَ وَهُوَ تَطْهِيرُ الظَّاهِرِ ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أَيُّ مِنْ وَسْوَسةٍ أَوْ خَاطِرٍ سَيِّئٍ وَهُوَ تَطْهِيرُ الْبَاطِنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ أَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُضْرٌ وَاسْتَبَقُوا وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ فَهَذَا زِينَةُ الظَّاهِرِ ﴿وَسَفَنَهُمْ رَبُّهُمْ سَرَاكًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] أَيُّ مَطْهَرًا لِمَا كَانَ مِنْ غِلٍّ أَوْ حَسَدٍ أَوْ تَبَاغُضٍ وَهُوَ زِينَةُ الْبَاطِنِ وَطَهَارَتُهُ.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أَيُّ بِالصَّبْرِ وَالْإِقْدَامِ عَلَى مُجَادَلَةِ الْأَعْدَاءِ وَهُوَ شَجَاعَةُ الْبَاطِنِ ﴿وَتُنَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ وَهُوَ شَجَاعَةُ الظَّاهِرِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[أَمَرَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ بِتَشْيِيتِ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْقِتَالِ

مَعَهُمْ]

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَقْبِ مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وَهَذِهِ نِعْمَةٌ خَفِيَّةٌ أَظْهَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ لِيَشْكُرُوهُ عَلَيْهَا وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَبَارَكَ وَتَمَجَّدَ - أَوْحَى إِلَى الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ أَنْزَلَهُمْ لِنَصْرِ نَبِيِّهِ وَدِينِهِ وَحِزْبِهِ الْمُؤْمِنِينَ يُوحِي إِلَيْهِمْ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ أَنْ يَثْبُتُوا الَّذِينَ آمَنُوا. وَقَوْلُهُ: ﴿سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أَيُّ ثَبَّتُوا أَنْتُمْ الْمُؤْمِنِينَ وَقَفُّوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى أَغْدَائِهِمْ عَنْ أَمْرِي لَكُمْ، بِذَلِكَ سَأَلَنِي الرُّعْبَ وَالذَّلَّةَ وَالصَّعَارَ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي وَكَذَّبَ رَسُولِي ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أَيُّ اضْرِبُوا الْأَطْرَافَ مِنْهُمْ وَهِيَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ: اضْرِبُوا الرُّؤُوسَ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: فَوْقَ الْأَعْنَاقِ أَيُّ عَلَى الْأَعْنَاقِ وَهِيَ الرِّقَابُ. قَالَهُ الضَّحَّاكُ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ. وَيَشْهَدُ لِهَذَا الْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْشَدَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى هَذَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا

(١) مسند أبي يعلى: ٢٤٢/١ (٢) الطبري: ٤١٩/١٣ (٣)

ابن أبي حاتم: ١٦٦٤/٥ (٤) دلائل النبوة: ٥٤/٣ (٥)

الطبري: ٤٢٣/١٣ (٦) الواقي في المغازي: ٥٤/١ (٧)

الطبري: ٤٢٥/١٣

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

١٧٩

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ
وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ
الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفِئُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ أَفْئَحٌ
وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدُو وَلَنْ نَقْضَ عَنْكُمْ
فَتْحَكُمْ شَيْعًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَأَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عُنَاهُ وَاتَّبِعُوا
تَسْمِعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمَمُ إِلَيْكُمْ
الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ
وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ
تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فَتْنَةً لَا تُضِلُّ الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

الضَّحَّاكُ أَنْ يَتَقَدَّمَ عَنْ أَصْحَابِهِ لِيَرَى غِرَّةَ مِنَ الْعُدُوِّ
فَيُضَيِّبُهَا «أَوْ مُتَحَرِّيًا إِلَيْكَ فِتْنَةً» أَيْ فَرَّ مِنْ هَاهُنَا إِلَى فِتْنَةٍ
أُخْرَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُعَاوَنُهُمْ وَيُعَاوَنُونَهُ. فَيَجُوزُ لَهُ ذَلِكَ.
حَتَّى لَوْ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ فَقَرَّ إِلَى أَمِيرِهِ (٣) أَوْ إِلَى الْإِمَامِ
الْأَعْظَمِ دَخَلَ فِي هَذِهِ الرُّحْصَةِ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أَبِي عُبَيْدٍ لَمَّا قُتِلَ عَلَى الْجِسْرِ بِأَرْضِ
فَارِسَ، لِكَثْرَةِ الْجَيْشِ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَجُوسِ فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ
تَحَيَّرَ إِلَيَّ لَكُنْتُ لَهُ فِتْنَةً. هَكَذَا رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ سَبْرِينَ عَنْ
عُمَرَ. وَفِي رَوَايَةٍ أَبِي عُمَرَ التَّهْدِيدِ عَنْ عُمَرَ، قَالَ: لَمَّا
قُتِلَ أَبُو [عُبَيْدٍ] قَالَ عُمَرُ: أَيُّهَا النَّاسُ! أَنَا فَتَنُكُمْ. وَقَالَ
مُجَاهِدٌ: قَالَ عُمَرُ: أَنَا فِتْنَةٌ كُلُّ مُسْلِمٍ. وَقَالَ عَبْدُ الْمَالِكِ
ابْنُ عُمَرَ عَنْ عُمَرَ: أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَعْرِتُكُمْ هَذِهِ الْآيَةُ،
فَإِنَّمَا كَانَتْ يَوْمَ بَدْرٍ وَأَنَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي

لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَفْتَضْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاكَ
[محمد: ٤]. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: كَانَ النَّاسُ يَوْمَ بَدْرٍ
يَعْرِفُونَ قَتْلَى الْمَلَائِكَةِ مِمَّنْ قَتَلُوهُمْ بِضَرْبِ فَوْقِ الْأَعْنَاقِ
وَعَلَى الْبَنَانِ مِثْلَ سِمَةِ النَّارِ قَدْ أُحْرِقَ بِهِ. وَقَوْلُهُ: «وَأَضْرِبُوا
مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ» قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَاهُ وَاضْرِبُوا مِنْ
عَذَابِكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ كُلَّ طَرَفٍ وَمَنْفَصِلٍ مِنْ أَطْرَافِ
أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ. وَالْبَنَانُ جَمْعُ بَنَانَةٍ (١). وَقَالَ الْعَوْفِيُّ
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ... فَذَكَرَ قِصَّةَ بَدْرٍ إِلَى أَنْ قَالَ: فَقَالَ أَبُو
جَهْلٍ: لَا تَقْتُلُوهُمْ قَتْلًا وَلَكِنْ خُذُوهُمْ أَخْذًا، حَتَّى
تَعْرِفُوهُمْ الَّذِي صَنَعُوا مِنْ طَعْنِهِمْ فِي دِيْنِكُمْ وَرَغْبَتِهِمْ عَنْ
اللَّاتِ وَالْعَزَى، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى الْمَلَائِكَةِ «إِنِّي مَعَكُمْ فَتَيَّوْا
الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ فَأَضْرِبُوا
فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ» الْآيَةَ، فَقَتَلَ أَبُو
جَهْلٍ لَعْنَهُ اللَّهُ فِي تِسْعَةِ وَسِتِّينَ رَجُلًا، وَأَسْرَعَ عُثْمُ بْنُ أَبِي
مُعَيْطٍ فَقَتَلَ صَبْرًا فَوْفَى ذَلِكَ سَبْعِينَ قَتِيلًا، وَلِهَذَا
قَالَ تَعَالَى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ» أَيْ خَالَفُوهُمَا
فَسَارُوا فِي شِقِّ، وَتَرَكُوا الشَّرْعَ وَالْإِيمَانَ بِهِ وَاتَّبَعُوهُ فِي
شِقِّ. وَمَا خُوذَ أَيْضًا مِنْ شِقِّ الْعَصَا، وَهُوَ: جَعَلُهَا فِرْقَتَيْنِ
«وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا يَكُنِ اللَّهُ شَدِيدَ الْعِقَابِ» أَيْ هُوَ
الطَّالِبُ الْغَالِبُ لِمَنْ خَالَفَهُ وَنَاوَاهُ، لَا يَقُوتهُ شَيْءٌ وَلَا يَقُومُ
لِعُضْبِهِ شَيْءٌ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ
«ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابُ النَّارِ» هَذَا خِطَابٌ
لِلْكَفَّارِ أَيْ ذُوْقُوا هَذَا الْعَذَابَ وَالتَّكَالَ فِي الدُّنْيَا، وَاعْلَمُوا
أَيْضًا أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابُ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ.
«يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ
الْأَدْبَارَ» (٢) وَمَنْ يُولُهُمْ يَوْمِيذٍ دُبْرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّيًا لِقَالٍ أَوْ
مُتَحَرِّيًا إِلَيْكَ فِتْنَةً فَقَدْ بَاءَ بِعَصَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَنَهُ جَهَنَّمَ
وَبَشِّرِ النَّصِيرَ ﴿٢٦﴾

[اللَّهِ عَنِ التَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ وَجَزَاؤُهُ]

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا عَلَى الْفِرَارِ مِنَ الرَّحْفِ بِالنَّارِ لِمَنْ
فَعَلَ ذَلِكَ: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
زَحَفًا» أَيْ تَقَارَبْتُمْ مِنْهُمْ وَدَنَوْتُمْ إِلَيْهِمْ «فَلَا تُولُوهُمْ
الْأَدْبَارَ» أَيْ تَقَرُّوا وَتَتَرَكُّوا أَصْحَابَكُمْ «وَمَنْ يُولُهُمْ يَوْمِيذٍ
دُبْرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّيًا لِقَالٍ» أَيْ يَبْرُ بَيْنَ يَدَيْ قَرْبِهِ - مَكِيدَةً -
لِيُرِيَهُ أَنَّهُ قَدْ خَافَ مِنْهُ فَيَعْبُدُهُ ثُمَّ يَكُرُّ عَلَيْهِ، فَيَقْتُلُهُ فَلَا بَأْسَ
عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ، نَصَّ عَلَيْهِ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَالسُّدِّيُّ (٢). وَقَالَ

(١) الطبري: ٤٣١/١٣ (٢) الطبري: ٤٣٦/١٣، ٤٣٧ (٣)

الطبري: ٤٣٦/١٣

حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي: حَدَّثَنَا حَسَّانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمَوْصِرِيُّ: حَدَّثَنَا خَلَادُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْحَضْرَمِيُّ: حَدَّثَنَا نَافِعٌ أَنَّهُ سَأَلَ ابْنَ عَمَرَ قُلْتُ: إِنَّا قَوْمٌ لَا نَثْبُتُ عِنْدَ قِتَالٍ عَدُوَّنَا، وَلَا نَذَرِي مِنَ الْفِتْنَةِ إِمَامًا أَوْ عَسْكَرًا؟ فَقَالَ: إِنَّ الْفِتْنَةَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قُلْتُ: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ الْآيَةَ، فَقَالَ: إِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي يَوْمِ بَدْرٍ لَا قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا. وَقَالَ الضَّحَّاكُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾: أَلْمُتَحَيِّزُ: الْفَارُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وَكَذَلِكَ مَنْ قَرَّ الْيَوْمَ إِلَى أَمِيرِهِ أَوْ أَصْحَابِهِ^(١). فَأَمَّا إِنْ كَانَ الْفِرَارُ لَا عَنْ سَبَبٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ فَإِنَّهُ حَرَامٌ وَكَبِيرَةٌ مِنَ الْكِبَاثِرِ، لِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ وَالسَّحَرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ»^(٢). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ بَكَءُ﴾ أَي رَجَعَ ﴿بِفَضْبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَاوَدُهُ﴾ أَي مَصِيرُهُ وَمُنْقَلَبُهُ يَوْمَ مِيعَادِهِ ﴿جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾.

﴿فَلَمْ تَقُولُوا لِمَنْ آتَاكُمْ اللَّهُ فَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ فِئْتًا لَّيَكُنَّ فِئَاتٌ مِمَّنْ بَدَلَتْ أَوَّاهِينَ مَدْمَعِينَ﴾

[قَتَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ وَرَمَاهُمْ بِالْتُّرَابِ]

يُبَيِّنُ تَعَالَى أَنَّهُ خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَأَنَّهُ الْمَحْمُودُ عَلَى جَمِيعِ مَا صَدَرَ مِنْهُمْ مِنْ خَيْرٍ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَفَّقَهُمْ لَذَلِكَ وَأَعَانَهُمْ عَلَيْهِ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَمْ تَقُولُوا لِمَنْ آتَاكُمْ اللَّهُ فَلَهُمْ﴾ أَي لَيْسَ بِحَوْلِكُمْ وَقُوَّتِكُمْ قَتَلْتُمْ أَعْدَاءَكُمْ مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِكُمْ. أَي بَلْ هُوَ الَّذِي أَطْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ الْآيَةَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَابَسَتْ مَذْرِبَاتُ الْوَأْدِ﴾ [التوبة: ٢٥] يُعْلِمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ النَّصْرَ لَيْسَ عَلَى كَثْرَةِ الْعَدَدِ وَلَا بِلَيْسِ اللَّأَمَةِ وَالْعَدَدِ، وَإِنَّمَا النَّصْرُ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّ ﷺ أَيْضًا فِي

شَأْنِ الْقُبْضَةِ مِنَ التُّرَابِ الَّتِي حَصَبَ بِهَا وَجُوهَ الْكَافِرِينَ يَوْمَ بَدْرٍ حِينَ خَرَجَ مِنَ الْعَرِشِ، بَعْدَ دُعَائِهِ وَنَصْرِهِ وَاسْتِكَانَتِهِ، فَرَمَاهُمْ بِهَا وَقَالَ: «شَاهَبَتِ الْوُجُوهَ» ثُمَّ أَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَصُدُّوا الْحُمْلَةَ إِثْرَهَا، فَفَعَلُوا فَأَوْصَلَ اللَّهُ تِلْكَ الْحَضَبَاءُ إِلَى أَعْيُنِ الْمُشْرِكِينَ فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا نَالَهُ مِنْهَا مَا شَغَلَهُ عَنْ حَالِهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾^(٣). أَي هُوَ الَّذِي بَلَغَ ذَلِكَ إِلَهُهُمْ وَكَتَبَهُمْ بِهَا لَا أَنْتَ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ بْنُ الزُّبَيْرِ عَنْ غُرُورَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ فِئْتًا لَّيَكُنَّ فِئَاتٌ مِمَّنْ بَدَلَتْ أَوَّاهِينَ مَدْمَعِينَ﴾ أَي لِيُعْرِفَ الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ إِظْهَارِهِمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ مَعَ كَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِهِمْ، لِيُعْرِفُوا بِذَلِكَ حَقَّهُ وَيَشْكُرُوا بِذَلِكَ نِعْمَتَهُ^(٤). وَهَكَذَا فَسَّرَهُ ابْنُ جَرِيرٍ أَيْضًا، وَفِي الْحَدِيثِ: «كُلُّ بَلَاءٍ حَسَنٌ أَبْلَانًا». وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَي سَمِيعُ الدُّعَاءِ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ النَّصْرَ وَالْغَلَبَ. وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنْتَ اللَّهُ مُوْهُنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ هَذِهِ بَشَارَةٌ أُخْرَى مَعَ مَا حَصَلَ مِنَ النَّصْرِ أَنَّهُ أَغْلَبَهُمْ تَعَالَى بِأَنَّهُ مُضْعِفُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ، مُضْعِفُ أَمْرِهِمْ، وَأَنْتُمْ وَكُلُّ مَا لَهُمْ فِي تَبَارٍ وَدَمَارٍ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعْدٌ وَإِنْ تَنْقُيْ عَنْكُمْ فَفَتْحَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

[إِجَابَةُ اسْتِفْتَاكِ الْمُشْرِكِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى لِلْكَافِرِ: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا﴾ أَي تَسْتَنْصِرُوا وَتَسْتَفْضُوا اللَّهَ وَتَسْتَحْكِمُوهُ أَنْ يَفْضَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِكُمُ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ جَاءَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ، كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ صُعَيْرٍ: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ: اأَلَلَهُمُ أَتَيْنَا كَانَ أَقْطَعَ لِلرَّحِمِ وَأَتَانَا بِمَا لَا يُعْرِفُ فَأَخْبَهُ الْعُدَّةَ. وَكَانَ ذَلِكَ اسْتِفْتَاخًا مِنْهُ فَزَلَّتْ: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ^(٥). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ثَعْلَبَةَ: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ حِينَ انْقَضَى الْقَوْمُ: اأَلَلَهُمُ أَقْطَعْنَا لِلرَّحِمِ وَأَتَانَا بِمَا لَا نَعْرِفُ فَأَخْبَهُ الْعُدَّةَ. فَكَانَ الْمُسْتَفْتِيحُ^(٦). وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي

(١) الطبري: ٤٣٧/١٣ (٢) فتح الباري: ٤٦٢/٥ ومسلم: ١/ ٩٢ (٣) الطبري: ٤٤٤/١٣ (٤) الطبري: ٤٤٨/١٣ (٥) الطبري: ٤٥٣/١٣ (٦) أحمد: ٤٣١/٥

التفسير. وكذا رواه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه^(١)، وروى نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة ويزيد بن رومان وغير واحد. وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأشتار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: اللهم، انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين فقال الله: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾. يقول: قد نصرت ما قلتم وهو محمد ﷺ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو قوله تعالى إخباراً عنهم ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ...﴾ [الأنفال: ٣٢]. وقوله: ﴿وَإِنْ تَنْهَوْا﴾ أي عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي في الدنيا والآخرة، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَدُّوا نَعْدُ﴾ كقولهم ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدَاكُمُ﴾ [الأنفال: ٨] معناه: وإن عُدْتُمْ إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة نعد لكم بمثل هذه الواقعة. ﴿وَلَنْ تُفْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي ولو جمعتم من المجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم الحزب النبوي والجناب المضطفوي.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولو علم الله فيهم خيراً لآسمعهم ولو آسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴿الْأَمْرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويؤجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي تتركوا طاعته وامتنال أوامره وترك زواجه ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي بعد ما علمتم ما دعاكم إليه ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ وقال ابن إسحاق: هم المنافقون، فإنهم يظهرُونَ أَنَّهُمْ قَدْ سَمِعُوا وَاسْتَجَابُوا وَلَيْسُوا كَذَلِكَ^(٢). ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ﴾ أي عن سماع الحق ﴿الْبُكْمُ﴾ عن فهمه؛ ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ لَا

يَعْقِلُونَ﴾ فهؤلاء شر البرية لأن كل ذات مما سواهم مطيع لله فيما خلقها له وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا، ولهذا شبههم بالأنعام في قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْإِذَى يَتَعَوَّى بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاةً وَنِدَاةً...﴾ [البقرة: ١٧١]، وقال في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقيل: المراد بهؤلاء المذكورين نفر من بني عبد الدار من قرشي. روى عن ابن عباس ومجاهد. واختاره ابن جرير^(٤). وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون، قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا، لأن كلا منهما مسلوب الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح، ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح ولا قصد لهم صحيح لو فرض أن لهم فهماً فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خِيراً لَآَسَمَعَهُمْ﴾ أي لآفهمهم وتقدير الكلام: ﴿وَلَوْ كُنْ لَا خَيْرَ فِيهِمْ فَلَمْ يُفهمهم، لآَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ آَسَمَعَهُمْ﴾ أي آفهمهم ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم ذلك ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عنه.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُهُ تُخْشَوْنَ﴾

[الْأَمْرُ بِاسْتِجَابَةِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ]

قال البخاري ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ أجبوا ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لما يضرحكم. ثم روى عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آتته حتى صليت ثم أتيت فقال: «ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟» ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج» فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له. وقال معاذ: أن حفص بن عاصم سمع أبا سعيد رجلاً من أصحاب النبي ﷺ... بهذا. وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] هي: السبع المثاني^(٥). وقال محمد ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا

(١) النسائي في الكبرى: ٣٥٠/٦ والحاكم: ٣٢٨/٢ (٢)

الطبري: ٥٥٣/١٣ (٣) الطبري: ٤٥٨/١٣ (٤) الطبري:

٤٦٠/١٣ (٥) فتح الباري: ١٥٨/٨

يُحْيِيكُمْ: أَيُّ لِلْحَرْبِ الَّتِي أَعَزَّكُمْ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا بَعْدَ الذَّلِّ، وَقَوَّاهُمْ بِهَا بَعْدَ الضَّعْفِ، وَمَنَعَكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ بَعْدَ الْقَهْرِ مِنْهُمْ لَكُمْ^(١).

[اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَقَلْبِهِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَحُولُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ وَبَيْنَ الْكَافِرِ وَبَيْنَ الْإِيمَانِ^(٢). رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ مُوَفَّقًا، وَقَالَ: صَحِيحٌ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(٣). وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدٌ وَعُكْرَمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَأَبُو صَالِحٍ وَعَطِيَّةٌ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَالشَّدْيِيُّ^(٤). وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أَيُّ حَتَّى يَثْرُكَهُ لَا يَعْقِلُ، وَقَالَ الشَّدْيِيُّ: يَحُولُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَقَلْبِهِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤْمِنَ وَلَا يَكْفُرَ إِلَّا بِإِذْنِهِ. وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا يُنَاسِبُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قُلُوبِي عَلَى دِينِكَ». قَالَ: فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَمَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ تَعَالَى يَقْلِبُهَا»^(٥). وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي كِتَابِ الْقَدْرِ مِنْ جَامِعِهِ، وَقَالَ: حَسَنٌ^(٦). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكَلَابِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِذَا شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ، وَإِذَا شَاءَ أَنْ يُزَيِّعَهُ أَرَاغَهُ» وَكَانَ يَقُولُ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبِي عَلَى دِينِكَ» قَالَ: «وَالْمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ يَخْفِضُهُ وَيَرْفَعُهُ»^(٧). وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ^(٨).

﴿وَأَتَّقُوا فَتْنَةَ لَا تُضَيِّبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلَمُوا

أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ^(٩)﴾

[التَّحْذِيرُ مِنْ فَتْنَةٍ عَامَةٍ]

يُحَذِّرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ فَتْنَةَ أَيُّ اخْتِبَارًا وَمِخَنَةً يَعْمُ بِهَا الْمُسِيءَ وَغَيْرَهُ لَا يَخْصُ بِهَا أَهْلَ الْمَعَاصِي، وَلَا مَنْ بَاشَرَ الذَّنْبَ بَلْ يَعْمُهَا حَيْثُ لَمْ تُدْفَعْ وَتُرْفَعْ. كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مُطَرِّبٍ قَالَ: قُلْنَا لِلزُّبَيْرِ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ! مَا جَاءَ بِكُمْ؟ ضَبِعْتُمُ الْخَلِيفَةَ الَّذِي قُتِلَ ثُمَّ جِئْتُمْ تَطْلُبُونَ بَدْمِهِ؟ فَقَالَ الزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّا قَرَأْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿وَأَتَّقُوا

فِتْنَتَهُ لَا تُضَيِّبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ لَمْ نَكُنْ نَحْسِبُ أَنَّ أَهْلَهَا حَتَّى وَقَعَتْ مِنَّا حَيْثُ وَقَعَتْ^(٩). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتَّقُوا فَتْنَتَهُ لَا تُضَيِّبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ يَعْنِي أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةً^(١٠). وَقَالَ فِي رِوَايَةٍ لَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يَقْرَأُوا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ فَيَعْمَهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ^(١١). وَهَذَا تَفْسِيرٌ حَسَنٌ جَدًّا، وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتَّقُوا فَتْنَتَهُ لَا تُضَيِّبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ هِيَ أَيْضًا لَكُمْ^(١٢).

وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فَتْنَةٍ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] فَأَيُّكُمْ اسْتَعَاذَ فَلَيْسَتْ عِزَّةٌ بِاللَّهِ مِنْ مُضْلَلَاتِ الْفِتَنِ^(١٣). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَالْقَوْلُ بِأَنَّ هَذَا التَّحْذِيرَ يَعُمُّ الصَّحَابَةَ وَغَيْرَهُمْ وَإِنْ كَانَ الْخُطَابُ مَعَهُمْ - هُوَ الصَّحِيحُ، وَيُذَلُّ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي التَّحْذِيرِ مِنَ الْفِتَنِ، وَلِلذَلِكَ كِتَابٌ مُسْتَقِلٌّ يَوْضَحُ فِيهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، كَمَا فَعَلَهُ الْأَيْمَةُ وَأَقَرُّوهُ بِالْتَّصْنِيفِ. وَمِنْ أَحْصَى مَا يُذَكِّرُ هَهُنَا مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يُسْتَجِيبُ لَكُمْ»^(١٤). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الرَّقَادِ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ مَوْلَايَ فَلَدِفْتُ إِلَى حُدَيْفَةَ وَهُوَ يَقُولُ: «إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَصِيرُ مُنَافِقًا، وَإِنِّي لَأَسْمَعُهَا مِنْ أَحَدِكُمْ فِي الْمَقْعَدِ الْوَاحِدِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَحَاضُنَّ عَلَى الْخَيْرِ أَوْ لَيُسْحِتَنَّكُمْ» اللَّهُ جَمِيعًا بِعَذَابٍ، أَوْ لَيُؤْمَرَنَّ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ، ثُمَّ يَدْعُو خِيَارَكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ^(١٥).

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ

(١) ابن هشام: ٣٢٤/٢ (٢) الطبري: ٤٦٨/١٣ (٣) الحاكم:

٣٢٨/٢ (٤) الطبري: ٤٧٠/١٣، ٤٧١ (٥) أحمد: ١١٢/٣

(٦) تحفة الأحوذى: ٣٥٠، ٣٤٩/٦ (٧) أحمد: ١٨٢/٤ (٨)

النسائي في الكبرى: ٤١٤/٤ وابن ماجه: ٧٢/١ (٩) أحمد:

١٦٥/١ (١٠) الطبري: ٤٧٤/١٣ (١١) الطبري: ٤٧٤/١٣

(١٢) الطبري: ٤٧٥/١٣ (١٣) الطبري: ٤٧٥/١٣ (١٤)

أحمد: ٣٨٨/٥ (١٥) أحمد: ٣٩٠/٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٨٠

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ
 أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَوَاتِبَكُمْ وَيَمْنُوكُمْ بِصُورِكُمْ
 مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 لَا تَخَوْثُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخَوْثُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ
 ﴿٦٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ وَأَنْ اللَّهَ
 عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَنْفَقُوا
 اللَّهُ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ
 لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٦٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ
 اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٧٠﴾ وَإِذْ أَنْتَ عَلَىٰ آلِهِمْ ءِثْنًا
 قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا
 أَسْطِيرٌ الْأُولِينَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنَّا هَٰذَا
 هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ
 أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧٢﴾ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
 وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٧٣﴾

بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ حَطَبَ، فَقَالَ: وَأَوْمًا بِأَصْبَعِهِ إِلَى
 أُذُنَيْهِ [سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مِثْلُ الْقَائِمِ عَلَى
 حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا وَالْمُدَاهِنِ فِيهَا: كَمِثْلِ قَوْمٍ رَكِبُوا
 سَفِينَةً فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلُهَا وَأَوْعَرُهَا وَشَرُّهَا وَأَصَابَ
 بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا الْمَاءَ
 مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَادَّوَّهُمْ فَقَالُوا: لَوْ خَرَقْنَا فِي نَصِينَا
 خَرَقًا فَاسْتَقَيْنَا مِنْهُ وَلَمْ نُوذْ مِنْ فَوْقَنَا: فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَأَمَرَهُمْ
 هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا جَمِيعًا»^(١).
 انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ دُونَ مُسْلِمٍ قَرَوَاهُ فِي الشَّرِكَةِ
 وَالشَّهَادَاتِ^(٢). وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الْفِتَنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ^(٣).

(حَدِيثٌ آخَرُ) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ
 النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا
 ظَهَرَتِ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ»
 فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَمَا فِيهِمْ أَنْاسٌ صَالِحُونَ؟ قَالَ:
 «بَلَى» قَالَتْ: فَكَيْفَ يَصْنَعُ أُولَئِكَ؟ قَالَ: «يُصِيبُهُمْ مَا
 أَصَابَ النَّاسَ ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ»^(٤).
 (حَدِيثٌ آخَرُ) وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ جَرِيرٍ: أَنَّ
 رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ قَوْمٍ يَعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي
 هُمْ أَعَزُّ وَأَكْثَرُ مِمَّنْ يَعْمَلُونَ ثُمَّ لَمْ يُعِيرُوهُ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ
 بِعِقَابٍ^(٥)». وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ^(٦).

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ
 يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَوَاتِبَكُمْ وَيَمْنُوكُمْ بِصُورِكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
 لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٦٦﴾

[تَذَكُّيرُ الْمُسْلِمِينَ بِمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الذَّلِّ وَالضَّعْفِ وَمَا
 آلُوا إِلَيْهِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالنَّصْرِ]

يُنَبِّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى نِعْمِهِ عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانِهِ
 إِلَيْهِمْ، حَيْثُ كَانُوا قَلِيلِينَ فَكَثَّرَهُمْ وَمُسْتَضْعَفِينَ خَائِفِينَ
 فَقَوَّاهُمْ وَنَصَرَهُمْ، وَفُقَرَاءَ عَالَةً فَرَزَقَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
 وَاسْتَشْكَرَهُمْ، فَاطَاعُوهُ وَامْتَثَلُوا جَمِيعَ مَا أَمَرَهُمْ. وَهَٰذَا
 كَانَ حَالُ الْمُؤْمِنِينَ حَالَ مَقَامِهِمْ بِمَكَّةَ قَلِيلِينَ مُسْتَحْتَجِينَ
 مُضْطَهَدِينَ يَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَهُمُ النَّاسُ مِنْ سَائِرِ بِلَادِ اللَّهِ
 مِنْ مُشْرِكٍ وَمَجُوسِيٍّ وَرُومِيٍّ، كُلُّهُمْ أَعْدَاءُ لَهُمْ لِقَلَّتِيهِمْ
 وَعَدَمَ قُوَّتِهِمْ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَابُّهُمْ حَتَّىٰ أَوَدَّنَ اللَّهُ لَهُمْ فِي
 الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَأَوَاهُمْ إِلَيْهَا وَاقْتَضَىٰ لَهُمْ أَهْلُهَا آوَا
 وَنَصَرُوا يَوْمَ بَدْرٍ وَغَيْرِهِ، وَوَأَسَوْا بِأَمْوَالِهِمْ وَبَذَلُوا مَهْجَهُمْ
 فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ. قَالَ قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ

السُّدُوسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ
 قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، قَالَ: كَانَ هَٰذَا الْحَيُّ مِنَ الْعَرَبِ
 أَذَلَّ النَّاسِ ذَلًّا، وَأَشْقَاهُ عَيْشًا، وَأَجْوَعَهُ بَطُونًا، وَأَعْرَاهُ
 جُلُودًا، وَأَبْيَنَهُ ضَلَالًا، مَنْ عَاشَ مِنْهُمْ عَاشَ شَقِيًّا، وَمَنْ
 مَاتَ مِنْهُمْ رَدَىٰ فِي النَّارِ، يُؤْكَلُونَ وَلَا يَأْكُلُونَ، وَاللَّهُ! مَا
 نَعَلَمُ قَبِيلًا مِنْ حَاضِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ كَانُوا أَشَرَّ مِنْزِلًا
 مِنْهُمْ حَتَّىٰ جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَمَكَّنَ بِهِ فِي الْبِلَادِ، وَوَسَّعَ بِهِ
 فِي الرِّزْقِ وَجَعَلَهُمْ بِهِ مُلُوكًا عَلَى رِقَابِ النَّاسِ، وَبِالْإِسْلَامِ
 أَعْطَى اللَّهُ مَا رَأَيْتُمْ فَاشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى نِعْمِهِ فَإِنَّ رَبَّكُمْ مُنْعِمٌ
 يُحِبُّ الشُّكْرَ، وَأَهْلُ الشُّكْرِ فِي مَرِيدٍ مِنَ اللَّهِ^(٧).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخَوْثُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخَوْثُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ
 تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ

(١) أحمد: ٢٦٩/٤ (٢) فتح الباري: ٥/١٥٧، ٣٤٥ (٣)
 تحفة الأحوذني: ٦/٣٩٤ (٤) أحمد: ٦/٣٠٤ (٥) أحمد: ٤/٣٦٤
 (٦) أحمد: ٤/٣٦٦ وابن ماجه: ٢/١٣٢٩ (٧)
 الطبري: ١٣/٤٧٨

عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

[سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْخِيَانَةِ]

فِي الصَّحِيحَيْنِ قِصَّةُ حَاطِبِ بْنِ أَبِي لَيْثَةَ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى قُرَيْشٍ لِيُعْلِمَهُمْ بِقَصْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِيَّاهُمْ عَامَ الْفَتْحِ، فَأُطْلِعَ اللَّهُ رَسُولَهُ عَلَى ذَلِكَ، فَبَعَثَ فِي إِثْرِ الْكِتَابِ فَاسْتَرْجَعَهُ وَاسْتَحْضَرَ حَاطِبًا فَأَقْرَأَ بِمَا صَنَعَ، فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ، فَإِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ: «دَعُهُ فَإِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَذْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَذْرِ فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ». قُلْتُ: وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ، وَإِنْ صَحَّ أَنَّهَا وَرَدَتْ عَلَى سَبَبٍ خَاصٍّ. فَلَا أَخُذُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ عِنْدَ الْجَمَاهِيرِ مِنَ الْعُلَمَاءِ. وَالْخِيَانَةُ تَعُمُّ الذُّنُوبَ الصَّغَارَ وَالْكِبَارَ اللَّازِمَةَ وَالْمُتَعَدِّيَةَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ «وَتَحَوَّنَا أَمْنَتَكُمْ» الْأَمَانَةُ: الْأَعْمَالُ الَّتِي اتَّخَذَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْعِبَادَ، يَغْنِي الْفَرِيضَةَ. يَقُولُ: «لَا تَحَوَّنَا» لَا تَنْقُضُوهَا^(١).

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ: نَهَاكُم أَنْ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ كَمَا صَنَعَ الْمُنَافِقُونَ^(٢). وَقَوْلُهُ: «وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ»، أَيْ اخْتِبَارٌ وَامْتِحَانٌ مِنْهُ لَكُمْ إِذْ أَعْطَاكُمْوهَا لِيَعْلَمَ أَتَشْكُرُونَهُ عَلَيْهَا وَتُطِيعُونَهُ فِيهَا أَوْ تَشْتَمِلُونَ بِهَا عَنْهُ وَتَعْتَاضُونَ بِهَا مِنْهُ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ» [التغابن: ١٥] وَقَالَ: «وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فَتَنَةٌ» [الأنبياء: ٣٥]. وَقَالَ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» [المنافقون: ٩]. وَقَالَ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ» الْآيَةُ [التغابن: ١٤]. وَقَوْلُهُ: «وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ» أَيْ نَوَابُهُ وَعَطَاؤُهُ وَجَنَانُهُ خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، فَإِنَّهُ قَدْ يُوْجَدُ مِنْهُمْ عَدُوٌّ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ الْمَالِكُ لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَدَيْهِ الثَّوَابُ الْجَزِيلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ بِهِنَّ حِلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَمَنْ

كَانَ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ»^(٣)، بَلْ حُبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُقَدَّمٌ عَلَى الْأَوْلَادِ وَالْأَمْوَالِ وَالنَّفْسِ^(٤). كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(٥).

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» ﴿٢٩﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالسُّدِّيُّ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَفَتَادَةُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَبَّانٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: «فُرْقَانًا» مَخْرَجًا. زَادَ مُجَاهِدٌ: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^(٦). وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ «فُرْقَانًا» نَجَاةً، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ نَصْرًا، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: «فُرْقَانًا» أَيْ فَضْلًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ مِنْ ابْنِ إِسْحَاقَ أَعَمُّ مِمَّا تَقَدَّمَ وَهُوَ يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ كُلَّهُ، فَإِنَّ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ يَفْعَلُ أَوْامِرَهُ وَتَرْكُ رَوَاجِرِهِ وَفَقَّ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ نَصْرِهِ وَنَجَاتِهِ وَمَخْرَجِهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَسَعَادَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَكْفِيرِ ذُنُوبِهِ وَهُوَ مَحْوُهَا، وَغَفْرُهَا: سَتَرُهَا عَنِ النَّاسِ - سَبَبًا لِيَبْلُ

ثَوَابَ اللَّهِ الْجَزِيلِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِيَكُمْ كَفْلًا مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ» وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» [الحديد: ٢٨]. «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ» ﴿٣٠﴾ [ذكر ما دبره أهل مكة من قتل النبي ﷺ أو حبسه أو إجلاله]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَفَتَادَةُ: «لِيُثْبِتُوكَ» لِيُقَيِّدُوكَ^(٧). وَقَالَ السُّدِّيُّ: الْإِثْبَاتُ هُوَ الْحَبْسُ وَالْوَثَاقُ^(٨). رَوَى الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ صَاحِبُ الْمَغَازِي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: وَحَدَّثَنِي الْكَلْبِيُّ عَنْ بَادَانَ مَوْلَى أُمِّ هَانِيَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ أَشْرَافٍ كُلِّ قَبِيلَةٍ اجْتَمَعُوا لِيَدْخُلُوا دَارَ النَّدْوَةِ فَاعْتَرَضَهُمْ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ شَيْخٍ جَلِيلٍ فَلَمَّا رَأَوْهُ

(١) الطبري: ٤٨٥/١٣ (٢) الطبري: ٤٨٣/١٣ (٣) مسلم:

٦٦/١ (٤) مسلم: ٦٧/١ (٥) فتح الباري: ٧٥/١ (٦)

الطبري: ٤٨٩/١٣، ٤٩٠ (٧) الطبري: ٤٩١/١٣ (٨)

الطبري: ٤٩٢/١٣

الْيَوْمَ يُسَمَّى يَوْمَ الرَّحْمَةِ لِلَّذِي اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ مِنَ الرَّأْيِ^(١).
وَعَنِ السُّدِّيِّ نَحْوُ هَذَا السِّيَاقِ. وَقَالَ مُحَمَّدٌ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ
مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ فِي قَوْلِهِ:
﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾: أَيُّ فَمَكَرْتُ بِهِمْ
يَكِيدِي الْمَتِينِ حَتَّى خَلَصْتُكَ مِنْهُمْ^(٢).

﴿وَإِذَا ثَلَاثَةٌ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ
هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٣) وَإِذَا قَالُوا اللَّهُ هَذَا
كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ
السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٤) وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(٥)

[رَزَعُمُ فُرَيْشٍ فِي إِيْتَانِهِمْ بِمِثْلِ الْقُرْآنِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِ فُرَيْشٍ وَعُتُوهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ وَعِنَادِهِمْ
وَدَعْوَاهُمْ الْبَاطِلِ عِنْدَ سَمَاعِ آيَاتِهِ إِذَا ثَلَاثَةٌ عَلَيْهِمْ أَنْهُمْ
يَقُولُونَ: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ وَهَذَا مِنْهُمْ
قَوْلٌ بِلَا فِعْلٍ، وَإِلَّا فَقَدْ تَحَدَّوْا غَيْرَ مَا مَرَّةً أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ
مِنْ مِثْلِهِ، فَلَا يَجِدُونَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، وَإِنَّمَا هَذَا الْقَوْلُ
مِنْهُمْ يُعْرَوْنَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَمَنْ تَبِعَهُمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَقَدْ قِيلَ:
إِنَّ الْقَائِلَ لِذَلِكَ هُوَ النَّصْرُ بْنُ الْحَارِثِ لَعَنَهُ اللَّهُ، كَمَا قَدْ
نَصَّ عَلَى ذَلِكَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ جُرَيْجٍ
وغيرهم، فَإِنَّ لَعَنَهُ اللَّهُ كَانَ قَدْ ذَهَبَ إِلَى بِلَادِ فَارِسَ وَتَعَلَّمَ
مِنْ أَخْبَارِ مُلُوكِهِمْ رُسُومَ وَأَسْطُورَاتِهَا، وَلَمَّا قَدِمَ وَجَدَ رَسُولَ
اللَّهِ ﷺ قَدْ بَعَثَهُ اللَّهُ وَهُوَ يَتْلُو عَلَى النَّاسِ الْقُرْآنَ، فَكَانَ
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذَا قَامَ مِنْ مَجْلِسٍ جَلَسَ فِيهِ النَّصْرُ
فَحَدَّثَهُمْ مِنْ أَخْبَارِ أَوْلِيكَ ثُمَّ يَقُولُ: يَا لَللَّهِ! أَيُّنَا أَحْسَنُ
قِصَصًا أَنَا أَوْ مُحَمَّدٌ؟ وَلِهَذَا لَمَّا أَمَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ يَوْمَ
بَدْرٍ وَوَقَعَ فِي الْأَسَارَى أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُضْرَبَ رَقَبَتُهُ
ضَرْبًا بَيْنَ يَدَيْهِ فَفَعَلَ ذَلِكَ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ. وَمَعْنَى ﴿أَسْطِيرُ
الْأَوَّلِينَ﴾ وَهُوَ جَمْعُ أُسْطُورَةٍ أَيُّ كِتَابَتِهَا افْتِسَبَهَا فَهِيَ يَتَعَلَّمُ
مِنْهَا وَيَتْلُوها عَلَى النَّاسِ، وَهَذَا هُوَ الْكَذِبُ الْبُحْثُ كَمَا
أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ
اِكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾^(٦) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي
يَعْلَمُ الْغُيُوبَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا
[الفرقان: ٥، ٦] أَيُّ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَتَابَ، فَإِنَّهُ يَقْبَلُ مِنْهُ
وَيَصْفَحُ عَنْهُ.

قَالُوا لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، سَمِعْتُ أَنَّكُمْ
اجْتَمَعْتُمْ فَأَرَدْتُ أَنْ أَحْضَرَكُمْ وَلَنْ يَعْذَمَكُم رَأْيِي وَنُصْجِي.
قَالُوا: أَجَلٌ، أَذْخُلُ، فَدَخَلَ مَعَهُمْ، فَقَالَ: انْظُرُوا فِي شَأْنِ
هَذَا الرَّجُلِ، وَاللَّهُ لَيُوشِكُنَّ أَنْ يُؤَايِيَكُمْ فِي أَمْرِكُمْ بِأَمْرِهِ.
فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: إِحْسِبْهُ فِي وَثَاقٍ ثُمَّ تَرَبَّصُوا بِهِ رَبِّبِ
الْمُنُونِ حَتَّى يَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ زُهَيْرٌ
وَالنَّبَاعَةُ، إِنَّمَا هُوَ كَأَحَدِهِمْ. قَالَ: فَصَرَخَ عَدُوُّ اللَّهِ الشَّيْخُ
النَّجْدِيُّ فَقَالَ: وَاللَّهِ! مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيِي، وَاللَّهُ! لِيُخْرِجَنَّهُ رَبُّهُ
مِنْ مَحْسَبِهِ إِلَى أَصْحَابِهِ فَيُوشِكُنَّ أَنْ يُبَيِّنُوا عَلَيْهِ حَتَّى يَأْخُذُوهُ
مِنْ أَيْدِيكُمْ فَيَمْنَعُوهُ مِنْكُمْ، فَمَا أَمَرْتُ عَلَيْكُمْ أَنْ يُخْرِجُوكُمُ مِنْ
بِلَادِكُمْ. قَالُوا: صَدَقَ الشَّيْخُ فَاَنْظُرُوا فِي غَيْرِ هَذَا. قَالَ
قَائِلٌ مِنْهُمْ: أَخْرِجُوهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ فَتَسْتَرِيحُوا مِنْهُ، فَإِنَّهُ
إِذَا خَرَجَ لَنْ يَضُرَّكُمْ مَا صَنَعَ وَأَيَّنَ وَقَعَ إِذَا غَابَ عَنْكُمْ أَذَاهُ
وَاسْتَرَحْتُمْ، وَكَانَ أَمْرُهُ فِي غَيْرِكُمْ. فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ:
وَاللَّهِ! مَا هَذَا لَكُمْ بِرَأْيِي، أَلَمْ تَرَوْا حَلَاوَةَ قَوْلِهِ وَطِلَافَةَ
لِسَانِهِ. وَأَخَذَ الْقُلُوبَ مَا تَسْمَعُ مِنْ حَدِيثِهِ؟ وَاللَّهُ! لَيَنْ فَعَلْتُمْ
ثُمَّ اسْتَعْرَضَ الْعَرَبَ لِيَجْتَمِعُوا عَلَيْهِ ثُمَّ لَيَأْتِيَنَّ إِلَيْكُمْ حَتَّى
يُخْرِجَكُمْ مِنْ بِلَادِكُمْ وَيَقْتُلَ أَشْرَافَكُمْ. قَالُوا: صَدَقَ وَاللَّهُ!
فَاَنْظُرُوا رَأْيَا غَيْرَ هَذَا. قَالَ: فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللَّهُ: وَاللَّهِ!
لَأُسَبِّرَنَّ عَلَيْكُمْ بِرَأْيِي مَا أَرَاكُمْ أَبْصَرْتُمُوهُ بَعْدَ، لَا أَرَى
غَيْرَهُ. قَالُوا: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَأْخُذُونَ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ غُلَامًا
شَابًا وَسَيْطًا نَهْدًا، ثُمَّ يُعْطَى كُلُّ غُلَامٍ مِنْهُمْ سَيْفًا صَارِمًا،
ثُمَّ يَضْرِبُونَهُ ضَرْبَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَإِذَا قَتَلُوهُ تَفَرَّقَ دَمُهُ فِي
الْقَبَائِلِ كُلِّهَا، فَمَا أَظُنُّ هَذَا الْحَيِّ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ يَقُودُونَ عَلَى
حَرْبِ فُرَيْشٍ كُلِّهَا. فَإِنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا ذَلِكَ، قَالُوا الْعَقْلُ
وَاسْتَرَحْنَا وَقَطَعْنَا عَنَّا أَذَاهُ. قَالَ: فَقَالَ الشَّيْخُ النَّجْدِيُّ: هَذَا
وَاللَّهُ! الرَّأْيُ، الْقَوْلُ مَا قَالَ الْفَتَى، لَا أَرَى غَيْرَهُ. قَالَ:
فَتَفَرَّقُوا عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ مُجْمِعُونَ لَهُ. فَأَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ
فَأَمَرَهُ أَنْ لَا يَبِيتَ فِي مَضْجَعِهِ الَّذِي كَانَ يَبِيتُ فِيهِ وَأَخْبَرَهُ
بِمَكْرِ الْقَوْمِ، فَلَمْ يَبِيتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ
وَأَذِنَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ بِالْخُرُوجِ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَعْدَ قُدُومِهِ
الْمَدِينَةَ الْأَنْفَالَ يَذْكُرُ نِعْمَهُ عَلَيْهِ وَبَلَاءَهُ عِنْدَهُ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ
وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ وَأَنْزَلَ فِي قَوْلِهِمْ: تَرَبَّصُوا بِهِ رَبِّبِ
الْمُنُونِ حَتَّى يَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ، ﴿أَمْ
يَقُولُونَ سَاعَةً نَنْبُضُ بِهِ رَبِّبِ الْمُنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] فَكَانَ ذَلِكَ

(١) ابن هشام: ٤٨٠-٤٨٢ (٢) ابن هشام: ٣٢٥/٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٨١

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُمْ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٢٨﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٠﴾ وَقُلُوبُهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا اللَّهُ فَإِنَّ آتَهُمْ أَفْئَاتٍ اللَّهُ يَمَاعِلُ الْمُؤْمِنِينَ رَاضٍ عَنْهُمْ وَلَا يَذَلُّهُمْ فَإِنَّهُمْ يَخْلَوْنَ بِهِمْ وَلَا يَحْزَنُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٢﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٣﴾ وَقُلُوبُهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا اللَّهُ فَإِنَّ آتَهُمْ أَفْئَاتٍ اللَّهُ يَمَاعِلُ الْمُؤْمِنِينَ رَاضٍ عَنْهُمْ وَلَا يَذَلُّهُمْ فَإِنَّهُمْ يَخْلَوْنَ بِهِمْ وَلَا يَحْزَنُونَ ﴿٣٤﴾

الْقِيَامَةِ^(٣). وَيَشْهَدُ لِهَذَا مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتْكَ يَا رَبِّ! لَا أَبْرُحُ أَغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. فَقَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي! لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»^(٤). ثُمَّ قَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يَخْرُجْهُ^(٥).

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُمْ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٧﴾

[عَذَابُ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ إِزْكَابِهِمُ الْفُطَانِ]

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ أَهْلٌ لَأَنْ يُعَذِّبَهُمْ، وَلَكِنْ لَمْ يُوقِعْ ذَلِكَ بِهِمْ لِيَرْكَهَ مَقَامَ الرَّسُولِ ﷺ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ، وَلِهَذَا

[اِسْتِفْتَاخُ الْمُشْرِكِينَ وَطَلَبُهُمُ الْعَذَابِ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ انْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هَذَا مِنْ كَثْرَةِ جَهْلِهِمْ وَشِدَّةِ تَكْذِيبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَغُتُوهِمْ، وَهَذَا مِمَّا عَيَّبُوا بِهِ وَكَانَ الْأَوَّلَىٰ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا مِنْ عِنْدِكَ فَاهْدِنَا لَهُ وَوَفِّقْنَا لِاتِّبَاعِهِ، وَلَكِنْ اسْتَفْتَحُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَاسْتَعَجَلُوا الْعَذَابَ، وَتَقْدِيمَ الْعُقُوبَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَتَجْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَاءِ هَٰذَا الْعَذَابِ وَلِأَنَّيْنَهُمْ بَعْتَهُ وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣] ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قُضَاءً قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] وَقَوْلُهُ: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمُ دَافِعٌ﴾ ﴿٢٦﴾ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ [المعارج: ١-٣] وَكَذَلِكَ قَالَ الْجَهْلَةُ مِنَ الْأُمَّمِ السَّالِفَةِ كَمَا قَالَ قَوْمُ شُعَيْبٍ لَهُ: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِمَا مَنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧] وَقَالَ هَؤُلَاءِ: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ انْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قَالَ شُعْبَةُ عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ صَاحِبِ الزُّيَادِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: هُوَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ قَالَ: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ انْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فَتَرَلْتُ: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(١).

[وُجُودُ النَّبِيِّ ﷺ وَاسْتِغْفَارُ الْمُشْرِكِينَ كَانَا أَمَانَيْنِ مِنْ

الْعَذَابِ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ وَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ، لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، فَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: قَدْ، قَدْ، وَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَفْلِكُهُ وَمَا مَلَك. وَيَقُولُونَ: غُفْرَانِكَ غُفْرَانِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ الْآيَةَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ فِيهِمْ أَمَانَانِ: النَّبِيُّ ﷺ وَالْإِسْتِغْفَارُ، فَذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَبَقِيَ الْإِسْتِغْفَارُ^(٢). وَرَوَى الثَّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ أَمَانَيْنِ لِأُمَّتِي ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فَإِذَا مَضَتْ تَرَكْتُ فِيهِمُ الْإِسْتِغْفَارَ إِلَى يَوْمِ

(١) فتح الباري: ١٦٠/٨ (٢) الطبري: ٥١١/١٣ (٣) تحفة الأحادي: ٤٧٢/٨ (٤) أحمد: ٢٩/٣ (٥) الحاكم: ٢٦١/٤

لَمَّا خَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ أَوْقَعَ اللَّهُ بِهِمْ بَأْسَهُ يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَتَلَ صَنَادِيدَهُمْ وَأَسِيرَ سَرَاتِهِمْ وَأَرْشَدَهُمْ تَعَالَى إِلَى الْإِسْتِغْفَارِ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي هُمْ مُتَلَبِّسُونَ بِهَا مِنَ الشُّرْكِ وَالْفَسَادِ. فَلَوْلَا مَا كَانَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَغْفِرِينَ لَوَقَعَ بِهِمُ الْبَأْسُ الَّذِي لَا يَرُدُّ، وَلَكِنْ دَفَعَ عَنْهُمْ بِسَبِّ أُولَئِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي يَوْمِ الْحُدَيْبِيَّةِ: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَذَا مَكْرُهُمْ أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَرِسَالَةٌ مُؤْمِنَةٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَقَاطَعَهُمْ فُصُيْبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَفَقُّونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ وَكَيْفَ لَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ - أَيْ الَّذِي بِمَكَّةَ - يَصُدُّونَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهُ عَنِ الصَّلَاةِ فِيهِ وَالطَّوَافِ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَفَقُّونَ﴾ أَيْ هُمْ لَيْسُوا أَهْلَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَإِنَّمَا أَهْلُهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٢٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧، ١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ- وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، الْآيَةُ [البقرة: ٢١٧]. وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ رِفَاعَةَ قَالَ: جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُرَيْشًا فَقَالَ: «هَلْ فِيكُمْ مِنْ غَيْرِكُمْ؟» فَقَالُوا: «فِينَا ابْنُ أُخْتِنَا وَفِينَا حَلِيفُنَا وَفِينَا مَوْلَانَا، فَقَالَ: «حَلِيفُنَا مِثَّا وَابْنُ أُخْتِنَا مِثَّا، وَمَوْلَانَا مِثَّا إِنْ أَوْلِيَايَ مِنْكُمْ الْمُتَفَقُّونَ». ثُمَّ قَالَ: هَذَا صَحِيحٌ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(١). وَقَالَ عُرْوَةُ وَالسُّدِّيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَفَقُّونَ﴾ قَالَ: هُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ وَأَصْحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُمْ الْمُجَاهِدُونَ مَنْ كَانُوا وَحَيْثُ كَانُوا، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى مَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَا كَانُوا يُعَاوِلُونَهُ بِهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا

مُكَاءً وَتَصَدِيقَةً﴾، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو رَجَاءٍ الْعَطَارِدِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْطُبِيُّ، وَخُجْرُ بْنُ عَبْسٍ وَبُيُوطُ بْنُ شُرَيْطٍ، وَقَتَادَةُ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ: هُوَ الصَّفِيرُ^(٢). وَزَادَ مُجَاهِدٌ: وَكَانُوا يُدْخِلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ^(٣). وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيقَةً﴾، قَالَ: كَانَتْ قُرَيْشٌ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرَاةً تُصَفِّرُ وَتُصَفِّقُ وَالْمُكَاءُ: الصَّفِيرُ. وَالتَّصَدِيقُ: التَّصْفِيقُ. وَكَذَا رَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ وَالْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَكَذَا رَوَى عَنْ ابْنِ عُمَرَ وَمُجَاهِدٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَأَبِي سَلَمَةَ ابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَعَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ وَخُجْرُ بْنُ عَبْسٍ وَابْنُ أَبِي نَضْرَةَ نَحْوُ هَذَا. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيقَةً﴾ قَالَ: الْمُكَاءُ: الصَّفِيرُ. وَالتَّصَدِيقُ: التَّصْفِيقُ. وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ ﴿وَتَصَدِيقَةً﴾ قَالَ: صَدَّهُمُ النَّاسُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٤). قَوْلُهُ: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، قَالَ الضَّحَّاكُ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: هُوَ مَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ^(٥).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ (٢٨) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٢٩)

[إِنْفَاقُ الْكُفَّارِ أَمْوَالَهُمْ لِلصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَعُودُ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ]

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي الرَّهْرِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنُ حَبَّانٍ وَعَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، وَالْحَصِينُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ سَعِيدِ بْنِ مُعَاذٍ قَالُوا: لَمَّا أُصِيبَتْ قُرَيْشٌ يَوْمَ بَدْرٍ وَرَجَعَ فَلَهُمْ إِلَى مَكَّةَ وَرَجَعَ أَبُو سُفْيَانَ بِعِيَرِهِ، مَشَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رِبْعَةَ وَعِكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ فِي رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ، أُصِيبَ آبَاؤُهُمْ

(١) لحاكم: ٣٢٨/٢ (٢) الطبري: ٥٢٦، ٥٢٢/١٣ (٣) الطبري: ٥٢٥/١٣ (٤) الطبري: ٥٢٧/١٣ (٥) الطبري: ٥٢٨/١٣

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِ﴾ (٣٨) ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونُ الَّذِينَ كَلَّمَهُ اللَّهُ قَائِمًا أَمْتَهُمَا قَائِمًا اللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ بِصِيرٍ﴾ (٣٩) ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ يَغْمُ الْمَوْتَى وَيَغْمُ النَّصِيرُ﴾ (٤٠)

[تَرْغِيبُ الْكَفَّارِ فِي التَّوْبَةِ وَتَرْهِيْبُهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ]
يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا﴾ أي عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَشَاقَّةِ وَالْعِنَادِ، وَيَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ وَالْإِنَابَةِ ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي مِنْ كُفْرِهِمْ، وَدُؤْبِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ. كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي وَائِلٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخِذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أَخِذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ» (١). وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْإِسْلَامُ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ وَالتَّوْبَةُ تَجِبُ مَا كَانَ قَبْلَهَا» (٢). وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ يَعُودُوا﴾ أي يَسْتَمِرُّوا عَلَى مَا هُمْ فِيهِ ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِ﴾ أي فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُنَا فِي الْأَوَّلِينَ: أَنَّهُمْ إِذَا كَذَّبُوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَى عِنَادِهِمْ أَنَّا نُعَاجِلُهُمْ بِالْعَذَابِ وَالْعُقُوبَةِ.

[الْأَمْرُ بِالْقِتَالِ لِإِنْهَاءِ الْكُفْرِ وَالشَّرِّ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونُ الَّذِينَ كَلَّمَهُ اللَّهُ قَائِمًا أَمْتَهُمَا قَائِمًا﴾ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ! أَلَا تَضَعُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ الْآيَةَ [الحجرات: ٩] فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ لَا تُقَاتِلَ كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي! أَعَيَّرَ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَلَا أَقَاتِلُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعَيَّرَ بِالْآيَةِ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [النساء: ٩٣]. قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ قَالَ ابْنُ عُمَرَ: قَدْ فَعَلْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ كَانَ الْإِسْلَامُ قَلِيلًا وَكَانَ الرَّجُلُ يُفْتَنُ فِي دِينِهِ، إِمَّا أَنْ يَقْتُلُوهُ، وَإِمَّا أَنْ يُوثِقُوهُ حَتَّى كَثُرَ الْإِسْلَامُ فَلَمْ تَكُنْ فِتْنَةً، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَا يُوَافِقُهُ فِيمَا يُرِيدُ قَالَ: فَمَا قَوْلُكُمْ فِي عَلَيٍّ

وَأَبْنَائِهِمْ وَإِخْوَانَهُمْ يَبْدُرُ، فَكَلَّمُوا أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ فِي تِلْكَ الْعِيرِ - مِنْ قُرَيْشٍ - تِجَارَةٌ، فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ وَتَرَكُمْ وَقَتَلَ خِيَارَكُمْ، فَأَعِينُونَا بِهَذَا الْمَالِ عَلَى حَرْبِهِ لَعَلَّنَا أَنْ نُنْذِرَكَ مِنْهُ ثَارًا يَمُنْ أَصِيبَ مِنَّا فَفَعَلُوا، قَالَ: فَفِيهِمْ كَمَا ذَكَرَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُضِلُّونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١). وَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَكَمِ بْنِ عُيَيْنَةَ وَفَتَادَةَ وَالسُّدِّيَّ، وَابْنُ أَبِي نَجْرٍ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي سُفْيَانَ وَتَفَقَّهَ الْأَمْوَالُ فِي أَحَدٍ لِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (٢). وَقَالَ الضَّحَّاكُ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ بَدْرٍ (٣). وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَهِيَ عَامَّةٌ، وَإِنْ كَانَ سَبَبُ نَزُولِهَا خَاصًّا، فَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْكَفَّارَ يُضِلُّونَ أَمْوَالَهُمْ لِيُضِلُّوا عَنْ اتِّبَاعِ طَرِيقِ الْحَقِّ فَسَيَفْعَلُونَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَذَهَبُ أَمْوَالُهُمْ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً - أَيْ نَدَامَةً - حَيْثُ لَمْ تَجِدْ شَيْئًا لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ وَظُهُورَ كَلِمَتِهِمْ عَلَى كَلِمَةِ الْحَقِّ، وَاللَّهُ مِنْهُمُ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وَنَاصِرُ دِينِهِ، وَمُعَلِّنُ كَلِمَتِهِ وَمُظْهِرُ دِينِهِ عَلَى كُلِّ دِينٍ. فَهَذَا الْخِزْيُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ، فَمَنْ عَاشَ مِنْهُمْ رَأَى بَعِيْثَهُ وَسَمِعَ بِأَذْنِهِ مَا يَسُوهُ، وَمَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ أَوْ مَاتَ فَإِلَى الْخِزْيِ الْأَبَدِيِّ وَالْعَذَابِ السَّامِيِّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سَيُضِلُّونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾: فَيَمِيزُ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ (٤). وَلِيَمِيزَ مَنْ يُطِيعُهُ بِقِتَالِ أَعْدَائِهِ الْكَافِرِينَ، أَوْ يَعْصِيهِ بِالْثُكُولِ عَنْ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذِلَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ - الْآيَةَ [آل عمران: ١٧٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَمَلِكِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] فَمَعْنَى الْآيَةِ عَلَى هَذَا: إِنَّمَا ابْتَلَيْنَاكُمْ بِالْكَفَّارِ يُقَاتِلُونَكُمْ وَأَقْدَرْنَاكُمْ عَلَى إِنْثَاقِ الْأَمْوَالِ وَبَذْلِهَا فِي ذَلِكَ ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكَبَهُ﴾ أَيْ يَجْمَعُهُ كُلُّهُ وَهُوَ جَمْعُ الشَّيْءِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ﴿فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أَوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أَيْ هَؤُلَاءِ هُمُ الْخَاسِرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

(١) الطبري: ٥٣٢/١٣ (٢) الطبري: ٥٣١، ٥٣٠/١٣ (٣)

الطبري: ٥٣٣/١٣ (٤) الطبري: ٥٣٤/١٣ (٥) فتح الباري:

٢٧٧/١٢ (٦) مسلم: ١٢١ وأحمد: ٢٠٥/٤

سورة الأنفال

١٨٢

سورة الأنفال

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ أَمْنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خَقَعْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنَّ لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يَرْيَكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَسْتَهُمْ وَلِنَنْزِعَهُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾

إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ [البقرة: ١٩٣] وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِأَسَامَةَ: لَمَّا عَلَا ذَلِكَ الرَّجُلُ بِالسَّيْفِ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَضَرَبَهُ فَقَتَلَهُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِأَسَامَةَ: «أَقْتُلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» وَ«كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّمَا قَالَهَا تَعَوُّذًا، قَالَ: «هَلَّا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ؟» وَجَعَلَ يَقُولُ وَيُكْرِرُ عَلَيْهِ، «مَنْ لَكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ أَسَامَةُ: حَتَّى تَمَيَّنْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسَلِّمْتُ [إِلَّا ذَلِكَ الْيَوْمَ] ﴿١١﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ بِعَمَلِكُمْ وَمَعَمَلِكُمْ﴾

(١) فتح الباري: ١٦٠/٨ (٢) فتح الباري: ١٦٠/٨ (٣) الطبري: ٥٣٨/١٣ (٤) ابن أبي حاتم: ١٧٠١/٥ (٥) ابن أبي حاتم: ١٧٠١/٥ (٦) الطبري: ٥٣٩، ٥٣٨/١٣ (٧) ابن هشام: ٣٢٧/٢ (٨) الطبري: ٥٣٩/١٣ (٩) فتح الباري: ١/٩٥ ومسلم: ٥٣/١ (١٠) البخاري: ١٢٣، ٢٨١٠، ٣١٢٦، ٧٤٥٨ (١١) مسلم: ٩٦/١

وَعُثْمَانَ؟ قَالَ ابْنُ عُمَرَ: أَمَّا قَوْلِي فِي عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ: أَمَّا عُثْمَانُ، فَكَانَ اللَّهُ قَدْ عَفَا عَنْهُ وَكَرِهْتُمْ أَنْ يَعْفُوَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَأَبْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَتَنَهُ وَأَشَارَ بِيَدِهِ وَهَدِيَهُ ابْنَتَهُ أَوْ بَنَتَهُ حَيْثُ تَرَوْنَ^(١). وَعَنْ سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا أَوْ إِلَيْنَا ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقَالَ: كَيْفَ تَرَى فِي قِتَالِ الْفِتْنَةِ؟ فَقَالَ: وَهَلْ تَذَرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يُقَاتِلُ الْمُشْرِكِينَ وَكَانَ الدُّخُولُ عَلَيْهِمْ فِتْنَةً، وَلَيْسَ بِقِتَالِكُمْ عَلَى الْمُلْكِ^(٢). هَذَا كُلُّهُ سِياقُ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ يَعْنِي: لَا يَكُونُ شِرْكُ^(٣). وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالسُّدِّيُّ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَبِيبٍ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: بَلَغَنِي عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَغَيْرِهِ مِنْ عُلَمَائِنَا، ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ حَتَّى لَا يَفْتَنَ مُسْلِمٌ عَنْ دِينِهِ^(٤). وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، قَالَ: يُخْلَصُ التَّوْحِيدُ لِلَّهِ^(٥). وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيْجٍ ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَلَّمَهُ اللَّهُ﴾: أَنْ يُقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(٦). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: وَيَكُونُ التَّوْحِيدُ خَالِصًا لِلَّهِ، لَيْسَ فِيهِ شِرْكٌ، وَيَخْلَعُ مَا دُونَهُ مِنَ الْأَنْدَادِ^(٧).

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَلَّمَهُ اللَّهُ﴾، لَا يَكُونُ مَعَ دِينِكُمْ كُفْرًا^(٨). وَيَشْهَدُ لِهَذَا مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَمُرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ، حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا، وَجَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٩) وَفِيهِمَا عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيْ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ فَقَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(١٠).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ أَنْهَوْا﴾ أَيِ بَقَائِكُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ فَكَفُّوا عَنْهُ، وَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا بِوَاطِنِهِمْ ﴿فَأَرْسَلَ اللَّهُ إِمَّامًا يَعْمَلُونَ بَصِيرَةً﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] الْآيَةِ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿فَلْيَخْزَكُمْ فِي الَّذِينَ﴾ [البقرة: ١١]، وَقَالَ: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ

النَّصِيرُ أَيُّ وَإِنْ اسْتَمَرُّوا عَلَى خِلَافِكُمْ وَمُحَارَبَتِكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ، وَسَيُدْكُمْ وَنَاصِرُكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْكَانِ يَوْمَ اتَّفَقَ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[حُكْمُ الْغَنِيمَةِ وَالْفِيءِ]

يُبَيِّنُ تَعَالَى تَفْصِيلَ مَا شَرَعَهُ مُحْصَصًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ الشَّرِيفَةِ، مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنْ إِحْلَالِ الْمَغَانِمِ. وَالْغَنِيمَةُ، هِيَ: الْمَالُ الْمَأْخُودُ مِنَ الْكُفَّارِ، بِإِيحَافِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، وَالْفِيءُ مَا أُخِذَ مِنْهُمْ بِغَيْرِ ذَلِكَ كَالْأَمْوَالِ الَّتِي يُصَالِحُونَ عَلَيْهَا أَوْ يُتَوَفَّوْنَ عَنْهَا وَلَا وَارِثَ لَهُمْ، وَالْحِزْبَةُ، وَالْخَرَجُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ تَوْكِيدٌ لِتَحْمِيسِ كُلِّ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ حَتَّى الْخَيْطِ وَالْمِخِيطِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١] وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً فَغَنِمُوا خُمُسَ الْغَنِيمَةِ، فَضَرَبَ ذَلِكَ الْخُمُسَ فِي خُمُسَةٍ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ قَالَ:

وَقَوْلُهُ ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ مِفْتَاحُ كَلَامٍ: لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ. فَجَعَلَ سَهْمَ اللَّهِ وَسَهْمَ الرَّسُولِ ﷺ وَاحِدًا^(١). وَهَكَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ ابْنِ الْحَنْفِيَّةِ، وَالْحَسَنُ الْبُضْرِيُّ وَالشَّعْبِيُّ وَعَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَرِيدَةَ وَفَتَادَةُ، وَمُغِيرَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ، أَنَّ سَهْمَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاحِدٌ^(٢). وَيُؤَيِّدُ هَذَا مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ عَنْ رَجُلٍ [مِنْ بَلَقَيْنَ] قَالَ:

أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ بِوَادِي الْقُرَى، وَهُوَ يُعْرِضُ فَرَسًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا تَقُولُ فِي الْغَنِيمَةِ؟ فَقَالَ: «اللَّهُ خُمُسُهَا وَأَرْبَعَةُ أَخْمَاسِهَا لِلْجَيْشِ» قُلْتُ: فَمَا أَحَدٌ أَوْلَى بِهِ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَ: «لَا، وَلَا السَّهْمُ تَسَخَّرُجُهُ مِنْ [جَنْبِكَ]: لَيْسَ أَنْتَ أَحَقُّ بِهِ مِنْ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ»^(٣).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُقَدَّامِ بْنِ مَعْدٍ يَكْرِبُ

وَأَمَّا سَهْمُ ذَوِي الْقُرْبَى، فَإِنَّهُ يُصْرَفُ إِلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ، لِأَنَّ بَنِي الْمُطَّلِبِ وَارِثُوا بَنِي هَاشِمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَفِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، وَدَخَلُوا مَعَهُمْ فِي الشَّعْبِ

(١) الطبري: ٥٤٩/١٣ (٢) الطبري: ٥٤٨/١٣ ٤٥٠، (٣) البيهقي: ٣٢٤/٦ (٤) أحمد: ٣١٦/٥ إسناده ضعيف فيه أبو بكر ابن عبد الله بن أبي مريم وهو ضعيف (٥) أحمد: ١٨٤/٢ وأبو داود: ٢٦٩٤ وانظر تفسير الآية آل عمران: ١٦١ (٦) أبو داود: ٢٧٥٥ (٧) أحمد: ٢٧١/١ والترمذي: ١٥٦١ (٨) أبو داود: ٢٩٩٤

[بَعْضُ تَفَاصِيلِ يَوْمِ بَدْرٍ]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَوْمِ الْفُرْقَانِ ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا الْقَرْيَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ ﴿وَهُمْ﴾ أَيِ الْمُشْرِكُونَ نَزُولُ ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ أَيِ الْبُعِيدَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى نَاحِيَةِ مَكَّةَ، ﴿وَالرَّكْبَ﴾ أَيِ الْغَيْرِ الَّذِي فِيهِ أَبُو سُفْيَانٌ بِمَا مَعَهُ مِنَ التَّجَارَةِ، ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أَيِ مِمَّا يَلِي سَيْفَ الْبَحْرِ، ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أَيِ أَنْتُمْ وَالْمُشْرِكُونَ إِلَى مَكَانٍ ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ، قَالَ: وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ عَنْ مِيعَادٍ مِنْكُمْ وَمِنْهُمْ، ثُمَّ بَلَغَكُمْ كَثْرَةُ عَدُوِّهِمْ وَقَلَّةُ عَدُوِّكُمْ، مَا لَقِيتُمُوهُمْ ﴿وَلَكِنْ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أَيِ لَيَقْضِي اللَّهُ مَا أَرَادَ بِقُدْرَتِهِ مِنْ إِغْزَارِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَإِذْلالِ الشُّرْكِ وَأَهْلِهِ، عَنْ غَيْرِ مِلٍّ مِنْكُمْ، فَفَعَلَ مَا أَرَادَ مِنْ ذَلِكَ بِطُغْيَانِهِ^(١). وَفِي حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ، يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ، حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ^(٢). قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ رُوْمَانَ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ دَنَا مِنْ بَدْرٍ، عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَسَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يَتَجَسَّسُونَ لَهُ الْخَبَرَ، فَأَصَابُوا سَقَاةً لِقُرَيْشٍ غُلَامًا لِبَنِي سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، وَغُلَامًا لِبَنِي الْحَجَّاجِ، فَأَتَوْا بِهِمَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَوَجَدُوهُ يُصَلِّي فَجَعَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُمَا لِمَنْ أَنْتُمَا؟ فَيَقُولَانِ: نَحْنُ سَقَاةُ لِقُرَيْشٍ، بَعَثْنَا نَسْقِيهِمْ مِنَ الْمَاءِ، فَكَرِهَ الْقَوْمُ خَبَرَهُمَا، وَرَجَوْا أَنْ يَكُونَا لِأَبِي سُفْيَانَ فَضَرَبُوهُمَا، فَلَمَّا أَذْلَقُوهُمَا قَالَا: نَحْنُ لِأَبِي سُفْيَانَ فَتَرَكُوهُمَا، وَرَكَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ، وَقَالَ: «إِذَا صَدَقَاكُمْ ضَرْبَتْهُمَا، وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا، صَدَقَا وَاللَّهِ! إِنَّهُمَا لِقُرَيْشٍ، أَخْبِرَانِي عَنْ قُرَيْشٍ؟» قَالَا: هُمْ وَرَاءَ هَذَا الْكَيْبِ الَّذِي تَرَى بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى - وَالْكَيْبِ: الْعَقَنْقَلُ - فَقَالَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَمْ الْقَوْمُ؟» قَالَا: كَثِيرٌ. قَالَ: «مَا

غَضَبًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَمَاعَتِهِ لَهُ، مُسْلِمُهُمْ طَاعَةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَكَافَرُهُمْ حِمِيَّةٌ لِلْعَشِيرَةِ، وَأَنَفَّةٌ وَطَاعَةٌ لِأَبِي طَالِبٍ عَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْيَتَمَى﴾ أَيِ يَتَامَى الْمُسْلِمِينَ. ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾. هُمْ: الْمَحَاوِجُ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَشُدُّ خَلْتَهُمْ. وَمَسَكَنَتْهُمْ.

﴿وَأَتَى السَّبِيلَ﴾ هُوَ الْمُسَافِرُ أَوْ الْمُرِيدُ لِلسَّفَرِ إِلَى مُسَافَةٍ تَقْصُرُ فِيهَا الصَّلَاةُ، وَلَيْسَ لَهُ مَا يُفِقُّهُ فِي سَفَرِهِ ذَلِكَ، وَسَبَّأَتِي تَفْسِيرُ ذَلِكَ فِي آيَةِ الصَّدَقَاتِ فِي سُورَةِ بَرَاءةٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِهِ الثَّقَةُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى عَبْدِنَا﴾ أَيِ إِمْتِثِلُوا مَا شَرَعْنَا لَكُمْ مِنَ الْخُمْسِ فِي الْغَنَائِمِ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِهِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ فِي حَدِيثٍ وَقَدْ عَبْدِ الْقَيْسِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُمْ: «وَأَمْرُكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ. أَمْرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ ثُمَّ قَالَ: هَلْ تَذَرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَأَنْ تُؤَدُّوا الْخُمْسَ مِنَ الْمَغْنَمِ»^(١). الْحَدِيثُ بِطَوْلِهِ، فَجَعَلَ أَدَاءَ الْخُمْسِ مِنْ جُمْلَةِ الْإِيمَانِ، وَقَدْ بَوَّبَ الْبُخَارِيُّ عَلَى ذَلِكَ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ مِنْ صَحِيحِهِ، فَقَالَ: (بَابُ أَدَاءِ الْخُمْسِ مِنَ الْإِيمَانِ) ثُمَّ أَوْرَدَ حَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ هَذَا، وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْفَتَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. يُبَيِّنُ تَعَالَى عَلَى نِعْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى خَلْقِهِ، بِمَا فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِبَدْرٍ، وَيُسَمَّى الْفُرْقَانُ، لِأَنَّ اللَّهَ أَعْلَى فِيهِ كَلِمَةُ الْإِيمَانِ عَلَى كَلِمَةِ الْبَاطِلِ، وَأَظْهَرَ دِينَهُ وَنَصَرَ نَبِيَّهَ وَحِزْبَهُ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِحَةَ وَالْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمٌ بَدَرَ فَرَّقَ اللَّهُ فِيهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ^(٢). رَوَاهُ الْحَاجِمُ، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَمِقْسَمٌ وَعُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ أَنَّهُ يَوْمٌ بَدَرَ^(٣).

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَبَحَّى مَنْ

(١) فتح الباري: ١٥٧/١ ومسلم: ٤٦/١ (٢) الطبري: ١٣/

٥٦١ (٣) الطبري: ١٣/٥٦١، ٥٦٣ (٤) ابن هشام: ٣٢٨/٢

(٥) الطبري: ١٣/٥٦٦

حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾

عِدْتُهُمْ؟» قَالَا: مَا نَدْرِي. قَالَ: «كَمْ يَنْحَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ؟» قَالَا: يَوْمًا تِسْعًا وَيَوْمًا عَشْرًا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْقَوْمُ مَا بَيْنَ التَّسْعِمَاةِ إِلَى الْأَلْفِ» ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: «فَمَنْ فِيهِمْ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ؟» قَالَا: عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ بْنُ هِشَامٍ، وَحَكِيمُ بْنُ جِرَامٍ، وَنُوفَلُ بْنُ خُوَيْلِدٍ، وَالْحَارِثُ بْنُ عَامِرِ بْنِ نُوفَلٍ، وَطُعَيْمَةُ بْنُ عَدِيٍّ بْنِ نُوفَلٍ، وَالنَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ، وَزَمْعَةُ بْنُ الْأَسودِ، وَأَبُو جَهْلُ بْنُ هِشَامٍ، وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ، وَبُئَيْبَةُ وَنُبَيْبَةُ ابْنَا الْحِجَاجِ، وَسَهَيْلُ بْنُ عَمْرِو، وَعَمْرُو بْنُ عَدُوْدٍ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «هَذِهِ مَكَّةُ قَدْ أَلْقَتْ إِلَيْكُمْ أَفْلَادَ كَيْدِهَا»^(١).

وَقَوْلُهُ: «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَبَحَىٰ مَنْ حَبَىٰ عَنْ بَيِّنَةٍ»، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: أَيُّ لِيَكْفُرَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ الْحُجَّةِ لِمَا رَأَى مِنَ الْآيَةِ وَالْعِبَرَةِ، وَيُؤْمِنُ مَنْ آمَنَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ^(٢). وَهَذَا تَفْسِيرٌ جَيِّدٌ. وَبَسَطَ ذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: إِنَّمَا جَمَعَكُمْ مَعَ عَدُوِّكُمْ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، لِيَنْصُرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَرْفَعَ كَلِمَةَ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ، لِيَصِيرَ الْأَمْرُ ظَاهِرًا وَالْحُجَّةُ قَاطِعَةً وَالْبَرَاهِينُ سَاطِعَةً، وَلَا يَبْقَى لِأَحَدٍ حُجَّةٌ، وَلَا شُبْهَةٌ، فَحِينَئِذٍ يَهْلِكُ مَنْ هَلَكَ أَوْ يَسْتَوِرُ فِي الْكُفْرِ مَنْ اسْتَمَرَّ فِيهِ، عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ: أَنَّهُ مُبْطِلٌ - لِقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ - «وَبَحَىٰ مَنْ حَبَىٰ» أَيُّ يُؤْمِنُ مَنْ آمَنَ «عَنْ بَيِّنَةٍ» أَيُّ حُجَّةٍ وَبَصِيرَةٍ، وَالْإِيمَانُ هُوَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَمْ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ» وَقَالَتْ عَائِشَةُ فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ: فَهَلَكَ فِيَّ مَنْ هَلَكَ، أَيُّ قَالَ فِيهَا مَا قَالَ مِنْ الْبُهْتَانِ وَالْإِفْكِ^(٣). وَقَوْلُهُ: «وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ» أَيُّ لِدَعَائِكُمْ وَتَضَرُّعِكُمْ وَاسْتِعَانَتِكُمْ بِهِ، «عَلِيمٌ» أَيُّ يَكُنْ، وَأَنْتُمْ تَسْتَحِقُّونَ النَّصْرَ عَلَى أَعْدَائِكُمُ الْكَفَرَةِ الْمُعَانِدِينَ.

«وَإِذْ يُرِيدُكُمْ اللَّهُ فِي مَنَاصِكِ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادَكُمْ كَثِيرًا لَفَاشَلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَثَرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ»^(٤) وَإِذْ يُرِيدُكُمْ إِيذًا أَلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَقَلِيلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لَيَقْبِضَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا وَإِلَى

اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿٨﴾

[تَقْلِيلُ اللَّهِ كُلِّ فِتْنَةٍ فِي عَيْنِ الْأُخْرَى]

قَالَ مُجَاهِدٌ: أَرَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُمْ فِي مَنَامِهِ قَلِيلًا، وَأُخْبِرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ، فَكَانَ تَثْبِيثًا لَهُمْ^(٥). وَكَذَا قَالَ

(١) ابن هشام: ٢٦٨/٢ (٢) الطبري: ٥٦٨/١٣ (٣) أحمد: ١٩٥/٦ (٤) الطبري: ٥٧٠/١٣ (٥) الطبري: ٥٧٠/١٣ (٦) الطبري: ٥٧٢/١٣ إسناده ضعيف أبو إسحاق مدلس ولم يصرح وأبو عبيده لم يسمع من عبدالله بن مسعود رضي الله عنه (٧) ابن أبي حاتم: ١٧١٠/٥ (٨) ابن هشام: ٣٢٨/٢ وابن أبي حاتم: ١٧١٠/٥

كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَوَّجُوا
فَلَفْسَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحَكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾
[تَعْلِيمُ آدَابِ الْحَرْبِ]

هَذَا تَعْلِيمٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ آدَابِ اللِّقَاءِ
وَطَرِيقِ الشَّجَاعَةِ عِنْدَ مُوَاجَهَةِ الْأَعْدَاءِ، فَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ ثَبَّتْ فِي الصَّاحِبِينَ
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ انْتَهَرَ فِي
بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا الْعَدُوَّ، حَتَّى إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ
قَامَ فِيهِمْ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! لَا تَتَمَتُّوا لِقَاءَ الْعَدُوِّ،
وَأَسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ
الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ» ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَالَ:
«اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِي السَّحَابِ، وَهَازِمَ
الْأَحْزَابِ، اهْزِمْنَاهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ»^(١). وَعَنْ كَعْبِ
الْأَحْبَارِ قَالَ: مَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قِرَاءَةِ
الْقُرْآنِ وَالذِّكْرِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا أَمَرَ النَّاسَ بِالصَّلَاةِ
وَالْقِتَالِ، أَلَا تَرَوْنَ أَنَّهُ أَمَرَ النَّاسَ بِالذِّكْرِ عِنْدَ الْقِتَالِ،
فَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا
اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢).

[الْأَمْرُ بِالنَّبَاتِ عِنْدَ الْمُقَابَلَةِ]

وَأَمَرَ تَعَالَى بِالنَّبَاتِ عِنْدَ قِتَالِ الْأَعْدَاءِ وَالصَّبْرِ عَلَى
مُبَارَزَتِهِمْ، فَلَا يَقْرَءُوا وَلَا يَنْكَلُوا وَلَا يَجْبُثُوا، وَأَنْ يَذْكُرُوا
اللَّهَ فِي تِلْكَ الْحَالِ وَلَا يَنْسُوهُ، بَلْ يَسْتَعِينُوا بِهِ وَيَتَوَكَّلُوا
عَلَيْهِ وَيَسْأَلُوهُ النَّصَرَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَأَنْ يُطِيعُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ فِي حَالِهِمْ ذَلِكَ، فَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ اثْبُتُوا،
وَمَا نَهَاَهُمْ عَنْهُ انْزَجِرُوا. وَلَا يَتَنَازَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ أَيْضًا
فَيَحْتَلِفُوا فَيَكُونُ سَبَبًا لِيَتَخَذَلَهُمْ وَفَسْلَهُمْ، ﴿وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ
أَيُّ قُوَّتِكُمْ وَجِدَّتْكُمْ، وَمَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْإِقْبَالِ، وَاصْبِرُوا
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ وَقَدْ كَانَ لِلصَّاحِبَةِ رَضِي اللَّهِ عَنْهُمْ فِي
بَابِ الشَّجَاعَةِ وَالْإِثْمَارِ بِمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِهِ،
وَأَمْتِنَالِ مَا أَرْسَدَهُمْ إِلَيْهِ مَا لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ
وَالْقُرُونِ قَبْلَهُمْ، وَلَا يَكُونُ لِأَحَدٍ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ، فَإِنَّهُمْ بِرِكَّةِ
الرُّسُولِ ﷺ وَطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَهُمْ، فَتَحُوا الْقُلُوبَ وَالْأَقَالِيمَ
شَرْقًا وَغَرْبًا، فِي الْمُدَّةِ الْيَسِيرَةِ، مَعَ فَلَةٍ عَدَدِهِمْ بِالنَّسَبَةِ إِلَى
جُيُوشِ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ، مِنَ الرُّومِ، وَالْفَرَسِ، وَالتُّرْكِ،
وَالصَّقَالِيَّةِ، وَالْبَرْبَرِ، وَالْحَبُوشِ، وَأَصْنَافِ السُّودَانِ،
وَالْقِبْطِ، وَطَوَائِفِ بَنِي آدَمَ. فَهَرُوا الْجَمِيعَ حَتَّى عَلَتْ كَلِمَةُ

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَوَّجُوا فَالَفْسَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ
وَأَصِيرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ
النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ
عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ
الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾
وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ
وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَ هُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ
بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْتَ اللَّهُ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾
كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
فَاخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

اللَّهُ، وَظَهَرَ دِينُهُ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ، وَامْتَدَّتِ الْمَمَالِكُ
الإِسْلَامِيَّةُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، فِي أَقَلِّ مِنْ
ثَلَاثِينَ سَنَةً، فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ أَجْمَعِينَ، وَحَشَرْنَا
فِي زُمْرَتِهِمْ إِنَّهُ كَرِيمٌ وَهَّابٌ.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ
وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾^(١) وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ
وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ
إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ
شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

(١) فتح الباري: ١٤٠/٦ و مسلم: ١٣٦٢/٣ (٢) ابن أبي حاتم
(٩١٣٢) ١٧١١/٥ فيه عبدالله بن عياش وهو ضعيف يعتبر به
[تحرير تقريب التهذيب] ويزيد بن قودر ذكره ابن أبي حاتم ولم
يذكر فيه جرْحًا ولا تعديلاً.

[كَيْفِيَّةُ خُرُوجِ الْمُشْرِكِينَ لِيَوْمِ بَدْرٍ]

يَقُولُ تَعَالَى بَعْدَ أَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِخْلَاصِ فِي الْقِتَالِ فِي سَبِيلِهِ، وَكَثْرَةِ ذِكْرِهِ، نَاهِيًا لَهُمْ عَنِ الشَّكِّ بِالْمُشْرِكِينَ فِي خُرُوجِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، ﴿بَطَرًا﴾ أَي دَفْعًا لِلْحَقِّ، ﴿وَرِثَةً النَّاسِ﴾ وَهُوَ الْمَفَاخِرَةُ وَالتَّكَبُّرُ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَمَّا قِيلَ لَهُ: إِنَّ الْعِيرَ قَدْ نَجَا فَارْجِعُوا، فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ، حَتَّى نَرِدَ مَاءَ بَدْرٍ، وَنَتَحَرَّ الْجُرُزَ، وَنَشْرَبَ الْخَمْرَ، وَتَعْرِفَ عَلَيْنَا الْقِيَانُ، وَتَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ بِمَكَانِنَا فِيهَا يَوْمَنَا أَبَدًا. فَانْعَكَسَ ذَلِكَ عَلَيْهِ أَجْمَعُ، لِأَنَّهُمْ لَمَّا وَرَدُوا مَاءَ بَدْرٍ وَرَدُّوا بِهِ الْجَمَامَ، وَرَمَوْا فِي أَطْوَاءِ بَدْرٍ مُهَانِينَ أَدْلَاءً، صَغَرَةَ أَشْقِيَاءَ، فِي عَذَابٍ سَرْمَدِيٍّ أَبَدِيٍّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أَي عَالِمٌ بِمَا جَاءُوا بِهِ وَلَهُ، وَلِهَذَا جَازَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ شَرَّ الْجَزَاءِ لَهُمْ^(١). قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالصَّحَّاحُ وَالسُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَةً النَّاسِ﴾ قَالُوا: هُمُ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ قَاتَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ^(٢). وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: لَمَّا خَرَجَتْ قُرَيْشٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَدْرٍ، خَرَجُوا بِالْقِيَانِ وَالْذُّفُوفِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَةً النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

[تَرْيِيسُ الشَّيْطَانِ وَتَغْرِيرُهُ الْمُشْرِكِينَ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ﴾ الْآيَةُ، حَسَنَ لَهُمْ - لَعَنَهُ اللَّهُ - مَا جَاءُوا لَهُ وَمَا هُمُوا بِهِ، وَأَطْمَعَهُمْ أَنَّهُ لَا غَالِبَ لَهُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ^(٣). وَنَفَى عَنْهُمْ الْحَشْيَةَ مِنْ أَنْ يُؤْتُوا فِي دِيَارِهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ بَنِي بَكْرٍ، فَقَالَ: أَنَا «جَارٌّ لَكُمْ» وَذَلِكَ أَنَّهُ تَبَدَّى لَهُمْ فِي صُورَةِ شِرَاقَةِ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشَمٍ، سَيِّدِ بَنِي مُدَلِجٍ، كَبِيرِ تِلْكَ النَّاجِيَةِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنَعُهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠] قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، سَارَ إِبْلِيسُ بِرَأْيِهِ وَجُنُودِهِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، وَأَلْقَى فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ أَحَدًا لَنْ يَغْلِبَكُمْ، وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ، فَلَمَّا انْتَفَوْا وَنَظَرَ الشَّيْطَانُ إِلَى إِمْدَادِ الْمَلَائِكَةِ، «نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ» قَالَ: رَجَعَ مُدْبِرًا، وَقَالَ: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الْآيَةُ^(٤). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ:

جَاءَ إِبْلِيسُ يَوْمَ بَدْرٍ فِي جُنْدٍ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَعَهُ رَأْيَتُهُ، فِي صُورَةِ رَجُلٍ مِنْ بَنِي مُدَلِجٍ، فِي صُورَةِ شِرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشَمٍ، فَقَالَ الشَّيْطَانُ لِلْمُشْرِكِينَ: لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ، فَلَمَّا اضْطَفَّتِ النَّاسُ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُبْضَةً مِنَ التُّرَابِ فَرَمَى بِهَا فِي وَجُوهِ الْمُشْرِكِينَ فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ، وَأَقْبَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى إِبْلِيسَ، فَلَمَّا رَأَاهُ وَكَانَتْ يَدُهُ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، انْتَرَعَ يَدَهُ ثُمَّ وَلَّى مُدْبِرًا هُوَ وَشِيعَتُهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا شِرَاقَةُ أَنْزِعْ عَنْكَ لَنَا جَارًا؟ فَقَالَ: إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ. وَذَلِكَ حِينَ رَأَى الْمَلَائِكَةَ^(٥).

[مَوْفِقُ الْمَنَافِقِينَ يَوْمَ بَدْرٍ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوْلًا﴾ دِيْنُهُمْ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: قَالَ: لَمَّا دَنَا الْقَوْمُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ قَلَّلَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ فِي أَعْيُنِ الْمُشْرِكِينَ، وَقَلَّلَ الْمُشْرِكِينَ فِي أَعْيُنِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: غَرَّ هَوْلًا دِيْنُهُمْ، وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ مِنْ قَلْتِهِمْ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَظَنُّوا أَنَّهُمْ سَهَرُومُونَهُمْ لَا يَشْكُونَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ اللَّهُ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَكَانَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٦). وَقَالَ قَتَادَةُ: رَأَوْا عِصَابَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ تَشَدَّدَتْ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَذَكَرَ لَنَا: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ عَدُوَّ اللَّهِ لَمَّا أَشْرَفَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْلِبُوا اللَّهَ بَعْدَ الْيَوْمِ، قَسْوَةً وَعُتُوًّا^(٧). وَقَالَ عَامِرُ الشَّعْبِيِّ: كَانَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ قَدْ تَكَلَّمُوا بِالْإِسْلَامِ، فَخَرَجُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَلَمَّا رَأَوْا قِلَّةَ الْمُسْلِمِينَ، قَالُوا: غَرَّ هَوْلًا دِيْنُهُمْ^(٨). وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أَيِ يَعْتَمِدْ عَلَى جَنَابِهِ ﴿فَكَانَ اللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أَيِ لَا يُضَامُ مِنَ التَّجَا إِلَيْهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ مَنِيعُ الْجَنَابِ عَظِيمُ السُّلْطَانِ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَعْمَالِهِ لَا يَضَعُهَا إِلَّا فِي مَوَاضِعِهَا، فَيَنْصُرُ مَنْ يَسْتَحِقُّ النَّصْرَ، وَيَخْذُلُ مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِدَلِكِ.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَكَّلُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى الْمَلَائِكَةِ يَبْصُرُونَ وُجُوهَهُمْ وَادْبَرَهُمْ وَذُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٩) ذَلِكَ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ^(١٠)

(١) ابن هشام: ٣٢٩/٢ (٢) الطبري: ٩٠٨/١٤ (٣) الطبري: ١١/١٤ (٤) الطبري: ٩/١٤ (٥) الطبري: ٧/١٤ (٦) الدر المنثور: ٧٨/٤ (٧) الطبري: ١٤/١٤ (٨) الطبري: ١٣/١٤

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

١٨٤

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۗ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٢﴾ كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ ۚ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٤﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٥﴾ فَإِنَّمَا تَتَّفِقَتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَن حَلَفَهُمْ ۚ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِنَّمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيفَتَهُ فَأَيُّدِ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٥٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ ۚ عَدُوًّا لِلَّهِ وَعَدُوًّاكُمْ وَءَاخِرِينَ ۚ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

﴿كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٥٢﴾
يَقُولُ تَعَالَى: فَعَلَّ هَؤُلَاءِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِمَا أُرْسِلَتْ بِهِ يَا مُحَمَّدُ، كَمَا فَعَلَ الْأَمَمُ الْمُكَذِّبَةُ قَبْلَهُمْ، فَفَعَلْنَا بِهِمْ مَا هُوَ دَأْبُنَا أَيْ عَادَتُنَا وَسُنَّتُنَا فِي أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأَمَمِ الْمُكَذِّبَةِ بِالرُّسُلِ، الْكَافِرِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أَيْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ وَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقَدِّرٌ ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أَيْ لَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ وَلَا يَقُوتُهُ هَارِبٌ.
﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٥٢﴾ كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٣﴾

[ضَرَبُ الْمَلَائِكَةِ الْكُفَّارَ عِنْدَ قَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَوْ عَايَنْتَ يَا مُحَمَّدُ حَالَ تَوَفِّي الْمَلَائِكَةِ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ، لَرَأَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا هَائِلًا فَظِيمًا مُنْكَرًا، إِذْ «بَضَرُوا وَجُوهَهُمْ وَأَذْنَبَتْهُمْ» وَيَقُولُونَ لَهُمْ: «وَدُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ». قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: «وَأَذْنَبَتْهُمْ»: أَسْتَاهَهُمْ. قَالَ: يَوْمَ بَدْرٍ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِذَا أَقْبَلَ الْمُشْرِكُونَ بِوُجُوهِهِمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، ضَرَبُوا وَجُوهَهُمْ بِالسُّيُوفِ، وَإِذَا وَلَّوْا أَدْرَكْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ فَضَرَبُوا أَذْنَابَهُمْ^(١). وَهَذَا السِّيَاقُ وَإِنْ كَانَ سَبَبُهُ وَقَعَهُ بَدْرٌ، وَلَكِنَّهُ عَامٌّ فِي حَقِّ كُلِّ كَافِرٍ، وَلِهَذَا لَمْ يُخَصِّصْهُ تَعَالَى بِأَهْلِ بَدْرٍ، بَلْ قَالَ تَعَالَى: «وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَذْنَبَتْهُمْ» وَفِي سُورَةِ الْقِتَالِ مِثْلُهَا [الآية: ٢٧]، وَتَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ» [الأنعام: ٩٣] أَيْ بِاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ بِالضَّرْبِ فِيهِمْ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ - إِذَا اسْتَضَعَبَتْ أَنْفُسُهُمْ، وَامْتَنَعَتْ مِنَ الْخُرُوجِ مِنَ الْأَجْسَادِ-: أَنْ تَخْرُجَ قَهْرًا، وَذَٰلِكَ إِذْ بَشَّرُوهُمْ بِالْعَذَابِ وَالْغَضَبِ مِنَ اللَّهِ، كَمَا فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ: إِنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ إِذَا جَاءَ لِلْكَافِرِ عِنْدَ اخْتِصَارِهِ فِي تِلْكَ الصُّورَةِ الْمُنْكَرَةِ، يَقُولُ: أَخْرِجِي أَيْتَهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةَ إِلَى سُمُومٍ وَحُمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ، فَتَفْتَرِّقُ فِي بَدَنِهِ فَيَسْتَخْرِجُوجَهَا مِنْ جَسَدِهِ، كَمَا يُخْرِجُ السَّفُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَتَخْرُجُ مَعَهَا الْعُرُوقُ وَالْعَصَبُ^(٢).
وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى: أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَقُولُ لَهُمْ: «دُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ» وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ» أَيْ هَذَا الْجَزَاءُ بِسَبَبِ مَا عَمِلْتُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا، جَازَاكُمْ اللَّهُ بِهَا هَذَا الْجَزَاءَ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَمِيدِ﴾ أَيْ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ، بَلْ هُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ الَّذِي لَا يَجُورُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَتَقْدَسَ وَتَنْزَعُ، الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ، عِنْدَ مُسْلِمٍ رَجَمَهُ اللَّهُ، مِنْ رِوَايَةِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُخْصِيهَا لَكُمْ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»^(٣).
وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

(١) الطبري: ١٦/١٤ (٢) أحمد: ٢٨٧/٤، ٢٨٨ (٣) مسلم: ١٩٩٤/٤

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عَذْلِهِ وَفَسْطِهِ فِي حُكْمِهِ بِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يُعَيِّرُ نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى أَحَدٍ، إِلَّا بِسَبَبِ ذَنْبٍ ارْتَكَبَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُعَذِّبُوا مَا بِنَفْسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]

وقوله: ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي كَصْنَعِهِ بِآلِ فِرْعَوْنَ وَأَمْثَالِهِمْ، حِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِهِ، أَهْلَكَهُمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَسَلَبَهُمْ تِلْكَ النِّعَمَ الَّتِي أَسَدَّهَا إِلَيْهِمْ، مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ بَلْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّمَا تَتَفَقَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٥٢﴾

[الْأَمْرُ بِشِدَّةٍ ضَرْبٍ مَنْ يَكْفُرُ وَيَنْقُضُ الْعَهْدَ] أَخْبَرَ تَعَالَى: أَنَّ شَرَّ مَا دَبَّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَقَضُوهُ، وَكُلَّمَا أَكْدُوهُ بِالْإِيمَانِ نَكثُوهُ، ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أَي لَا يَخَافُونَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْآثَامِ ﴿فَإِنَّمَا تَتَفَقَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أَي تَغْلِبُهُمْ وَتُظْفِرُ بِهِمْ فِي حَرْبٍ ﴿فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ﴾ أَي نَكَلَ بِهِمْ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَعَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَابْنُ عُيَيْنَةَ ^(١). وَمَعْنَاهُ غَلَطَ عَقُوبَتُهُمْ وَأَخْنَجَهُمْ قَتْلًا، لِيَخَافَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ، وَيَصْبِرُوا لَهُمْ عِزَّةً ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾. وَقَالَ السُّدِّيُّ: يَقُولُ: لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ أَنْ يَنْكُثُوا فَيُضَيِّعَ بِهِمْ مِثْلَ ذَلِكَ ^(٢).

﴿وَأِنَّمَا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ خِيفَتَهُ قَائِدُ إِلَيْهِمْ عَلَى سُوءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَائِلِينَ﴾ ﴿٥٣﴾

[الْأَمْرُ بِنَقْضِ الْعَهْدِ عَلَى سُوءٍ] يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَأِنَّمَا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ﴾ قَدْ عَاهَدْتَهُمْ ﴿خِيفَتَهُ﴾ أَي نَقَضُوا لِمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْمَوَاقِيعِ وَالْعُهُودِ ﴿فَإِنِّي إِلَيْهِمْ﴾ أَي عَهْدُهُمْ ﴿عَلَى سُوءٍ﴾ أَي أَعْلَمُهُمْ بِأَنَّكَ قَدْ نَقَضْتَ عَهْدَهُمْ، حَتَّى يَبْقَى عِلْمُكَ وَعِلْمُهُمْ بِأَنَّكَ حَرْبٌ لَهُمْ وَهُمْ حَرْبٌ لَكَ، وَأَنَّهُ لَا عَهْدَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، عَلَى السُّوءِ، أَي تَسْتَوِي أَنْتَ وَهُمْ فِي ذَلِكَ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَائِلِينَ﴾ أَي حَتَّى وَلَوْ فِي حَقِّ

الْكَافِرِينَ لَا يُجِبُّهَا أَيْضًا. رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ سَلِيمِ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: كَانَ مُعَاوِيَةُ يَسِيرُ فِي أَرْضِ الرُّومِ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ أَمَدٌ، فَأَرَادَ أَنْ يَذْنُو مِنْهُمْ، فَإِذَا انْقَضَى الْأَمَدُ غَزَاهُمْ، فَإِذَا شَيْخٌ عَلَى دَابَّةٍ يَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، وَفَاءٌ لَا غَدْرًا، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَحِلُّنَّ عُقْدَةً وَلَا يَشُدَّهَا حَتَّى يَنْقُضِي أَمَدَهَا، أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سُوءٍ» قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ، فَارْجَعَ، فَإِذَا الشَّيْخُ عَمْرُو بْنُ [عَبْسَةَ] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ^(٣). وَهَذَا الْحَدِيثُ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ، وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ ^(٤).

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْزِرُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَبُوءَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ ﴿٥٥﴾

[الْأَمْرُ بِالْإِعْدَادِ حَسَبِ الْمُسْتَطَاعِ حَتَّى يَرْهَبَ أَعْدَاءُ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: وَلَا تَحْسَبَنَّ يَا مُحَمَّدُ! ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أَي فَاتُونَا، فَلَا تَقْدِرْ عَلَيْهِمْ بَلْ هُمْ تَحْتَ قَهْرٍ قُدْرَتِنَا، وَفِي قَبْضَةِ مَشِيئَتِنَا، فَلَا يُعْزِرُونَنَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٤] أَي يَظُنُّونَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ مُمْسِكٍ﴾ [النور: ٥٧] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَعْزِرُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿آل عمران: ١٩٦، ١٩٧﴾ ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى بِالْإِعْدَادِ آلاَتِ الْحَرْبِ، لِمُقَاتَلَتِهِمْ حَسَبَ الطَّاقَةِ وَالْإِمْكَانِ وَالِاسْتِطَاعَةِ، فَقَالَ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أَي مَهْمَا أَمَكَنْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴿رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ عَلَى الْمُنْبَرِ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ، أَلَا

(١) الطبري: ٢٣/١٤، ٢٤، (٢) الطبري: ٢٣/١٤، (٣) أحمد: ١١١/٤ (٤) أبو داود الطيالسي: ١٥٧ وأبو داود: ١٩٠/٣ وتحفة الأحوذى: ٢٠٣/٥ والنسائي: ٢٢٣/٥ وابن حبان: ٧/١٨٢

إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّةَ^(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٢).

وَرَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْخَيْلُ ثَلَاثَةٌ، لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ. فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ، فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَطَاعَ لَهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيلِهَا ذَلِكَ مِنَ الْمَرْجِ أَوْ الرَوْضَةِ، كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيلَهَا - فَاسْتَنْتَ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَانُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يَرُدَّ أَنْ يَسْقِيَ بِهِ، كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ، فَهِيَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ. وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَعَنُّبًا وَتَعَفُّفًا، وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظَهْرِهَا فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ. وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِبَاءً وَنَوَاءً، فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وَزْرٌ» وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْحُمْرِ، فَقَالَ «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْجَامِعَةُ الْقَادَةُ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»^(٤) [الزلزلة: ٧، ٨]. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَهَذَا لَفْظُهُ، وَمُسْلِمٌ^(٥). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «الْخَيْلُ ثَلَاثَةٌ: فَفَرَسٌ لِلرَّحْمَنِ، وَفَرَسٌ لِلشَّيْطَانِ، وَفَرَسٌ لِلْإِنْسَانِ، فَأَمَّا فَرَسُ الرَّحْمَنِ فَالَّذِي يُرْبِطُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَعَلَقَهُ وَرَوْتُهُ وَبَوْلُهُ - وَذَكَرَ مَا شَاءَ اللَّهُ - وَأَمَّا فَرَسُ الشَّيْطَانِ، فَالَّذِي يُقَامِرُ أَوْ يَرَاهُنَ عَلَيْهَا، وَأَمَّا فَرَسُ الْإِنْسَانِ، فَالَّذِي يُرْبِطُهَا الْإِنْسَانُ يَلْتَمِسُ بَطْنَهَا، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ مِنَ الْفَقْرِ»^(٦).

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ الْبَارِقِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الْأَجْرُ وَالْمَغْنَمُ»^(٧). وَقَوْلُهُ: ﴿تَرْهَبُونَ﴾ أَيُّ تَخَوُّفُونَ ﴿بِهِ عَدُوُّ اللَّهِ وَعَدُوُّكُمْ﴾ أَيُّ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي بَنِي قُرَيْظَةَ^(٨). وَقَالَ السُّدِّيُّ: فَارِسٌ^(٩).

وَقَالَ مَقَاتِلُ بْنُ حَبَّانَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: هُمُ الْمُتَنَافِقُونَ^(١٠). وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَوَقِّفُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى الْأَنفَاقِ لَا يَعْلَمُونَ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١] وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلِبُونَ﴾ أَيُّ مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ فِي الْجِهَادِ، فَإِنَّهُ يُوَفَّى إِلَيْكُمْ عَلَى التَّمَامِ وَالْكَمَالِ،

وَأَنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَتَاكَ بِضُرِّهِ وَيَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ اللَّهُ وَمَنْ أَتْبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَعْلَبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَعْلَبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٩﴾ أَكُنْ خَفِيفٌ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَعْلَبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَعْلَبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٠﴾ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَشْخَبَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ النَّبِيِّاَ وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢١﴾ لَوْ لَا كُتِبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقٌ لِّسَبْقِكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٣﴾

كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِثْلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمِثْلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلٍ مِّائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يَضْعَفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]. ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَتَاكَ بِضُرِّهِ. وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾

[الْأَمْرُ بِالْجُنُوحِ لِلْسَّلَامِ إِنْ جَنَحَ لَهَا الْعَدُوُّ] يَقُولُ تَعَالَى: إِذَا خِفْتُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً، فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ، فَإِنْ اسْتَمَرُّوا عَلَى حَرْبِكَ وَمُنَابَذَتِكَ، فَقَاتِلْهُمْ ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ أَيُّ مَالُوا ﴿لِلْسَّلَامِ﴾ أَيُّ الْمُسَالَمَةِ

(١) أحمد: ١٥٦/٤ (٢) مسلم: ١٥٢٢/٣ (٣) الموطأ: ٢/٤١٤ (٤) البخاري: ٢٨٦٠ ومسلم: ٩٨٧ (٥) أحمد: ١/٣٩٥ (٦) فتح الباري: ٦٦/٦ (٧) الطبري: ٣٦/١٤ (٨) الطبري: ٣٦/١٤ (٩) الطبري: ٣٦/١٤

عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ
يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ
مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١١﴾

[التَّحْرِيزُ عَلَى الْقِتَالِ وَالتَّبَشِيرُ بِأَنَّ الْقَلِيلَ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ يَغْلِبُونَ الْكَثِيرَ مِنَ الْكُفَّارِ]

يُحَرِّضُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ وَمُنَاجَرَةِ
الْأَعْدَاءِ وَمُبَارَاةِ الْأَقْرَانِ، وَيُخَبِّرُهُمْ أَنَّهُ حَسْبُهُمْ أَيْ كَافِيهِمْ
وَنَاصِرُهُمْ وَمُؤَيِّدُهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَإِنْ كَثُرَتْ أَعْدَادُهُمْ
وَتَرَدَّدَتْ أَمَدَادُهُمْ، وَلَوْ قَلَّ عَدَدُ الْمُؤْمِنِينَ. وَلِهَذَا قَالَ:
﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أَيْ حُثُّهُمْ
وَدَمْرُهُمْ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَرِّضُ عَلَى
الْقِتَالِ، عِنْدَ صَفِّهِمْ وَمُوَاجَهَةِ الْعَدُوِّ، كَمَا قَالَ لِأَصْحَابِهِ
يَوْمَ بَدْرٍ حِينَ أَقْبَلَ الْمُشْرِكُونَ فِي عَدُوِّهِمْ وَعَدَدِهِمْ: «ثُومُوا
إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ» فَقَالَ عُمَيْرُ بْنُ
الْحُمَامِ: عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
«نَعَمْ»، فَقَالَ: بَخْ بَخْ، فَقَالَ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ:
بَخْ بَخْ؟» قَالَ: رَجَاءُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ «فَإِنَّكَ مِنْ
أَهْلِهَا». فَتَقَدَّمَ الرَّجُلُ، فَكَسَرَ جَنْفَ سَيْفِهِ، وَأَخْرَجَ تَمْرَاتٍ
فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ أَلْقَى بَقِيَّتَهُنَّ مِنْ يَدَيْهِ وَقَالَ: لَيْتَ أَنَا
حَيِّثُ حَتَّى أَكُلَهُنَّ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ. ثُمَّ تَقَدَّمَ فَقَاتَلَ حَتَّى
قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٣).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَأَمْرًا: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ
عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا
أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كُلُّ وَاحِدٍ بِعَشْرَةٍ، ثُمَّ نُسِخَ هَذَا
الْأَمْرُ وَبَقِيَ الْبَشَارَةُ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: حَدَّثَنَا
جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ: حَدَّثَنِي الزُّبَيْرُ بْنُ الْخَزِيمَةِ، عَنْ عِكْرِمَةَ
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ
صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى
فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَقِرَّ وَاحِدٌ مِنْ عَشْرَةٍ، ثُمَّ جَاءَ
التَّخْفِيفُ، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ:
﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ قَالَ: خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنَ الْعِدَّةِ، وَنَقَصَ
مِنَ الصَّبْرِ بِقَدْرِ مَا خَفَّفَ عَنْهُمْ^(٤). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْ
حَدِيثِ ابْنِ الْمُبَارَكِ نَحْوَهُ^(٥).

وَالْمُصَالَحَةُ وَالْمُهَادَنَةُ، ﴿فَاتَّخَذَ لَهَا﴾ أَيْ قَبِلَ إِلَيْهَا وَقَبِلَ
مِنْهُمْ ذَلِكَ، وَلِهَذَا لَمَّا طَلَبَ الْمُشْرِكُونَ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ
الصُّلْحَ، وَوَضَعَ الْحَرْبَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، تَسَعَ
سِنِينَ، أَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ مَعَ مَا اشْتَرَطُوا مِنَ الشُّرُوطِ الْآخِرِ.
وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي
اخْتِلَافٌ - أَوْ أَمْرٌ - فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَكُونَ السَّلَامُ
فَاعْمَلْ»^(١). وَقَوْلُهُ: «وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» أَيْ صَالِحُهُمْ وَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ، وَلَوْ كَانُوا يُرِيدُونَ
بِالصُّلْحِ خَدِيعَةً، لَيَتَّقَوْا وَيَسْتَعِدُّوا ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أَيْ
كَافِيكَ وَحَدَهُ.

[التَّذْكِيرُ بِنِعْمَةِ التَّالِيفِ بَيْنَ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ]

ثُمَّ ذَكَرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ بِمَا أَيْدَهُ بِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُهَاجِرِينَ
وَالْأَنْصَارِ، فَقَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصَبْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ وَأَلْفَ
بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ ﴿أَيَّ جَمَعَهَا عَلَى الْإِيمَانِ بِكَ، وَعَلَى طَاعَتِكَ
وَمُنَاصَرَتِكَ وَمُؤَاوَزَتِكَ﴾ لَوْ أَتَفَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا
أَلْفَتْ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ ﴿أَيَّ لِمَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ
وَالْبُغْضَاءِ فَإِنَّ الْأَنْصَارَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ فِي
الْجَاهِلِيَّةِ، بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَأُمُورٌ يَلْزَمُ مِنْهَا
التَّسْلُسُ فِي الشَّرِّ، حَتَّى قَطَعَ اللَّهُ ذَلِكَ بِنُورِ الْإِيمَانِ، كَمَا
قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ
بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ
النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾
[آل عمران: ١٠٣].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا خَطَبَ
الْأَنْصَارَ، فِي شَأْنِ غَنَائِمِ حُنَيْنٍ، قَالَ لَهُمْ: «يَا مَعْشَرَ
الْأَنْصَارِ! أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً
فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي» كَلَّمَا قَالَ
شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُ^(٢). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:
﴿وَلَوْ كُنَّ أَلْفٌ بَيْنَهُمْ إِتَّخَذُوا عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أَيْ عَزِيزُ
الْجَنَابِ، فَلَا يُخَيِّبُ رَجَاءً مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، حَكِيمٌ فِي
أَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ.

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ حَسْبَكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَتَأْتِيَا
النَّبِيَّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ
صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ

(١) أحمد: ٩٠/١ (٢) فتح الباري: ٦٤٤/٧ ومسلم: ٢/٧٣٨ (٣) مسلم: ١٥١١/٣ (٤) أبو داود: ١٠٥/٣ (٥) فتح الباري: ١٦٣/٨

سورة الأنفال

١٨٦

سورة الأنفال

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرِ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيُعْظِفَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يَهَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ يَبِينَكُمْ وَيُنَاصِرُكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِبَعْضِهِمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ مَعْفُورَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

اللَّهُ ﷻ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»^(٥). وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمْ تَحِلَّ الْغَنَائِمُ لِسُودِ الرُّؤُوسِ غَيْرَنَا» وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ الْآيَةُ^(٦). فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذُوا مِنَ الْأَسَارَى الْفِدَاءَ، وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَعَلَ فِدَاءَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعِيَّةً^(٧). وَقَدْ اسْتَقَرَّ الْحُكْمُ فِي الْأَسْرِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ. أَنَّ الْإِمَامَ

ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ثَقُلَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَعْظَمُوا أَنْ يُقَاتِلَ عَشْرُونَ مِائَتِينَ، وَمِائَةً أَلْفًا، فَخَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَتَسَخَّرَهَا بِالْآيَةِ الْأُخْرَى، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ الْآيَةُ، فَكَانُوا إِذَا كَانُوا عَلَى الشَّطْرِ مِنْ عَدُوِّهِمْ، لَمْ يَسْغَ لَهُمْ أَنْ يَفِرُّوا مِنْ عَدُوِّهِمْ، وَإِذَا كَانُوا دُونَ ذَلِكَ، لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِمْ قِتَالُهُمْ، وَجَارَ لَهُمْ أَنْ يَتَحَوَّزُوا عَنْهُمْ^(٨).

﴿مَا كَانَتْ لِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَشْرَى حَتَّى يَخْرُجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٩) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَكُمُكُم فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(١٠) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَقْبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿٧٦﴾

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: اسْتَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ فِي الْأَسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَكَّنَكُمْ مِنْهُمْ» فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ عَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَكَّنَكُمْ مِنْهُمْ وَإِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ بِالْأَنْفُسِ» فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ، فَأَعْرِضْ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ عَادَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لِلنَّاسِ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نَرَى أَنْ تَغْفُو عَنْهُمْ، وَأَنْ تَقْبَلَ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ. قَالَ: فَذَهَبَ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ، فَعَفَا عَنْهُمْ وَقَبِلَ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ، قَالَ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَكُمُكُم فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١١). وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ يَعْنِي: فِي أُمِّ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ: أَنَّ الْمَغَانِمَ وَالْأَسَارَى حَلَالٌ لَكُمْ ﴿لَكُمُكُم فِيمَا أَخَذْتُمْ مِنَ الْأَسَارَى﴾ عَذَابٌ عَظِيمٌ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ الْآيَةُ. وَكَذَا رَوَى الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ^(١٢). وَرَوَى مِثْلَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَعَطَاءٍ وَالحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَقَتَادَةَ وَالْأَعْمَشَ أَيْضًا^(١٣). أَنَّ الْمُرَادَ ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ بِإِحْلَالِ الْغَنَائِمِ.

وَيَسْتَشْهَدُ لِهَذَا الْقَوْلِ، بِمَا أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ

(١) البخاري: ٤٦٥٢، ٤٦٥٣ (٢) أحمد: ٢٤٣/٣ (٣) الطبري: ٦٥/١٤ (٤) الطبري: ٦٥-٦٩ (٥) فتح الباري: ٥١٩/١ و مسلم: ٣٧٠/١ (٦) النسائي في الكبرى: ٣٥٢/٦ (٧) أبو داود: ١٣٩/٣

«لَا وَاللَّهِ! لَا تَذَرُونَ مِنْهُ دِرْهَمًا»^(٣). وَقَالَ يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ، عَنْ غُرْوَةَ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ جَمَاعَةٍ سَمَّاهُمْ قَالُوا: بَعَثْتُ قُرَيْشًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي فِدَاءِ أَسْرَاهُمْ فَقَدَى كُلُّ قَوْمٍ أَسِيرَهُمْ بِمَا رَضُوا، وَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ كُنْتُ مُسْلِمًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِسْلَامِكَ، فَإِنْ يَكُنْ كَمَا تَقُولُ فَإِنَّ اللَّهَ يُجْزِيكَ، وَأَمَّا ظَاهِرُكَ فَقَدْ كَانَ عَلَيْنَا فَافْتَدِ نَفْسَكَ وَابْنِي أَخِيكَ نَوْفَلَ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَعَقِيلَ ابْنَ أَبِي طَالِبِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَحَلِيفَكَ عَتَبَةَ بْنَ عَمْرِو أَخِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ» قَالَ: مَا ذَاكَ عِنْدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَأَيْنَ الْمَالُ الَّذِي دَفَعْتَهُ أَتَتْ وَأُمُّ الْفَضْلِ فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ أَصَبْتَ فِي سَفَرِي هَذَا، فَهَذَا الْمَالُ الَّذِي دَفَعْتَهُ لِبَنِي الْفَضْلِ وَعَبْدُ اللَّهِ وَقَتُّمْ؟» قَالَ: وَاللَّهِ! يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مَا عِلْمُهُ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُ أُمِّ الْفَضْلِ فَاحْسِبْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا أَصَبْتُمْ مِنِّي عَشْرِينَ أَوْقِيَةً مِنْ مَالٍ كَانَ مَعِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا ذَاكَ شَيْءٌ أَعْطَانَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْكَ». فَقَدَى نَفْسَهُ وَابْنِي أَخُوهُ وَحَلِيفَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قَالَ الْعَبَّاسُ: فَأَعْطَانِي اللَّهُ مَكَانَ الْعَشْرِينَ الْأَوْقِيَةِ فِي الْإِسْلَامِ عَشْرِينَ عَبْدًا كُلُّهُمْ فِي يَدِهِ مَالٌ يَضْرِبُ بِهِ، مَعَ مَا أَرْجُو مِنْ مَغْفِرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٤).

رَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ فَقَالَ: «انْتَرَوْهُ فِي مَسْجِدِي». قَالَ: وَكَانَ أَكْثَرُ مَالٍ أَتَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَخَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ جَاءَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ فَمَا كَانَ يَرَى أَحَدًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِذَا جَاءَ الْعَبَّاسُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَعْطِنِي فَإِنِّي فَادَيْتُ نَفْسِي، وَفَادَيْتُ عَقِيلًا فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُذْ» فَحَتَا فِي نَوْبِهِ ثُمَّ ذَهَبَ يَقُولُهُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَقَالَ: مَرُّ بَعْضَهُمْ بِرَفْعِهِ إِلَيَّ قَالَ:

مُخَيَّرَ فِيهِمْ إِنْ شَاءَ قَتَلَ كَمَا فَعَلَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَإِنْ شَاءَ فَادَى بِمَالٍ كَمَا فَعَلَ بِأَسْرَى بَدْرٍ، أَوْ بِمَنْ أُسِرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي تِلْكَ الْجَارِيَةِ وَابْتَيْهَا - اللَّيْنِ كَانَتْ فِي سَبِي سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ - حَيْثُ رَدَّهَ وَأَخَذَ فِي مُقَابَلَتَيْهِمَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ، وَإِنْ شَاءَ اسْتَرْقَ مَنْ أُسِرَ.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنْ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

[وَعُدَّ الْأَسْرَى بِعَوَضٍ أَحْسَنَ إِنْ كَانَ فِيهِمْ خَيْرٌ]

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ: «إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ أَنَاسًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَغَيْرِهِمْ قَدْ أَخْرَجُوا كُرْهًا لَا حَاجَةَ لَهُمْ بِقِتَالِنَا، فَمَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدًا مِنْهُمْ - أَيْ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ - فَلَا يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ أَبَا الْبُخْتَرِيِّ بْنَ هِشَامٍ فَلَا يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَا يَقْتُلْهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا أُخْرِجَ مُسْتَكْرَهًا» فَقَالَ أَبُو حُدَيْفَةَ بْنُ عَتَبَةَ: أَنْقَلْتُ أَبَاءَنَا وَابْنَانَا وَإِخْوَانَنَا وَعَشَائِرَنَا، وَتَرَكْتُ الْعَبَّاسَ، وَاللَّهِ! لَئِنْ لَقِيتُهُ لَأُلْجِمَنَّهُ بِالسَّيْفِ، فَلَبَغَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِعُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ: «يَا أَبَا حَفْصٍ! - قَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ! إِنَّهُ لَأَوَّلُ يَوْمٍ كَتَانِي فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا حَفْصٍ - أَيَضْرِبُ وَجْهَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالسَّيْفِ؟» فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِذْنٌ لِي فَأَضْرِبُ عَنْقَهُ فَوَاللَّهِ! لَقَدْ نَافَقَ. فَكَانَ أَبُو حُدَيْفَةَ يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ: وَاللَّهِ! مَا آمَنْتُ مِنْ تِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي قُلْتُ، وَلَا أَزَالُ مِنْهَا خَائِفًا إِلَّا أَنْ يُكْفَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَنِّي بِشَهَادَةٍ، فَقَتِلَ يَوْمَ الْبِمَامَةِ شَهِيدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١). وَبِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا أَمْسَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ، وَالْأَسَارَى مَحْبُوسُونَ بِالْوُثَاقِ، بَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاهِرًا أَوَّلَ اللَّيْلِ فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا لَكَ لَا تَنَامُ؟ وَقَدْ أَسَرَ الْعَبَّاسَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَمِعْتُ أَنَيْنَ عَمِّي الْعَبَّاسِ فِي وَثَاقِهِ». فَأَطْلَقُوهُ فَسَكَتَ، فَتَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٢). وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ مُوسَى بْنِ عَتَبَةَ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ اسْتَأْذَنُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِذْنٌ لَنَا فَلَنْتُرِكَ لَابْنَ أُحَيْنَةَ عَبَّاسٍ فِدَاءَهُ. قَالَ:

(١) ابن سعد: ١٠/٤ أنظر أيضًا دلائل النبوة للبيهقي ٣/١٤٠ (٢) ابن سعد: ١٣/٤ دلائل النبوة للبيهقي ٣/١٤١ إسناده صحيح. (٣) فتح الباري: ٣٧٣/٧ (٤) القرطبي: ٥٢/٨ إسناده ضعيف محمد بن إسحاق مدلس ولم يصرح بإلهام راويه.

وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ... الْآيَةَ [التوبة: ١١٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَرْضَوْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدُوقُونَ﴾ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ... الْآيَةَ [الحشر: ٨، ٩]. وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ أَيُّ لَا يَحْسُدُونَهُمْ عَلَى فَضْلٍ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ عَلَى هَجْرَتِهِمْ. فَإِنَّ ظَاهِرَ الْآيَاتِ تَقْدِيمُ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصَارِ، وَهَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ لَا يَخْتَلِفُونَ فِي ذَلِكَ.

[لَا وَلَايَةَ لِمَنْ آمَنَ وَلَمْ يُهَاجِرْ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَكِيلٍ﴾ قَرَأَ حَمَزَةً: (وَلَا يَتَمُّهُمْ) بِالْكَسْرِ، وَالْبَاقُونَ بِالْفَتْحِ، وَهُمَا وَاحِدٌ كَالدَّلَالَةِ وَالذَّلَالَةِ ﴿مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ هَذَا هُوَ الصَّنْفُ الثَّلَاثُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا، بَلْ أَقَامُوا فِي بَوَادِيهِمْ، فَهَؤُلَاءِ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْمَغَانِمِ نَصِيبٌ، وَلَا فِي خُمُسِهَا إِلَّا مَا حَضَرُوا فِيهِ الْقِتَالُ.

كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ الْأَشْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ أَمِيرًا عَلَى سَرِيَّةٍ أَوْ جَيْشٍ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، وَقَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، إِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى اخْدَاثِ ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيُّتَهُنَّ مَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ: ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ. ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَعْلِمُهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَأَنْ عَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ. فَإِنْ أَبَوْا وَاخْتَارُوا دَارَهُمْ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ نَصِيبٌ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ

﴿لَا﴾ قَالَ فَارْفَعَهُ أَنْتَ عَلَيَّ، قَالَ: «لَا» فَتَرَّ مِنْهُ، ثُمَّ احْتَمَلَهُ عَلَى كَاهِلِهِ ثُمَّ انْطَلَقَ. فَمَا زَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَّبِعُهُ بِصَرِّهِ حَتَّى خَفِيَ عَنْهُ عَجَبًا مِنْ جِرْصِهِ. فَمَا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَمَّ مِنْهَا دَرَاهِمُ^(١). وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي مَوَاضِعَ مِنْ صَحِيحِهِ تَغْلِيْقًا بِصِغَةِ الْجَزْمِ^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيُّ ﴿وَلَنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ فِيمَا أَظْهَرُوا لَكَ مِنَ الْأَقْوَالِ ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيُّ مِنْ قَبْلِ بَدْرِ بِالْكَفْرِ بِهِ ﴿فَأَمَكَّنْ مِنْهُمْ﴾ أَيُّ بِالْأَسَارَى يَوْمَ بَدْرِ ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ أَيُّ عَلَيْهِمْ بِمَا يَفْعَلُهُ حَكِيمٌ فِيهِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَكِيلٍ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَفْزَعُوكُمْ فِي الَّذِينَ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرَ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٧٢)

[الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ]

ذَكَرَ تَعَالَى أَصْنَافَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَسَمَهُمْ إِلَى مُهَاجِرِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَجَاءُوا لِنَصْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ، وَبَدَلُوا أَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَإِلَى أَنْصَارٍ وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ إِذْ ذَاكَ، آوَوْا إِخْوَانَهُمُ الْمُهَاجِرِينَ فِي مَنَازِلِهِمْ وَوَسَّوهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ وَنَصَرُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِالْقِتَالِ مَعَهُمْ فَهَؤُلَاءِ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أَيُّ كُلُّ مِنْهُمْ أَحَقُّ بِالْآخِرِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَلِهَذَا أَخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ كُلَّ اثْنَيْنِ أَخَوَانِ، فَكَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِذَلِكَ إِزَاءً مُقَدَّمًا عَلَى الْقَرَابَةِ، حَتَّى نَسَخَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ بِالْمَوَارِيثِ، ثَبَتَ ذَلِكَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٣). رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ جَرِيرٍ - هُوَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، وَالطُّلُقَاءُ مِنْ قُرْبَشٍ، وَالْعُنُقَاءُ مِنْ ثَقِيفٍ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٤). تَقَرَّرَ بِهِ أَحْمَدُ.

وَقَدْ أَتَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فِي غَيْرِ مَا آتَى فِي كِتَابِهِ، فَقَالَ: ﴿وَالسَّيْفُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ... الْآيَةَ [التوبة: ١٠٠] وَقَالَ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ

(١) البيهقي: ٣٥٦/٦ (٢) البخاري: ٤٢١، ٣٠٤٩، ٣١٦٥

(٣) فتح الباري: ٣٠/١٢ (٤) أحمد: ٣٦٣/٤

عَنِ الذُّنُوبِ إِنْ كَانَتْ، وَيَالرِّزْقَ الْكَرِيمَ وَهُوَ: الْحَسَنُ الْكَثِيرُ الطَّيِّبُ، الشَّرِيفُ، دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ أَبَدًا، لَا يَنْقَطِعُ وَلَا يَنْقُضِي، وَلَا يُسَامُ وَلَا يُمَلُّ، لِحُسْنِهِ وَتَوَعُّوهِ. ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْأَتْبَاعَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَهُمْ مَعَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾.. الآية [النوبة: ١٠٠] وَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾... الآية [الحشر: ١٠]. وَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ بَلِ الْمُتَوَاتِرِ مِنْ طُرُقٍ صَحِيحَةٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»^(٦) وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا فَهُوَ مِنْهُمْ» وَفِي رِوَايَةٍ: «حَشِرَ مَعَهُمْ»^(٧).

[الْإِثْرُ لِلْأَقَارِبِ]

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أَيْ فِي حُكْمِ اللَّهِ وَلَيْسَ الْمُرَادُ يَقُولُهُ: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ خُصُوصِيَّةٌ مَا يُطْلِقُهُ عُلَمَاءُ الْفَرَائِضِ عَلَى الْقَرَابَةِ الَّذِينَ لَا فَرْصَ لَهُمْ وَلَا هُمْ عَصَبَةٌ، بَلْ يُدْلُونَ بِوَارِثٍ: كَالْخَالَاتِ وَالْخَالَ، وَالْعَمَّةِ، وَأُولَادِ النَّبَاتِ، وَأُولَادِ الْأَخَوَاتِ وَنَحْوِهِمْ - كَمَا قَدْ بَرَعَهُ بَعْضُهُمْ وَبَحَّحَ بِالْآيَةِ وَيَعْتَقِدُ ذَلِكَ صَرِيحًا فِي الْمَسْأَلَةِ! بَلِ الْحَقُّ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ تَشْمَلُ جَمِيعَ الْقَرَابَاتِ، كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ^(٨) عَلَى أَنَّهَا نَاسِخَةٌ لِلْإِثْرِ بِالْجِلْفِ، وَالْإِخَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِهِمَا أَوَّلًا، وَعَلَى هَذَا فَتَشْمَلُ دَوَى الْأَرْحَامِ بِالْإِسْمِ الْخَاصِّ. وَمَنْ لَمْ يُورَثْهُمْ يَحْتَجُّ بِأَدْلَةٍ، مِنْ أَقْوَاهَا حَدِيثُ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لِيُورِثُ»^(٩). قَالُوا: فَلَوْ كَانَ ذَا حَقٍّ لَكَانَ لَهُ فَرْصٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَسْمًى، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ وَارِثًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

أَجْرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْفَالِ. وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانِ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

أَبَوْا فَادْعُهُمْ إِلَى إِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ. فَإِنْ أَجَابُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ ثُمَّ قَاتِلْهُمْ»^(١). انْفَرَدَ بِهِ مُسْلِمٌ^(٢). وَعِنْدَهُ زِيَادَاتٌ أُخَرُ، وَقَوْلُهُ: «وَإِنْ اسْتَنْصَرْتُمْ فِي الدِّينِ فَلَعَلَّكُمْ النَّصْرُ» الْآيَةَ، يَقُولُ تَعَالَى: وَإِنْ اسْتَنْصَرْتُمْ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابَ، الَّذِينَ لَمْ يَهَاجِرُوا فِي قِتَالِ دِينِي عَلَى عَدُوِّ لَهُمْ فَانْصُرُوهُمْ، فَإِنَّهُ وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ نَصْرُهُمْ، لِأَنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ، إِلَّا أَنْ يَسْتَنْصِرُوكُمْ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْكُفَّارِ، «يَتَنَكَّمُ وَيَنْتَهِمُ مَيْتَقٌ» أَيْ مُهَادَنَةٌ إِلَى مَدَّةٍ، فَلَا تُخْفَرُوا ذِمَّتَكُمْ وَلَا تُنْقَضُوا أَيْمَانُكُمْ مَعَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ، وَهَذَا مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا^(٣).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِبَعْضِ أَوْلِيَائِهِمْ بَعْضٌ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾^(٤)

[الْكُفَّارُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَائُ بَعْضٍ وَلَا وَلَايَةٌ لَهُمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَائُ بَعْضٍ، قَطَعَ الْمُوَالَاةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ، كَمَا رَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ أُسَامَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ، وَلَا يَرِثُ مُسْلِمٌ كَافِرًا، وَلَا كَافِرٌ مُسْلِمًا - ثُمَّ قَرَأَ - : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِبَعْضِ أَوْلِيَائِهِمْ بَعْضٌ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾». ثُمَّ قَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ^(٥). قُلْتُ: الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ رِوَايَةِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ، وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ»^(٦). وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ» أَيْ إِنْ لَمْ تُجَابِئُوا الْمُشْرِكِينَ وَتَوَالَوْا الْمُؤْمِنِينَ وَإِلَّا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ فِي النَّاسِ، وَهُوَ الْيَبَاسُ الْأَمْرُ وَاخْتِلَاطُ الْمُؤْمِنِ بِالْكَافِرِ، فَيَقَعُ بَيْنَ النَّاسِ فَسَادٌ مُتَشَبِّهٌ عَرِيضٌ طَوِيلٌ.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾^(٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^(٨)

[الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حُكْمَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا عَطَفَ بِذِكْرِ مَالِهِمْ فِي الْآخِرَةِ، فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ بِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ سَيَجَازِيهِمْ بِالْمَغْفِرَةِ وَالصَّفْحِ

(١) أحمد: ٣٥٢/٥ (٢) مسلم: ١٣٥٧/٣ (٣) الطبري: ١٤/

٨٣ (٤) الحاكم: ٢٤٠/٢ (٥) فتح الباري: ٥١/١٢ ومسلم:

١٢٣٣/٣ (٦) فتح الباري: ٥٧٣/١٠ (٧) الطبراني: ١٩/٣

(٨) الطبري: ٩٠/١٤ (٩) أبو داود: ٢٩١/٣

تفسير سورة التوبة [وهي] مدنية

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾
فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ
اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿١﴾

[لِمَ لَمْ تَكُتِبِ الْبَسْمَلَةَ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ؟]

هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ أَوَاخِرِ مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: أَخْرَجَ آيَةُ نَزَلَتْ:
﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلْبَةِ﴾ [المائدة: ١٧٦]
وَأَخْرَجَ سُورَةُ نَزَلَتْ بَرَاءَةٌ^(١). وَإِنَّمَا لَمْ يُسْمَلْ فِي أَوَّلِهَا لِأَنَّ
الصَّحَابَةَ لَمْ يَكْتُبُوا الْبَسْمَلَةَ فِي أَوَّلِهَا فِي الْمُصْحَفِ
الْإِمَامِ، بَلِ افْتَدَوْا فِي ذَلِكَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ. وَأَوَّلُ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ نَزَلَ
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمَّا رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ وَهُمْ بِالْحَجِّ،
ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَحْضُرُونَ عَامَهُمْ هَذَا الْمَوْسِمَ عَلَى
عَادَتِهِمْ فِي ذَلِكَ، وَأَنَّهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عَرَاءً، فَكَرِهَ
مُخَالَطَتَهُمْ فَبَعَثَ أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَمِيرًا عَلَى
الْحَجِّ هَذِهِ السَّنَةِ، لِيُقِيمَ لِلنَّاسِ مَنَاسِكَهُمْ وَيُعَلِّمَ الْمُشْرِكِينَ
أَنْ لَا يَحْجُوا بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا، وَأَنْ يُتَادِيَ فِي النَّاسِ:
﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فَلَمَّا قَفَلَ أَتْبَعَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ
لِيَكُونَ مُبَلِّغًا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِكُونِهِ عُضْبَةً لَهُ، كَمَا
سَيَأْتِي بَيَانُهُ.

[إِعْلَانُ الْبَرَاءَةِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ]

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أَيِ هَذِهِ بَرَاءَةٌ أَيْ
تَبَرُّؤُ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾
فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ هَذِهِ الْآيَةُ لِلذَّوِي الْعَهْدِ
الْمُطْلَقَةِ غَيْرِ الْمُؤَقَّتَةِ، أَوْ مَن لَّهُ عَهْدٌ دُونَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ
فَيَكْمَلُ لَهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، فَأَمَّا مَن كَانَ لَهُ عَهْدٌ مُّؤَقَّتٌ فَأَجَلُهُ
إِلَى مُدَّتِهِ مَهْمَا كَانَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاقْتُمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى
مُدَّتِهِمْ﴾ الْآيَةُ، وَلَمَّا سَيَأْتِي فِي الْحَدِيثِ. «وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَهْدٌ فَعَهْدُهُ إِلَى مُدَّتِهِ». وَرَوَى عَنِ
الْكَلْبِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْظِيِّ وَغَيْرِ وَاحِدٍ^(٢).

وَقَالَ أَبُو مَعْشَرَ الْمَدَنِيِّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ
وغيره قالوا: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا بَكْرَ أَمِيرًا عَلَى
الْمَوْسِمِ سَنَةِ تِسْعٍ، وَبَعَثَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ بِثَلَاثِينَ آيَةً،
أَوْ أَرْبَعِينَ آيَةً مِّنَ «بَرَاءَةٍ» فَقَرَأَهَا عَلَى النَّاسِ، يُؤَجِّلُ

سُورَةُ التَّوْبَةِ ١٨٧
سُورَةُ التَّوْبَةِ
بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾
فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي
اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذِّنْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ
وَرَسُولُهُ فَإِنْ بُنْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ
شَيْئًا وَلَمْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ أَحْدَقْتُمُوهُمُ إِلَى اللَّهِ عَهْدُهُمْ إِلَى
مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ
فَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ
وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾
وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ
كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا مَنَعَكَ ذَلِكَ بَأْتُهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

الْمُشْرِكِينَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ يَسِيحُونَ فِي الْأَرْضِ، فَقَرَأَهَا عَلَيْهِمْ
يَوْمَ عَرَفَةَ أَجْلَهُمْ عَشْرِينَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ وَالْمَحَرَّمِ وَصَفَرَ
وَشَهْرَ رَجَبٍ الْأَوَّلِ وَعَشْرًا مِنْ رَجَبٍ الْآخِرِ، وَقَرَأَهَا عَلَيْهِمْ
فِي مَنَازِلِهِمْ، وَقَالَ: لَا يَحْجُّ بَعْدَ عَامِنَا هَذَا مُشْرِكٌ وَلَا
يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ^(٣). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿وَأَذِّنْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ
بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ بُنْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ
تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى: وَإِعْلَامٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ - وَتَقَدَّمَ -
وَإِنذَارٌ إِلَى النَّاسِ «يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ» وَهُوَ يَوْمُ النَّحْرِ
الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ أَيَّامِ الْمَنَاسِكَ وَأَظْهَرُهَا وَأَكْثَرُهَا جَمْعًا
﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ أَيِ بَرِيءٌ مِنْهُمْ أَيْضًا ثُمَّ

(١) فتح الباري: ١٦٧/٨ (٢) الطبري: ١٤/١٠٠-١٠٢ (٣)
الطبري: ٣٠٤/٦

يَطُوفُ بِالْبَيْتِ غُرَبَاءُ. وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَهُوَ إِلَىٰ مَدَّتِهِ فَلَمْ يَحْجَّ بَعْدَ ذَلِكَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَمْ يَطُفْ بِالْبَيْتِ غُرَبَاءُ، ثُمَّ قَدِمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَانَ هَذَا مِنْ بَرَاءَةٍ فَيَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشُّرْكِ مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ الْعَامِ وَأَهْلِ الْمُدَّةِ إِلَى الْأَجْلِ الْمُسَمَّى (٣).

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لِيَتِمَّ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

[مَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ وَلَمْ يَنْقُصْ فَهَدُّهُ إِلَىٰ مَدَّتِهِ]
هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مِنْ ضَرْبِ مُدَّةِ التَّاجِيلِ بِأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ لِمَنْ لَهُ عَهْدٌ مُطْلَقٌ لَيْسَ بِمَوْقَّتٍ، فَأَجَلُهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ يَبْسُجُ فِي الْأَرْضِ يَذْهَبُ فِيهَا لِيَسْجُوَ بِنَفْسِهِ حَيْثُ شَاءَ، إِلَّا مَنْ لَهُ عَهْدٌ مُوَقَّتٌ فَأَجَلُهُ إِلَىٰ مَدَّتِهِ الْمَضْرُوبَةِ الَّتِي عُوِّدَ عَلَيْهَا، وَقَدْ تَقَدَّصَتِ الْأَحَادِيثُ: «وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَهَدُّهُ إِلَىٰ مَدَّتِهِ». وَذَلِكَ بِشَرْطِ أَنْ لَا يَنْقُصَ الْمُعَاهَدُ عَهْدَهُ وَلَمْ يُظَاهِرْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَحَدًا أَيْ يُمَالِيَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سِوَاهُمْ، فَهَذَا الَّذِي يُوفَى لَهُ بِمَدَّتِهِ وَعَهْدِهِ إِلَىٰ مَدَّتِهِ وَلِهَذَا حَرَضَ تَعَالَى عَلَى الْوَفَاءِ بِذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أَيِ الْمُؤْمِنِينَ بِعَهْدِهِمْ.

﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ

رَحِيمٌ﴾

[هَذِهِ هِيَ آيَةُ السَّيْفِ]

قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِهَا أَشْهُرُ التَّسْبِيرِ الْأَرْبَعَةَ الْمَنْصُوصَةَ عَلَيْهَا (٤) بِقَوْلِهِ: ﴿فَيَسْجُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ [التوبة: ٢-٥] أَيْ إِذَا انْقَضَتْ الْأَشْهُرُ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي حَرَّمْنَا عَلَيْكُمْ فِيهَا قِتَالَهُمْ وَأَجَلْنَاهُمْ فِيهَا فَحَيْثُمَا وَجَدْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أَيِ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَهَذَا عَامٌّ، وَالْمَشْهُورُ تَخْصِيصُهُ بِتَحْرِيمِ الْقِتَالِ فِي

دَعَاَهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿فَإِنْ تَابْتُمْ﴾ أَيْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الشُّرْكِ وَالضَّلَالِ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أَيْ اسْتَمَرَرْتُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزٌ لِلَّهِ﴾ بَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي قَبْضَتِهِ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَمَشِيتِهِ ﴿وَيُبَشِّرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أَيْ فِي الدُّنْيَا بِالْجَزْيِ وَالنَّكَالِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْمَقَامِعِ وَالْأَغْلَالِ. رَوَى الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْحَجَّةِ فِي الْمُؤَدِّينَ الَّذِينَ بَعَثْتُمْ يَوْمَ النَّحْرِ، يُؤَدُّونَ بِمَنَى: أَنْ لَا يَحْجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ غُرَبَاءُ. قَالَ حُمَيْدٌ: ثُمَّ أَرَدَفَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَدَّ بِبَرَاءَةٍ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلِيٌّ فِي أَهْلِ مَنَى يَوْمَ النَّحْرِ بِبَرَاءَةٍ، وَأَنْ لَا يَحْجَّ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ غُرَبَاءُ (١).

وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ فَيَمَنْ يُؤَدُّ يَوْمَ النَّحْرِ بِمَنَى: إِلَّا يَحْجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ غُرَبَاءُ. وَيَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ: يَوْمَ النَّحْرِ، وَإِنَّمَا قِيلَ: «الْأَكْبَرُ» مِنْ أَجْلِ قَوْلِ النَّاسِ: الْحَجُّ الْأَصْغَرُ. فَنبَذَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى النَّاسِ فِي ذَلِكَ الْعَامِ فَلَمْ يَحْجَّ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ الَّذِي حَجَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُشْرِكٌ (٢).

وَهَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ فِي كِتَابِ الْجِهَادِ. وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ بَرَاءَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ كَانَ بَعَثَ أَبَا بَكْرٍ لِيُخَيِّمَ الْحَجَّ لِلنَّاسِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَوْ بَعَثْتَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: «لَا يُؤَدِّي عَنِّي إِلَّا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي» ثُمَّ دَعَا عَلِيًّا فَقَالَ: «اخْرُجْ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ صَدْرِ بَرَاءَةٍ، وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ يَوْمَ النَّحْرِ إِذَا اجْتَمَعُوا بِمَنَى: أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْحَجَّةَ كَافِرٌ. وَلَا يَحْجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ. وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ غُرَبَاءُ. وَمَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَهْدٌ فَهُوَ لَهُ إِلَىٰ مَدَّتِهِ» فَخَرَجَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى نَاقَةٍ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعُضْبَاءِ حَتَّى أَدْرَكَ أَبَا بَكْرٍ فِي الطَّرِيقِ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَبُو بَكْرٍ قَالَ: أَمِيرٌ أَوْ مَأْمُورٌ؟ فَقَالَ: بَلْ مَأْمُورٌ، ثُمَّ مَضَى فَاقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ الْحَجَّ وَالْعَرَبَ إِذْ ذَاكَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ عَلَى مَنَازِلِهِمْ مِنَ الْحَجِّ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمَ النَّحْرِ قَامَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَأَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالَّذِي أَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْحَجَّةَ كَافِرٌ. وَلَا يَحْجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ. وَلَا

(١) فتح الباري: ١٦٨/٨ (٢) فتح الباري: ١٦٨/٨ (٣)

الطبري: ١٠٧/١٤ (٤) الطبري: ١٣٧، ١٣٦/١٤

مَأْمَنُكُمْ ﴿٦﴾ أَنَّى وَهُوَ آمِنٌ مُسْتَمِرٌّ الْأَمَانِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بِلَادِهِ وَدَارِهِ وَمَأْمَنِهِ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّى إِنَّمَا شَرَعْنَا أَمَانٌ مِثْلَ هَؤُلَاءِ لِيَعْلَمُوا دِينَ اللَّهِ وَتَنْتَشِرَ دَعْوَةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: إِنْسَانٌ يَأْتِيكَ لِيَسْمَعَ مَا تَقُولُ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ، فَهُوَ آمِنٌ حَتَّى يَأْتِيكَ فَيَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ، وَحَتَّى يَبْلُغَ مَأْمَنَهُ حَيْثُ جَاءَ^(٣). وَمِنْ هَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْطِي الْأَمَانَ لِمَنْ جَاءَهُ مُسْتَشِيدًا أَوْ فِي رِسَالَةٍ، كَمَا جَاءَهُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ جَمَاعَةٌ مِنَ الرُّسُلِ مِنْ قُرَيْشٍ، مِنْهُمْ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ وَمِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ وَسَهْلُ بْنُ عَمْرٍو وَغَيْرُهُمْ، وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ يَتَرَدَّدُونَ فِي الْقِصَّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ، فَرَأَوْا مِنْ إِعْظَامِ الْمُسْلِمِينَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا بَهَرَهُمْ وَمَا لَمْ يُشَاهِدُوهُ عِنْدَ مَلِكٍ وَلَا قَيْصَرَ، فَرَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ وَأَخْبَرُوهُمْ بِذَلِكَ، وَكَانَ ذَلِكَ وَأَمْنَاهُ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ هِدَايَةِ أَكْثَرِهِمْ، وَلِهَذَا أَيْضًا لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ مُسَيْلَمَةَ الْكَذَابِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «أَتَشْهَدُ أَنَّ مُسَيْلَمَةَ رَسُولُ اللَّهِ؟» قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ عُقْنَكَ»^(٤). وَقَدْ قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ ضَرْبَ الْعُنُقِ فِي إِمَارَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ عَلَى الْكُوفَةِ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ التَّوَّاحَةِ، ظَهَرَ عَنْهُ فِي زَمَانِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ يَشْهَدُ لِمُسَيْلَمَةَ بِالرِّسَالَةِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ ابْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ لَهُ: «إِنَّكَ الْآنَ لَسْتَ فِي رِسَالَةٍ» وَأَمَرَ بِهِ فَضَرِبَتْ عُقْنَهُ.

لَا رَحِمَهُ اللَّهُ وَلَعَنَهُ. وَالْغَرَضُ أَنَّ مَنْ قَدِمَ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ فِي آدَاءِ رِسَالَةٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ طَلَبِ صُلْحٍ أَوْ مَهَادَنَةٍ أَوْ حَمَلِ جَزِيَّةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ، وَطَلَبَ مِنَ الْإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ أَمَانًا أُعْطِيَ أَمَانًا مَا دَامَ مُتَرَدِّدًا فِي دَارِ الْإِسْلَامِ، وَحَتَّى يَرْجِعَ إِلَى مَأْمَنِهِ وَوَطَنِهِ.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتَضَا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٧﴾

[تَأْكِيدُ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ]

يُبَيِّنُ تَعَالَى حِكْمَتَهُ فِي الْبَرَاءَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَنَظَرَتِهِ

الْحَرَمِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْبَلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَبِلْتُمْ كَفَرْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] وَقَوْلُهُ: ﴿وَعُدُّوهُمْ﴾ أَنَّى وَأَسْرُوهُمْ إِنْ شِئْتُمْ قَتْلًا وَإِنْ شِئْتُمْ أَسْرًا. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَحْضَرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ أَنَّى لَا تَكْتَفُوا بِمَجْرَدِ وَجْدَانِكُمْ لَهُمْ، بَلْ اقْصِدُوهُمْ بِالْحِصَارِ فِي مَعَاqِلِهِمْ وَخُصُوفِهِمْ وَالرَّصْدِ فِي طُرُقِهِمْ وَمَسَالِكِهِمْ، حَتَّى تُضَيِّقُوا عَلَيْهِمُ الْوَاسِعَ وَتَضْطَرُّوهُمْ إِلَى الْقَتْلِ أَوْ الْإِسْلَامِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَلِهَذَا اعْتَمَدَ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قِتَالِ مَا بَعِيَ الزَّكَاةَ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَأَمْنَاهَا، حَيْثُ حَرَمَتْ قِتَالَهُمْ بِشَرْطِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ وَهِيَ: الدُّخُولُ فِي الْإِسْلَامِ وَالْقِيَامُ بِآدَاءِ وَاجِبَاتِهِ. وَتَبَّ بِأَعْلَاهَا عَلَى أَذْنَاهَا، فَإِنَّ أَشْرَفَ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ: الصَّلَاةُ الَّتِي هِيَ حَقُّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَبَعْدَهَا آدَاءُ الزَّكَاةِ الَّتِي هِيَ نَفْعٌ مُتَعَدٍّ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَحَاوِيجِ، وَهِيَ أَشْرَفُ الْأَفْعَالِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْمَخْلُوقِينَ، وَلِهَذَا كَثِيرًا مَا يَقْرُنُ اللَّهُ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ. وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ»...^(١) الْحَدِيثُ.

وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحَّاكُ بْنُ مَزَاحِمٍ: إِنَّهَا نَسَخَتْ كُلَّ عَهْدٍ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَكُلَّ عَهْدٍ وَكُلَّ مِدَّةٍ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: لَمْ يَبْقَ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ وَلَا ذِمَّةٌ مُنْذُ نَزَلَتْ بَرَاءَةُ، وَانْسِلَاخُ الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ وَمُدَّةٌ مَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَبْلَ أَنْ تَنْزَلَ [بَرَاءَةُ]: أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ - مِنْ يَوْمِ أُنْزِلَ بَرَاءَةُ إِلَى عَشْرِ مِنْ أَوَّلِ شَهْرِ رَجَبِ الْآخِرِ^(٢).

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨﴾

[إِذَا طَلَبَ الْمُشْرِكُ الْأَمْنَ فَيُعْطَى]

يَقُولُ تَعَالَى لِتَبَيُّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الَّذِينَ أَمَرْتُكَ بِقِتَالِهِمْ وَأَخْلَلْتُ لَكَ اسْتِجَارَةَ نَفْسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ أَيِ اسْتَأْمَنَكَ فَاجِبُهُ إِلَى طَلَبَتِهِ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ أَيِ الْقُرْآنَ تَقْرُؤُهُ عَلَيْهِ وَتَذْكَرُ لَهُ شَيْئًا مِنْ [أَمْرِ] الدِّينِ تَقِيْمُ عَلَيْهِ بِهِ حُجَّةَ اللَّهِ ﴿ثُمَّ ابْلِغْهُ

(١) فتح الباري: ٩٥/١ ومسلم: ٥٣/١ (٢) الطبري: ١٤/

١٣٣ (٣) الطبري: ١٣٩/١٤ (٤) ابن هشام: ٤/٢٤٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٨٨

سُورَةُ التَّوْبَةِ

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا إِلَيْكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنْ أَلَّ اللَّهُ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ أَشْرَوْا بِعَيْتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَفَسَدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ تَكُونُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَلِيلًا أَيْمَةً الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تَقْلِيلُونَ قَوْمًا نَكَحُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدْعُكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةً أَحْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

﴿أَشْرَوْا بِعَيْتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يَعْنِي أَنَّهُمْ اغْتَاصَبُوا عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللَّهِ بِمَا نَهَوْا بِهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا الْخَبِيثَةِ ﴿فَفَسَدُوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أَيِ مَنْعُوا الْمُؤْمِنِينَ مِنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ وَكَذَا الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ إِلَى آخِرِهَا تَقَدَّمتْ.

﴿وَإِنْ تَكُونُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَلِيلًا أَيْمَةً الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾

يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾

[لَا أَيْمَانَ لِأَيِّمَةِ الْكُفْرِ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَإِنْ نَكَثَ الْمُشْرِكُونَ الدِّينَ عَاهَدْتُمُوهُمْ عَلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ ﴿أَيْمَنَهُمْ﴾ أَيِ عَهْدِهِمْ وَمَوَاقِفِهِمْ ﴿وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أَيِ عَابَوْهُ وَانْتَقَصَوْهُ، وَمِنْ هُنَا أُحِذِّقُ مَنْ سَبَّ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، أَوْ

إِيَّاهُمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ السَّنَةُ الْمَرْهَفُ أَيْنَ تَقِفُوا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ أَيِ أَمَانٌ وَيُتْرَكُونَ فِيمَا هُمْ فِيهِ وَهُمْ مُشْرِكُونَ بِاللَّهِ كَافِرُونَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَى مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِجْلَهُ﴾ ... الْآيَةُ [الفتح: ٢٥] ﴿فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أَيِ مَهْمَا تَمَسَّكُوا بِمَا عَاهَدْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ وَعَاهَدْتُمُوهُمْ مِنْ تَرْكِ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عَشْرَ سِنِينَ ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنْ أَلَّ اللَّهُ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وَقَدْ فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ. اسْتَمَرَّ الْعَهْدُ وَالْهَدْنَةُ مَعَ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ فِي سَنَةِ سِتٍّ إِلَى أَنْ نَقَضَتْ قُرَيْشُ الْعَهْدَ وَمَالُوا حُلَفَاءَهُمْ وَهُمْ بَنُو بَكْرِ عَلَى خِرَازَةِ أَخْلَافِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَفَتَلَوْهُمْ مَعَهُمْ فِي الْحَرَمِ أَيْضًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ غَزَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ سَنَةِ ثَمَانٍ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْبَلَدَ الْحَرَامَ وَمَكَّنَهُ مِنْ نَوَاصِيهِمْ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. فَأُطْلِقَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ بَعْدَ الْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ عَلَيْهِمْ فَشَمُوا الطُّلُقَاءَ، وَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ أَلْفَيْنِ، وَمَنْ اسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَفَرَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ إِلَيْهِ بِالْأَمَانِ وَالتَّسْيِيرِ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ يَذْهَبُ حَيْثُ شَاءَ، وَمِنْهُمْ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَغَيْرُهُمَا، ثُمَّ هَدَاهُمُ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْإِسْلَامِ التَّامِّ، وَاللَّهُ الْمَحْمُودُ عَلَى جَمِيعِ مَا يُقَدِّرُهُ وَيَفْعَلُهُ.

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿٨﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُحَرِّضًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مُعَادَاةِ الْمُشْرِكِينَ وَالتَّبَرِّيِ مِنْهُمْ وَمُبَيِّنًا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عَهْدٌ لِشُرْكِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى وَكُفْرِهِمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا تَنْهَى إِذَا ظَهَرُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَأَدْبَلُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَقْبَلُوا وَلَمْ يَذَرُوا، وَلَا رَاقِبُوا فِيهِمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ وَعِكْرِمَةُ وَالْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِلَّا: الْقَرَابَةُ، وَالذِمَّةُ: الْعَهْدُ ^(١). وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ ^(٢).

﴿أَشْرَوْا بِعَيْتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَفَسَدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذِمًّا لِلْمُشْرِكِينَ وَحَثًّا لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِهِمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٨٩

سُورَةُ التَّوْبَةِ

قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ بِضَرْمِكُمْ
عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبُ
غِيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا عَلِمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَهِدُوا
مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ
وَلِجَمَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ
أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ
أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾
إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَسَى
أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سَفَايَةَ
الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوِينَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾

اللَّهُ ﷻ عَامَ الْفَتْحِ وَكَانَ مَا كَانَ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.
وَقَوْلُهُ: ﴿أَتَخَشَّوْنَهُ ﷻ أَفَلَا أَنْ تَخَشَّوْهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: لَا تَخَشَّوْهُمْ وَاحْشَوْهُمْ فَآنَا أَهْلُ أَنْ
يَخْشَى الْعِبَادُ مِنْ سَطَوْتِي وَعُظُوْتِي، فَبِيَدِي الْأَمْرُ، وَمَا
شِئْتُ كَانَ، وَمَالَمْ أَشَأْ لَمْ يَكُنْ، ثُمَّ قَالَ، عَزِيمَةٌ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ وَيَنَانًا لِحُكْمَتِهِ، فِيمَا شَرَعَ لَهُمْ مِنَ الْجِهَادِ - مَعَ
قُدْرَتِهِ عَلَى إِهْلَاكِ الْأَعْدَاءِ بِأَمْرِ مِنْ عِنْدِهِ -: ﴿قَتَلُوهُمْ
يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ بِضَرْمِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ
قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾: وَهَذَا عَامٌّ فِي الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ، وَقَالَ
مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالسُّدِّيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ
قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ يَعْنِي خَزَاعَةَ^(١). وَأَعَادَ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ:
﴿وَيَذْهَبُ غِيْظُ قُلُوبِهِمْ﴾ عَلَيْهِمْ أَيْضًا. ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ
يَشَاءُ﴾ أَيِ مَنْ عِبَادِهِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أَيِ بِمَا يُصْلِحُ عِبَادَهُ

مَنْ طَعَنَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ أَوْ ذَكَرَهُ بِنَقْصٍ، وَلِهَذَا قَالَ:
﴿فَقَتَلُوا أَيْمَةً الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا آيَمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾
أَيِ يَرْجِعُونَ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ وَالضَّلَالِ. وَقَدْ
قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: أَيْمَةُ الْكُفْرِ. كَأَبِي جَهْلٍ وَعُتْبَةُ وَسَيْبَةُ
وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ، وَعَدَدٌ رَجَالًا. وَقَالَ الْأَعْمَشُ عَنْ زَيْدِ بْنِ
وُهَيْبٍ عَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّهُ قَالَ: مَا قُوتِلَ أَهْلُ هَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ^(٢).
وَرَوَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مِثْلُهُ.
وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ وَإِنْ كَانَ سَبَبُ نَزُولِهَا مُشْرِكِي
قُرَيْشٍ، فَهِيَ عَامَّةٌ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقَالَ الْوَلِيدُ
ابْنُ مُسْلِمٍ: حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بْنُ عَمْرٍو عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ
جُبَيْرٍ بْنِ نَفِيرٍ: أَنَّهُ كَانَ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى
النَّاسِ حِينَ وَجَّهَهُمْ إِلَى الشَّامِ قَالَ: إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ قَوْمًا
مُحَوَّاةً رُؤُوسَهُمْ، فَاضْرِبُوا مَعَاقِدَ الشَّيْطَانِ مِنْهُمْ
بِالسُّيُوفِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ أَقْتُلَ رَجُلًا مِنْهُمْ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ
أَقْتُلَ سَبْعِينَ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿فَقَتَلُوا
أَيْمَةً الْكُفْرِ﴾ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ^(٣).

﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ قَوْمًا نَكَّسُوا آيَمَتَهُمْ وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ
الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخَشَّوْنَهُ ﷻ أَفَلَا أَحَقُّ أَنْ
تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ
بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ بِضَرْمِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَيَذْهَبُ غِيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾

[الْحَثُّ عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ وَبَيَانُ بَعْضِ فَوَائِدِهِ]
وَهَذَا أَيْضًا تَهْنِئَةٌ وَتَحْضِيضٌ وَإِعْرَافٌ عَلَى قِتَالِ
الْمُشْرِكِينَ النَّاكِثِينَ بِأَيْمَانِهِمُ الَّذِينَ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ
مِنْ مَكَّةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِيُثْمِرُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ
الْمُذَكِّرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ
وَأَيَّامَكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الْآيَةُ [المتحنة: ١]، وَقَالَ
تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ
مِنْهَا﴾... الْآيَةُ [الأسراء: ٧٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ بَدَّوْكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ: يَوْمَ بَدْرٍ حِينَ خَرَجُوا
لِنَصْرِ عِيْرِهِمْ، فَلَمَّا نَجَتْ وَعَلِمُوا بِذَلِكَ اسْتَمَرُّوا عَلَى
وُجُوهِهِمْ، طَلَبًا لِلْقِتَالِ بَغْيًا وَتَكْبَرًا كَمَا تَقَدَّمَ بَسْطُ ذَلِكَ.
وَقِيلَ الْمُرَادُ: نَقَضَهُمُ الْعَهْدَ وَقَتَلَهُمْ مَعَ حُلَفَائِهِمْ بَنِي بَكْرٍ
لِخَزَاعَةِ أَخْلَافِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى سَارَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ

(١) الطبري: ١٥٦/١٤ (٢) ابن أبي حاتم: ١٧٦١/٦ (٣) الطبري: ١٦١/١٤

قَرَأَ: (مَسَجِدَ اللَّهِ) فَأَرَادَ بِهِ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ أَشْرَفَ الْمَسَاجِدِ فِي الْأَرْضِ الَّذِي بُنِيَ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَسَسَهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، هَذَا وَهُمْ شَاهِدُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أَيُّ بِحَالِهِمْ وَيَقَالِهِمْ قَالَ السُّدِّيُّ: لَوْ سَأَلْتُ النَّضْرَانِيَّ مَا دِينُكَ؟ لَقَالَ: نَضْرَانِيٌّ، وَلَوْ سَأَلْتُ الْيَهُودِيَّ مَا دِينُكَ؟ لَقَالَ: يَهُودِيٌّ، وَالصَّابِيَّ لَقَالَ: صَابِيٌّ، وَالْمُشْرِكُ لَقَالَ: مُشْرِكٌ^(١). «أُولَئِكَ حَاطَتْ أَعْمَلُهُمْ» أَيُّ بِشِرْكَهُمْ «وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ» وَقَالَ تَعَالَى: «وَمَا لَهُمْ آلَا يَعْلَمُهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» [الأنفال: ٣٤].

[أَهْلُ الْإِيمَانِ يَعْمُرُونَ الْمَسَاجِدَ]

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» فَشَهِدَ تَعَالَى بِالْإِيمَانِ لِعُمَارِ الْمَسَاجِدِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» وَرَوَاهُ الثِّرِمِذِيُّ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَالْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ^(٢).

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ الْأَوْدِيِّ قَالَ: أَدْرَكْتُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْمَسَاجِدَ بَيُوتُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، وَإِنَّهُ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكْرِمَ مَنْ زَارَهُ فِيهَا. وَقَوْلُهُ: «وَأَقَامَ الصَّلَاةَ» أَيُّ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ عِبَادَاتِ الْبَدَنِ «وَأَتَى الزَّكَاةَ» أَيُّ الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْمُتَعَدِّيَةِ إِلَى بَرِّ الْخَلَائِقِ. وَقَوْلُهُ: «وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ» أَيُّ وَلَمْ يَخَفْ إِلَّا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَمْ يَخْشَ سِوَاهُ «فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ» قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» يَقُولُ: مَنْ وَحَّدَ اللَّهُ وَآمَنَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ يَقُولُ: مَنْ آمَنَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ «وَأَقَامَ الصَّلَاةَ» يَعْنِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ «وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ» يَقُولُ: لَمْ يَعْبُدْ إِلَّا اللَّهَ ثُمَّ قَالَ: «فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ» يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ كَقَوْلِهِ لِنَبِيِّهِ ﷺ: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا» [الإسراء: ٧٩] يَقُولُ: إِنَّ رَبَّكَ سَيَبْعَثُكَ مَقَامًا مَحْمُودًا وَهِيَ الشَّفَاعَةُ، وَكُلُّ «عَسَى» فِي

﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْوَالِهِ الْكُونِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ فَيَعْمَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، وَهُوَ الْعَادِلُ الْحَكِيمُ الَّذِي لَا يَجُورُ أَبَدًا، وَلَا يُضَيِّعُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، بَلْ يُجَازِي عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَسْجُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» ﴿١٦﴾

[مِنْ حِكْمَةِ الْقِتَالِ اخْتِبَارَ الْمُسْلِمِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: «أَمْ حَسِبْتُمْ» أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنْ تُتْرَكُوا مُهْمَلِينَ لَا نَخْتَبِرْكُمْ بِأُمُورٍ يَظْهَرُ فِيهَا أَهْلُ الْعَزْمِ الصَّادِقِ مِنَ الْكَاذِبِ؟ وَلِهَذَا قَالَ: «وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَسْجُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً» أَيُّ بَطَانَةً وَدَحِيلَةً بَلْ هُمْ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ عَلَى النُّصْحِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، فَانْتَفَى بِأَحَدِ الْقِسْمَيْنِ عَنِ الْآخَرِ.

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: «الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا إِمَّا مَسَا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ» [العنكبوت: ١-٣] وَقَالَ تَعَالَى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الْقَادِرِينَ» [آل عمران: ١٤٢] وَقَالَ تَعَالَى: «مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ» الْآيَةُ [آل عمران: ١٧٩].

وَالْحَاصِلُ: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا شَرَعَ الْجِهَادَ لِعِبَادِهِ بَيَّنَّ أَنْ لَهُ فِيهِ حِكْمَةٌ وَهُوَ اخْتِبَارُ عِبِيدِهِ مَنْ يُطِيعُهُ وَمَنْ يَعْصِيهِ، وَهُوَ تَعَالَى الْعَالِمُ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ، فَيَعْلَمُ الشَّيْءَ قَبْلَ كَوْنِهِ وَمَعَ كَوْنِهِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، وَلَا رَادَّ لِمَا قَدَرَهُ وَآمُضَاهُ.

«مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَاطَتْ أَعْمَلُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ» ﴿١٧﴾ «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَأَتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ» «فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ» ﴿١٨﴾

[لَا يَعْمُرُ الْمُشْرِكُونَ مَسَاجِدَ اللَّهِ]

يَقُولُ تَعَالَى: مَا يَبْنِي لِلْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ الَّتِي بُنِيََتْ عَلَى اسْمِهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمَنْ

(١) الطبري: ١٦٥/١٤ (٢) تحفة الأحوذى: ٣٦٥/٧

والحاكم: ٢١٢/١

الْقُرْآنِ، فَهِيَ وَاجِبَةٌ^(١).

﴿أَجَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَغْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ^(٣) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نِصْمٌ مُقِيمٌ^(٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ^(٥) [سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لَا يُساوِيَانِ

الإِيمَانُ وَالْجِهَادُ

قَالَ الْعَوْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: إِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا: عِمَارَةُ بَيْتِ اللَّهِ وَقِيَامٌ عَلَى السَّقَايَةِ خَيْرٌ مِمَّنْ آمَنَ وَجَاهَدَ، وَكَانُوا يَفْخَرُونَ بِالْحَرَمِ وَيَسْتَكْبِرُونَ بِهِ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ أَهْلُهُ وَعِمَارُهُ، فَذَكَرَ اللَّهُ اسْتِكْبَارَهُمْ وَإِعْرَاضَهُمْ، فَقَالَ لِأَهْلِ الْحَرَمِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَلِّى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ لَنَكْصُونَ﴾^(٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِيرًا تَهْجُرُونَ^(٧) [المؤمنون: ٦٦، ٦٧] يَعْنِي أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ بِالْحَرَمِ قَالَ: ﴿بِهِ سَمِيرًا﴾ كَانُوا يَسْمُرُونَ بِهِ وَيَهْجُرُونَ الْقُرْآنَ وَالنَّبِيَّ ﷺ فَخَيَّرَ اللَّهُ الْإِيمَانَ وَالْجِهَادَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى عِمَارَةِ الْمُشْرِكِينَ الْبَيْتِ وَقِيَامِهِمْ عَلَى السَّقَايَةِ وَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَعَ الشِّرْكِ بِهِ أَنْ كَانُوا يَغْمُرُونَ بَيْتَهُ وَيَخْدُمُونَهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ رَعَمُوا أَنَّهُمْ أَهْلُ الْعِمَارَةِ، فَسَمَّاهُمْ اللَّهُ ظَالِمِينَ بِشِرْكِهِمْ فَلَمْ تَغْنِ عَنْهُمْ الْعِمَارَةُ شَيْئًا^(٨).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: نَزَلَتْ فِي الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ حِينَ أُسِرَ يَوْمَ بَدْرٍ قَالَ: لَئِنْ كُنْتُمْ سَبَقْتُمُونَا بِالْإِسْلَامِ وَالْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ لَقَدْ كُنَّا نَعْمُرُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَنَسْقِي الْحَاجَّ، وَنَفُكُ الْعَانِي، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَجَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يَعْنِي أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ كَانَ فِي الشِّرْكِ، وَلَا أَقْبَلُ مَا كَانَ فِي الشِّرْكِ^(٩). وَقَالَ الصَّحَّاحُ بْنُ مَرْجَمٍ: أَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْعَبَّاسِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ أُسْرُوا يَوْمَ بَدْرٍ يُعَيِّرُونَهُمْ بِالشِّرْكِ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ: أَمَّا وَاللَّهِ! لَقَدْ كُنَّا نَعْمُرُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَنَفُكُ الْعَانِي، وَنَحْجُبُ الْبَيْتَ وَنَسْقِي الْحَاجَّ، فَانْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَجَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾... الْآيَةَ^(١٠).

سُورَةُ التَّوْبَةِ

١٩٠

سُورَةُ التَّوْبَةِ

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نِصْمٌ مُقِيمٌ^(١١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ^(١٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ^(١٣) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبِحَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يُهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ^(١٤) لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ^(١٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ^(١٦)

وَقَدْ وَرَدَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ فَلَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِهِ هُنَا، رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ الثَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: مَا أَبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أَسْقِيَ الْحَاجَّ. وَقَالَ آخَرُ: مَا أَبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أَعْمُرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ. وَقَالَ آخَرُ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ. فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ: لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ نَبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْنَا الْجُمُعَةَ دَخَلْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ [فَسَأَلْنَاهُ]. فَزَلَّتْ: ﴿أَجَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١٧).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ

(١) الطبري: ١٦٧/١٤ (٢) الطبري: ١٧٠/١٤ (٣) الطبري: ١٧٠/١٤ (٤) الطبري: ١٧٢/١٤ (٥) مسلم: ١٨٧٩ وعبد الرزاق: ٢٦٨/٢ مسلم (١٨٧٩)

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَنِتْلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيْرَابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَن يَكْفُرُوا وَلَوْ تَوَفَّقُوا ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتُكُمُ الْكَسَادُهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ [الْأَمْرُ بِتَرْكِ مَوَالِيَةِ الْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَقَارِبَ]

أَمَرَ تَعَالَى بِمَبَايِنَةِ الْكُفَّارِ بِهِ وَإِنْ كَانُوا آبَاءَ أَوْ أَبْنَاءَ، وَنَهَى عَنِ مَوَالِيَتِهِمْ إِذَا اسْتَحَبُّوا، أَيْ اخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَتَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَحِدْ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَتَدَّبَهُمْ رُوحٌ مِنْهُ وَيَدْلُحُّهُمْ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾... [المجادلة: ٢٢]، وَرَوَى الْحَافِظُ الْبَيْهَقِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شُوذَبٍ قَالَ: جَعَلَ أَبُو أَبِي عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ يَنْعَتُ لَهُ الْإِلَهَةَ يَوْمَ بَدْرٍ وَجَعَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَحِدُّ عَنْهُ، فَلَمَّا أَكْثَرَ الْجَرَّاحُ قَصْدَهُ ابْنُهُ أَبُو عُبَيْدَةَ فَقَتَلَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لَا تَحِدْ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] الْآيَةَ (١). ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى رَسُولَهُ أَنْ يَتَوَعَّدَ مَنْ أَثَرِ أَهْلِهِ وَقَرَابَتِهِ وَعَشِيرَتِهِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَقَالَ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا أَوْ بُيُوتُكُمْ أَوْ مَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا أَيَّ فَاتِنَتٍ وَمَاذَا يَجِلُّ بِكُمْ مِنْ عِقَابِهِ وَنَكَالِهِ بِكُمْ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ زُهْرَةَ بْنِ مَعْبُدٍ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ: وَاللَّهِ! لَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ» فَقَالَ عُمَرُ: فَأَنْتَ الْآنَ وَاللَّهِ! أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الآنَ يَا عُمَرُ» (٢). انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ الْبُخَارِيُّ (٣). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ

وَأَبُو دَاوُدَ - وَاللَّفْظُ لَهُ - عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِيَةِ، وَأَخَذْتُمْ بِأَذْنَابِ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ» (٤).

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُرْهُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ (٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ [إِنْ حَضَرَ الْفَتْحَ عَلَى النَّصْرِ الْغَيْبِيُّ]

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: هَذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ مِنْ «بَرَاءة» يُذَكِّرُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فَضْلَهُ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانَهُ لَدَيْهِمْ

(١) البيهقي: ٢٧/٩ (٢) أحمد: ٣٣٦/٤ (٣) فتح الباري:

٥٣٢/١١ (٤) أحمد: ٤٢/٢ وأبو داود: ٣٤٦٢

فِي نَصْرِهِ إِتَّاهُمْ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ مِنْ غَزَوَاتِهِمْ مَعَ رَسُولِهِ، وَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى وَبِتَأْيِيدِهِ وَتَقْدِيرِهِ، لَا يَبْعُدُهُمْ وَلَا يَبْعُدُهُمْ، وَتَبَهُهُمْ عَلَى أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِهِ، سَوَاءٌ قَلَّ الْجَمْعُ أَوْ كَثُرَ، فَإِنَّ يَوْمَ حُتَيْنَ أَغْجَبَتْهُمْ كَثْرَتُهُمْ، وَمَعَ هَذَا مَا أَجْدَى ذَلِكَ عَنْهُمْ شَيْئًا قَوْلُوا مُدِيرِينَ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ أَنْزَلَ نَصْرَهُ وَتَأْيِيدَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ مَعَهُ - كَمَا سَيَبَيِّنُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - مُفَصَّلًا، لِيُعْلَمَهُمْ: أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، وَيَأْمَدَادِهِ وَإِنَّ قَلَّ الْجَمْعُ، فَ«كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» [البقرة: ٢٤٩].

[وَفَعَهُ غَزْوَةَ حُتَيْنَ]

وَقَدْ كَانَتْ وَقَعَةُ حُتَيْنَ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ فِي شَوَالِ سَنَةِ ثَمَانٍ مِنَ الْهِجْرَةِ. وَذَلِكَ لَمَّا فَرَّغَ ﷺ مِنْ فَتْحِ مَكَّةَ وَتَمَهَّدَتْ أُمُورُهَا وَأَسْلَمَ عَامَّةُ أَهْلِهَا، وَأَطْلَقَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَبَلَغَهُ أَنَّ هَوَازِنَ جَمَعُوا لَهُ لِيُفَاتِلُوهُ، وَأَنَّ أَمِيرَهُمْ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ النَّصْرِيُّ، وَمَعَهُ ثِقِيفٌ بِكَمَالِهَا، وَبَنُو جُشَمٍ، وَبَنُو سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، وَأَوَزَاعٌ مِنْ بَنِي هِلَالٍ، وَهُمْ قَلِيلٌ، وَنَاسٌ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَامِرٍ وَعَوْفٍ بْنِ عَامِرٍ، وَقَدْ أَقْبَلُوا وَمَعَهُمُ النِّسَاءُ وَالْوِلْدَانُ وَالشَّاءُ وَالنَّعَمُ، وَجَاءُوا بِقَصَصِهِمْ وَقَضِيضِهِمْ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي جَيْشِهِ الَّذِي جَاءَ مَعَهُ لِلْفَتْحِ وَهُوَ عَشْرَةُ آلَافٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَقَبَائِلُ الْعَرَبِ، وَمَعَهُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَهُمْ الطُّلَقَاءُ فِي أَلْفَيْنِ أَفْضًا، فَسَارَ بِهِمْ إِلَى الْعَدُوِّ فَالْتَقَوْا بِوَادٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ يُقَالُ لَهُ: (حُتَيْنَ) فَكَانَتْ فِيهِ الْوَقَعَةُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ فِي غَلَسِ الصُّبْحِ، انْحَدَرُوا فِي الْوَادِي وَقَدْ كَمَنْتَ فِيهِ هَوَازِنَ، فَلَمَّا تَوَاجَهُوا لَمْ يَشْعُرِ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا بِهِمْ قَدْ تَأَوَّرُوهُمْ، وَرَشَقُوا بِالْبَنَالِ وَأَضْلَتُوا الشُّيُوفَ، وَحَمَلُوا حَمَلَةً رَجُلٌ وَاحِدٌ كَمَا أَمَرَهُمْ مَلِكُهُمْ، فِعِنْدَ ذَلِكَ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدِيرِينَ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَبَتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ رَاكِبٌ يَوْمِئِذٍ بَعْلَتُهُ الشَّهْبَاءُ يَسُوقُهَا إِلَى نَحْرِ الْعَدُوِّ، وَالْعَبَّاسُ عَمَهُ آخِذٌ بِرِكَابِهَا الْأَيْمَنِ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ آخِذٌ بِرِكَابِهَا الْأَيْسَرِ، يُثْقَلَانِهَا لِكَلَّا تُسْرِعَ السَّيْرَ وَهُوَ يَتَوَّه بِأَسْمِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَدَنَعُوا الْمُسْلِمِينَ إِلَى الرَّجْعَةِ وَيَقُولُ: «إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ، إِلَيَّ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ» وَيَقُولُ فِي تِلْكَ الْحَالِ: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» وَكَبَتْ مَعَهُ مِنْ

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا عُمَارَةَ، أَفَرَزْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُتَيْنَ؟ فَقَالَ: لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَزِرْ، إِنَّ هَوَازِنَ كَانُوا قَوْمًا رُمَاءَ، فَلَمَّا لَقِينَاهُمْ وَحَمَلْنَا عَلَيْهِمْ انْهَزَمُوا، فَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى الْغَنَائِمِ فَاشْتَقَبَلُونَا بِالسَّهَامِ فَانْهَزَمَ النَّاسُ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو سُفْيَانَ بْنَ الْحَارِثِ آخِذٌ بِلِجَامِ بَعْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ وَهُوَ يَقُولُ: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»^(١)

قُلْتُ: وَهَذَا فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّجَاعَةِ التَّامَّةِ، إِنَّهُ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ فِي حَوْمَةِ الْوَعْيِ، وَقَدْ انْكَشَفَ عَنْهُ جَيْشُهُ، وَهُوَ مَعَ هَذَا عَلَى بَعْلَةٍ وَلَيْسَتْ سَرِيعَةَ الْجَزْيِ، وَلَا تَصْلُحُ لِفَرٍّ وَلَا لِكَرْ وَلَا لِهَرْبٍ، وَهُوَ مَعَ هَذَا أَيْضًا يَرْكُضُهَا إِلَى وُجُوهِهِمْ وَيَتَوَّه بِأَسْمِهِ لِيَعْرِفَهُ مَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَمَا هَذَا كُلُّهُ إِلَّا ثِقَّةٌ بِاللَّهِ وَتَوَكُّلًا عَلَيْهِ، وَعِلْمًا مِنْهُ بِأَنَّهُ سَيَنْصُرُهُ وَيُنِّمُ مَا أَرْسَلَهُ

حَرَّمَ اللَّهُ رَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾
[مَنْعُ الْمُشْرِكِينَ عَنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ]

أَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ الطَّاهِرِينَ دِينًا وَذَاتًا بِتَنْفِي
الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ هُمْ نَجَسٌ دِينًا عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَأَنْ
لَا يَقْرُبُوهُ بَعْدَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَكَانَ نَزُولُهَا فِي سَنَةِ تِسْعٍ،
وَلِهَذَا بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا صُحْبَةً أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا عَامِدًا وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَادِيَ فِي الْمُشْرِكِينَ أَنْ لَا يَحْجُجَ بَعْدَ
هَذَا الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ غُرَبَاءُ. فَاتَمَّ اللَّهُ ذَلِكَ
وَحَكَمَ بِهِ شَرْعًا وَقَدَرًا. وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ جَابِرِ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا
يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾: إِلَّا أَنْ يَكُونَ
عَبْدًا أَوْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الدِّمَةِ^(١). وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو عَمْرٍو
الْأَوْزَاعِيُّ: كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ
امْتَنَعُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ دُخُولِ مَسَاجِدِ الْمُسْلِمِينَ
وَأَتَّبَعَ نَهْيَهُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾. وَقَالَ
عَطَاءٌ: الْحَرَمُ كُلُّهُ مَسْجِدٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ
الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ وَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى
نَجَاسَةِ الْمُشْرِكِ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى طَهَارَةِ الْمُؤْمِنِ، وَلَمَّا وَرَدَ
فِي الصَّحِيحِ: «الْمُؤْمِنُ لَا يَنْجُسُ»^(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ﴾ قَالَ [مُحَمَّدٌ] بْنُ إِسْحَاقَ: وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ
قَالُوا: لَنَقْطَعَنَّ عَنَّا الْأَسْوَاقَ وَلَنَهْلِكَنَّ التِّجَارَةَ وَلَنَذْهَبَنَّ
[عَنَّا] مَا كُنَّا نَصِيبُ فِيهَا مِنَ الْمَرَافِقِ فَتَزَلَّتْ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ
عِيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ مِنْ وَجْهِ غَيْرِ ذَلِكَ
﴿إِنْ شَاءَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أَيُّ إِنَّ هَذَا عَوَاضُ
مَا تَخَوَّفْتُمْ مِنْ قَطْعِ تِلْكَ الْأَسْوَاقِ فَعَوَّضَهُمُ اللَّهُ بِمَا قُطِعَ
عَنْهُمْ مِنْ أَمْرِ الشُّرْكِ: مَا أَعْطَاهُمْ مِنْ أَعْنَاقِ أَهْلِ الْكِتَابِ
مِنَ الْجِزْيَةِ^(٣). وَهَكَذَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ
وَعِكْرَمَةَ وَسَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ وَفَتَادَةَ وَالصَّحَّاحَ وَغَيْرِهِمْ^(٤).
﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أَيُّ بِمَا يُضْلِحُكُمْ ﴿حَكِيمٌ﴾ أَيُّ فِيمَا يَأْمُرُ
بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ لِأَنَّهُ الْكَامِلُ فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، الْعَادِلُ فِي
خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلِهَذَا عَوَّضَهُمُ عَنْ تِلْكَ

بِهِ، وَيُظْهِرُ دِينَهُ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ
أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أَيُّ طُمَأْنِينَتَهُ وَبَدَأَتْهُ عَلَى رَسُولِهِ
﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيُّ الَّذِينَ مَعَهُ ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾
وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا
الْقَاسِمُ قَالَ: حَدَّثَنِي الْحَسَنُ بْنُ عَرْفَةَ قَالَ: حَدَّثَنِي الْمُعْتَمِرُ
ابْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ عَوْفٍ - هُوَ ابْنُ أَبِي جَمِيلَةَ - الْأَعْرَابِيُّ
قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ مَوْلَى ابْنِ بُرْزَنْ: حَدَّثَنِي رَجُلٌ
كَانَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ حُتَيْنَ قَالَ: لَمَّا التَقَيْنَا نَحْنُ
وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُتَيْنَ لَمْ يَقُومُوا لَنَا حَلَبَ
شَاةً، قَالَ: فَلَمَّا كَسَفْنَاهُمْ جَعَلْنَا نَسُوقُهُمْ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى
انْتَهَيْنَا إِلَى صَاحِبِ الْبُعْلَةِ الْبَيْضَاءِ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
قَالَ: فَتَلَقَّانَا عَنْدهُ رِجَالٌ بِيضٌ جَسَانُ الْوُجُوهِ، فَقَالُوا لَنَا:
شَاهَبَ الْوُجُوهُ، ارْجِعُوا: قَالَ: فَانْهَزَمْنَا وَرَكِبُوا أَكْتَافَنَا
فَكَانَتْ إِيَّاهَا^(٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى بَقِيَّةِ هَوَازِنَ فَأَسْلَمُوا وَقَلِمُوا
عَلَيْهِ مُسْلِمِينَ، وَلَحِقُوهُ وَقَدْ قَارَبَ مَكَّةَ عِنْدَ الْجَعْرَانَةِ، وَذَلِكَ
بَعْدَ الْوَفْقَةِ بِقَرِيبٍ مِنْ عِشْرِينَ يَوْمًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ خَيَّرَهُمْ بَيْنَ
سَبِيهِمْ وَبَيْنَ أَمْوَالِهِمْ فَأَخْتَارُوا سَبِيَهُمْ، وَكَانُوا سِتَّةَ آلَافٍ
أَسِيرٍ مَا بَيْنَ صَبِيٍّ وَامْرَأَةٍ، فَزَدَهُ عَلَيْهِمْ، وَقَسَمَ أَمْوَالَهُمْ بَيْنَ
الْعَالِيَيْنِ وَنَقَلَ أَنَا سَا مِنْ الطُّلَقَاءِ لِيَتَأَلَّفَ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ
فَأَعْطَاهُمْ مِائَةَ مِائَةٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةٍ مَنْ أَعْطِيَ مِائَةَ
مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ النَّضْرِيِّ وَاسْتَعْمَلَهُ عَلَى قَوْمِهِ كَمَا كَانَ،
فَامْتَدَحَهُ بِقَصِيدَتِهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا:

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ
فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ بِمِثْلِ مُحَمَّدٍ
أَوْفَى وَأَعْطَى لِلْجَزِيلِ إِذَا اجْتَنَدِي
وَمَتَى تَشَأُ يُخْبِرُكَ عَمَّا فِي عَدِي
وَإِذَا الْكَتِيبَةُ عَرَدَتْ أَنْيَابُهَا
بِالسَّمْهَرِيِّ وَضَرَبَ كُلُّ مُهَنَّدٍ
فَكَأَنَّهُ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ

وَسَطَ الْهَبَاءُ خَادِرٌ فِي مَرَصِدٍ
﴿يَتَابُهَا الَّذِينَ﴾ أَمْوًا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا
الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً فَسَوْفَ
يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾
فَقِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا

(١) الطبري: ١٨٦/١٤ (٢) عبد الرزاق: ٢٧١/٢ (٣) فتح
الباري: ١٥٠/٣ (٤) الطبري: ١٩٧/١٤ (٥) الطبري: ١٤/١٤
١٩٦-١٩٣

جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلَامِ، وَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَصْبَيقِهِ»^(١).

وَلِهَذَا اشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تِلْكَ الشُّرُوطَ الْمَعْرُوفَةَ فِي إِذْلَاقِهِمْ وَتَضْغِيرِهِمْ، وَذَلِكَ مِمَّا رَوَاهُ الْأَيْمَةُ الْحَفَاطُ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنَمٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: كَتَبْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ صَالَحَ نَصَارَى مِنْ أَهْلِ الشَّامِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابُ لِعَبْدِ اللَّهِ عُمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، مِنْ نَصَارَى مَدِينَةِ كَذَا وَكَذَا: إِنَّكُمْ لَمَّا قَدِمْتُمْ عَلَيْنَا سَأَلْنَاكُمْ الْأَمَانَ لَأَنْفُسِنَا وَذَرَارِينَا وَأَمْوَالِنَا وَأَهْلٍ وَلِيَّنَا، وَشَرَطْنَا لَكُمْ عَلَى أَنْفُسِنَا أَنْ لَا نُحَدِّثَ فِي مَدِينَتِنَا وَلَا فِيمَا حَوْلَهَا ذِكْرًا وَلَا كَيْسَةً وَلَا قَلَايَةً (هُوَ تَعْرِيبٌ "كَلَادَةٌ" وَهِيَ مِنْ بَيوت عِبَادَاتِ النَّصَارَى) وَلَا صُومَعَةً رَاهِبٍ، وَلَا نُجَدِّدُ مَا حَرَبَ مِنْهَا، وَلَا نُحْيِي مِنْهَا مَا كَانَ خِطَطًا لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَلَّا نَمْنَعُ كَنَائِسَنَا أَنْ يَنْزِلَهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ، وَأَنْ نُوَسِّعَ أَبْوَابَنَا لِلْمَارَّةِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَأَنْ نُنْزِلَ مَنْ مَرَّ بِنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ نَطْعُمُهُمْ، وَلَا نُؤْوِي فِي كَنَائِسِنَا وَلَا مَنَازِلِنَا جَاسُوسًا، وَلَا نَكْتُمُ عَشًّا لِلْمُسْلِمِينَ، وَلَا نَعْلَمُ أَوْلَادَنَا الْقُرَّانَ، وَلَا نَظْهَرُ شِرْكًَا وَلَا نَدْعُو إِلَيْهِ أَحَدًا، وَلَا نَمْنَعُ أَحَدًا مِنْ ذَوِي قَرَابَتِنَا الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ إِنْ أَرَادُوهُ، وَأَنْ نُؤَفِّرَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ نَقُومَ لَهُمْ مِنْ مَجَالِسِنَا إِنْ أَرَادُوا الْجُلُوسَ، وَلَا تَنْشَبَةَ بِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنْ مَلَابِسِهِمْ فِي قَلَنْسُوءَةٍ وَلَا عِمَامَةٍ، وَلَا نَعْلِينَ وَلَا فَرْقِ شَعْرٍ، وَلَا نَتَكَلَّمُ بِكَلَامِهِمْ وَلَا نَكْتُمِي بِكَلَامِهِمْ، لَا نَرْكَبُ السُّرُوحَ وَلَا نَتَقَلَّدُ السُّيُوفَ، وَلَا نَتَّخِذُ شَيْئًا مِنَ السَّلَاحِ، وَلَا نَحْمِلُهُ مَعَنَا، وَلَا نَنْقُشُ خَوَاتِيمَنَا بِالْعَرَبِيَّةِ، وَلَا نَبِيعُ الْخُمُورَ. وَأَنْ نَجْزِيَ مَقَادِيمَ رُؤُوسِنَا، وَأَنْ نَلْزِمَ زَيْنًا حَيْثُمَا كُنَّا، وَأَنْ نَشُدَّ الزَّيْنَانِيرَ عَلَى أَوْسَاطِنَا، وَأَنْ لَا نَظْهَرُ الصَّلِيبَ عَلَى كَنَائِسِنَا، وَأَنْ لَا نَظْهَرُ ضَلْبَتَنَا وَلَا كُتْبَتَنَا فِي شَيْءٍ مِنْ طُرُقِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا أَشْوَاقِهِمْ، وَلَا نَضْرِبَ نَوَافِيسَنَا فِي كَنَائِسِنَا إِلَّا ضَرْبًا خَفِيفًا، وَأَنْ لَا نَرْفَعَ أَصْوَاتَنَا بِالْقِرَاءَةِ فِي كَنَائِسِنَا فِي شَيْءٍ مِنْ حَضْرَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا نُخْرِجَ سَعَانِينَ (عِيدٌ مَعْرُوفٌ لِلنَّصَارَى) وَلَا بَاغُوتًا (الْبَاغُوتُ لِلنَّصَارَى كَالِاسْتِسْقَاءِ لِلْمُسْلِمِينَ)، وَلَا

الْمَكَاسِبَ بِأَمْوَالِ الْجَزْيَةِ الَّتِي يَأْخُذُونَهَا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ. [التَّخْرِيسُ عَلَى قِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ حَتَّى يُعْطُوا الْجَزْيَةَ] فَقَالَ: «فَتِلْكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجَزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ» فَهُمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَمَّا كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ إِيْمَانٌ صَحِيحٌ بِأَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا بِمَا جَاءُوا بِهِ وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ آرَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ وَآبَاءَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ لَا لِأَنَّهُ شَرَعَ اللَّهُ وَدِينَهُ، لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِمَا بِأَيْدِيهِمْ إِيْمَانًا صَحِيحًا لَقَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَى الْإِيْمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ لِأَنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ بَشَرُوا بِهِ وَأَمَرُوا بِاتِّبَاعِهِ، فَلَمَّا جَاءَ وَكَفَرُوا بِهِ وَهُوَ أَشْرَفُ الرُّسُلِ، عَلِمَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مَتَمَسِّكِينَ بِشَرْعِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ لِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. بَلْ لِحُطُولِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ، فَلِهَذَا لَا يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ بِبَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ وَقَدْ كَفَرُوا بِسَيِّدِهِمْ وَأَفْضَلِهِمْ وَخَاتَمِهِمْ وَأَكْمَلِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: «فَتِلْكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ نَزَلَتْ أَوَّلَ الْأَمْرِ بِقِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ بَعْدَ مَا تَمَهَّدَتْ أُمُورُ الْمُشْرِكِينَ وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا.

فَلَمَّا اسْتَقَامَتْ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابَتَيْنِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، وَكَانَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ ثَنَعٍ وَلِهَذَا تَجَهَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِقِتَالِ الرُّومِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى ذَلِكَ وَأَظْهَرَهُ لَهُمْ، وَبَعَثَ إِلَى أَحْيَاءِ الْعَرَبِ حَوْلَ الْمَدِينَةِ فَدَنَّهُمْ فَأَوْعَبُوا مَعَهُ، وَاجْتَمَعَ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ نَحْوُ مِنْ ثَلَاثِينَ أَلْفًا وَتَخَلَّفَ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَغَيْرِهِمْ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي عَامِ جَذِبٍ وَوَقَّتْ قِطِظٌ وَحَرٌّ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ الشَّامَ لِقِتَالِ الرُّومِ، فَبَلَغَ تَبُوكَ فَتَزَلَّ بِهَا، وَأَقَامَ عَلَى مَا فِيهَا قَرِيبًا مِنْ عَشْرِينَ يَوْمًا، ثُمَّ اسْتَحَارَ اللَّهُ فِي الرُّجُوعِ فَرَجَعَ عَامَهُ ذَلِكَ لِضَيْقِ الْحَالِ وَضَعْفِ النَّاسِ، كَمَا سَبَّأَتِي بَيَانُهُ بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

[الْجَزْيَةُ عَلَامَةُ الذِّلَّةِ وَالْكَفْرِ]

وَقَوْلُهُ: «حَتَّى يُعْطُوا الْجَزْيَةَ» أَيِ إِنْ لَمْ يُسَلِّمُوا «عَنْ يَدٍ» أَيِ عَنْ قَهْرٍ لَهُمْ وَعَلَبَةٍ «وَهُمْ صَاغِرُونَ» أَيِ ذَلِيلُونَ خَفِيرُونَ مَهَانُونَ، فَلِهَذَا لَا يَجُوزُ إِعْزَازُ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَلَا رَفْعُهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بَلْ هُمْ أَذْلَاءُ صَغَرَةَ أَشْفِيَاءَ، كَمَا

تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أَيِ
الَّذِي إِذَا حَرَّمَ الشَّيْءَ فَهُوَ الْحَرَامُ وَمَا حَلَّلَهُ فَهُوَ الْحَالِلُ،
وَمَا شَرَعَهُ اتَّبِعْ، وَمَا حَكَمَ بِهِ نَفَذْ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أَيِ: تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّاهُ عَنِ
الشُّرَكَاءِ وَالنَّظَرَاءِ، وَالْأَعْوَانِ وَالْأَصْدَادِ وَالْأَوْلَادِ، لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ
يُشْعَرَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ
بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُشْرِكُونَ (٣٣)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ
لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ يَكْرِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِصَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ
فَتُكَوَّى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوبُهُمْ وَيُظْهِرُهُمْ هَذَا مَا كَفَرْتُمْ
لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكذبون﴾ (٣٥)

[مُحَاوَلَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ إِطْفَاءُ نُورِ الْإِسْلَامِ]
يَقُولُ تَعَالَى: يُرِيدُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ
الْكِتَابِ ﴿أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ أَيِ: مَا بُعِثَ بِهِ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ بِمُجَرَّدِ جِدَالِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ،
فَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُطْفِئَ شِعَاعَ الشَّمْسِ أَوْ
نُورَ الْقَمَرِ بِتَفَخُّجِهِ، وَهَذَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ، فَكَذَلِكَ مَا أُرْسِلَ بِهِ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبَدٍ أَنْ يَتِمَّ وَيُظْهَرَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى
مُقَابِلًا لَهُمْ فِيمَا رَامُوهُ وَأَرَادُوهُ: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُشْعَرَ
نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ وَالْكَافِرُ هُوَ الَّذِي يَسْتُرُ الشَّيْءَ
وَيُعْطِيهِ، وَمِنْهُ سُمِّيَ اللَّيْلُ كَافِرًا، لِأَنَّهُ يَسْتُرُ الْأَشْيَاءَ.
وَالزَّرَاعُ كَافِرًا، لِأَنَّهُ يُعْطِي الْحَبَّ فِي الْأَرْضِ. كَمَا قَالَ:
﴿عَجِبَ الْكُفَّارُ بِنَاءِهِ﴾ [الحديد: ٢٠].

[التَّحْذِيرُ مِنْ عُلَمَاءِ الشُّوْءِ وَعِبَادِ الضَّلَالِ]
قَالَ السُّدِّيُّ: الْأَخْبَارُ مِنَ الْيَهُودِ، وَالرُّهْبَانُ مِنَ
النَّصَارَى. (٣) وَهُوَ كَمَا قَالَ: فَإِنَّ الْأَخْبَارَ هُمْ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا يَتَّبِعُهُمُ الرَّاغِبُونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِ
الْإِنَّمَا وَاعْلَمِهِمُ اشْتَعَتْ﴾ [المائدة: ٦٣] وَالرُّهْبَانُ: عِبَادُ
النَّصَارَى. وَالْقِسْيُسُونَ: عُلَمَاؤُهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسَ وَرُهْبَانًا﴾. [المائدة: ٨٢]
وَالْمَقْصُودُ: التَّحْذِيرُ مِنْ عُلَمَاءِ الشُّوْءِ وَعِبَادِ الضَّلَالِ،
كَمَا قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: مَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا كَانَ فِيهِ
شِبْهٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عِبَادِنَا كَانَ فِيهِ شِبْهٌ مِنْ
النَّصَارَى. وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «لَتَرْكَبَنَّ سَنَنَ مَنْ
كَانَ قَبْلَكُمْ حَذَوُ الْقِدَّةِ بِالْقِدَّةِ» قَالُوا: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟
قَالَ: «فَمَنْ؟» - وَفِي رَوَايَةٍ: فَارِسُ وَالرُّومُ؟ قَالَ:
«فَمَنْ النَّاسُ إِلَّا هَؤُلَاءِ؟» (٤)

[دِينُ الْإِسْلَامِ يَغْلِبُ جَمِيعَ الْأَدْيَانِ]
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ
الْحَقِّ﴾ فَالْهُدَى: هُوَ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْأَخْبَارَاتِ الصَّادِقَةِ
وَالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ وَالْعِلْمِ النَّافِعِ. وَدِينِ الْحَقِّ، هُوَ
الْأَعْمَالُ [الصَّالِحَةُ] الصَّحِيحَةُ النَّافِعَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.
﴿يُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أَيِ: عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ
كَمَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ
زَوَى لِي الْأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا
زَوَى لِي مِنْهَا» (١). وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ تَيْمِيزِ الدَّارِيِّ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيَبْلُغَنَّ
هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا
وَيْرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ هَذَا الدِّينَ، يَعِزُّ عَزِيزٌ أَوْ يَذِلُّ ذَلِيلٌ، عِزًّا يُعِزُّ
اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذِلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ» فَكَانَ تَمِيمُ الدَّارِيُّ
يَقُولُ: قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ [فِي] أَهْلِ بَيْتِي: لَقَدْ أَصَابَ مَنْ

وَالْحَاصِلُ: التَّحْذِيرُ مِنَ التَّشَبُّهِ بِهِمْ فِي أَقْوَالِهِمْ
وَأَعْوَالِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ
بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَذَلِكَ، أَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ
الدُّنْيَا بِالْذِّينِ وَمَنَاصِبِهِمْ وَرِيَاسَتِهِمْ فِي النَّاسِ، يَأْكُلُونَ
أَمْوَالَهُمْ بِذَلِكَ، كَمَا كَانَ لِأَخْبَارِ الْيَهُودِ عَلَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ
شَرَفٌ، وَلَهُمْ عِنْدَهُمْ خَرْجٌ وَهَدَايَا وَضَرَائِبُ تَجِيءُ إِلَيْهِمْ،
فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ اسْتَمَرُّوا عَلَى ضَلَالِهِمْ وَكُفْرِهِمْ
وَعِنَادِهِمْ، طَمَعًا مِنْهُمْ أَنْ تَبْقَى لَهُمْ تِلْكَ الرِّيَاسَاتُ
فَأُطْلِقَهَا اللَّهُ يُنَوِّرُ الثَّبُوتَ وَسَلَبَهُمْ إِيَّاهَا، وَعَوَّضَهُمُ الدَّلَّ
وَالصَّغَارَ وَبَاءُوا بِغَضَبِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَيِ وَهُمْ مَعَ

(١) مسلم: ٢٢١٥/٤ (٢) أحمد: ١٠٣/٤ (٣) الطبري: ١٤/

٢١٦ (٤) الشريعة: ص ١٨

طَاعَةَ اللَّهِ عَذَابَ بِهِ. وَهَؤُلَاءِ لَمَّا كَانَ جَمْعُ هَذِهِ الْأَمْوَالِ أَثَرٌ عِنْدَهُمْ مِنْ رِضَا اللَّهِ عَنْهُمْ عَذُّبُوا بِهَا، كَمَا كَانَ أَبُو لَهَبٍ لَعْنَهُ اللَّهُ جَاهِدًا فِي عِدَاوَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَمْرًا تَعِينُهُ فِي ذَلِكَ، كَانَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَوْنًا عَلَى عَذَابِهِ أَيْضًا، ﴿فِي جِدِّهَا﴾ أي: عَنْقِهَا ﴿حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥]، أي: تَجْمَعُ مِنَ الْحَطَبِ فِي النَّارِ وَتُلْقَى عَلَيْهِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَتْلَغَ فِي عَذَابِهِ مِمَّنْ هُوَ أَشْفَقُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، كَمَا أَنَّ هَذِهِ الْأَمْوَالِ لَمَّا كَانَتْ أَغْرَ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَرْبَابِهَا كَانَتْ أَضَرَّ الْأَشْيَاءِ عَلَيْهِمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَيُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَنَاهِيكَ بِحَرِّهَا، فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ ثَوْبَانَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «مَنْ تَرَكَ بَعْدَهُ كَنْزًا، مِثْلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ، لَهُ رَيْبَتَانِ يَتَّبَعُهُ وَيَقُولُ: وَبِئْسَ مَا أَنْتَ؟» يَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ الَّذِي تَرَكْتَهُ بَعْدَكَ، وَلَا يَزَالُ يَتَّبَعُهُ حَتَّى يُلْقِمَهُ يَدَهُ فَيَقْضِمَهَا، ثُمَّ يُنْعِمُهَا سَائِرَ جَسَدِهِ» وَرَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ يَزِيدَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ هَارِثٍ، وَأَصْلُ هَذَا الْحَدِيثِ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٤). وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ رَجُلٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ إِلَّا جُعِلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَفَانِخٌ مِنْ نَّارٍ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبْهُتُهُ وَظَهْرُهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يَقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ، إِنَّمَا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّمَا إِلَى النَّارِ»^(٥). . . . وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ. وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهَبٍ، قَالَ: مَرَرْتُ عَلَى أَبِي ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ فَقُلْتُ مَا أَنْزَلَكَ بِهَذِهِ الْأَرْضِ؟ قَالَ: كُنَّا بِالشَّامِ فَقَرَأْتُ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: مَا هَذِهِ فِينَا، مَا هَذِهِ إِلَّا فِي أَهْلِ الْكِتَابِ، قَالَ: قُلْتُ: إِنَّهَا لَفِينَا وَفِينَهُمْ^(٦).

أَكْلِهِمُ الْحَرَامَ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَيَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَيُظْهِرُونَ لِمَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْجَهْلَةِ: أَنَّهُمْ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، وَلَكِنُّهُمْ كَمَا يَزْعُمُونَ، بَلْ هُمْ دَعَاةٌ إِلَى النَّارِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصَرُونَ.

[عَذَابٌ مِّنْ يَكْتَنُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هَؤُلَاءِ هُمُ الْقِسْمُ الثَّلَاثُ مِنْ رُؤُوسِ النَّاسِ، فَإِنَّ النَّاسَ عَالَةً عَلَى الْعُلَمَاءِ وَعَلَى الْعِبَادِ وَعَلَى أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ، فَإِذَا فَسَدَتْ أَحْوَالُ هَؤُلَاءِ فَسَدَتْ أَحْوَالُ النَّاسِ كَمَا قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ

وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَزُهَبَانِهَا وَأَمَّا الْكَنْزُ فَقَالَ مَالِكٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ: هُوَ الْمَالُ الَّذِي لَا تُؤَدِّي زَكَاةَهُ^(١). وَرَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ عَنْ خَالِدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عُمَرَ فَقَالَ: هَذَا قَبْلُ أَنْ تَنْزِلَ الزَّكَاةُ، فَلَمَّا نَزَلَتْ جَعَلَهَا اللَّهُ طَهْرَةً لِلْأَمْوَالِ^(٢). وَكَذَا قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَعِرَاكُ ابْنُ مَالِكٍ: نَسَخَهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ الْآيَةَ [التوبة: ١٠٣].

وَقَدْ جَاءَ فِي مَدَحِ التَّقَالُّ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَدَمِّ التَّكْثُرِ مِنْهُمَا أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ. وَلَنُورِدُ مِنْهَا هُنَا طَرَفًا يَدُلُّ عَلَى الْبَاقِي. رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ رِضِيِّ اللَّهِ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ الْآيَةَ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَبًّا لِلذَّهَبِ، تَبًّا لِلْفِضَّةِ» يَقُولُهَا ثَلَاثًا، قَالَ: فَسَقَ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا: فَأَيُّ مَالٍ نَتَّخِذُ؟ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا أَعْلَمُ لَكُمْ ذَلِكَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ أَصْحَابَكَ قَدْ شَقَّ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: فَأَيُّ الْمَالِ نَتَّخِذُ؟ قَالَ: «لِسَانًا ذَاكِرًا، وَقَلْبًا شَاكِرًا، وَرَوْجَةً تُعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَى دِينِهِ»^(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَدَرَوْا مَا كُنْتُمْ تَكْنُزُونَ﴾ أي: يُقَالُ لَهُمْ هَذَا الْكَلَامُ تَبْكِينًا وَتَقْرِيعًا وَتَهْكِيمًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَبِيمِ﴾ ﴿٥٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ [الدخان: ٤٨، ٤٩] أي: هَذَا بِذَلِكَ، وَهَذَا الَّذِي كُنْتُمْ تَكْنُزُونَ لِأَنْفُسِكُمْ، وَلِهَذَا يُقَالُ: مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا وَقَدَّمَهُ عَلَى

(١) الموطأ: ٢٥٦/١ (٢) فتح الباري: ٨/ ١٧٥ (٣) عبد الرزاق: ٢٦٣/٢ إسناده ضعيف ذكره العلامة الزيلعي في تخريج الكشاف ٧١/٢ وعزاه لعبد الرزاق في تفسيره . . . ثم قال: "الحاصل أنه حديث ضعيف لما فيه من الاضطراب". (٤) الطبري: ٣٦٣/٦ وابن حبان: ٨٠٣ وابن خزيمة: ٢٢٥٥ والبخاري: ٤٦٥٩ (٥) مسلم: ٦٨٢/٢ (٦) فتح الباري: ٨/ ١٧٣

فَلَا يَدُّ مِنْ دَوْرَانِهَا، فَلَعَلَّهُمْ سَمَوْهُ بِذَلِكَ أَوَّلَ مَا سُمِّيَ،
عِنْدَ جُمُودِ الْمَاءِ فِي الْبَرْدِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:
وَلَيْلَةٌ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أُنْدِيَّةٍ
لَا يَبْصُرُ الْعَبْدُ فِي ظُلُمَائِهَا الظُّنْبَا
لَا يَنْبَحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ

حَتَّى يَلْفَ عَلَى خُرْطُومِهِ الذَّنْبَا
وَيُجْمَعُ عَلَى جُمَادِيَّاتٍ، كَحَبَارَى وَحَبَارِيَّاتٍ. وَقَدْ
يُذَكَّرُ وَيُؤْتَّى فَيُقَالُ: جُمَادَى الْأُولَى وَالْأَوَّلُ. وَجُمَادَى
الْآخِرُ وَالْآخِرَةُ. رَجَبٌ مِنَ التَّرْجِيبِ - وَهُوَ التَّعْظِيمُ -
وَيُجْمَعُ عَلَى أَرْجَابٍ وَرَجَابٍ وَرَجَبَاتٍ. شَعْبَانٌ مِنْ تَشْعُبٍ
الْقَبَائِلِ وَتَفَرُّقِهَا لِلْعَارَةِ، وَيُجْمَعُ عَلَى شَعَابِينَ وَشَعْبَانَاتٍ.
رَمَضَانٌ مِنْ شِدَّةِ الرَّمْضَاءِ، وَهُوَ الْحَرُّ يُقَالُ: رَمَضَتِ
الْفِصَالُ إِذَا عَطِشَتْ، وَيُجْمَعُ عَلَى رَمَضَانَاتٍ وَرَمَاضِينَ
وَأَرْمِضَةٍ، قَالَ: وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ
خَطَأٌ لَا يُعْرَجُ عَلَيْهِ وَلَا يُنْفَتَحُ إِلَيْهِ.

(قُلْتُ): قَدْ وَرَدَ فِيهِ حَدِيثٌ وَلَكِنَّهُ ضَعِيفٌ وَبَيِّنَتْهُ فِي
أَوَّلِ كِتَابِ الصِّيَامِ. سُؤَالٌ مِنْ شَالَتْ الْإِبِلُ بِأَذْنَابِهَا لِلطَّرَافِ
قَالَ: وَيُجْمَعُ عَلَى سُوَاوِلٍ وَسَوَاوِيلَ وَسَوَالَاتٍ. الْقَعْدَةُ
يَفْتَحُ الْقَافَ - (قُلْتُ): وَكُسْرُهَا - لِقُعُودِهِمْ فِيهِ عَنِ الْقِتَالِ
وَالْتَّرَحُّالِ، وَيُجْمَعُ عَلَى ذَوَاتِ الْقَعْدَةِ. الْحِجَّةُ بِكُسْرِ
الْحَاءِ - (قُلْتُ): وَفَتْحِهَا - سُمِّيَ بِذَلِكَ لِإِقَامَتِهِمُ الْحَجَّ
فِيهِ، وَيُجْمَعُ عَلَى ذَوَاتِ الْحِجَّةِ.

أَسْمَاءُ الْأَيَّامِ، أَوَّلُهَا: الْأَحَدُ وَيُجْمَعُ عَلَى أَحَادٍ
وَأَوْحَادٍ وَوُحُودٍ. ثُمَّ يَوْمُ الْاِثْنَيْنِ وَيُجْمَعُ عَلَى اِثْنَيْنِ.
الثَّلَاثَاءُ يُمَدُّ وَيُذَكَّرُ وَيُؤْتَّى، وَيُجْمَعُ عَلَى ثَلَاثَاوَاتٍ،
وَأَتَالِثٍ. ثُمَّ الْأَرْبِعَاءُ بِالْمَدِّ وَيُجْمَعُ عَلَى أَرْبِعَاوَاتٍ
وَأَرْبَاعٍ. وَالْخَمِيسُ يُجْمَعُ عَلَى أَخْمِسَةٍ وَأَخَامِسٍ، ثُمَّ
الْجُمُعَةُ بِضَمِّ الْمِيمِ وَإِسْكَانِهَا وَفَتْحِهَا أَيْضًا وَيُجْمَعُ عَلَى
جُمُعٍ وَجُمَاعَاتٍ. السَّبْتُ مَاخُودٌ مِنَ السَّبْتِ وَهُوَ الْقَطْعُ
لِانْتِهَاءِ الْعَدَدِ عِنْدَهُ، وَكَانَتْ الْعَرَبُ تُسَمِّي الْأَيَّامَ: أَوَّلُ،
ثُمَّ أَهْوَنُ، ثُمَّ جَبَارٌ، ثُمَّ ذُبَارٌ، ثُمَّ مُؤْنَسٌ، ثُمَّ الْعَرُوبَةُ، ثُمَّ
شِيَارٍ. قَالَ الشَّاعِرُ - مِنَ الْعَرَبِ الْعَرَبَاءِ الْعَارِبَةِ الْمُتَقَدِّمِينَ
:-

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ
يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الْدِّينُ
الْقَدِيمُ فَلَا تَغْلِبُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَكَلِمَاتُ الْمُشْرِكِينَ كَافَّةٌ
كَمَا يَقُولُونَكُمْ كَافَّةٌ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾
[السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا]

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ فِي
حَجَّتِهِ فَقَالَ: «أَلَا إِنَّ الرُّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ
حُرُمٌ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحْرَمُ
وَرَجَبٌ مُضَرٌ، الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ» ثُمَّ قَالَ: «أَيُّ يَوْمٍ
هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ
سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قُلْنَا: بَلَى، ثُمَّ
قَالَ: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى
ظَنَّنَا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ: «أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ؟» قُلْنَا:
بَلَى، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ
فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ: «أَلَيْسَتْ
الْبَلَدَةُ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ - وَأَخْسِيئَهُ
قَالَ: - وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي
شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا. وَتَسْتَلْقُونَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ
أَعْمَالِكُمْ، أَلَا لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَالًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ
رِقَابَ بَعْضٍ، أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟ أَلَا لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ،
فَلَعَلَّ مَنْ يُبَلِّغُهُ يَكُونُ أَرْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ مَن سَمِعَهُ»^(١). رَوَاهُ
الْبُخَارِيُّ فِي التَّفْسِيرِ وَغَيْرِهِ. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٢).

(فَضْلٌ) ذَكَرَ الشَّيْخُ عِلْمُ الدِّينِ السَّخَاوِيُّ فِي جُزْءِ جَمْعِهِ
سَمَاءَهُ (الْمَشْهُورُ فِي أَسْمَاءِ الْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ) أَنَّ الْمُحَرَّمَ
سُمِّيَ بِذَلِكَ، لِكُونِهِ شَهْرًا مُحَرَّمًا - وَعِنْدِي أَنَّهُ سُمِّيَ بِذَلِكَ
تَأْكِيدًا لِتَحْرِيمِهِ، لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَتَقَلَّبُ بِهِ فَتَحِلُّهُ عَامًا
وَتَحَرِّمُهُ عَامًا - قَالَ: وَيُجْمَعُ عَلَى مُحَرَّمَاتٍ وَمَحَارِمٍ
وَمَحَارِيمٍ. وَصَفَرُ سُمِّيَ بِذَلِكَ، لِخُلُوقِ بَيُوتِهِمْ مِنْهُمْ حِينَ
يَخْرُجُونَ لِلْقِتَالِ وَالْأَسْفَارِ، يُقَالُ: صَفَرَ الْمَكَانَ إِذَا خَلَا،
وَيُجْمَعُ عَلَى أَصْفَارٍ كَجَمَلٍ وَأَجْمَالٍ. وَشَهْرُ رَبِيعِ الْأَوَّلِ
سُمِّيَ بِذَلِكَ لِارْتِبَاعِهِمْ فِيهِ، وَالْارْتِبَاعُ: الْإِقَامَةُ فِي عِمَارَةِ
الرَّبِيعِ، وَيُجْمَعُ عَلَى أَرْبِعَاءٍ كَنَصِيبٍ وَأَنْصِبَاءٍ، وَعَلَى أَرْبَعَةٍ
كَرَغِيفٍ وَأَرْغِفَةٍ. وَرَبِيعُ الْآخِرِ كَالْأَوَّلِ. جُمَادَى سُمِّيَ
بِذَلِكَ لِجُمُودِ الْمَاءِ فِيهِ، قَالَ: وَكَانَتْ الشُّهُورُ فِي حِسَابِهِمْ
لَا تَدُورُ - وَفِي هَذَا نَظَرٌ، إِذْ كَانَتْ شُهُورُهُمْ مَنْوُطَةً بِالْأَهْلَةِ

(١) أحمد: ٣٧/٥ (٢) فتح الباري: ١٧٥/٨ و ٣٣٨/٦ و ١٠/

١٠ ومسلم: ١٣٠٥/٣

الْبُرْجُ

١٩٣

سُورَةُ التَّوْبَةِ

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ، عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ، عَامًا لِيُوَاطِعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْتٌ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَأْتُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٨﴾ إِلَّا تَنْصَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَنْصَرُوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ إِلَّا تَنْصَرُوا فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْعَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا لِلَّهِ مَعًا قَدْ نَزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزرا من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيما، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء. وقال: إن الله اضطفى صفابا من خلقه. اضطفى من الملائكة رسلا ومن الناس رسلا، واضطفى من الكلام ذكره، واضطفى من الأرض المساجد. واضطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واضطفى من الأيام يوم الجمعة واضطفى من الليالي ليلة القدر، فعظموا ما عظم الله. فإنما [تعظم] الأمور بما عظمها الله به، عند أهل الفهم وأهل العقل.

[القتال في الأشهر الحرم]

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ أي: جميعكم ﴿كَمَا يُبْلِغُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أي: جميعهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ واعلموا أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوا شَعْبَةَ اللَّهِ

أَرْجِي أَنْ أَعِيشَ وَأَنْ يَوْمِي بِأَوَّلٍ أَوْ بِآخِرُونَ أَوْ جَبَارٍ أَوْ التَّالِي دُبَارٍ فَإِنْ أَفْنَيْتُهُ فَمُؤَيَّسٌ أَوْ عَرُوبَةٌ أَوْ شِيَارٍ [الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ]

وقوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ فهذا مما كانت العرب أيضا في الجاهلية تحرمه، وهو الذي كان عليه جمهورهم إلا طائفة منهم يقال لهم: «النبسل» كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر تعمقا وتشديدا. وأما قوله: «ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ورجب مضر، الذي بين جمادى وشعبان» فإنما أضافه إلى «مضر» ليس صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان، لا كما تظنه «ربيعه» من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم، فبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة. وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة: ثلاثة سرّد وواحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل أشهر الحج شهرا وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحرم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويستغلون فيه بأداء المناسك، وحرم بعده شهرا آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمين، وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والإغتمار به، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنا.

وقوله: ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا﴾ أي: هذا هو الشرع المستقيم من أمثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم والحدو بها على ما سبق في كتاب الله الأول، قال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: في هذه الأشهر المحرمة لأنها أكد وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَمِ يُضْلِلْ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية، ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ في كلهن، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر، فجعلهن حراما وعظم حرمتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم والعمل الصالح والأجر أعظم^(١). وقال قتادة في قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ إن الظلم

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ قَالَ: النَّسِيءُ: أَنْ جُنَادَةَ ابْنَ عَوْفٍ بْنِ أُمَيَّةَ الْكِنَانِيِّ كَانَ يُؤَافِي الْمَوْسِمَ فِي كُلِّ عَامٍ وَكَانَ يُكْنَى أَبَا ثُمَامَةَ فَيُنَادِي: أَلَا إِنَّ أَبَا ثُمَامَةَ لَا يُجَابُ وَلَا يُعَابُ، أَلَا وَإِنْ صَفَرَ الْعَامَ الْأَوَّلَ الْعَامَ حَلَالًا، فَيُحِلُّهُ لِلنَّاسِ فَيَحَرِّمُ صَفَرًا عَامًا وَيَحَرِّمُ الْمُحَرَّمَ عَامًا، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ يَقُولُ: يَتْرُكُونَ الْمُحَرَّمَ عَامًا وَعَامًا يُحَرِّمُونَهُ^(١). وَرَوَى الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ نَحْوَهُ^(٢). وَقَالَ لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: كَانَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ يَأْتِي كُلَّ عَامٍ إِلَى الْمَوْسِمِ عَلَى حِمَارٍ لَهُ فَيَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنِّي لَا أَعَابُ وَلَا أَجَابُ وَلَا مَرَدٍّ لِمَا أَقُولُ، إِنَّا قَدْ حَرَمْنَا الْمُحَرَّمَ وَأَحْرَنَّا صَفَرَ. ثُمَّ يَجِيءُ الْعَامَ الْمُقْبِلَ بَعْدَهُ فَيَقُولُ مِثْلَ مَقَالَتِهِ وَيَقُولُ: إِنَّا قَدْ حَرَمْنَا صَفَرَ وَأَحْرَنَّا الْمُحَرَّمَ، فَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لِيُؤَاطِفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قَالَ: يَعْني الْأَرْبَعَةَ، فَيُحِلُّوْا مَا حَرَّمَ اللَّهُ بِتَأْخِيرِ هَذَا الشَّهْرِ الْحَرَامِ^(٣). فَالنَّسِيءُ: أَنَّهُمْ كَانُوا يُحِلُّونَ شَهْرَ الْمُحَرَّمَ عَامًا وَيَحَرِّمُونَ عِوَضَهُ صَفَرًا، وَبَعْدَهُ رَبِيعٌ، وَرَبِيعٌ... إِلَى آخِرِ السَّنَةِ بِحَالِهَا عَلَى نِظَامِهَا وَعِدَّتِهَا وَأَسْمَاءُ شَهُورِهَا. ثُمَّ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ يُحَرِّمُونَ الْمُحَرَّمَ وَيَتْرُكُونَهُ عَلَى تَحْرِيمِهِ، وَبَعْدَهُ صَفَرٌ، وَرَبِيعٌ، وَرَبِيعٌ... إِلَى آخِرِهَا فَ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوْا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أَيُّ: فِي تَحْرِيمِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ مِنَ السَّنَةِ، إِلَّا أَنَّهُمْ تَارَةً يَقْدُمُونَ تَحْرِيمَ الشَّهْرِ الثَّلَاثِ مِنَ الثَّلَاثَةِ الْمُتَوَالِيَةِ، وَهُوَ الْمُحَرَّمُ، وَتَارَةً يَنْسُتُونَهُ إِلَى صَفَرٍ، أَيُّ: يُؤَخِّرُونَهُ.

وَقَدْ تَكَلَّمَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَلَى هَذَا فِي كِتَابِ السِّيَرَةِ كَلَامًا جَيِّدًا مُفِيدًا حَسَنًا فَقَالَ: كَانَ أَوَّلُ مَنْ نَسَأَ الشُّهُورَ عَلَى الْعَرَبِ، فَأَحَلَّ مِنْهَا مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَحَرَّمَ مِنْهَا مَا أَحَلَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، أَلْفَلَسَ وَهُوَ: حُدْفَةُ بْنُ عَبْدِ قُصَيْمٍ بْنِ عَدِيِّ بْنِ عَامِرٍ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مَالِكِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسِ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدٍّ بْنِ عَدْنَانَ. ثُمَّ قَامَ بَعْدَهُ عَلَى ذَلِكَ ابْنُهُ عَبَادٌ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِ عَبَادِ ابْنُهُ قَلْعُ بْنُ عَبَادٍ، ثُمَّ ابْنُهُ أُمَيَّةُ ابْنُ قَلْعٍ، ثُمَّ ابْنُهُ عَوْفُ بْنُ أُمَيَّةَ، ثُمَّ ابْنُهُ: أَبُو ثُمَامَةَ جُنَادَةُ بْنُ عَوْفٍ وَكَانَ آخِرَهُمْ

(١) الطبري: ٢٤٥/١٤ (٢) الطبري: ٢٤٦/١٤ (٣) الطبري:

وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ [المائدة: ٢] وَقَالَ: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْمُرْتَضِ فَقَضَاؤُهُ مَتَى اتَّخَذْتُمْ عَلَيْكُمْ قَاعِدَتًا عَلَيْهِ يَمِثِلُ مَا اتَّخَذْتُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]... الآية، وَقَالَ: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَامُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾... الآية [التوبة: ٥].

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُوكُمْ كَافَّةً﴾ فَهُوَ إِذْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَقْتَالُ الْمُشْرِكِينَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ إِذَا كَانَتْ الْبَدَاءَةُ مِنْهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْمُرْتَضِ وَقَضَاؤُهُ﴾ [البقرة: ١٩٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ لِلزَّكَاةِ حَتَّى يُقْتَلُوا فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾... الآية [البقرة: ١٩١] أَمَّا حِصَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ الطَّائِفِ وَاسْتِصْحَابِهِ الْحِصَارَ إِلَى أَنْ دَخَلَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ، فَإِنَّهُ مِنْ تِمَّةٍ قِتَالِ هَوَازِنَ، وَأَخْلَافِهَا مِنْ ثَقِيفٍ، فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ ابْتَدَعُوا الْقِتَالَ وَجَمَعُوا الرِّجَالَ، وَدَعَوْا إِلَى الْحَرْبِ وَالتَّرَالِ، فَعِنْدَهَا قَصْدُهُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا تَحَصَّنُوا بِالطَّائِفِ ذَهَبَ إِلَيْهِمْ لِيُنْزِلَهُمْ مِنْ حُصُونِهِمْ، فَنَالُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَقَتَّلُوا جَمَاعَةً، وَاسْتَمَرَّ الْحِصَارُ بِالْمَجَانِيقِ وَغَيْرِهَا قَرِيبًا مِنْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَكَانَ ابْتِدَاؤُهُ فِي شَهْرِ حَلَالٍ، وَدَخَلَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ فَاسْتَمَرَّ فِيهِ أَيَّامًا، ثُمَّ قَلَّ عَنْهُمْ، لِأَنَّهُ يُعْتَقَرُ فِي الدَّوَامِ مَا لَا يُعْتَقَرُ فِي الْإِبْتِدَاءِ، وَهَذَا أَمْرٌ مُقَرَّرٌ وَلَهُ نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوْا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْتٌ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

[دَمُ التَّصَرُّفِ فِي الشَّرْعِ بِالرَّأْيِ]

هَذَا مِمَّا ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ تَصَرُّفِهِمْ فِي شَرْعِ اللَّهِ بِأَرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ، وَتَغْيِيرِهِمْ أَحْكَامَ اللَّهِ بِأَهْوَائِهِمُ الْبَارِدَةِ، وَتَحْلِيلِهِمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَتَحْرِيمِهِمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا فِيهِمْ مِنَ الْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ وَالشَّهَامَةِ وَالْحَمِيَّةِ مَا اسْتَطَاعُوا بِهِ مَلَّةَ الْأَشْهُرِ الثَّلَاثَةِ فِي التَّحْرِيمِ الْمَنَاعِ لَهُمْ مِنْ قَضَاءِ أَوْطَارِهِمْ مِنْ قِتَالِ أَعْدَائِهِمْ، فَكَانُوا قَدْ أَخَذُوا قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِمُدَّةٍ تَحْلِيلِ الْمُحَرَّمَ، فَأَخْرَوْهُ إِلَى صَفَرٍ فَيُحِلُّونَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ، وَيَحَرِّمُونَ الشَّهْرَ الْحَلَالَ لِيُؤَاطِفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ: الْأَشْهُرَ الْأَرْبَعَةَ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ:

الْقَطْرَ فَكَانَ عَذَابُهُمْ^(٤). ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أَي: لِنُصْرَةِ نَبِيِّهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد ٣٩] ﴿وَلَا تَصْرُوهُ شَيْئًا﴾ أَي: وَلَا تَصْرُوهَا اللَّهُ شَيْئًا يَتَوَلَّيْكُمْ عَنْ الْجِهَادِ، وَتُكَلِّمُكُمْ وَتَتَأْفِكُمْ عَنْهُ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أَي: قَادِرٌ عَلَى الْإِنْتِصَارِ مِنَ الْأَعْدَاءِ بِدُونِكُمْ.

﴿إِلَّا تَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [آل عمران ٩٤-٩٨]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا تَصْرُوهُ﴾ أَي: تَصْرُوهَا رَسُولُهُ فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ وَمُؤَيَّدُهُ وَكَافِيهِ وَحَافِظُهُ، كَمَا تَوَلَّى نَصْرَهُ ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ أَي: عَامَ الْهَجْرَةِ لَمَّا هَمَّ الْمُشْرِكُونَ يَقْتُلُهُ أَوْ حَبْسَهُ أَوْ نَفْيَهُ فَخَرَجَ مِنْهُمْ هَارِبًا بِصُحْبَةِ صَدِيقِهِ وَصَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ، فَلَجَا إِلَى غَارٍ ثَوْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، لِيَرْجِعَ الطَّلَبُ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي آثَارِهِمْ ثُمَّ يَسِيرُوا نَحْوَ الْمَدِينَةِ، فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَجُزُّ أَنْ يَطْلُعَ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ فَيُخَلِّصُ إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْهُمْ أَدَى، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُسَكِّنُهُ وَيُسَبِّتُهُ وَيَقُولُ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا»^(٥) كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ حَدَّثَهُ، قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ فِي الْغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرْنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ، قَالَ: فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا»^(٦). أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٧). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أَي: تَأْيِيدَهُ وَنَصْرَهُ عَلَيْهِ. وَقِيلَ: عَلَى أَبِي بَكْرٍ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ أَي: الْمَلَائِكَةُ ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُعْنِي بِكَلِمَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا: الشُّرْكَ. وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(٨). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى

وَعَلَيْهِ قَامَ الْإِسْلَامُ، فَكَانَتِ الْعَرَبُ إِذَا فَرَعَتْ مِنْ حَجَّهَا اجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ، فَقَامَ فِيهِمْ خَطِيبًا فَحَرَّمَ رَجَبًا وَذَا الْقَعْدَةِ وَذَا الْحِجَّةِ، وَيُحِلُّ الْمُحَرَّمَ عَامًا وَيَجْعَلُ مَكَانَهُ صَفَرًا، وَيَحَرِّمُهُ عَامًا لِيُطَاطَأَ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ. فَيُحِلُّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، يُعْنِي: وَيُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ^(٩). وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(١٠) إِلَّا تَنْفِرُوا يُمْدِدْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَصْرُوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(١١) [الْعناب والتَّهْدِيدُ عَلَى التَّنَاقُلِ عَنِ الْجِهَادِ]

هَذَا شُرُوعٌ فِي عِتَابٍ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ تَبُوكَ، حِينَ طَابَتِ الثَّمَارُ وَالظَّلَالُ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ وَحِمَارَةِ الْفَيْظِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي: إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أَي: تَكَاسَلْتُمْ وَمَلِئْتُمْ إِلَى الْمَقَامِ فِي الدَّعَةِ وَالْخَفْضِ وَطَيْبِ الثَّمَارِ ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أَي: مَا لَكُمْ فَعَلْتُمْ هَكَذَا، أَرْضَا مِنْكُمْ بِالدُّنْيَا بَدَلًا مِنَ الْآخِرَةِ؟ ثُمَّ زَهَّدَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الدُّنْيَا، وَرَغَّبَ فِي الْآخِرَةِ، فَقَالَ: ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْمُسْتَوْرِدِ أَخِي بَنِي فِهْرِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمِ تَرْجِعُ؟» وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ^(١٢). ائْتَفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ^(١٣). وَقَالَ الثَّوْرِيُّ عَنْ الْأَعْمَشِ فِي الْآيَةِ ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قَالَ: كَرَادِ الرَّابِعِ.

وَقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِيهِ: لَمَّا حَضَرَتْ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ الْوَفَاةُ، قَالَ: ائْتُونِي بِكَفَنِي الَّذِي أَكْتَنُ فِيهِ، أَنْظُرْ إِلَيْهِ، فَلَمَّا وُضِعَ بَيْنَ يَدَيْهِ نَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَمَا لِي مِنْ كَبِيرٍ؟ مَا أُخْلِفَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا هَذَا؟ ثُمَّ وَلَّى ظَهْرَهُ فَبَكَى، وَهُوَ يَقُولُ أَفْ لَكَ مِنْ دَارٍ! إِنْ كَانَ كَثِيرُكَ لَقَلِيلٌ، وَإِنْ كَانَ قَلِيلُكَ لَقَصِيرٌ، وَإِنْ كُنَّا مِنْكَ لَفِي غُرُورٍ.

ثُمَّ تَوَعَّدَ تَعَالَى مَنْ تَرَكَ الْجِهَادَ فَقَالَ: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُمْدِدْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: اسْتَنْقَرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيًّا مِنَ الْعَرَبِ فَتَتَأَفَلَّوْا عَنْهُ، فَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُمْ

(١) ابن هشام: ٤٥/١ (٢) أحمد: ٢٢٨/٤ (٣) مسلم: ٤/٢١٩٣ (٤) الطبري: ٢٥٥/١٤ (٥) فتح الباري: ١٧٦/٨ (٦) أحمد: ٤/١ (٧) فتح الباري: ١١/٧ ومسلم: ١٨٥٤/٤ (٨) الطبري: ٢٦١/١٤

الْحَمْدُ لِلَّهِ

١٩٤

سُورَةُ التَّوْبَةِ

أَنِفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾
 لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ
 عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا
 مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾
 عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ
 صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ
 يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
 وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ
 لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ
 فِي رَيْبِهِمْ يترددون ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ
 لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ
 وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ
 مَارَازِدُكُمْ لَأَخْبَا لَا وَلَا وُضِعُوا لَكُمْ يَبْعُونَكُمْ
 الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي حَبَّانُ بْنُ زَيْدٍ الشَّرْعِيُّ قَالَ:
 تَفَرَّقْنَا مَعَ صَفْوَانَ بْنِ عَمْرٍو وَكَانَ وَالِيًا عَلَى جَنْصَ قَيْلِ
 الْأَفْسُوسِ إِلَى الْجَرَّاحِمَةِ فَرَأَيْتُ شَيْخًا كَبِيرًا هِمًّا قَدْ سَقَطَ
 حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ، مِنْ أَهْلِ دِمَشْقَ عَلَى رَاحِلَتِهِ فِيمَنْ
 أَغَارَ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا عَمُّ! لَقَدْ أَغْدَرَ اللَّهُ إِلَيْكَ قَالَ:
 فَرَفَعَ حَاجِبَيْهِ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي! اسْتَفْتَرْنَا اللَّهَ خِفَافًا
 وَثِقَالًا، أَلَا إِنَّهُ مَنْ يُجِبُهُ اللَّهُ يَتَّبِعْهُ ثُمَّ يُعِيدُهُ اللَّهُ فَيُفْقِئِهِ،
 وَإِنَّمَا يَتَّبِعِي اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ شَكَرَ، وَصَبَرَ، وَذَكَرَ، وَلَمْ
 يَعْبُدْ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ^(٥).

ثُمَّ رَغَبَ تَعَالَى فِي التَّقَةِ فِي سَبِيلِهِ وَبَذَلَ الْمُهَجَ فِي
 مَرْضَاتِهِ وَمَرْضَاةَ رَسُولِهِ، فَقَالَ: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ
 وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(١) فتح الباري: ١/٢٦٨ ومسلم: ٣/١٥١٢ (٢) الطبري: ١٤/٢٧٠ (٣) الطبري: ١٤/٢٦٦ (٤) ابن أبي حاتم: ٦/١٨٠٢ (٥) الطبري: ١٤/٢٦٤

الْأَشْعَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ
 الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ حِمِيَّةً وَيُقَاتِلُ رِبَاءً، أَيُّ ذَلِكَ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا
 فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أَيُّ: فِي
 انْتِقَامِهِ وَانْتِصَارِهِ، مَنِعُ الْجَنَابِ، لَا يُضَامُ مَنْ لَا ذِيَّ بِيَاهِ،
 وَاحْتَمَى بِالتَّمَسُّكِ بِخَطَابِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ.
 ﴿أَنِفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤١﴾

[تَحْتِمُ الْجِهَادَ عَلَى كُلِّ حَالٍ]

قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي الصُّحَيْ مُسْلِمِ بْنِ
 صَبِيحٍ: هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أَنِفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنْ
 سُورَةِ بَرَاءة^(٢). وَقَالَ مُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: زَعَمَ
 حَضْرَمِيٌّ أَنَّهُ ذَكَرَ لَهُ: أَنَّ نَاسًا كَانُوا عَسَى أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ
 عَلِيًّا وَكَبِيرًا فَيَقُولُ: إِنِّي لَا أَتَمُّ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَنِفِرُوا خِفَافًا
 وَثِقَالًا﴾ الْآيَةُ^(٣). أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّغْيِيرِ الْعَامِ مَعَ رَسُولِ
 اللَّهِ ﷺ عَامَ غَزْوَةِ تَبُوكَ، لِجِتَالِ أَغْدَاءِ اللَّهِ مِنَ الرُّومِ الْكَفَرَةِ
 مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَحَتَمَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الْخُرُوجِ مَعَهُ عَلَى
 كُلِّ حَالٍ فِي الْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَالْعُسْرِ وَالْيُسْرِ: فَقَالَ:
 ﴿أَنِفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ زَيْدٍ عَنْ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي طَلْحَةَ: كُهِلَا
 وَشَبَابًا. مَا سَمِعَ اللَّهُ عَذْرَ أَحَدٍ. ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الشَّامِ فَقَاتَلَ
 حَتَّى قُتِلَ. وَفِي رِوَايَةٍ: قَرَأَ أَبُو طَلْحَةَ سُورَةَ بَرَاءةَ فَاتَى عَلَى
 هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿أَنِفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ
 وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فَقَالَ: أَرَى رَبَّنَا اسْتَفْتَرْنَا شَيْوَحًا
 وَشَبَابًا جَهْزُونِي يَا بَنِي! فَقَالَ بَنُوهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ! قَدْ
 غَزَوْتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى مَاتَ، وَمَعَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى
 مَاتَ، وَمَعَ عُمَرَ حَتَّى مَاتَ فَتَحْنُ نَغْزُو عَنْكَ فَأَبَى، فَزَكَبَ
 الْبَحْرَ فَمَاتَ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُ جَزِيرَةً يَدْفُونُهُ فِيهَا، إِلَّا بَعْدَ
 تِسْعَةِ أَيَّامٍ فَلَمْ يَتَغَيَّرْ فَدَفَنُوهُ فِيهَا^(٤). وَقَالَ الشَّيْخُ قَوْلُهُ:
 ﴿أَنِفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يَقُولُ: غَنِيًّا وَفَقِيرًا، وَقَوِيًّا
 وَضَعِيفًا، فَجَاءَهُ رَجُلٌ يَوْمِيذٍ، زَعَمُوا أَنَّهُ الْمَقْدَادُ وَكَانَ
 عَظِيمًا سَمِينًا فَشَكَا إِلَيْهِ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ، فَأَبَى، فَزَكَتْ
 يَوْمِيذٍ: ﴿أَنِفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ اشْتَدَّ
 عَلَى النَّاسِ، فَتَسَخَّهَا اللَّهُ فَقَالَ: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى
 الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُثُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا
 نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١].

مِنْهُمْ»... الآية^(٥) [النور: ٦٢]. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ عَطَاءٍ الْخُرَّاسَانِيِّ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَنْاسٍ قَالُوا: اسْتَأْذِنُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَإِنْ أَدِنَ لَكُمْ فَافْعَدُوا، وَإِنْ لَمْ يَأْذِنْ لَكُمْ فَافْعَدُوا^(٦). وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّى يَسْتَأْذِنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي: فِي إِدْءِ الْأَعْذَارِ ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: هَلَّا تَرَكْتَهُمْ لِمَا اسْتَأْذَنُوكَ فَلَمْ تَأْذِنْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي الْقُعُودِ لِتَعْلَمَ الصَّادِقَ مِنْهُمْ فِي إِطْهَارِ طَاعَتِكَ مِنَ الْكَاذِبِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَانُوا مُصْرِّينَ عَلَى الْقُعُودِ عَنِ الْعَزْوِ، وَإِنْ لَمْ تَأْذِنْ لَهُمْ فِيهِ.

وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْقُعُودِ عَنِ الْعَزْوِ أَحَدٌ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَقَالَ: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ أي: فِي الْقُعُودِ عَنِ الْعَزْوِ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ الْجِهَادَ قُرْبَةً، وَلَمَّا نَدَبَهُمْ إِلَيْهِ بَادَرُوا وَامْتَنَلُوا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ أي: فِي الْقُعُودِ وَمَنْ لَا عُذْرَ لَهُ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: لَا يَزْجُونَ ثَوَابَ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ﴿وَأَزَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: شَكَّتْ فِي صِحَّةِ مَا جِئْتُهُمْ بِهِ ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَرْتَدِّدُونَ﴾ أي: يَتَحَيَّرُونَ يَقْدُمُونَ رِجْلًا وَيُؤْخِرُونَ أُخْرَى، وَلَيْسَتْ لَهُمْ قَدَمٌ ثَابِتَةٌ فِي شَيْءٍ، فَهُمْ قَوْمٌ حَيَارَى هَلْكَى، لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ لَوْ خَرَجُوا فَيَكُرُّ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَاَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَعَنُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾

[كُشِفَ أَحْوَالِ الْمُنَافِقِينَ]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُجَ﴾ أي: مَعَكَ إِلَى الْعَزْوِ ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي: لَكَانُوا تَاهِبُوا لَهُ ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ أي: أَنْبَغَضَ أَنْ يَخْرُجُوا مَعَكَ قَدَرًا ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي: أَخْرَهُمْ ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أي: قَدَرًا، ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى وَجْهَ كَرَاهِيَّتِهِ لِيُخْرِجَهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: ﴿لَوْ خَرَجُوا فَيَكُرُّ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: لِأَنَّهُمْ جُبْنَاءُ مَخْذُولُونَ ﴿وَلَاَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ

أَي: هَذَا خَيْرٌ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِأَنَّكُمْ تَعْرِمُونَ فِي التَّقِيَّةِ قَلِيلًا، فَيَغْنَمُكُمْ اللَّهُ أَمْوَالَ عَدُوِّكُمْ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدْخِرُ لَكُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَكْفَلُ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ إِنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يُرُدَّهُ إِلَى مَنْزِلِهِ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»^(٨). وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾... [البقرة: ٢١٦]

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ: «أَسْلِمَ» قَالَ: أَجِدُنِي كَارِهَا قَالَ: «أَسْلِمَ وَإِنْ كُنْتُ كَارِهَا»^(٩).

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [سَبَبُ تَخَلُّفِ الْمُنَافِقِينَ وَبَيَانُ حِيلَتِهِمْ]

يَقُولُ تَعَالَى مُوَبِّحًا لِلَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي عَزْوَةِ تَبَوُّكٍ، وَقَعَدُوا بَعْدَهَا اسْتَأْذَنُوهُ فِي ذَلِكَ مُظْهِرِينَ أَنَّهُمْ ذَوُّ أَعْذَارٍ وَلَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ فَقَالَ: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: غَنِيمَةٌ قَرِيبَةٌ ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: قَرِيبًا أَيْضًا ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾ أي: لَكَانُوا جَاءُوا مَعَكَ لِذَلِكَ ﴿وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أَيِ الْمَسَافَةِ إِلَى الشَّامِ ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: لَكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: لَوْ لَمْ يَكُنْ لَنَا أَعْذَارٌ لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿عَمَّا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَسْتَأْذِنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَرْتَدِّدُونَ ﴿٩﴾ [مُعَاتَبَةُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى إِذْنِهِ لَهُمْ]

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَوْنٍ قَالَ: هَلْ سَمِعْتُمْ بِمُعَاتَبَةٍ أَحْسَنَ مِنْ هَذِهِ؟ إِذْءَا بِالْعَفْوِ قَبْلَ الْمُعَاتَبَةِ فَقَالَ: ﴿عَمَّا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾^(٣). وَكَذَا قَالَ مُورِقُ الْعَجْلِيُّ وَغَيْرُهُ^(٤). وَقَالَ قَتَادَةُ: عَاتَبَهُ كَمَا تَسْمَعُونَ، ثُمَّ أَنْزَلَ النَّبِيَّ فِي سُورَةِ الثَّوْرِ فَرُخِّصَ لَهُ فِي أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ إِنْ شَاءَ فَقَالَ: ﴿لَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذْنِ لِمَنْ شِئْتَ

(١) مسلم: ١٤٩٦/٤ (٢) أحمد: ١٠٩/٣ (٣) ابن أبي حاتم: ١٨٠٥/٦ (٤) الطبري: ٢٧٤/١٤ (٥) الطبري: ١٤/٢٧٣ (٦) الطبري: ٢٧٣/١٤

الْمُنَافِقِينَ

١٩٥

سُورَةُ التَّوْبَةِ

لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنُّ لِي وَلَا تَذُنُّ لِيَ الْفِتْنَةَ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَسْتَوِلُوا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا أَحَدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرْصَدُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّا كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٥٤﴾

سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ يَقُولُ تَعَالَى: وَمِنَ الْمُتَافِقِينَ مَنْ يَقُولُ لَكَ: يَا مُحَمَّدُ! ﴿أَتَذُنُّ لِي﴾ فِي الْفُتُوحِ ﴿وَلَا تَفْتَحْ﴾ بِالْخُرُوجِ مَعَكَ بِسَبَبِ الْجَوَارِي مِنَ نِسَاءِ الرُّومِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أَيُّ: قَدْ سَقَطُوا فِي الْفِتْنَةِ بِقَوْلِهِمْ هَذَا، كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنِ الزُّهْرِيِّ وَبِزَيْدِ بْنِ رُوْمَانَ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، وَعَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ وَغَيْرِهِمْ، قَالُوا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ - وَهُوَ فِي جِهَارِهِ - لِلْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ أَخِي بَنِي سَلَمَةَ: «هَلْ لَكَ يَا جَدُّ الْعَامِ فِي جِلَادِ بَنِي الْأَصْغَرِ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوْ تَأْذُنُ لِي وَلَا تَفْتَحِي، فَوَاللَّهِ! لَقَدْ عَرَفَ قَوْمِي مَا رَجُلٌ أَشَدَّ عَجَبًا بِالنِّسَاءِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَى إِنْ رَأَيْتُ نِسَاءَ بَنِي الْأَصْغَرِ أَنْ لَا أَضِيرَ عَنْهُمْ. فَأَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «قَدْ أَذْنْتُ لَكَ». فَبَيَّ الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ نَزَلَتْ هَذِهِ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ

الْفِتْنَةَ﴾ أَيُّ: وَلَا سَرَعُوا السَّيْرَ وَالْمَسِيَّ بَيْنَكُمْ بِالنَّمِيمَةِ وَالْبَغْضَاءِ وَالْفِتْنَةِ ﴿رَفِيقَكُمْ سَمِعُونَ لَهُمْ﴾ أَيُّ: مُطِيعُونَ لَهُمْ وَسَمْتَحْسِنُونَ لِحَدِيثِهِمْ وَكَلَامِهِمْ، يَسْتَنْصِحُونَهُمْ وَإِنْ كَانُوا لَا يَعْلَمُونَ حَالَهُمْ فَيُؤَدِّي إِلَى وُقُوعِ شَرِّ بَيْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَفَسَادِ كَبِيرٍ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: كَانَ الَّذِينَ اسْتَأْذَنُوا - فِيمَا بَلَغَنِي مِنْ ذَوِي الشَّرَفِ - مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ابْنِ سَلُولَ وَالْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ وَكَانُوا أَشْرَافًا فِي قَوْمِهِمْ، فَجَبَّطَهُمُ اللَّهُ، لِيَعْلَمُوا بِهِمْ أَنْ يَخْرُجُوا مَعَهُ فَيُقْسِدُوا عَلَيْهِ جُنْدَهُ^(١). وَكَانَ فِي جُنْدِهِ قَوْمٌ أَهْلُ مَحَبَّةٍ لَهُمْ وَطَاعَةٍ فِيمَا يَدْعُونَهُمْ إِلَيْهِ، لِشَرَفِهِمْ فِيهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَفِيقَكُمْ سَمِعُونَ لَهُمْ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عِلْمِهِ، فَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾. فَأَخْبَرَ بِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فَأَخْبَرَ عَنْ حَالِهِمْ كَيْفَ يَكُونُ لَوْ خَرَجُوا؟ وَمَعَ هَذَا مَا خَرَجُوا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اقْرَبُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنِييَةً﴾ وَإِذَا لَا يَتَنَبَّهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَهَذَا تَنَبَّهَتْ صِرطًا مُسْتَقِيمًا [النساء: ٦٦-٦٨] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

﴿لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُحَرِّصًا لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْمُتَافِقِينَ: ﴿لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أَيُّ: لَقَدْ أَعْمَلُوا فِكْرَهُمْ وَأَجَالُوا آرَاءَهُمْ فِي كَيْدِكَ وَكَيْدِ أَصْحَابِكَ، وَخَذَلَانِ دِينِكَ وَإِخْمَادِهِ مَدَّةً طَوِيلَةً. وَذَلِكَ أَوَّلُ مَقْدَمِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ رَمَتْهُ الْعَرَبُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَحَارَبَتْهُ يَهُودُ الْمَدِينَةِ وَمُنَافِقُوهَا. فَلَمَّا نَصَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ وَأَعْلَى كَلِمَتَهُ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي وَأَصْحَابُهُ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ. فَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ظَاهِرًا، ثُمَّ كُلَّمَا أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ غَاطَهُمْ ذَلِكَ وَنَسَاءَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنُّ لِي وَلَا تَفْتَحِيَّ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ

بِكُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ^(٤). ﴿وَنَحْنُ نَرَبِّصُ بِكُمْ﴾ أي: نَنْتَظِرُ بِكُمْ ﴿أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ يَأْتِيَكُمُ﴾ أي: نَنْتَظِرُ بِكُمْ هَذَا، أَوْ هَذَا، إِمَّا ﴿أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ يَأْتِيَكُمُ﴾ بِسَبِي أَوْ يَقْتُلَ ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ طَائِعِينَ أَوْ مُكْرَهِينَ ﴿لَن يُقْبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ كُفْرًا قَوْمًا فَاسْقِينَ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ وَهُوَ أَنَّهُمْ لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ لَأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. أي: وَالْأَعْمَالُ إِنَّمَا تَصِحُّ بِالْإِيمَانِ ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ أي: لَيْسَ لَهُمْ قَدَمٌ صَاحِبٌ وَلَا هِمَّةٌ فِي الْعَمَلِ ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ نَفَقَةً ﴿إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ وَقَدْ أَخْبَرَ الصَّادِقُ الْمُسَدِّقُ ﷺ أَنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَأَنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا. فَلِهَذَا لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ هَؤُلَاءِ نَفَقَةً وَلَا عَمَلًا، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَقْبَلُ مِنَ الْمُتَّقِينَ.

﴿فَلَا تُعْجِبَكْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾

كُفْرُونُ ﴿٥٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿فَلَا تُعْجِبَكْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَدَنَّ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقَ رِبِّكَ حَيْرٌ وَابْتَى﴾ [طه: ١٣١] وَقَالَ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥١﴾ شَارِعٌ لَهُمْ فِي الْغَيْرِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٦] وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: بِزَكَاتِهَا وَالتَّفَقُّعِ مِنْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ^(٥). وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: وَيُرِيدُ أَنْ يُمِيتَهُمْ - حِينَ يُمِيتُهُمْ - عَلَى الْكُفْرِ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَنْكَلَى لَهُمْ وَأَشَدَّ لِعَذَابِهِمْ. عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَهَذَا يَكُونُ مِنْ بَابِ الْإِسْتِدْرَاجِ لَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِكُمْ وَلَكِنْهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ لَوْ يَحْدُثُ مَلْحَةً أَوْ مَعْرَبَةً أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَحْمَحُونَ﴾ ﴿٥٣﴾

أَنْذَنَ لِي وَلَا تَفْتِنَنِي... الْآيَةُ. أَي: إِنْ كَانَ إِنَّمَا يَخْشَى مِنْ نِسَاءِ بَنِي الْأَصْفَرِ - وَلَيْسَ ذَلِكَ بِهِ - فَمَا سَقَطَ فِيهِ مِنَ الْفِتْنَةِ بِحَلْفِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالرَّغْبَةِ بِنَفْسِهِ عَنْ نَفْسِهِ، أَعْظَمُ^(١). وَهَكَذَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَغَيْرِ وَاحِدٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ. وَقَدْ كَانَ الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ هَذَا مِنْ أَشْرَافِ بَنِي سُلَيْمَةَ^(٢). وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُمْ: «مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سُلَيْمَةَ؟» قَالُوا: «الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ عَلَى أَنَّا نَحْنُ لَهُ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَيُّ دَاءٍ أَذَوْا مِنَ الْبُخْلِ؟» وَلَكِنْ سَيِّدُكُمْ الْفَتَى الْجَدُّ الْأَبْيَضُ بِشَرِّ بَنِي الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ^(٣). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا وَلَا مَحِصَ وَلَا مَهْرَبَ.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسْوَهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَسْتَوَلُوا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ قُلْ لَن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٥﴾

يُعْلَمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِعَدَاوَةِ هَؤُلَاءِ لَهُ، لِأَنَّهُ مَهْمَا أَصَابَهُ مِنْ حَسَنَةٍ أَوْ فَتَحٍ وَظَفَرٌ عَلَى الْأَعْدَاءِ مِمَّا يَسِرُّهُ وَيَسُرُّ أَصْحَابَهُ سَاءَهُمْ ذَلِكَ ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ﴾ أي: قَدْ اخْتَرْنَا مِنْ مُتَابَعَتِهِ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴿وَيَسْتَوَلُوا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ فَارْتَشَدَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى جَوَابِهِمْ فِي عَدَاوَتِهِمْ هَذِهِ - التَّامَّةَ - فَقَالَ: ﴿قُلْ﴾ أي: لَهُمْ ﴿لَن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي: نَحْنُ تَحْتَ مَشِيئَتِهِ وَقَدَرِهِ ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: سَيِّدُنَا وَمَلِجُونَا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: وَنَحْنُ مُتَوَكِّلُونَ عَلَيْهِ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرَبِّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ يَأْتِيَكُمُ﴾ فَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٦﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَن يُقْبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ كُفْرًا قَوْمًا فَاسْقِينَ ﴿٥٧﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ ﴿٥٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا﴾ أي: نَنْتَظِرُونَ بِنَا ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ شَهَادَةً أَوْ ظَفَرَ

(١) الطبري: ٢٨٧/١٤ (٢) الطبري: ٢٨٧/١٤ (٣) الحاكم:

٢١٩/٣ (٤) الطبري: ٢٩٢/١٤ (٥) الطبري: ٢٩٦/١٤

[بَيَانُ هَلْعِ الْمُتَافِقِينَ]

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ عَنْ جَزَعِهِمْ وَزَعَجِهِمْ وَفَرَقِهِمْ وَهَلْعِهِمْ، أَنَّهُمْ: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ يَمِينًا مُؤَكَّدَةً ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ أَي: فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْكَرُونَ﴾ أَي: فَهُوَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى الْخَلْفِ ﴿لَوْ يَحْدُوثُ مَلَكًا﴾ أَي: حِصْنًا يَتَحَصَّنُونَ بِهِ وَجِزْرًا يَتَحَرَّزُونَ بِهِ ﴿أَوْ مَعْرَبًا﴾ وَهِيَ الَّتِي فِي الْجِبَالِ ﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾ وَهُوَ السَّرْبُ فِي الْأَرْضِ وَالنَّقْطُ. قَالَ ذَلِكَ - فِي الثَّلَاثَةِ - ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ. ﴿لَوْلَوْ إِيَّاهُ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أَي: يُسْرِعُونَ فِي ذَهَابِهِمْ عَنْكُمْ، لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يُخَالِطُونَكُمْ كَرَاهًا لَا مَحَبَّةً، وَوَدُّوا أَنَّهُمْ لَا يُخَالِطُونَكُمْ وَلَكِنْ لِلضَّرُورَةِ أَحْكَامًا، وَلِهَذَا لَا يَزَالُونَ فِي هَمٍّ وَحَزَنٍ وَعَمٍّ، لِأَنَّ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ لَا يَزَالُ فِي عِزٍّ وَنَصْرِ وَرَفْعَةٍ، فَلِهَذَا كُلَّمَا سَرَّ الْمُسْلِمُونَ سَاءَ هُمْ ذَلِكَ، فَهُمْ يُوَدُّونَ أَنْ لَا يُخَالِطُوا الْمُؤْمِنِينَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَوْ يَحْدُوثُ مَلَكًا أَوْ مَعْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوْلَوْ إِيَّاهُ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ ٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

[لَمَزُ الْمُتَافِقِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَطَمَعُهُمْ فِيهَا]

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أَي: وَمِنَ الْمُتَافِقِينَ ﴿مَنْ يَلْمِزُكَ﴾ أَي: يَجِبُّ عَلَيْكَ ﴿فِي﴾ قَسَمِ ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ إِذَا فَرَّقْتَهَا وَيَتَّهَمُكَ فِي ذَلِكَ، وَهُمْ الْمُتَهَمُونَ الْمَأْبُوتُونَ، وَهُمْ مَعَ هَذَا لَا يَنْكِرُونَ لِلدِّينِ، وَإِنَّمَا يَنْكِرُونَ لِحِطِّ أَنْفُسِهِمْ وَلِهَذَا إِنْ ﴿أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ أَي: يَغْضَبُونَ لِأَنْفُسِهِمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ يَقُولُ: وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْعُنُ عَلَيْكَ فِي الصَّدَقَاتِ. وَذَكَرَ لَنَا: أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ حَدِيثَ عَهْدٍ بِأَعْرَابِيٍّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ ذَهَبًا وَفِضَّةً، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، وَاللَّهِ! لَيْتَ كَانَ اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَعْدِلَ، مَا عَدَلْتُ، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «وَيْلَكَ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يَعْدِلُ عَلَيْكَ بَعْدِي؟» ثُمَّ قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ: «احْذَرُوا هَذَا وَأَشْبَاهَهُ، فَإِنَّ فِي أُمَّتِي أَشْبَاهَ هَذَا، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، فَإِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ». وَذَكَرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٩٦

سُورَةُ التَّوْبَةِ

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْكَرُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَحْدُوثُ مَلَكًا أَوْ مَعْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوْلَوْ إِيَّاهُ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا أُعْطِيَكُمْ شَيْئًا وَلَا أَمْنَعُكُمْوهُ، إِنَّمَا أَنَا خَازِنٌ»^(١).

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ قَتَادَةُ يُشَبِّهُ مَا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ فِي قِصَّةِ ذِي الْخُوَيْصِرَةِ - وَاسْمُهُ خُرْفُوصٌ - لَمَّا اعْتَرَضَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ جَيْنَ قَسَمَ غَنَائِمَ حُثَيْنَ فَقَالَ لَهُ: اعْدِلْ فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ. فَقَالَ: «لَقَدْ خَبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَقَدْ رَأَى مُقَفِّيًّا: «إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضَيْضِيءٍ هَذَا قَوْمٌ يَحْقِرُ أَحَدَكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِيهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَةِ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّهُمْ شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَيْدِي السَّمَاءِ»^(٢). وَذَكَرَ بَقِيَّةَ الْحَدِيثِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنَبِّهًا لَهُمْ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ

(١) الطبري: ٣٠٢/١٤ (٢) فتح الباري: ٣٠٢/١٢ ومسلم:

قِسْطًا عَلَى ذَلِكَ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَقْرَبَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِينَ تَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ، لِمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ [بْنِ] رِبْعَةَ بْنِ الْحَارِثِ، أَنَّهُ انْطَلَقَ هُوَ وَالْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ يَسْأَلَانِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِيَسْتَعْمِلَهُمَا عَلَى الصَّدَقَةِ فَقَالَ: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ وَلَا لِأَلِ مُحَمَّدٍ، إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاحُ النَّاسِ»^(٥).

[الْمَوْلَةُ قُلُوبُهُمْ]

وَأَمَّا الْمَوْلَةُ قُلُوبُهُمْ فَأَقْسَامٌ: مِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى لِلْيُسْلَمِ، كَمَا أَعْطَى النَّبِيُّ ﷺ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ مِنْ غَنَائِمِ حُنَيْنٍ، وَقَدْ كَانَ شَهِدَهَا مُشْرِكًا، قَالَ: فَلَمْ يَزَلْ يُعْطِينِي حَتَّى صَارَ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَ أَنْ كَانَ أَبْغَضَ النَّاسِ إِلَيَّ^(٦). كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ: أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا زَالَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ^(٧). وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ^(٨). وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى لِيَحْسُنَ إِسْلَامُهُ وَيَثْبُتَ قَلْبُهُ، كَمَا أَعْطَى يَوْمَ حُنَيْنٍ أَيْضًا جَمَاعَةً مِنْ صَنَادِيدِ الطُّلُقَاءِ وَأَشْرَافِهِمْ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ، وَقَالَ: «إِنِّي لَأَعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهُ، خَشْيَةً أَنْ يَكْبَهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»^(٩). وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ: أَنَّ عَلِيًّا بَعَثَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِذَهَبِيَّةٍ فِي ثُرْبَتِهَا مِنَ الْبَيْسِ، فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: الْأَقْرَعِ بْنِ حَاسِبٍ، وَعُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرِ، وَعَلْقَمَةَ بْنَ عَلَاتَةَ، وَزَيْدَ الْخَيْزِرِ، وَقَالَ: «أَتَأَلَّفُهُمْ»^(١٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى لِمَا يُرْجَى مِنْ إِسْلَامِ نَظَرَانِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى لِيَجْبِيَ الصَّدَقَاتِ وَمَنْ يَلِيهِ، أَوْ لِيُدْفَعَ عَنْ حَوَازَةِ الْمُسْلِمِينَ الضَّرَرَ مِنْ أَطْرَافِ الْبِلَادِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[الرَّقَابُ]

وَأَمَّا الرَّقَابُ فَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالتَّحَوِيِّ وَالزُّهْرِيِّ وَابْنِ زَيْدٍ: أَنَّهُمْ الْمَكَاتِبُونَ^(١١). وَرَوَى عَنْ أَبِي

سَيُوبَةَ أَنَّ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿ فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَدَبًا عَظِيمًا وَسِرًّا شَرِيفًا، حَيْثُ جَعَلَ الرِّضَا: بِمَا آتَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. وَالتَّوَكَّلُ: عَلَى اللَّهِ وَخَدَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾. وَكَذَلِكَ الرَّغْبَةُ: إِلَى اللَّهِ وَخَدَهُ، فِي التَّوْفِيقِ لِبَطَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَامْتِثَالِ أَوْامِرِهِ وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ، وَتَصَدِيقِ أَخْبَارِهِ وَالْإِقْبَاءِ بِآثَارِهِ.

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهِا وَالْمَوْلَةَ قُلُوبُهُمْ فِي الرَّقَابِ وَالْعَرَمِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِمَّا مَلَكَ اللَّهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴾

[بَيَانُ مَصَارِفِ الرِّكَازِ]

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى اغْتِرَاضَ الْمُتَنَافِقِينَ الْجَهْلَةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَلَمَزَهُمْ إِيَّاهُ فِي قِسْمِ الصَّدَقَاتِ، بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي قَسَمَهَا وَبَيَّنَّ حُكْمَهَا وَتَوَلَّى أَمْرَهَا بِنَفْسِهِ. وَلَمْ يَكِلْ قَسَمَهَا إِلَى أَحَدٍ غَيْرِهِ. فَجَزَّأَهَا لَهُؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ الْفُقَرَاءَ هَهُنَا عَلَى الْبَقِيَّةِ لِأَنَّهُمْ أَحْوَجُ مِنْ غَيْرِهِمْ عَلَى الْمَشْهُورِ، وَلِشِدَّةِ فَاقَتِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ. وَرَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَابْنِ زَيْدٍ. وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: أَنَّ الْفَقِيرَ هُوَ الْمُتَعَفِّفُ الَّذِي لَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا. وَالْمُسْكِينُ هُوَ الَّذِي يَسْأَلُ وَيَطْوُفُ وَيَتَّبِعُ النَّاسَ^(١). وَقَالَ قَتَادَةُ: الْفَقِيرُ مَنْ يَهْزَمُ زِمَانُهُ، وَالْمُسْكِينُ: الصَّحِيحُ الْجِسْمُ^(٢). وَلَنَذْكُرُ أَحَادِيثَ تَتَعَلَّقُ بِكُلِّ مِنَ الْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ.

[الْفُقَرَاءُ]

فَأَمَّا الْفُقَرَاءُ فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِعَنِيٍّ، وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ^(٣).

[الْمَسَاكِينُ]

وَأَمَّا الْمَسَاكِينُ فَعَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْمُسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَافِ الَّذِي يَطْوُفُ عَلَى النَّاسِ، فَتَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ» قَالُوا: فَمَنِ الْمُسْكِينُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لَا يَجِدُ غَنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُمْطِنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ^(٤).

[الْعَامِلُونَ عَلَيْهَا]

وَأَمَّا الْعَامِلُونَ عَلَيْهَا فَهُمْ الْجُبَاةُ وَالسَّعَاةُ يَسْتَحِقُّونَ مِنْهُ

(١) الطبري: ٣٠٦، ٣٠٥/١٤ (٢) الطبري: ٣٠٦/١٤ (٣)

أحمد: ١٦٤/٤ وأبو داود: ٢٨٥/٢ وتحفة الأحوذى: ٣١٧/٣

(٤) فتح الباري: ٣٩٩/٣ ومسلم: ٧١٩/٢ (٥) مسلم: ٢/٧٥٢

(٦) مسلم: ١٨٠٦/٤ (٧) أحمد: ٤٦٥/٦ (٨) مسلم: ١٨٠٦/٤ وتحفة الأحوذى: ٣٣٤/٣ (٩) فتح الباري: ٣/٣٩٩

(١٠) فتح الباري: ٤٣٣/٦ ومسلم: ٧٤١/٢ (١١)

الطبري: ٣١٧/١٤

مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ نَحْوُهُ^(١).

[فِي سَبِيلِ اللَّهِ]

وَأَمَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْهُمْ الْغَزَاءُ الَّذِينَ لَا حَقَّ لَهُمْ فِي الدِّيَّانِ.

[إِنَّ السَّبِيلَ]

وَابْنُ السَّبِيلِ هُوَ الْمُسَافِرُ الْمُجْتَازُ فِي بَلَدٍ لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى سَفَرِهِ، فَيُعْطَى مِنَ الصَّدَقَاتِ مَا يَكْفِيهِ إِلَى بَلَدِهِ وَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ، وَهَكَذَا الْحُكْمُ فِيمَنْ أَرَادَ إِنْشَاءَ سَفَرٍ مِنْ بَلَدِهِ وَلَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ، فَيُعْطَى مِنْ مَالِ الرِّكَاعَةِ كِفَايَتَهُ فِي ذَهَابِهِ وَإِيَابِهِ. وَالذَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ الْآيَةِ، وَمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ مِنْ حَدِيثِ مَعْمَرٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِعَيْنٍ إِلَّا لِخَمْسَةٍ: لِعَامِلٍ عَلَيْهَا، أَوْ رَجُلٍ اشْتَرَاهَا بِمَالِهِ، أَوْ غَارِمٍ، أَوْ غَارٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ مُسْكِينٍ تُصَدَّقُ عَلَيْهِ مِنْهَا فَأَهْدَى لِعَيْنٍ»^(٢). وَقَوْلُهُ: «فَرِيضَةٌ مِنْكَ اللَّهُ» أَيُّ: حُكْمًا مُقَدَّرًا بِتَقْدِيرِ اللَّهِ وَفَرَضِهِ وَقَسَمِهِ «وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ» أَيُّ: عَلِيمٌ بِظَوَاهِرِ الْأُمُورِ وَبَوَاطِينِهَا وَبِمَصَالِحِ عِبَادِهِ. حَكِيمٌ فِيمَا يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ وَيَسْرَعُهُ وَيَحْكُمُ بِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

«وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»^(٣)

[مِنْ سِمَاتِ الْمُتَافِقِينَ إِذَا نَبِيٌّ ﷺ]

يَقُولُ تَعَالَى: وَمِنَ الْمُتَافِقِينَ قَوْمٌ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْكَلَامِ فِيهِ، وَيَقُولُونَ: «هُوَ أُذُنٌ» أَيُّ: مَنْ قَالَ لَهُ شَيْئًا صَدَقَهُ فِينَا، وَمَنْ حَدَّثَهُ صَدَقَهُ، فَإِذَا جِئْنَا وَحَلَفْنَا لَهُ صَدَقْنَا. رُوِيَ مَعْنَاهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ^(٤). قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ» أَيُّ: هُوَ أُذُنٌ خَيْرٌ، يَعْرِفُ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» أَيُّ وَيُصَدِّقُ الْمُؤْمِنِينَ «وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» أَيُّ وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ. وَلِهَذَا قَالَ: «وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ: لَا بَأْسَ أَنْ تُتَقَى الرَّقَبَةُ مِنَ الزَّكَاةِ، أَيُّ: إِنَّ الرِّقَابَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يُعْطَى الْمُكَاتَبُ أَوْ يَشْتَرَى رَقَبَةٌ فَيُعْتَقَهَا اسْتِقْلَالًا. وَقَدْ وَرَدَ فِي ثَوَابِ الْإِعْتَاقِ وَفِكَ الرَقَبَةِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ: أَنَّ اللَّهَ يُعْتِقُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوًا مِنْ مُعْتِقِهَا حَتَّى الْفَرْجَ بِالْفَرْجِ. وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جَنْسِ الْعَمَلِ «وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» [الصفحات: ٣٩].

[مَا وَرَدَ فِي الْعِتَاقِ]

وَفِي الْمُسْنَدِ عَنِ النَّبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ذُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ؟ فَقَالَ: «أَعْنِي السَّيِّئَةُ وَفَكَ الرَّقَبَةُ» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ لَيْسَ وَاحِدًا؟ قَالَ: «لَا، عِنْتُ السَّيِّئَةِ: أَنْ تُفَرِّدَ بِعِتْقِهَا، وَفَكَ الرَّقَبَةُ: أَنْ تُعِينَ فِي تَمْنِيهَا»^(٥).

[الْغَارِمُونَ]

وَأَمَّا الْغَارِمُونَ فَهُمْ أَقْسَامٌ: فَمِنْهُمْ مَنْ تَحَمَّلَ حِمَالَةً أَوْ ضَمَنَ دَيْنًا فَلَزِمَهُ فَأَجْحَفَ بِمَالِهِ، أَوْ غَرِمَ فِي آدَاءِ دَيْنِهِ، أَوْ فِي مَعْصِيَةٍ ثُمَّ تَابَ، فَهَذَا يُدْفَعُ إِلَيْهِمْ، وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ حَدِيثُ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهَلَالِيِّ قَالَ: تَحَمَّلْتُ حِمَالَةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: «أَقِمَّ حَتَّى تَأْتِيَا الصَّدَقَةَ فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا». قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «يَا قَبِيصَةُ! إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدٍ ثَلَاثَةً: رَجُلٍ تَحَمَّلَ حِمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكَ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاَحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ، حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةً مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَرَابَةِ قَوْمِهِ فَيَقُولُوا: لَقَدْ أَصَابَتْ فَلَانًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ، حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - فَمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَسْأَلَةِ سَخَتْ يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سَخْتًا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٦).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: أُصِيبَ رَجُلٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ثِمَارٍ ابْتَاعَهَا فَكَثُرَ دَيْنُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ» فَصَدَّقَ النَّاسُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَبْلُغْ ذَلِكَ وَفَاءَ دَيْنِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعُرَمَائِهِ: «خُذُوا مَا وَجَدْتُمْ، وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٧).

(١) الطبري: ١٤/٣١٦ (٢) أحمد: ٤/٢٩٩ (٣) مسلم: ٢/٧٢٢ (٤) مسلم: ٣/١١٦١ (٥) أبو داود: ٢/٢٨٨ وابن ماجه: ١/٥٩٠ (٦) الطبري: ١٤/٢٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٩٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَبْدَلَهُمْ خَلِيدًا فِيهَا الْخَزْيَ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

[وَمِنْهَا مُحَاوَلَةٌ إِرْضَاءِ النَّاسِ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ]

قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ﴾ الآية. قَالَ ذَكَرَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ قَالَ: وَاللَّهِ! إِنْ هُوَ لَا لِيُخَيَّرَنَا وَأَشْرَافَنَا، وَإِنْ كَانَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ حَقًّا، لَهُمْ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ. قَالَ: فَسَمِعَهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: وَاللَّهِ! مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ لِحَقِّ، وَلَأَنْتَ أَشَرُّ مِنَ الْحَمَارِ، قَالَ: فَسَعَى بِهَا الرَّجُلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَى الرَّجُلِ فَدَعَاهُ فَقَالَ «مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي قُلْتَ؟» فَجَعَلَ يُلْتَعَنُ وَيَحْلِفُ بِاللَّهِ مَا قَالَ ذَلِكَ، وَجَعَلَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ! صَدِّقِ الصَّادِقَ وَكَذِّبِ الْكَاذِبَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ ^(١).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية، أَيُّ أَلَمْ يَتَحَقَّقُوا وَيَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ حَادِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَيُّ: شَاقَّةٌ وَحَارِبَةٌ وَخَالِفَةٌ، وَكَانَ فِي حَدِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِي حَدِّ ﴿فَأَبْدَلَهُمْ خَلِيدًا فِيهَا﴾ أَيُّ: مُهَانًا مُعَذَّبًا، وَذَلِكَ الْخَزْيُ الْعَظِيمُ أَيُّ: وَهَذَا هُوَ الذِّلُّ الْعَظِيمُ وَالشَّقَاءُ الْكَبِيرُ.

﴿يَحْدَرُ الْمُتَنَفِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ ﴿٦٤﴾

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَبْدَلَهُمْ خَلِيدًا فِيهَا الْخَزْيَ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

[وَمِنْهَا مُحَاوَلَةٌ إِرْضَاءِ النَّاسِ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ]

قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ﴾ الآية. قَالَ ذَكَرَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ قَالَ: وَاللَّهِ! إِنْ هُوَ لَا لِيُخَيَّرَنَا وَأَشْرَافَنَا، وَإِنْ كَانَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ حَقًّا، لَهُمْ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ. قَالَ: فَسَمِعَهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: وَاللَّهِ! مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ لِحَقِّ، وَلَأَنْتَ أَشَرُّ مِنَ الْحَمَارِ، قَالَ: فَسَعَى بِهَا الرَّجُلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَى الرَّجُلِ فَدَعَاهُ فَقَالَ «مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي قُلْتَ؟» فَجَعَلَ يُلْتَعَنُ وَيَحْلِفُ بِاللَّهِ مَا قَالَ ذَلِكَ، وَجَعَلَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ! صَدِّقِ الصَّادِقَ وَكَذِّبِ الْكَاذِبَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ ^(١).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية، أَيُّ أَلَمْ يَتَحَقَّقُوا وَيَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ حَادِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَيُّ: شَاقَّةٌ وَحَارِبَةٌ وَخَالِفَةٌ، وَكَانَ فِي حَدِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِي حَدِّ ﴿فَأَبْدَلَهُمْ خَلِيدًا فِيهَا﴾ أَيُّ: مُهَانًا مُعَذَّبًا، وَذَلِكَ الْخَزْيُ الْعَظِيمُ أَيُّ: وَهَذَا هُوَ الذِّلُّ الْعَظِيمُ وَالشَّقَاءُ الْكَبِيرُ.

﴿يَحْدَرُ الْمُتَنَفِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ ﴿٦٤﴾

[وَمِنْهَا خَوْفُهُمْ مِنْ إِفْشَاءِ السِّرِّ]

قَالَ مُجَاهِدٌ: يَقُولُونَ الْقَوْلَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَقُولُونَ: عَسَى اللَّهُ أَنْ لَا يُفْشِيَ عَلَيْنَا سِرًّا هَذَا ^(٢). وَهَذِهِ الْآيَةُ شَبِيهَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ حَدِيثٌ بِمَا لَمْ يَحْكُ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُهُ اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُسَرِّ الْأَمْسِرُ﴾ [المجادلة: ٨]، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿قُلِ اسْتَزِرُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ أَيُّ: إِنَّ اللَّهَ سَيَنْزِلُ عَلَى رَسُولِهِ مَا يَفْضَحُكُمْ بِهِ وَيَبَيِّنُ لَهُ أَمْرَكُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ الآية، [محمد: ٢٩، ٣٠] وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَةُ: كَانَتْ تُسَمَّى هَذِهِ السُّورَةُ الْقَاضِحَةَ: فَاضِحَةُ الْمُنَافِقِينَ ^(٣).

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ

إِيْمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعَذِّبْ طَائِفَةً يَأْتِيهِمْ كَانُوا يُجْرِمُونَ ﴿٦٦﴾

[وَمِنْهَا تَحَايِلُهُمْ وَاعْتِدَارُهُمْ بِالْبَاطِلِ]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي مَجْلِسٍ: مَا رَأَيْتُ مِثْلَ قُرَائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بَطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنًا، وَلَا أَجَبْنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ. فَقَالَ رَجُلٌ فِي الْمَسْجِدِ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ مُتَافِقٌ لِأَخْبَرَنَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَنَزَلَ الْقُرْآنُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ [عُمَرَ]: أَنَا رَأَيْتُهُ مُتَعَلِّقًا بِحَقِّبِ نَافَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَنْكِبُهُ الْحِجَابَةُ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿أَبِإِلَهِهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾... الآية ^(٤).

(١) الطبري: ٣٢٩/١٤ (٢) الطبري: ٣٣١/١٤ (٣) الطبري: ٣٣٢/١٤ (٤) الطبري: ٣٣٣/١٤